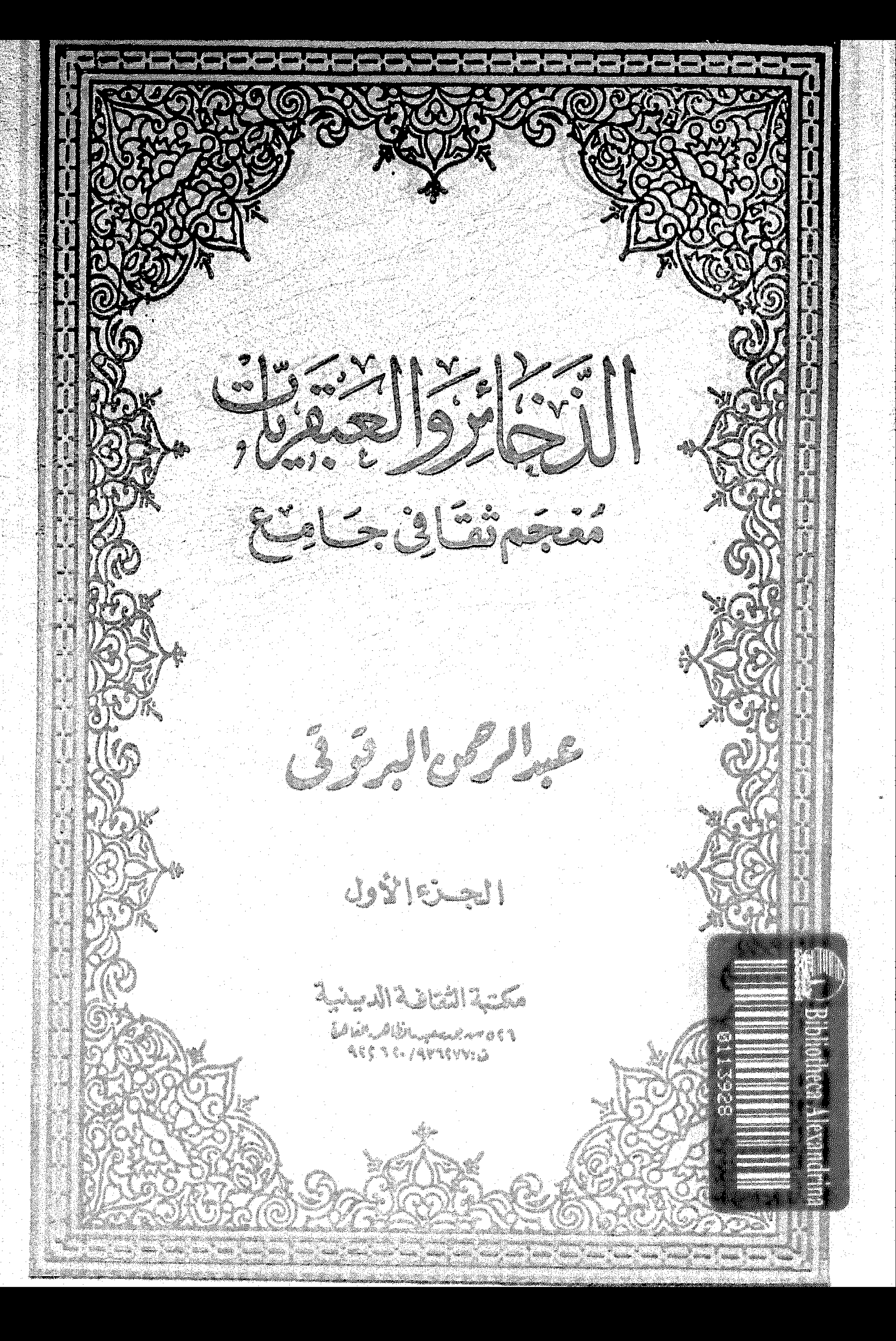

الذخائر والعبقريات
معجم ثقافي جامع
عبد الرحمن البرقوقي
الجزء الأول
مكتبة الثقافة الدينية
Bibliotheca Alexandrina
0113928

الذخائر والعبقريات

معجم ثقافي جامع

الذخائر والعبقريات

مُعجم ثقافي جامع

ضمّ بين دفّتيه أحسنَ ما قيل وأُثِر في شتّى ألوان المعاني
مع الضبط والشرح والتقريب وتحرير ألفاظهم ومعانيهم وبديع التبويب

لخادم اللغة والأدب
عبد الرحمن البرقوقي

١

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بور سعيد - الظاهر
القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

بســـم الله الرحمن الرحيم

وسلام على عباده الذين اصطفى

«أما بعد» فهذا مُعْجَمٌ ثقافىٌّ جامعٌ لِشَتَّى ألوانِ المعانى التى يَتداوَلُها الناسُ ويتعاوَرُونها بينهم، فى شتى أغراضِهم وَمَناحيهِمْ، ومُثاقفاتِهم ومحاوراتهم، وسائر أسبابهم؛

ولقد أُلقِيَ فى رُوعى (١) أن أقومَ بوضعِ هذا المُعْجم وتحقيقِه، فكانَ بعدَعونِ الله وتمام توفيقِه؛

ولقدْ أسميتُهُ «الذخائر والعبقريات»

ولهذا المُعْجم وتأليفِه قصةٌ: ذلك أنَّ وِزَارةَ المعارف المصريةَ كانت قد أعلنت رغبتَها مُذ سُنيَّاتٍ، فى أن يختارَ مَن يرْتغبُ (٢) مِن الأدباء، أيُّما أحَبَّ إليه من تلك الطائفة من مُؤلفاتِ القُدَامَى التى وقع عليها اختيار القائمين بالأمر فى الوزارة، كى يهذِّبوها ويَجلُوها على التّلاميذ وأشباهِ التلاميذ من النّشْإ

(١) ألهمت، والروع: القلب والعقل، ووقع ذلك فى روعي: أى فى نفسى وخلدى وبالى، والمروع: الملهم كأن الأمر يلقى فى روعه

(٢) يرتغب: يرغب

الشادين (١) جِلوةً حسنةً تحلَوْلِي بها فى أعْيُنِهم ، وتُطْبِي (٢) أهواءهم ، ويلتَبِى بها عنهم ماعَسَى أن تنْبُوَ به طِباعُهُم ، وتتجافى أذواقُهم ؛ وكان مِنْ بينِ هذه التَّواليف التى اختارَتْها الوزارة كتابُ « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء » لأبى القاسم حُسَينِ بن محمَّد المشهور بالراغب الأصبهانى (٣) ، ولمَّا كان هذا الكتاب من الكتُبِ القيمةِ بحقٍ فى بابه حُبِّب إلىَّ باديَ الرأى (٤) أن أضْرِب بِسهم ، فى هذا العمل

---

(١) النشأ : تقرأ بفتح الشين جمع ناشىء كخادم وخدم وتقرأ بسكون الشين مثل صحب وصاحب ، والشادى : الذى تعلم شيئاً من العلم والأدب ونحوهما ، أى أخذ طرفا منه

(٢) طباه واطباه : استماله ودعاه إليه .

(٣) قال الإمام جلال الدين السيوطى فى بغية الدعاة ـ وقد سماه المفضل بن محمد ـ قال : المفضل بن محمد الأصبهانى الراغب صاحب المصنفات ، كان فى أوائل المائة الخامسة ، له مفردات القرآن وأفانين البلاغة والمحاضرات ـ أقول : ومن مؤلفاته : الذريعة إلى مكارم الشريعة ـ قال السيوطى : وقفت على الثلاثة ، وكان فى ظنى أن الراغب معتزلى حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشى على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبد السلام مانصه : ذكر الإمام فخر الدين الرازى فى تأسيس التقديس فى الأصول أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالى قال : وهى فائدة حسنة فان كثيراً من الناس يظنون أنه معتزلى ، أقول : وفى كشف الظنون لكاتب جلبى : إن الإمام الغزالى كان يستصحب كتاب الذريعة دائما ويستحسنه لنفاسته . أقول : وفى الحق أن كتاب الذريعة من الكتب القيمة فى معناه ، وكثيرا ما اعتمدت عليه فى هذا المعجم ، ولعل منشأ اتهامه بالاعتزال هو هذا الكتاب ـ الذريعة ـ لان طريقته فيه موفية على الغاية فى السداد ؛ وأزيد على ذلك : أن الراغب يبدو لى أنه شيعى يشبه ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة وذلك أنه يقرن اسم سيدنا على بن أبى طالب دائماً بقوله : عليه السلام : وهذا وإن لم يك منكرا إلا أنا لم نألفه من غير رجال الشيعة

(٤) فعلت كذا بادى الرأى : فيما بدا من الرأى وظهر

الضَّخْم ، فأَعْمِدَ عَمْدَ عيْنٍ إليه [١] ، وأُحقِّقَ بذلك ماتزامت وزارة المعارف إليه ، بَيْدَ أنى لَّما أنعَمْتُ النَّظر فى ذلك الكتاب واسْتَقْريتُه رأيتُ من الخير أنْ يبقَى على ماهُو عليه ، اللّهُمَّ إلّا أنْ يتداركَهُ أديب ضليع دَرَّاك ، بالضَّبط والشَّرْح والتَّحرير . ممَّا استبدَّ بهِ وطغى عليه وتَخَوَّنه [٢] ، من التحريف والتصحيف والأخطاء التى أَلْوَت بمحاسنه .

ولقـد تلاح لِي، بلْ بدَا لَحْاً باصراً [٣] : أن الراغب إنما وَضَع هـذه المحاضراتِ للمنتهين ، لا للشادين ، لأن مختاراتِه تكاد تكون خِدَاجا [٤] مُقْتَضَبَةً مبتورَةً كأنَّها مُذكرات ، أو رءوس مسائل «أملاها الراغبُ لتكون منبهَةً للأديب [٥] إذا هو استذْكر بها ماقد اقترأ [٦] ، فتداعت [٧] الأشباه وتجاوبَتِ النظائر ، فطاع له المراد [٨] فحاور وحاضَرَ وناقلَ وثاقف ، فبذ الأقران ، فاشرأبت إليه الأعناق، وثُنيت به ــ كما يقال ــ الخناصِر [٩] ؛ ومن هُنا لا يكادُ ينتفعُ بمحاضَرات الراغب غـيرُ أولئك الذين اضطلعوا قبـلا بما فيها كاملا غيرَ منقوصٍ فى مظانها

(١) إليه : متعلق بأعمد ، أى أقصد اليه متعمداً ، وعمد عين ، قال الزمخشرى فى الأساس : فعلت ذلك عمد عين : إذا فعلته بجد ويقين قال عمر بن أبي ربيعة .

ثم صَدَّتْ بوجْهِها عَمْدَ عَيْنٍ زَيْنَبٌ للقضاء أُمُّ الحباب

(٢) تخونه وخون منه : تنقصه (٣) لحا باصراً : أمراً واضحاً

(٤) ناقصاً وهذا من الوصف بالمصدر (٥) منبهة للأديب . تعلي قدره

(٦) اقترأ : قرأ (٧) تداعت وتجاوبت : دعا بعضها بعضا فاجتمعت: وتجاوبت كما تتجاوبت القماري . (٨) طاع له المراد : أتاه طائعاً سهلا

(٩) يقال : فلان تثنى به الخناصر : يبتدأ به إذا ذكر أشكاله

من القرآن الكريم والحديث الشريف، وسائر كتب الأدب واللغة والتاريخ وموسوعات الثقافة العربية فى شتى ألوانها.

هذا شيء، وشيء آخر، هو أن أبواب المحاضرات، أو حُدُودَهُ، لم تَرُقْنى، أما تلك العناوينُ الصغيرةُ التى طواها الراغب تحت كل باب أو كل حد فقد راقتْنى كُلَّ الرَّوق، وإنْ لمْ تَرُقْ جلالَ الدين السيوطى [1]...

لهذا كُلِّه رَغِبْتُ عن مُعالجة المحاضرات على النحو الذى اقترحته وزارة المعارف، وانصَرَفتْ نفْسِى عن ذلك إلى وضْع مُعجَم حاشِدٍ حافلٍ مستقل، يهجم فيه الطالب على طَلِبَتِهِ، فى أى معنى من المعانى «موضُوعَةً على طَرَف الثُّمَام [2] وحَبل الذراع، من غير أنْ يحتاج فى التنقير عنها إلى الإيجاف والإيضاع. [3]

على أنى جَعَلتُ محاضراتِ الراغب مُعَوَّلى الأوَّلَ فى هذا المِشْوار، [4]

---

(١) اختصر السيوطى محاضرات الراغب وسمى كتابه «مختصر محاضرات الأدباء» واقتصر فيه على ذكر الحدود، ويوجد من هذا المختصر نسخة خطية فى دار الكتب المصرية، وقد توفى السيوطى سنة ٩١١ ولعل عذر السيوطى عن عدوله عن العناوين الصغيرة هو أن كتابه مختصر.

(٢) الثمام: نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص وربما حشى به وسد به خصائص البيوت، الواحدة ثمامة ويقال: هو لك على طرف الثمام وحبل الذراع إذا كان هين المتناول.

(٣) الإيجاف: ضرب من سير الإبل والخيل قال تعالى: فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب، أى ما أعملتم، والإيضاع، الإسراع فى السير قال تعالى: ولأوضعوا خلالكم والمراد: أن الطالب يعثر على طلبته بدون مشقة

(٤) المشوار: المكان تشار فيه الدابة أى يجريها رائضها لتعرف قوتها، وعثر يعثر عثاراً: كبا

الكثيرِ العِثارِ، ومنهلى العذبَ الذى اليه الايراد ومنه الإصدار، وعُمدَتى فى لَمّ شمل الأشباه والنظائر، وكلّ ما كان من المعانى قد وَشّجته القَراباتُ والأواصر ولقد تخيرت من المحاضرات سُويداواتِ القلوب وأناسِيّ العيون [1]، وضممتُ إليها أُولاتِ الأرحام [2] بما أغفله الراغب وأثبتَهُ الآخَرون، مثلُ ابنِ قتيبة فى عُيون الأخبار، وابنِ عبدِ رَبّه فى العقــد الفريد، وأبى هلال العسكرى فى ديوان المعانى، والنويرى فى نهاية الأرب، وفُلان، وفلان، ولم أجتزئْ بذلك، بلْ زدت خَيرَ ما أترسّمُهُ [3] مما قرأت وادّارست طوّال هذا الدّهر، فترى خير مافى الكامل للمبَرّد، والأمالى لأبى علىّ القالى، وَمَا لا يكاد يُحْصَى من الدّواوين والأسفار، وماخَلّفَهُ لنا الأوائل والأواخر من عَبقرىّ الآثار.

«وبعد» فَليَسْمح لى القارئ فى أن أزيدَه عِلماً بكُنْه هذا المُعْجَم وحقيقةِ الطريقة التى اتبعتُها، والجُهُودِ الجاهدة التى بذلتُها، والملاحظات التى يصح أن تلاحظ عليه، والنّقدِ الذى رُبما يُوجّهُ إليه؛ فإنى بما أعتَمِل [4] جِد بصير ...

وأوّل ذلك وأَوْلاهُ بالإشادَة والتنويه: أنى أَوْدَعتُ هــذا المعجم، كما أسلفت؛ خيرَ مافى محاضرات الأدباء للراغب، حتى لَيصِحّ أنْ يُطلَق عليه

(١) أحسن مافيه، وسويدوات القلوب: حباتها وفيه النور وإنسان العين: سوادها

(٢) المعانى التى تمت إليها بسبب وأصل، فهى من ذوات قرباها

(٣) قال الزمخشرى فى أساس البلاغة: وأنا أترسم من ذلك الأمر شيئاً: أى أتذكره ولا أحققه

(٤) أعتمل: أعمل

«مختارات المحاضرات» وإن كان فى هذا الإطلاق بعضُ الظُّلم «للذخائر والعبقريات» لأنها فى الواقع مختار المحاضرات وغير المحاضرات ، وإياك والظنَّ أنّ هذا العملَ وحْدَه هَيْنٌ لينٌ ، فقد علمت أن المحاضراتِ لقد طغَى عليها التحريف والتصحيف إلى حد أنَّ كُلَّ حَرْف ، فضلا عن كل كلمة ، من آيةٍ كريمة ، أو حديثٍ شريف ، أو بيت من الشعر ، أو كلمة مأثورة ، لابُدّ أن أحقِّقه بالرجوع إلى مصادره المختلفة حتى يَسْتقيم ويَقِرَّ به القرار ، وإذ ذاك أُلقِى عَصَا التسيار ، إذ تقَرُّ عينى كما قَرَّ عينا بالإياب المسافر ...

يجىءُ بعد ذلك أنى كلما رأيتُ الراغبَ يورد فى أىّ باب من الأبواب أثراً من آثارهم ، أكان من المنظوم أمْ من المنثور ، نَزِعتُ إلى مَظانِّه ، فأكملت مالا بدّ من إكماله ، وزدت ما أستحسن زيادته ، من كل ما قد يعلق بالذاكرة ، أو أتعثَّر عليه فى أثناء مطالعاتى ومُراجعاتى .

أمّا أبوابُ هذا المعجم فقد عَدَلْتُ بها وانحَرَفت لا عن أبواب المحاضرات فحسب ، بل عنها وعن سائر ما كان على غِرار المحاضرات من سائر الموسوعات ، وأنت إذا تصَفّحت الذخائر والعبقريات بدا لك أنى ابتكرتُ طريقة مُثْلَى فى تبويبها ، فقد جَهَدْتُ جَهْدى أن تكون الأبوابُ متجانسةً متجاوبةً ، ومِنْ ثَمّ كَسَرْتُ هذا المعجمَ على كُتُب وطوَيتُ الكتُبَ على أبواب وأدرجت فى كل باب سائر المعانى المتشابكةِ الأرحام ...

أمّا عناوين المعانى فقد انتفعت بعناوين الراغب كلَّ الانتفاع ، فحذوت على حذوها بعد شىء من التصرف والتحوير والزيادة فى أكثر العناوين [1]

---

(١) يلاحظ الناظر فى الجزء الأول من « الذخائر والعبقريات » أن خطتى

يأتى بعد كلّ أولئك أنى امتَزْتُ عن الراغب وغير الراغب بعَمَلَيْن عظيمين ، فأما أولهما فهو شرح كل ما يَحْمِلُ شَرْحُه من العبقريات ، وقد يُلاحَظُ أنى تبسطت فى الشرح ـ فى كثير من المواضع ـ إلى الحدّ الذى قد يُنكِرُه الخاصة ، ولكن يحْمُل أن يلاحَظ كذلك أنى وضعتُ هذا المعجمَ للخاصّة وغير الخاصة ، أى لكل قارئ ، على أن هذه الشروحَ هى الأخرى لَوْنٌ من ألوانِ الأدب والثقافة ، وقلما تخلو من الفوائد والعوائد ... وعلى أنّ هناك من العبقريات ـ كبعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والحكم والمواعظ ، وبعض الألفاظ المتداولة ـ ما حرَّفَه السّواد الأعْظمُ عن مواضِعِه وجَهِلوا مَغزاه الذى يعزوه قائلوه ، فكان لا مندوحة عن تِبيان معناه[1] ؛ وفى هذا عِلاوةً على ذلك امتثال القول سيدنا رسول الله : يَحْمِل هذا العلمَ من كل خلَف عُدوله ، يَنْفُون عنه تحريفَ الغالين ، وانتحالَ المُبطلين ، وتأويل الجاهلين ... وأما العمل الآخر فهو تصدير كل باب بكلمة أكشف بها المراد بما عقد له هذا الباب ، وذلك كقولنا على البر والتقوى ، وعلى الصبر ، وعلى الشكر ، وهكذا وهكذا ... وهذا عمل له قيمته التى ما منها بُدٌّ .

ومما امتاز به هذا المعجم أنّى لم أقتَصِرْ على إيراد العبقريات من الأقوال

كانت أن أضع عنوان كل طائفة من المعانى فى أوائل السطور ومضيت على هذه الطريقة إلى قريب من ثلث صفحات هذا الجزء ثم استحسنت أن أعدل عن هذه الخطة إلى وضع العناوين وسط السطور لتكون أدنى إلى التيسير وأعون للطالب على العثور بضالته من أقرب سبيل وهذه ـ كما يرى القارئ ـ من الحنات الهينات التى تغتفر وقد تدوركت فى سائر الكتاب

(١) يلاحظ أن الشرح يرى طوراً فى عمود الكتاب وصلبه وطوراً فى هامشه

وإنما عَرَضْتُ فيما عَرضتُ لترجمةِ بعض العبقريين الذين نبغوا فى معنًى من المعانى، مثلُ القاضى أحمد بن أبى دواد ، تلك الشخصية الضخمة التى خُلّدت آثارها فى اصطناع المعروف والإحسانِ إلى الناس ، وإن كنت أوجزت القول فى ذلك كلّ الإيجاز ، وكذلك عَرَضْتُ للتعريف بالشعراء والعلماء والزهاد والحكماء الذين أوردت فى هذا المعجم عبقرياتهم، وإن كان ذلك فى أجزإ اختصار ، وقد يلاحَظ أنى أغفلت التعريف بكثير من القائلين، كما أغفلت فى بعض المواضع شرح كثير من أقوالهم، وذلك إمّا لأنى عرّفت مامن يجب أن يُعرّف وشرحت ما يَحْتَمل أن يشرح فى مواضع أخرى ، وإمّا حَدَثَ ذلك سَهْوًا رغفلة ، وقد يَحْدُثُ ـ وذلك فى النّدْرة ـ أن يكون الإغفال ـ ولا سيما إغفال التعريف بالرجال ـ لأنى لمْ أوَفّق إلى التّعرّف عليهم . . .

هذا وكانت النّيّةُ أن أتوسَّع فى إيراد عبقريات المعاصرين، ولكنى اقتصدت فى ذلك كل الاقتصاد ، لأن هذا المعجم من ناحية ليس كتابَ مختارات بالمعنى المعروف وإنما هو معجم مَعانٍ ، وإن كنتُ قد عملت ماوجدت إلى ذلك السبيل على أن يكون كتابَ مطالعة بجانب أنه كتاب مراجعة ، ومن ناحية خَشيتُ أن أُتهَمَ بما أنا بَراء منه فى الواقع إذا أنا أوردتُ المختار من عبقريات بعض المعاصرين دون بعض، على أن آثار المعاصرين كثيرةُ التداول بين قُرّاء هذا الجيل، ومن هنا أوردت فيه بعض عبقريات المعاصرين ممن استأثر الله بهم ، وأوردت أيضاً ما استحسنت إيراده مما نُقل إلى العربية من اللغات الأجنبية ، وبخاصة ما نُشِرَ قديماً فى مجلة البيان التى كنت أقوم

بإخراجها من سنة ١٩١١ إلى نهاية سنة ١٩٢١ ميلادية ؛ وكذلك وقع اختيارى على البارع كل البراعة من الكلمات الطويلة بعض الطول لبعض العبقريين من الغابرين ، وإن كان ذلك فى النادر الذى لا يؤبه له ، لندرته ، وإن كنت كذلك حذفت مما اخترت من هذا الضرب كثيراً من الفضول .

أما تسمية هذا المعجم « الذخائر والعبقريات » فلهذه التسمية مَغْزًى أَعْزُوه ، أما العبقريات فإنى أريد بها ـ كما هو واضح ـ كلماتِهم القصيرةَ المأثورة المتفوّقةَ فى معناها ، على أنى لم آل جُهداً فى تخــيُّر العبقرى فى معناه ومبناه معاً ؛ وأما الذخائر فإنى لم أقتصر فى هذا المعجم على اختيار نوابغ الكلم ، وإنما قد تُلْجِئُ الحالُ إلى أن أُشَعْشِعَه كما تُشَعْشَع الراح ، بالماء القَرَاح [1] فأورد بعض المباحث اللغوية والعلمية ، على شريطة أن تكون بجانب مكانتها الرفيعة فى بابها جميلةً مستطرفة مُحذَّفةً [2] قصيرةً مُتجردةً من الأذنابِ والفضول ، كبعض كلمات بارعة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تَراها مبعثرةً ههنا وههنا فى كتابه الحيوان ، مثل كلامه على الخصاء والخصيان ، وكلامه على التعين وأفاعيلها فى المَعين ، وكبعض كلمات كذلك لغيره ... وأمثالٍ لهذا كثيرة ، على أن كلا الحرفين ـ الذخائر والعبقريات ـ مما يصح أن يوضع موضع الآخر ، فيطلق على كل ما يُؤثر ويُدَّخر لنفاسته ، سواءأكان من الكلمات أم من الموضوعات ، فكل عبقرى من القول هو ذخيرة من الذخائر ، وكل موضوع قيِّم هو عبقرى من العبقريات .

(١) شعشع الشراب : مزجه ، والماء القراح : الخالص الذى لا يشوبه شىء

(٢) كلام محذف : من قولهم حذف الصانع الشىء : سوّاه تسوية حسنة كأنه حذف كل ما يجب حذفه حتى خلا من كل عيب وتهذب

وهذا المعجم يقع فى زُهاء عشرة أجزاء ، كل جزء منها يَستوعب ما يُربى على العشرين والثلثمائة صفحة من هذا القِطْع ، من هذا الورق الذى تَرى . . .

✡ ✡ ✡

«وبعد» فإنى على هذا الجَهْدِ الجاهد لأُبَرِّئُ هذا الكتاب ، من العاب [1] ، وهل يصحُّ فى الأفهام أنّ رجلا يَجُرُّ وراءه نَيِّفاً وستين سنةً ، مُوقَرَةً بكلِّ ما يُضْعِفُ المُنّة [2] ويوهن القُوى ، ويَعْصِفُ بالحيوية عَصْفاً ، لا تتكاثر هفواته وعَثَرَاتُه ، وتتوافَرُ سقطاتُه وزلّاته ، فى عَمَلٍ مثلِ هذا يُحاوِلُه ، وتأليفٍ تتشعبُ موضوعاتُه ومَسائلُه ، وإذا كانت الموسوعات التى منها تخيّرْتُ حِساباً فهذا المعجم فذالِكٌ ، وإذا كانت عبقرياتهم ههنا نظاماً فهى نِثارٌ مبدّدةٌ هنالِكَ ، وإذا كان المؤلفون يستظهرون على إخراج مؤلفاتهم فى العادة بالورّاقين [3] والمصححين فلقد قمت وحدى بهذا العمل دون الاستعانة بأحد من أولئك . . . على أن النقصان ، عالق بالإنسان ، كان من كان ، وإنما الكمال ، للحىّ الذى لايموت ذِى الجلال . . .

اللهم إنى أبرأ إليك من الحول والقوة ، اللهم عالمَ الغيبِ والشهادة فاطرَ السمواتِ والأرض ، يامَن لا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ منك الجَدّ [4] ، يا مَن وَعَدْتَ الذين هُم محسنون [5] بحُسن الجزاء وحاشَ لله أن يُخلِفَ

(١) العاب : العيب

(٢) المنة : القوة

(٣) أعنى بالورّاقين من يسمون اليوم « السكرتيرين الخصوصيين »

(٤) الجد : الحظ ومعنى لاينفع ذا الجد منك الجد : لاينفع ذا الغنى عندك غناه ، وإنما ينفعه العمل بطاعتك ، ومنك : معناه عندك

(٥) المحسنون : أى الذين يحسنون أعمالهم ويتقنونها

الوَعْد ، سبحانك تباركَ اسمُك وتعالى جَدك ، أسألك يامَنْ تُجيبُ دعوةَ الداعى إذا دعاك ، أنّ تَهَبَ هذا الكتاب من توفيقك مايتصل معه برضاك ، ويَعُمّ الانتفاعُ به والإفادةُ منه مااختلف الملَوَان ، وكرَّ الجديدان [1] . . .

ديسمبر سنه ١٩٤١
ذو القعدة سنة ١٣٦٠

عبد الرحمن البرقوقى

(١) الملوان والجديدان : الليل والنهار

استدراك

ندت بعض أخطاء مطبعية فى المقدمة وها هى ذى :

سطر	صفحة	خطأ	صواب
١٧	ط	وسويدوات القلوب حباتها وفيه النور	وسويداوات القلوب حباتها
١٧	ط	وإنسان العين سوادها	وإنسان العين سوادها وفيه النور
٦	ل	اختصار	قول
٧	ل	ما من	من

الكتاب الأول

في الفضائل وصالح الأخلاق والمُثُل العليا التي يجمُل بكُلّ من ينشُد السعادة في الدارَين أن يجْهَد جُهْدَه في التحلّي بها

[وهذا الكتاب مكسورٌ على خمسة عشر بابا بينها]

[جميعا لُحْمَةُ نَسَبٍ وقَرَابة]

الباب الأوّل

فى البرّ والتقوى

البرّ وألوانه

قال علماؤنا ما خلاصته : إنّ أصلَ مَعْنَى البِرِّ : السَّعَة ، ومنه البَرُّ ـ بفتح الباء ـ مقابل البحر ، ثم اشْتُقَّ منه البِرّ بمعنى التوسّع فى فعل الخيْرِ ، وكُلِّ فِعْلٍ مَرْضِيّ ... وهكذا أطلقوه على التوسع فى الإحْسانِ إلى الناس ، وهو لُبابُ البِرّ ؛ وعلى صِلَة الرّحِمِ ، وهى عُنوانُ البِرّ ؛ وعلى التقوى ، وهى جِمَاعُ البِرّ[1] ، قال تعالى : ولكنّ البِرَّ من اتقى ، وقال لَبيد :

* وَما البِرُّ إلاّ مُضْمَرَاتٌ مِنَ التُّقَى *

وَوَرَد البِرُّ فى القرآنِ الكريم وفى الحديث الشريف وفى شِعر العرب مُقابِلاً للإثمِ ـ والإثم : الشر وكُلُّ فِعْلٍ غير مَرْضِيّ مما يُؤْثِم ـ قال عز وجلّ : وتعاوَنُوا على البِرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثمِ والعُدوان . واقترانه بالتقوى يدُلُّ على أنّ البِرَّ بسبيلٍ من التقوى ، ورُوِى أنّ سائِلاً سأل المصطفى صلواتُ الله عليه عن البِرّ والإثم ، فقال : البِرُّ ما سَكَنَتْ إليه نفسُك واطمأنّ به قلبُك ، والإثمُ ما حاكَ فى نفْسِك وتَرَدّدَ فى صدرِك ، وإنْ أفتاكَ الناس ، أو كما قال . « حاكَ فى نفسك : أى أثّرَ فيها ورَسَخ وحَزّ

---

(١) ولأن البرّ يطلق على كل أولئك ، قال الإمام البيضاوى : البرّ ثلاثة : برٌّ فى عبادة الله ، وبرٌّ فى مراعاة الأقارب ، وبرٌّ فى معاملة الأجانب

وَقَدَح ، وقوله : وإن أفتاك الناس : أى وإن جعلوا لك فيه رُخصةً وجوازاً »
وقال زُهَيْرُ بنُ أبى سلْمى :

والإثمُ مِن شرِّ ما يصالُ به والبِرُّ كالغَيْث نَبْتُهُ أَمِرُ

« مايصال به : ما يُفتخر به ، وأَمِرُ : كثير مُبارك ، ومن أسماء الله البَرّ ـ بفتح الباء ـ ومعناه الواسع الخير ، وقوله تعالى : لَن تنالوا البرَّ حتى تُنْفِقوا مما تحبون ، فمعناه : لن تنالوا بِرّ الله ، أى لن تنالوا خَيرَيِ الدنيا والآخرة حتى تنفقوا مما تحبون ، أمّا خير الدنيا فهو مايبسّره الله للعبد من الهدى والنعمة ، وأمّا خير الآخرةِ فهو الفوز بالنعيم الدائم فى الجنة ، أو تقول : لن تنالوا حقيقة البر ـ أى الخير ـ حتى تنفقوا مما تحبون . . . والأبرار : الأخيار ، جمع بَرّ ، وقد قوبلت كلمة الأبرار بالفُجّار فى قوله تعالى : إن الأبرارَ لفى نعيم . وإنّ الفُجّارَ لفى جحيم ـ والفجار : الذين ينبعثون فى الشرور والآثام ـ وحج مَبْرُور : مقبول يجازَى بالبر ، أى الثواب ، أى خير الآخرة ؛ وبَرّ فى يمينه أى صدق ، أى كان خَيِّرا فيه بهذا الصدق.

« وبعد » فكل ما أوردوه من معانى البر فإلى الخير مَرَدُّه . . .

✡ ✡ ✡

ولهم فى البِرّ مُطْلقا ، أى الخير غير مقيد بلون من ألوانه ، عبقريات وذخائر ، فمن ذلك قول الحُطَيئة :

ومَنْ يَفعَلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جوازِيَهُ لا يَذْهَبُ العُرفُ بين الله والناس

« جَوازيه : جمع جازية اسم مصدر للجزاء ، كالعافية ، أى لا يعدم جزاء عليه »
قال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل العرب بيتا قط أصدق من بيت الحطيئة هذا ، فقيل له : فقول طَرَفةَ بنِ العَبد :

سَتُبْدِى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلا ويأتيك بالأخبار مَن لم تُزَوِّدِ

فقال : مَن يأتيك بها مِمّن زَوّدتَ أكثر ، وليس بيت مما قالته الشعراء إلا وفيه مطعن ، إلا قولَ الحطيئة هذا . ويُروَى أنّ كَعبًا الحِبْرَ ـ المشهور بكعب الأحبار ـ لما سمع هذا البيت قال : والذى نفسى بيده : إنّ هذا البيتَ لمكتوبٌ فى التوراة » . . . وقال عَبيدُ بنُ الأبْرَصِ :

والخيرُ يَبْقَى وإن طالَ الزمانُ به والشَّرُّ أخبَثُ ما أوْعَيْتَ مِن زادِ

« يقال : أوعيت الزاد والمتاع : إذا جعلته فى الوعاء »

وقال أبو العتاهية :

لَيَعْلَمَنَّ الناسُ أنّ التُّقَى والبِرَّ كانا خيرَ ما يُدّخَرُ

وقَبْلَه قال الأخطل ـ ورواه المبرِّد فى الكامل للخليل بن أحمد واضع علم العروض ـ :

وإذا افتقَرْتَ إلى الذخائر لم تَجِدْ ذُخرًا يكون كصالحِ الأعمال

رَوَى صاحب الأغانى : أن هِشامَ بنَ عبدِ الملك لمّا سمع الأخطل وهو يقول هـذا البيت قال : هنيأً لك أبا مالك هـذا الإسلام ! فقال الأخطل : يا أمير المؤمنين ، مازِلتُ مُسْلِمًا فى دينى ؛ وقَبْلَ هذا البيت فى ديوان الأخطل :

والناسُ هَمُّهُمُ الحياةُ وما أرَى طُولَ الحياة يَزِيدُ غيرَ خَبالِ

« الخبال : الفساد ، أوْ هو لون من الجنون » . . .

وقال أحمد شوقى فى نهج البردة : ـ وهـذه الأبيات يصح أن تذكر فى باب التقوى وفى باب الدنيا وفى الزهد ، كما يصح أن تذكر فى هذا الموضع ـ :

يانفسُ دُنياكِ تُخفِى كلَّ مُبكِيَةٍ وإنْ بَدَالكِ منها حُسنُ مُبتَسَمِ

فُضِّى بتَقْوَاكِ فاهًا كلما ضَحِكَتْ كما يُفَضُّ أذَى الرَّقْشاءِ بالثَّرَمِ

لا تَحفِلِى بجَنَاها أو جِنايتِها الموتُ بالزَّهْرِ مِثلُ الموتِ بالفَحَمِ

صلاحُ أمرِكَ للأخلاقِ مَرْجِعهُ فقَوِّمِ النفس بالأخلاق تَسْتَقِمِ
والنفْسُ مِن خيْرِها فى خير عافيةٍ والنفسُ من شرها فى مَرْتَعٍ وَخِمِ

« المبتسم : يريد الابتسام ، أو موضع الابتسام ، وهو الثغر . والرقشاء من الحيّاتِ : المُنَقَّطة بالسواد والبياض . وأذى الرقشاء : سُمّها . والثرم : كسر السن من أصلها . والجَنى : ما يُجْنَى من الشجرة ويقطف من ثمرها ؛ يقول فى هذا البيت : إن سعادة الدنيا وشقاءها بمنزلة سواء ، وكلاهما ألمٌ غير أن أحد الألمين ينزل بساحة النفس سافراً غير مُتنكر — وهو جنايتها أى آلامها — والآخر — وهو جناها أى لذّاتها — يتسرب إليها من أبواب غفلتها فيتجمل ويَخْلُب حتى ينال منها ، إذ أن من ورائه السمّ ناقعا ، فمثلهما فى ذلك مَثل الموت بالفحم والموت بالزهر ، كلاهما موت ، وإن كان هذا من أثر الاختناق بأرَج الزهر ، وذاك من دَخَن الفحم . والمرتع : من رتعت الماشية : أكلت ماشاءت ، والمرتع : مكان الرتوع ، والوخم : الرديء الوبيء »

وقال المعرّى :

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الجميلَ لأنَّهُ خيرٌ وَأحْسَنُ لا لأجْلِ ثوابِها

« يقول المعرّى : إنّ فِعلَ كُلِّ ماهو جميلٌ خيرٌ وأحسن من فعل ماليس بجميل ، ولو لم يَجْنِ المرءُ من وَراء الجميل وفعله إلاّ أنه خير وأحسنُ وأسمى وأرفع ؛ لكان فى ذلك الغَناءُ كله ، أمّا فعلُ الجميل ونُصْبَ عينِ فاعله ذلك الثواب الذى سيجازى به ، فإن هذا إسفاف بالإنسانية إلى الحضيض الأوهد ، ويُعَدُّ من الأعمال التى يرفعها الله إلى أسفل ، وجملة القول : إنه غير لائق بالكمال والمثل الأعلى ، أليس من كان هذا شأنهم إنما يتاجرون الله الذى يعلم السرّ وأخفى ، والذى هو جميل يحب الجمال ! وسترى فى باب التقوى

كثيرا من عبقرياتهم فى هذا المعنى — معنى فعل الخير حبا فى الخير، وولوعا بالحق والجمال والمَثالِيَّة الكامنة فيه.

✡ ✡ ✡

ومما رُوى لنا من أحاديث سيدنا رسول الله فى هذا الباب قوله صلوات الله عليه: رأيتُ الجنَّةَ والنارَ فلم أرَ مِثْلَ الخيرِ والشر . . . » قال ابن الأثير فى النهاية: أى لم أرَ مِثْلَهُما لا يُمَيَّزُ بيْنَهما فيُبالَغ فى طلب الجنَّةِ والهَرَبِ مِن النار . . . أقول: ولعلَّ الأظهرَ أن يكونَ المعنى: لم أرَ شيئا يكون وُصْلةً إلى دخولِ الجنَّةِ مِثْلَ الخيرِ، ولم أرَ شيئا يكون سببًا فى دخول النار مِثْلَ الشَّرّ (١) . . هذا، وإن أبَى المُلحِدُون وأشباهُ الملحدين إلَّا أن يُؤَوِّلوا الجنة بأنها الهناءةُ وغِبطَةُ الروح التى يَشْعُر بها الأخيار البَرَرَة، ويَرَاحُونَ لها فى هذه الحياةِ، والنارَ بأنها الشقاوةُ التى يُعانيها الأشرار الفجرة، ويتَسَعَّر لهيبها فى أحناء ضلوعهم، فهم وما يختارون ويَحْلَوْلِى لهم، إذ أن هذا — أى سعادة الخيِّر فى الدنيا وشقاوة الشِّرِّير فيها — حق وصحيح فى ذاته، وإن لم يك مرادًا لأنبياء الله ورسله بالجنة والنار، حين يريدون الجنة والنار بمعناهما المعروف، على أن الإسلام علَى ذلك يعتد بالسعادة والشقاوة فى الدنيا كما أنه يعتد بهما فيما بعد الموت . . . وفى الحديث أيضا: خَيْرُكم من يُرْجَى خيرُهُ ويؤمَن شَرُّه، وشَرُّكم من لا يُرْجَى خيرُه ولا يُؤمَن شَرُّه . . . وقال صلوات الله عليه:

(١) ورد هذا الحديث عن أنس بن مالك هكذا: صلى لنا النبى صلى الله عليه وسلم ثم رقى المنبر، فأشار بيده إلى قبلة المسجد وقال: لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الجنة والنار ممثلتين فى قبلة هذا الجدار فلم أر كاليوم فى الخير والشر. «الجامع الصغير»

خير الناس خيرهم لنفسه » ومعناه : إذا جامَلَ الناسَ جاملوه وإذا أحسن إليهم كافأوه بمثله » وأمّا الحديث : خيركم خيركم لأهله ؛ فهو حث على صلة الرحم ، وسيأتى . . . ومما يُؤثَر من أحاديث سيدنا رسول الله فى هذا الباب قوله صلوات الله عليه : شَرُّ الناس من خافه الناس اتقاءَ شرِّه » ومثل هذا القول تبكيت للشِّرِّير ، وأنه وإن ظفر بما يظفر به من أغراض هذه الدنيا فهو خاسِرٌ دامِرٌ » وكان من دعاء سيدنا رسول الله : إن الخيرَ بيدَيك والشَّرُّ ليس إليك » يريد : أن الشر لا يُتقرب به إليك ولا يُبتَغَى به وجهك ، أو أن الشر لا يَصعد إليك وإنما يصعد إليك الطيِّب من القول والعمل ، كما قال سبحانه : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه . وفى هذا الدعاء إرشاد إلى استعمال الأدب فى الثناء على الله والدعاء ، وأن تضاف إليه محاسن الأشياء دون مساويها . . . ومن كلمة لعلى بن أبى طالب : إن للخير والشر أهلاً ، فمهما تركتموه منهما كفاكُمُوه أهلُه » يقول رضى الله عنه : إنْ عَنَّ لك باب من أبواب الخير وتركتَه فسوف يكفيكه بعض الناس ممن جعله الله أهلا للخير ، وإنْ عَنَّ لك بابٌ من أبواب الشر فتركته فسوف يكفيكه بعض الناس ممن جعلهم الله أهلا للشر وأذى الناس ، فاختر لنفسك أيما أحب إليك : أن تحظى بالمحمدة والثواب وتفعل ما إن تركته فعله غيرك وحَظِى بحمده وثوابه ، أو أن تتركه ، وأيما أحب إليك : أن تشقى بالذم عاجلا والعقاب آجلا وتفعل ما إن تركته كفاكه غيرك وبلغت غرضك منه على يد غيرك ، أو أن تفعله ؛ وإذن فجدير بالعاقل أن يُؤْثِرَ فعلَ الخير وتَركَ الشر ما وجد إلى ذلك سبيلا»

ومن قولهم فى أوصاف البَرَرَة الأخيار : فُلانٌ نَقِىُّ الساحة من المآثم ، بَرِىءُ الذِّمَّة من الجرائم ؛ إذا رَضِىَ لم يقل غيرَ الصدق ، وإذا سَخِط لم يَتجاوَزْ

جانبَ الحقّ ؛ يرجع إلى نفسٍ أمّارةٍ بالخيرِ ، بعيدةٍ من الشر ، مدلولةٍ على سبيل البر ... ووصَفَ أعرابيٌّ رجلا بلون من ألوان البر وبالألمعية والذكاء والحصافة والأناة قال : كان ـ والله ـ الفَهِمُ مِنْه ذَا أُذُنَين ، والجوابُ ذَا لِسانَين ، لم أرَ أحداً كان أرْتَقَ لِخَلَلِ رَأيٍ منه ، ولا أبْعَدَ مسافةَ رَوِيَّةٍ ومَرَادَ طَرْف ، إنما يَرْمِى بهمّته حيث أشار اليه الكرم ، ومازال ـ والله ـ يَتَحَسَّى مَرارَةَ أخلاقِ الإخوانِ ويَسْقِيهم عُذُوبَة أخلاقه ...

« كان الفهم منه ذا أُذُنين : يريد أنه كان يَعِي ويتفطن لما يَرى ويَسمع فطنة أوفت على الغاية ، إذ أنها فطنة مضاعفة ، فكأن له أذنين . أما قوله : والجوابُ ذا لسانين : فإنما يريد قوة العارضة واللَّسن ، وهذا غير قولهم : فلان ذو وَجْهين وذو لسانين ، يريدون : النفاق والذبذبة . ورتق الفتق : أصلحه ، والمَرَاد : المكان من راد يرود : إذا جاء وذهب ، ويتحسى : يقال حسا الماء : شربه ، وتحساه : إذا شرب في مُهْلة ، وهو هنا مجاز »

ومن كلمة لابن المقفع يصف الرجل يَتلاقَى البِرُّ في بُرديه بألوان شتى مِنَ المُثُلِ العليا وأخلاق السادة ، في أسلوب بديع ـ وقد وردت هذه الكلمة في نهج البلاغة منسوبةً لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه ـ : كان لى أخٌ في الله ، كان أعْظَمَ الناسِ في عيني ، وكان رأسَ ماعظَّمه في عيني صِغَرُ الدنيا في عَيْنِه ، كان خارجا من سلطانِ بَطْنه ؛ فلا يَتَشَهَّى مالا يَجِد ، ولا يُكْثِرُ إذا وَجَدَ . وكان خارجاً من سلطان فَرجه ؛ فلا يدعو إليه مَؤُنة ، ولا يَسْتَخِفُّ إليه رأيا ولا بَدَنا ، وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجا من سلطان لسانه ؛ فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى فيما علم . وكان خارجا من سلطان الجهالة ؛ فلا يُقدِم أبدا إلا على ثِقةٍ بنفسه ، وكان

أكثرَ دهره صامتا ، فإذا قال بزَّ القائلين ، وكان ضعيفا مستضعفا ، فإذا جدّ الجِدُّ فهو الليث عاديا ، وكان لايدخل فى دعوى ، ولا يشارك فى مِراء ، ولا يُدلِي بحُجّة ، حتى يَرَى قاضيا فَهِمًا وشُهودا عدولا ، وكان لا يلوم أحدا فيما يكون العذر فى مِثْله حتى يعلمَ ما عذرُه ، وكان لا يشكو وَجَعَه إلا عند من يَرْجُو عنده البُرءَ ، ولا يستشير صاحبا إلا أن يَرجُوَ منه النصيحة وكان لا يتبرَّم ولا يتسخط ، ولا يتشكَّى ولا يتشهَّى ، ولا ينتقمُ منَ العدوّ ولا يَغْفُلُ عن الوَلِيّ ، ولا يخُصّ نفسه بشيء دون إخْوَانِه ، من اهتمامه وحيلته وقوّته . . . فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ، ولن تطيق ، ولكنّ أخْذَ القليل خيرٌ من ترك الجميع . . . قوله كان لى أخ الخ : فليس يعنى أخا بعينه ولكن هذا كلام خارج مخرج المثل ، وعادة العرب جارية بذلك مثل قولهم فى الشعر : فقلت لصاحبى ، وياصاحبىّ : وقوله : فلا يتشهى مالا يجد ، فإن ذلك لعمرى من سقوط المروءة . قال الأحنف بن قيس : جنِّبُوا مجالسنا ذكر تَشَهّى الأطعمة وحديث النكاح ؛ ومن طُرفِ الجاحظ ما رواه عن نفسه : جلسنا فى دار فجعلنا نتشهَّى الأطعمة ، فقال واحد : أنا أشتهى سِكباجة كثيرة الزعفران ، وقال آخر : وأنا أشتهى هريسة كثيرة الدارَصينى . . . وإلى جانبنا امرأة بيننا وبينها بِئْرُ الدار ، فضربت الحائط وقالت : أنا حامل ، فأعطونى مِلْءَ هذه الغَضَارَة ـ الصحفة ـ من طبيخكم ، فقال ثُمامة بن الأشرس : جارتنا هذه تشم رائحة الأمانىّ ! وقوله : وكان ضعيفاً مستضعفا : يريد : لَيِّنَ الجانب مُوَطَّأَ الأكناف . . . وقَرَعَ رَجُلٌ بابَ بعض الخيِّرين من السلف ، فى ليل ، فقال لجاريته : أبْصِرى مَن القارع ، فأتت البابَ فقالت : من ذا ؟ قال أنا صديقُ مَولاكِ ، فقال الرجل : قولى له : واللهِ إنكَ لصديق ؟ فقالت له ذلك ، فقال :

والله إنى لصديق ، فنهض الرجل وبيده سَيف وكيس يسوق جارية ، وفتح الباب وقال : ماشأنك ؟ قال : راعنى أمر ، قال : لابك ماساءك ، فإنى قد قسمت أمرك بين صديق : فهذا المال ، وبين عدو : فهذا السيف ، أو مَشُوق : فهذه الجارية . فقال الرجل : لله بلادُكَ ، مارأيت مثلك ... » أقول : هذه لعمرى هى أخلاق السادة النبلاء ذوى البر والمُروءة والوفاء والحزم والظَرف ، وكونُ ـ وجود ـ أمثال هؤلاء من ذوى الإنسانية العالية هو الذى يُحَسِّنُ ظننا بالحياة ويجمِّلها فى أعيننا ، ويجعلها مُحْتَمَلة مطاقةً ، لا كما نرى اليوم ... ، وقال عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت يصف رجلا قليل الخير ـ أى لا خير فيه :ـ (١)

أَبَى لَكَ فِعْلَ الخَيْرِ رَأْيٌ مُقَصِّرٌ ... ونَفْسٌ أَضَاقَ اللهُ بالخيرِ باعَها

إذا ما أرادته على الخيرِ مَرَّةً ... عصاها وإن هَمَّتْ بِشَرٍّ أطاعها

ومن قولهم فى قليل الخير :

هُوَ فِي الخَيْرِ قَطُوفٌ ... وَهْوَ فِي الشَّرِّ وَسَاعُ

« القطوف منَ الإنسان والحيوان : البطىء المتقارب الخطو ، ووَساع : واسع الخطو سريع السير » ومن قولهم فى المتساويَين فى الخير والشر . هُما كفَرَسَىْ رهان ، وهذا فى الخير ، وأمّا فى الشر فيقال : هُما كحِمَارَىِ العِبَادِىّ . «والعبادى : رجل من العِباد ؛ وهم قوم من قبائل شتّى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فأنفوا أن يتَسَمَّوا بالعبيد وقالوا : نحن العباد ، وقد نزلوا بالحِيرة ومنهم عَدِىّ بن زيد العبادى الشاعر المشهور . أما هذا العبادىّ فيروى أنه قيل له ـ أىُّ حِمَارَيْكَ شرٌّ ؟ فقال : هذا ، ثمَّ هذا !

(١) كان عبد الرحمن هذا قد سأل محمد بن عمرو عامل سليمان بن عبد الملك حاجة فلم يقضها ، فسألها عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقضاها ، فقال أبياتا منها هذان البيتان

وقال الأشعرُ الرَّقَبانُ ـ وهو شاعر جاهلى من بنى أسد ـ يخاطب ابن عمٍّ له يسمى رِضوان ، يصفه بالشر واللؤم والنذالة والفسولة :

بِحَسْبِكَ فى القوم أنْ يَعلَموا بأنَّكَ فِيهم غَنِيٌّ مُضِرْ
وقَدْ عَلِمَ المَعْشَرُ الطارِقوكَ بأنَّكَ لِلضَّيْفِ جُوعٌ وَقُرْ
إذا ما انْتَدَى القَوْمُ لمْ تأتِهِم كأنَّكَ قَدْ وَلَدَتْكَ الْحُمُرْ
مَسِيخٌ مَليخٌ كَلَحْمِ الحُوَارْ فَلا أنْتَ حُلْوٌ ولا أنْتَ مُرْ

« قوله : غَنِيٌّ مُضِرْ ، فالمُضِرُّ : الذى له ضَرَّةٌ من المالِ ، وهى القطعة من المال والإبل والغنم ، أو المال الكثير ، كما هنا ، وانتدى القوم : اجتمعوا فى ناديهم ، والمسيخ : الذى لا طعم له ، والمليخ مثله ، وخصّ به بعض اللغويين الحُوار الذى ينحر حين يقع من بطن أمه فلا يوجد له طعم ، وقال ابن الأعرابى : المليخ من الرجال : الذى لا تشتهى أن تراه عينك فلا تجالسه ولا تسمع أذنك حديثَه ، والحوار : ولد الناقة ساعة تضَعُه » ... ومما يَحْسُنُ إيراده فى هذا الباب لِلُبْستِهِ واشتباهه قول عمر رضى الله عنه ـ وقد قيل له : فلانٌ لا يعرف الشر ـ فقال : ذاك أوقع له فيه ، إذ أن معناه : أن لا يكون الإنسان مغفلا وإنما الواجب الفطنة والحذر وسوء الظن بالناس ، لما جُبل عليه سوادهم من الشر واللؤم والخداع ، وفى معناه يقول حكيم لابنه : استَعِذْ بالله من شِرَارِ الناس وكن من خيارهم على حذر ... وقد كان الفاروق رضى الله عنه لا يُقَعْقَعُ له بالشِّنَانِ (١) وكان سيّئَ الظن بالناس ، يَدُل على ذلك شِدّتُه وصرامته

(١) لا يقعقع له بالشنان : مثلٌ ، أى لا يخدع ولا يروع ، وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع ، ومعنى القعقعة : التحريك ، والشنان : جمع شن وهو القربة الخلق أو الخلق ـ البالى ـ من كل وعاء صنع من جلد .

وحذَرُه وسياسته الحازمة الرشيدة ... «وبعد» فإنك ترى فى باب طبائع الإنسان كثيرا من عبقرياتهم فى الشر ووصف الأشرار وحكمة امتزاج الخير بالشر فى العالم ؛ كما أنه سيمرُّ بك قريبا كثير من عبقرياتهم فى التقوى وحسن الخلق ...

ومن أروَع وأجمع ماقيل فى البر على سائر ألوانه قوله جلّ شأنه : ليسَ البرَّ أنْ توَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِب ، ولكِنَّ البرَّ مَن آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ والملائكةِ والكِتابِ والنبيين وآتَى المَالَ على حُبّهِ ذَوِى القُرْبَى واليتامَى والمَساكِينَ وابْنَ السَّبِيل والسَّائلينَ وفى الرقاب وأقامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكاةَ ، والمُوفُونَ بِعَهدِهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضَّرَّاءِ وحين البأس ، أولئكَ الذين صدقوا وأولئك هُمُ المُتَّقون ...

نزلت هذه الآية الكريمة بَعْدَ أن أكْثَرَ أهلُ الكتاب مِن يَهودَ ونَصارَى ، الخوْضَ فى أمْرِ القِبلة حين حُوّل رسولُ الله إلى الكعبة ، وزَعَمَ كُل من الفريقين أن البرَّ هو التوجُّهُ إلى قِبلتِه ، ففنَّدَ الله سبحانه هذا الزعمَ وبَهْرَجَهُ وقال : ليس البرُّ العظيمُ الذى يجب أن تَذهَلوا بشأنِه عن سائر صنوف البر هُوَ أمرَ القِبلة ، ولكنَّ البرَّ الذى يجب الاهتمامُ به وصَرفُ الهِمَّةِ إليه هو برُّ مَنْ آمَن وقامَ بهذه الأعمال .... هـذا ، وقوله : ليس البر أن تَوَلوا ، فالبِرَّ بالنَّصب خبرُ ليسَ مُقَدَّم ، وأن تُولوا مؤوَّل بمصدر اسم ليس مؤخر ، وقوله : ولكن البر من آمن : إمَّا مثلُ قول الخنساء (١) :

---

(١) الخنساء : هى تماضر بنت عمرو بن الشريد من سروات قبائل بنى سليم من أهل نجد ، أشعر النساء فى عصرها أدركت الإسلام وأسلمت توفيت سنة ٢٤ هـ وقولها فإنما هى إقبال وإدبار ، من أبيات ترثى أخاها صخرا تقول فيها :

* فإنّما هى إقبالٌ وإدبارُ * أو تقول ؛ ولكنّ البرّ : أىْ ذا البرّ أو تقول ، إنه على حذف مضاف ، أى برّ من آمن . وقوله سبحانه : والكتاب ، يعنى جنس كتب الله ، أو القرآن . وقوله : على حبّه ، أى مع حُبّ المال والشُّحّ به ، وقَدَّم ذوى القربى لأنّ الإحسان إليهم أفضل ، كما وَرَدَ فى الأثر : صَدَقَتُكَ على المسكين صدقة وعلى ذِى رَحِمِكَ اثْنَتان ، صَدَقة وصِلةٌ ، وابن السبيل : المسافر المنقطع ، وقيل الضيف ؛ لأن السبيل يَرْعَفُ به ـ أى يتقدم به ويبرزه للمقيمين كما يَرْعُفُ الأنف بدم الرعاف ـ وقوله : وفى الرقاب : أى وفى مُعاوَنَةِ المكاتَبين حتى يفُكّوا رقابهم وقيل : فى شراء الرقاب وإعتاقها ، وقيل : فى فكّ الأسارى . وقوله : والموفون بعهدهم : عَطْفٌ عَلى مَن آمن وقوله : والصابرين ، فهو منصوب على المدح ، ولَمْ يُعْطَفْ ، لفضل الصبر على سائر الأعمال ، والبأساء ، أى فى الأموال كالفقر ، والضّرّاء ، أى فى الأنفس كالمرض . وحين البأس : أى وقت مجاهدة العدوّ ... أليست هذه الآية الكريمة ـ كما قال الإمام البيضاوى ، وكما ترى ـ جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها ، دالة عليها صريحا أو ضمنا ، فإنها على تشعبها منحصرة فى ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة ، وتهذيب النفس . وقد أُشير إلى الأول بقوله : مَن آمن

فما عَجُولٌ على بَوٍّ تُطيفُ به لها حَنينانِ إعلانٌ وإسْرار
تَرْتَعُ ماغَفَلَتْ حتى إذا ادَّكَرَتْ فإنما هى إقبالٌ وإدْبار
يوْمًا بأَوْجَدَ مِنّى حينَ فارَقَنى صخْرٌ ولِلدهرِ إحْلاء وإمْرار

« العجول من الإبل : الواله التى فقدت ولدها ، لعجلتها فى جيئتها وذهابها جزعا والبوّ : جلد ولد الناقة يحشى تبنا ونحوه ويقرب منها فتعطف عليه وتدرّ ، وقولها : فإنما هى إقبال وإدبار : جعلها نفس الإقبال والإدبار مبالغة ، أى أنها تتلهى عن الرعى فتقبل وتدبر جزعا .

بالله . إلى : والنبيّين ، وإلى الثانى بقوله : وآتى المال . . . إلى : والرقاب ، وإلى الثالث بقوله : وأقام الصلاة . . . إلى آخرها . ولذلك وُصِفَ المستجمعُ لها بالصدق ، نظراً إلى إيمانه واعتقاده ، وبالتقوى ، اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق سبحانه ، ولذلك قال عليه السلام : مَن عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان .

برُّ الوالدين وصِلةُ الرحِم

وعبقرياتهم فى الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى *

وإليك شَذْوًا مِن عَبْقَرِيَّاتِهِم فى لَوْنٍ من ألوان البر لقدتراه بادِىَ الرأى قليلَ الخطر ، وهو عند الله الحقِّ ، ولَدى إلقاء البال إليه ، وإنعام النظر فيه ، عظيمُ كُلَّ العِظَم ، خطير كلَّ الخطَر ، ذلك هو صلة الرحم بعامّة ، وبر الوالدين بخاصة ، ولقد قرَن الله بِرَّ الوالدين بالتوحيد ، وأكثَرَ فى كتابه المُنزَل مِن الحَضِّ على هذا البر بأسلوب يُخَيِّلُ إلى السامع إليه أن برَّ الوالدين ركن من أركان الدين ، وأساس من أُسُسِ الأخلاق لا يُؤْبَه لسائرها بدونه ، وإنه لكذلك ، وفى الحق إن هذه الإشادةَ البالغةَ من الإسلام ببر الوالدين وصلة الرحم لَمِمَّا يُعَدُّ من فضائل هذا الدين الحنيف وخصائصه التى يمتاز بها . فَلْيُلْقِ أبناءُ اليوم بالهم إلى ذلك ، وليجعلوه دائما نُصْبَ أعينهم ، إن كانوا يريدون الخير لأنفسهم ، وإلا فلا يُبْعِدُ اللهُ إلّا مَن ظلَم . . . هذا وستسمع بادئ ذى بدء خيرَ

(*) البابة عند العرب : الوجه ، والبابات الوجوه وأنشدوا لتميم بن مقبل :

بنى عامر ماتأمرون بشاعر تخير بابات الكتاب هجائيا

معناه : تخير هجائى من وجوه الكتاب ، ويقال فلان من أهون باباته الكذب وهى أنواع خبثه ، وإذا قال الناس : هذا شىء من بابتى ، فمعناه من الوجه الذى أريده ويصلح لى .

ما قالوا فى هـذا اللونِ من البر، ثم نعقبه بخير ما قالوا فى الآباء والأبناء والأقارب، مما يتأشب إلى هذا المعنى، وينشعب به القول، ولا يخلو بعضه من طرافة، حتى نستوعب المنتقى من كلامهم فى كل باب، وحتى يكون فيما يستطرف منه استراحة للقارئ وانتقال يَنفى ملل الجِدّ عنه... فمن ذلك ما يقول الله عز وجل - وَنَتَجَزأ بهذه الآية الكريمة الجامعة عن سائر الآيات التى يَزْخَرُ بها كتاب الله فى باب البرّ بالوالدين -: وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وبالوالِدَين إحسانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أحدهما أو كِلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقُلْ لهما قولا كريما، واخفض لهما جَناح الذل من الرحمة وقل رَبِّ ارحمهما كما رَبَّيانى صغيراً، رَبُّكم أعلَمُ بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوّابين غفورا، وآتِ ذا القُرْبى حَقَّهُ... الآيات

«قوله سبحانه: وَقَضَى رَبُّكَ: أى أَمَرَ أمرا مقطوعا به... وإنّها لكلمة مُرَوِّعة تَرُجُّ النفسَ رَجًّا وتُزَلزل أرجاءها زلزالا شديدا. ولا جَرَم أنَّه كتابُ الله الذى أُحكِمَتْ آياته. أما قوله سبحانه: ألّا تعبدوا إلا إياه: أى قَضَى ربك بأن لا تعبدوا إلا إياه؛ لأن غاية التعظيم لا تحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام. وقوله: وبالوالدين إحسانا، أى وقَضَى بأن تُحْسِنوا بالوالدين إحسانا، وقوله: إما يَبْلُغَنَّ عندك الكِبَرَ أحدهما، فإمّا: هى إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيدا لها، فكأنه قال: إنْ يَبلُغَن، وأحدهما فاعل يَبْلُغن، وأُفٍّ: صوت يدلّ على التضجُّر، وعندك: قال الزمخشرى: معناه: أن يكبرا ويعجزا ويصيرا كَلاًّ على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما فى بيته وكَنَفه، وذلك أشَقُّ عليه وأشدُّ احتمالا وصبرا، وربما تَوَلّى منهما ما كانا يتوليان منه فى حال الطفولة، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأةَ الخُلق ولِينَ الجانب

والاحتمال ، حتى لا يقول لهما - إذا أضجره ما يُستَقذَر منهما أو يَستثقل من دُونهما - : أُفٍّ ، فضلا عما يَزيد على أُفٍّ . . . قال : ولقد بالغ سبحانه فى التوصية بهما كما ترى ، حيث افتتح الآية بأن شَفَع الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما - التوحيد والإحسان إلى الوالدَين - فى سلك القضاء - الأمر - بهما معا ، ثمَّ ضَيَّقَ الأمرَ فى مراعاتهما حتى لم يُرَخِّص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر ، مع موجبات الضجر ومقتضياته ، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها فى الاستطاعة . . . وقوله : ولا تنهرهما : أى لا تَنْهَهُما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك ، وقل لهما قولا كريما : أى جميلا ، كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة . وقوله سبحانه : واخفض لهما جناح الذل ، قال الإمام الزمخشرى : فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعنى : واخفض لهما جناحك كما قال : واخفِضْ جناحك للمؤمنين ، وأضافه إلى الذُّلِّ أو الذِّلِّ[1] كما أضيف حاتم إلى الجود ، على معنى واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول ، والثانى : أن تجعل لِذُلِّهِ أو لِذِلِّه لهما جناحا خفيضا كما جعل لبيدٌ - الشاعر المخضرم - للشَّمالَ يَدًا ولِلقِرَّةِ زِماما[2] مُبالَغَةً فى التذلل والتواضع لهما ، وقوله سبحانه : من الرحمة : أى من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما لِكِبَرِهما وافتقارهما إلى مَن كان أفقَر خلق الله إليهما بالأمس ،

(١) الذل الأول من ذل ذلا فهو ذليل بمعنى الخضوع ، والذل الثانى بكسر الذال ، وبضمها أيضا - من ذل يذل فهو ذلول بمعنى اللين (٢) فى قوله من معلقته :

وغَدَاةِ ريحٍ قد كشَفْتُ وقِرَّةٍ إذْ أصْبَحتْ بِيَدِ الشَّمالِ زِمامُها

و القرة : البرد يقول لبيد : كم من غداة تهب فيها الشمال - وهى أبرد الرياح - وبرد قد ملكت الشمال زمامه ، قد كشفت عادية البرد عن الناس بنحر الجزر لهم ، وتحرير المعنى : كم من برد كشفت غرب عاديته بإطعام الناس .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رِضَا اللهِ فى رضا الوالدَين ، وَسُخْطُهُ فى سُخْطِهما . وَرُوِى : يَفْعَلُ البَارُّ مايشاء أنْ يفعلَ فلن يدخُلَ النار ، ويَفْعَلُ العاقُّ مايشاء أن يَفعَلَ فلن يدخلَ الجنة : وقال رجل لرسول الله صلوات الله عليه : إن أبَوَىَّ بلغا من الكِبَرِ أنْ ألِيَ منهما ماوَلِيَا مِنِّى فى الصغر ، فهل قَضَيْتُهما حقَّهما ؟ قال : لا ، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يُحِبّان بقاءَكَ ، وأنت تَفعلُ ذلك وأنت تريد مَوْتَهما : وعن حُذَيفةَ : أنه استأذَن النبيَّ صلى الله عليه وسلم فى قتل أبيه وهو فى صَفِّ المشركين ، فقال : دَعْهُ يليهِ غيرُكَ . وسُئِل الفُضَيلُ بنُ عِيَاضٍ عن بِرِ الوالدين ، فقال : أن لاتقومَ إلى خِدْمَتِهِما عن كَسَلٍ ، وسُئل بعضُهم . فقال : أن لاترفع صوتَكَ عليهما ، ولا تنظرَ شَزْرا إليهما ، ولا يَرَيا مِنكَ مُخالَفَةً فى ظاهِرٍ ولا باطِنٍ ، وأن تَترَحَّم عليهما ماعاشا ، وتدْعُوَ لهما إذا ماتا ، وتقومَ بخدمة أوِدَّائِهما من بعدِهما ، فعن النبي صلى الله عليه وسلم : إن من أبَرِّ البِرِّ أنْ يَصِلَ الرجلُ أهلَ وُدِّ أبيه . . . أمَّا قوله تعالى : وآت ذا القُرْبى حَقَّه . فهذا توصيةٌ بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما ، يقول سبحانه : آتوهم حقَّهم ، وحَقُّهم صلتُهم بالمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السَّرَّاء والضرَّاء والمعاضدة إن كانوا مياسيرَ ، وتعهدُهم بالمال إن كانوا عاجزين عن الكسب « انظر التفصيلات فى كتب الفقه » وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إنى أريد الغزو ، فقال عليه الصلاة والسلام : أحَيٌّ أبواك ؟ قال : نعم ، قال : فَفِيهما فَجَاهِدْ . وسُئل الحسنُ البَصْرِىُّ رضى الله عنه عن بِرِّ الوالدين ، فقال : أنْ تَبْذُلَ لهما ما ملكت ، وتطيعَهما فيما أمَرَاكَ ، مالم يكن معصيةً ، وآيةُ ذلك قولُه تعالى : وإنْ جَاهداك على أن تُشرِكَ بى ماليس

لكَ به عِلْمٌ فلَا تُطِعْهُما، وصَاحِبْهُما فى الدُّنْيا مَعْرُوفًا ...

* * *

ومما يُؤْثَرُ من أخبار البَرَرَة : ما يقول المأمون بنُ الرشيد : لم أرَ أحداً أبَرَّ من الفضل بن يَحيي ـ البرمكى ـ بأبيه ، بَلَغَ من بِرِّهِ به أنّ يَحيي كان لا يتوضأ إلا بماء مُسَخَّن وهما فى السجن ، فمنعهما السّجانُ من إدخال الحطب فى ليلة باردة ، فقام الفضل ـ حين أخذَ يَحيي مَضْجَعَه ـ إلى قُمقُمٍ [1] كان يُسَخَّنُ فيه الماءُ ، فملأه ثم أدناه من المصباح ، فلم يَزل قائما وهو فى يده حتى أصبح ... وقيل لعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم : إنَّكَ من أبَرِّ الناس بأمك ولَسْنا نَرَاك تأكُلُ مع أُمِّكَ فى صَحْفَةٍ ، قال : إنى أخاف أن تَسبِقَها يَدِى إلى شىءٍ سَبَقتْ عينُها إليه فأكون قد عَقَقْتُها . وقيل لِعُمَرَ بن ذَرٍّ [2] ـ وقد مات ابنه ـ : كيف كان بِرُّ ابنِكَ بكَ ؟ قال : ما ماشَيتُه قَطُّ نهاراً إلا مَشَى خَلْفِى ، ولا ليلا إلا مَشَى أمامى ، ولا رَقِىَ سَطْحا وأنا تحته .

* * *

ومما يروى فى باب العقوق وأحوال العَقَقَة : « والعقوقُ ضِدُّ البِرِّ »

(١) إناء من نحاس يسخن فيه الماء (٢) هو عمر بن عبد الله بن ذر بن زرارة بن مسعود الهمدانى كان واعظا بليغا وعابداً صالحا وكان ابنه ـ واسمه ذر ـ مباركا طيعا له . دخل يوما على ابنه وهو يجود بنفسه فقال : يا بنىّ ، إنه ما علينا من موتك غضاضة ـ ذل وانكسار وفتور ـ ولا بنا إلى أحد سوى الله حاجة . فلما مات وصلى عليه وواراه وقف على قبره ؛ وقال : ياذر ، قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، لأنا لا ندرى ما قلت وما قيل لك . اللهم إنى وهبت له ما قصر فيه مما افترضت عليه من حق ، فهب له ما قصر فيه من حقك واجعل ثوابى عليه ـ يريد ثواب صبره ـ له ، وزدنى من فضلك ، إنى إليك من الراغبين قال ابن خلكان : وكان عمر المذكور يعد من المرجئة ، وتوفى سنة ١٥٥ هـ

وأصله من العَقّ وهو الشق والقَطْع ، يقال عَقَّ الولَدُ والدَه يعُقّه عَقًّا وعقوقا ومَعَقَّةً : إذا شَقَّ عصا طاعته ، وعقَّ والديه : قطعهما ولم يصل رحمَهُ منهما وقد يُعَمّ بلفظ العقوق جميعُ الرَّحِم ، والولد عاق ، والجمع عَقَقَة ، مِثل كَفَرة » فمن قولهم فى العقوق : العقوقُ ثُكْلُ من لا يَثْكَلُ .. .. .. « الثكلُ الموت والهلاك ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ فى فِقدان الرجل والمرأة ولدَهما ، يعنون أنّ مَن ابتلى بولدٍ عاقٍ فكأنه ثكِلَهُ » وقال بعضهم لابن له عاقّ : أنت كالإصْبَعِ الزائدة ، إنْ تُرِكَتْ شانَتْ وإن قُطِعَتْ آذَت ... وقيل لأعرابيٍّ كيفَ ابنُكَ ؟ ـ وكان عاقًّا ـ فقال : عَذَابٌ رَعِفَ به الدَّهر ، فَلَيْتَنِي قَدْ أَوْدَعْتُهُ الْقبْر ، فإنه بَلَاءٌ لا يقاومه الصبر ، وفائدة لا يجب فيها الشكر « قوله رعف به الدهر : يريد تقدم به الدهر وعجل »

وأورد أبو العباس المبرِّد فى الكامل هذه الأبياتَ لامرأة يقال لها أُمُّ ثواب الهِزَّانية ، فى ابنها ـ وكان لها عاقاً ـ وقد اختارها أبو تمام فى حماسته :

رَبَّيْتُهُ وهْوَ مِثْلُ الفَرْخِ أَعْظَمُهُ ... أُمُّ الطَّعامِ تَرَى فى رِيشِه زَغَبا

حَتَّى إذا آضَ كالفُحّالِ شَذَّبَهُ ... أَبَّارُهُ وَنَفَى عَنْ مَتْنِهِ الكَرَبا

أَنْشَا يُخَرِّقُ أثْوابِى ويَضْرِبُنِى ... أَبَعْدَ سِتِّينَ عِنْدِى يَبْتَغِى الأدبا

إنِّى لأُبْصِرُ فى تَرْجِيلِ لِمَّتِهِ ... وخَطِّ لِحْيَتِهِ فى وَجْهِهِ عَجَبا

قالَتْ لهُ عِرْسُهُ يَوْمًا لِتُسْمِعَنِى ... رِفْقاً فإنَّ لنا فى أُمِّنا أرَبا

ولوْ رَأتْنِيَ فى نارٍ مُسَعَّرَةٍ ... مِنَ الجحيمِ لزادَتْ فَوْقَها حَطَبا

« هذه أبيات من شعر الفطرة ، تصف فى دِقّة حالَ الابن العاقّ يكون ضَلْعهُ وَهَوَاهُ مع زَوْجه على أمّه ، وكذلك تصف ذلك العداء القديمَ بين الكَنَّةِ

وحَمَاتِها[1]، وقولها: أعظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ، وصف للفرخ، ومعناه: أكبرُ أعضائِهِ أُمُّ الطعامِ: أى معدته، وكذلك قولها: ترى فى ريشه زغبا: وصف آخر للفرخ، والزَّغب: أول مايبدو من ريش الفرخ، تصف ضعف نشأة ابنها، وآض: صَارَ، والفُحَّال: فحال النخل، أى الذَّكَرُ منه، وأبَّارُه: الذى يصلحه يقال: أبَّرْت النخل: إذا لقَّحْتَهُ، وشذَّبَهُ: قطع ماعليه من الكرانيف وهى أصول السَّعَف الغلاظ التى إذا يَبِسَتْ صارت أمثال الأكتافِ، ومتنُه: فتن كل شىء ماظهر منه، والكرب: مايبقى من أصول السّعف فى النخل تريد: حتى إذا بلغ أشـــده واستوى طوله، وأنشا: أصله أنشأ، تريد: ابتدأ وأقبل، وقولها: أبعدستين عندى يبتغى الأدبا، تريد: أن ضربه إياها يريد تأديبها بعد أن بلغت الستين حمقٌ منه وعبثٌ، إذ من العناءِ رياضة الهَرِم، وقولها: إنى لأبصر ... البيت، فاللمة: الشعر الذى يلم بالمنكب، والترجيل: تسريح الشعر تصفه بالحسن والجمال، وعرسه: زوجُهُ، وأمنا .. أضافتها إلى نفسها خديعة، وأربا: حاجة، تريد: لاينبغى لك أن تهينها» . . .

وقيل لرجل أبطأ فى التزوج: لِمَ أبطأت؟ فقال: أريد أن أسبق أولادى فى اليُتْم قبل أن يسبقونى فى العقوق ...

✲ ✲ ✲

وأورد المبرِّد أيضا عن رجل يسمى أبا المِخَشّ حديثا طريفا قال: قال أبو المِخَشّ: كانت لِىَ ابنة تجلس معى على المائدة فتُبرزُ كفًّا كأنها طَلْعَة، فى ذراعٍ كأنَّها جُمَّارَة، فلا تقعُ عَيْنُها على أُكْلَةٍ نفيسةٍ إلَّا خصَّتنى بها

(١) الكنة: امرأة الابن ـ وامرأة الأخ أيضا ـ والحماة: أم زوجها؛ قال الشاعر:

إن الحماة أولعت بالكَنَّهْ وأبت الكَنَّةُ إلا ضِنَّهْ

فزوَّجتُها .. وصار يجلِس معى على المائدةِ ابنٌ لى ، فيبرزُ كفًّا كأنها كِرْنافةٌ ، فى ذِراعٍ كأنها كَرَبة ، فواللهِ إن تَسبِقُ عَيْنى إلى لُقْمَة طَيِّبة إلا سبقت يَدُه إليها ... » الطالعة فى كلام أبى المخشّ هذا جمعها طَلْع ، وهو نَورُ النخلة مادام فى الكافور ، وهو وعاؤه الذى ينشق عنه ، والجمارة : شحمة النخلة التى إذا قطعت قِمَّة رأسها ظهرت كأنها قطعة سَنام ، والكرنافة : طرْف الكرْبة العريض الذى يتصل بالنخلة كأنه كتف ، وقوله : إن تسبق عينى فإن نافية بمعنى ما »

* * *

وأورد أبو تمام فى باب الهجاء من حماسته لأحد الشعراء أبياتا لها قصةٌ فيها اعتبار لمن أراد أن يعتبر من عَقَقَةِ الأبناء ، وإليك هذه القصة والأبيات :

كان فى زمن عبد الملك بن مروان رجل يُسمَّى مُنَازِلَ بنَ فُرْعان ، وكان لِمُنازلٍ هذا ابْنٌ يقال له خليج - وهو من رهط الأحنف بن قيس - فعقَّ خليجٌ أباهُ مُنازلًا ، فقدَّمه إلى إبراهيمَ بنِ عَربىٍّ ، والى اليمامة ، مُسْتَعْدِياً عليه - وقال :

تَظَلَّمَنى حَقِّى خَليجٌ وعَقَّنى ... على حِينَ كانت كالحَنِىِّ عِظامِى [1]
لَعَمْرِى لقـد رَبَّيْتُه فرِحاً به ... فلا يفرحَنْ بَعْدى امْرُؤٌ بغُلام
وكيفَ أُرَجِّى النفع منْهُ وأمُّهُ ... حَـرَامِيَّةٌ ؟ ماغَرَّنى بحَرام [2]
ورَجَّيْتُ منهُ الخيْرَ حينَ اسْتَزَدْتُه ... وما بعضُ مايَزْدادُ غيْرَ غَرامِ [3]

---

(١) كانت كالحنى عظامى : أى كانت عظامى كالحنى ، وهو جمع حنية ، وهى القوس ، لأنها محنية ، أى معطوفة

(٢) حرامية : نسبة إلى حرام وهى قبيلة

(٣) الغرام هنا : العذاب والشر الدائم والبلاء الذى لا يستطاع أن يتفصى منه قال تعالى : إن عذابها كان غراما : أى هلاكا دائما ملحا

فأرادَ إبراهيمُ بنُ عَرَبى ضَرْبَهُ ، فقال : أَصْلَح الله الأمير ، لا تَعْجَلْ علىَّ أتعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا مُنَازِل ابن فُرعان ، الذى عقَّ أباه ، وفيه يقول أبوه :

جَزَتْ رَحِمٌ بَيْنِى وبَيْنَ مُنازِلٍ جَزاءً كما يَسْتَنْزِلُ الدَّيْنَ طالِبُهْ (١)

لَرَبَّيْتُهُ حتى إذا آضَ شَيْظَماً يَكادُ يُسَاوِى غارِبَ الفَحْلِ غارِبُه (٢)

فلمَّا رَآنى أُبْصِرُ الشَّخْصَ أشْخُصاً قَرِيباً وذا الشَّخْصِ البَعِيدِ أُقارِبُه (٣)

تَغَمَّدَ حَقِّى ظالِماً ولَوَى يَدِى لَوَى يَدَهُ اللهُ الَّذِى هُو غالِبُه (٤)

وكانَ له عِنْدى إذا جاعَ أَوْ بَكى مِنَ الزَّادِ أَحْلَى زادِنا وأطايِبُهْ

ورَبَّيْتُه حتى إذا ما تَرَكْتُه أخاالقَوْمِ واسْتَغْنَى عن المَسْحِ شارِبُهْ (٥)

وجَمَّمْتُها دُهْماً جِلادًا كأنها أشَاءُ نَخِيلٍ لم تُقَطَّعْ جَوانِبُهْ (٦)

(١) يدعو على ابنه منازل ، وجعل فعل الجزاء للرحم والجازى هو الله سبحانه يقول : جزى الله منازلا على الرحم أى القرابة التى بينى وبينه ـ فقد قطعها ـ جزاءً يستوفى له وعليه ، كما يستنزل صاحب الدين حقه من المدين

(٢) الشيظم : الطويل ، ولربيته : جواب قسم انطوى عليه الكلام ، وربيته وربيته وتربيته وربته تربيبا : بمعنى واحد ، وآض : صار ، وأصل الغارب فى الإبل ـ وهو ما يكون قدامه السنام ـ : ثم استعير حتى قيل لأعالى كل شىء : غوارب ، يقول : إنه رباه حتى بلغ مبلغ الرجال

(٣) قريبا : حال ، والمعنى : أبصر الشخص مقاربا ، أى أبصره ـ وأنا قريب منه ـ أشخصا ، وأقاربه : أظنه قريبا ، يقول : لما رآنى شيخا كبيرا ضعف نظره واختلفت مواقع بصارته حتى يرى الشخص القريب منه شخصا ويرى الشخص البعيد منه قريباً

(٤) تغمد حقى : ستره وأخفاه ، وقوله : ولوى يدى : أى فتلها وأزالها عن حالها وهيئتها

(٥) أخا القوم : قال الإمام التبريزى : نصب أخا القوم على الحال من الهاء فى تركته ، وجاز كونه حالا وإن كان معرفة فى اللفظ لأنه لا يعنى قوما بأعيانهم وإنما يريد تركته قويا لاحقا بالرجال (٦) وجمعتها : الضمير إلى الخيل وإن لم

فأَخْرَجَنِى منهـا سَلِيبًا كأنّنى حُسَامٌ يَمانٍ فارَقَتْهُ مَضارِبُهْ [1]
أإنْ أُرْعِشَتْ كَفّا أبيكَ وأَصْبَحَتْ يَدَاكَ يَدَىْ لَيْثٍ فإنَّكَ ضارِبُهْ [2]

فقال الوالى : ياهذا ، عَقَقْتَ فَعُقِقْتَ ، فما لكَ مَثَلًا إلا قولُ خالدٍ لأبى ذُؤَيْب :

فلا تَجْزَعَنْ مِنْ سِيرَةٍ أنْتَ سِرْتَها فأَوَّلُ رَاضِى سِيرَةٍ مَنْ يَسِيرُها

قال الإمام التبريزى : وذلك أن أبا ذُؤَيب [3] هذا كان غلاما ، وكان لِرَجُل صديقةٌ ، فكان الرجل يبعث أبا ذؤيب إلى صديقته بالرسائل ، فلما ترَعْرَعَ أبو ذؤيب كَسَرَها على الصديق ـ يريد أفسدها وأمالها عنه إليه ـ ، ولما ترَجَّل أبو ذؤيب ـ يريد صار رجلا ـ مُنِعَ منها وحُجِبت عنه وحجب عنها ، فكان يبعث خالدا إليها بالرسائل ، وخالد يومئذ غلام ، فلما ترعرع خالد كَسَرَها على أبى ذؤيب ، فقال أبو ذؤيب يعنف المرأة :

تُرِيدِينَ كَىْ تَجْمَعِينِى وخالدا وهل يُجْمَعُ السَّيْفانِ وَيْحَكِ فى غِمْدِ

وجعل يؤنب خالدا ، فقال خالد :

يذكرها وهذا أسلوب معروف لهم، ودهما : جمع أدهم، وهو الأسود، وجلادا : صلابا ، والأشاء بالفتح والمد: صغار النخل وقيل النخل عامة واحدته أشاءة (١) السليب: الذى سلب ماله، استعاره من الشجر يسلب ورقه ويعرى منه ، والمضارب: جمع مضرب : حدّ السيف ، يقول : لما جمعت من الخيل الدهم الجلاد ما جمعت وأعددتها لى وله ، عدا علىّ بعد أن ربيته وبلغ مبلغ الرجال وجردنى من الخيل وتركنى سليبا ، فأشبه حالى حال السيف اليمان القاطع تفلل حده (٢) أرعشت كفا أبيك : يريد : أبعد أن كبر أبوك وبلغ من الكبر عتيا وأصبحت أنت شابا قويا ، تجترئ عليه وتهينه وتضربه

(٣) أبو ذؤيب هذا هو الشاعر أبو ذؤيب الهذلى ، وخالد هو ابن أخته ، والمرأة هى امرأة رجل يقال له عبد عمرو بن عامر من بنى عامر بن صعصعة « انظر أمثال الميدانى فى شرحه هذا المثل « لاتجزعن من سيرة أنت سرتها » » .

فلا تَجْزَعَنْ مِن سِيرَةٍ أنتَ سِرتَها .... البيتَ

ولأُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ الشاعِرِ الجاهلي [١] أبياتٌ حسانٌ يشكو فيها هو الآخرُ ابنه الذي عقّه وأساء إليه : وقد اختارها أبو تمام في حماسته قال :

غَذَوْتُكَ مَوْلودًا وعُلْتُكَ يافِعًا ... تُعَلُّ بِمَا أُدْنِي إليكَ وتُنْهَلُ [٢]

إذا لَيْلَةٌ نابَتْكَ بالشَّكْوِ لم أَبِتْ ... لِشَكْواكَ إلاّ ساهِرًا أتَمَلْمَلُ [٣]

كأَنِّي أنا المَطْرُوقُ دونَكَ بالّذي ... طُرِقْتَ به دُونِي وعَيْنِيَ تَهْمُلُ [٤]

فلمّا بلغتَ السنَّ والغايةَ الّتي ... إليها مَدَى ما كنتُ فيكَ أُؤَمِّلُ

جَعَلْتَ جزائي مِنْكَ جَبْهًا وغِلْظَةً ... كأنكَ أنتَ المُنعِمُ المُتَفَضِّلُ [٥]

---

(١) اسمه عبد الله بن ربيعة بن عوف من بني بكر بن هوازن . وكان ممن حرّم الخمر في الجاهلية ورفض عبادة الأوثان والتمس الدين وطمع في النبوة فلما بعث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه

(٢) وعلتك : من عال عياله يعولهم : كفاهم معاشهم ، ويروى : ومنتك، من مان أهله يمونهم مونا : أنفق عليهم ، ويافعا : شابا ، من أيفع الغلام مثل أبقل الموضع فهو باقل وأورق النبت فهو وارق وأورس فهو وارس وأقرب فهـــو قارب : إذا قربت إبله من الماء ليلا، وكلهن نوادر ، وتعل من عله يعله : سقاه ثانية ، وتنهل من أنهله : سقاه أول سقية ، يريد ، إطعامه وسقيه مرة بعد أخرى

(٣) الشكو : المرض نفسه قاله الليث وأنشد :

أَخِي إنْ تَشَكَّى مِنْ أَذًى كنتُ طِبَّهُ ... وإنْ كان ذاكَ الشَّكْوُ بِي فأَخِي طِبِّي

وأتململ : يريد يتقلب على فراشه من غمه عليه . قال اللغويون : إذا نبا بالرجل مضجعه من همّ أو وصب قيل قد تململ، وأصله أتملل ، من الملة وهي الرماد الحار يدفن فيه الخبز لينضج كأنّ المتقلب على فراشه من الهم يتقلب على تلك الملة

(٤) المطروق من طرقه الهم يطرقه ـ بالضم ـ طرقا : أتاه ونزل به، مجاز من طرق القوم : جاءهم ليلا ، وتهمل : تسيل وتفيض وقد هملت عينه تهمل ـ بالضم والكسر ـ هملا وهملانا : سالت وفاضت

(٥) جبها مصدر جبهه بالمكروه : استقبله به ، وذلك مجاز من جبهه : صك جبهته. ويروى : جعلت جزائي غلظة وفظاظة

فليتك إذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما الجار المجاور يفعل(١)
وسميتنى باسم المفند رأيه وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل(٢)
تراه معدًّا للخلاف كأنه برد على أهل الصواب موكل(٣)

✲ ✲ ✲

ومن المستطرف من أقوالهم فى الأولاد المتخلفين: ما يروى أن رجلا بعث ابنه ليشترى حبلا، فقال له: اجعله عشرين ذراعا، فقال الولد: فى عرض كم؟ قال: فى عرض مصيبتى فيك.. وكان لأبى العباس المبرد صاحب الكامل ابن متخلف، فقيل له يوما: غط سوءتك، فوضع يده على رأس ابنه.. وقيل لصبى: لم لا تتعلم الأدب؟ فقال: إنى أخاف أن أكذب والدى، لأنه قال لى: إنك لا تفلح أبدا...

✲ ✲ ✲

هذا وكما أن لوالدك عليك حقًّا كذلك لولدك عليك حق: ومما ورد فى ذلك ماجاء فى الحديث: من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه، وأن يعفه إذا بلغ. «أن يحسن أدبه: أن يعنى بتربيته وتهذيبه وتعليمه، وأن يعفه: أى يعمل على أن يكون عفاً عن الحرام فيزوجه»... وقال حكيم من أدب ولده صغيرا، سر به كبيرا، وقالوا: من أدب ولده، أرغم حاسده.

ومن آداب الإسلام: إذا بلغ أولادكم سبع سنين فمروهم بالطهارة والصلاة وإذا بلغوا عشرا فاضربوهم عليها، وإذا بلغوا ثلاثة عشر ففرقوا بينهم فى المضاجع؛ ومن كلامهم: لاعب ابنك سبعا وعلمه سبعا وجالس به إخوانك

(١) كما الجار المجاور يفعل: أى كما يراعى الجار حق الجوار من الوفاء به
(٢) المفند رأيه: اسم مفعول من فند رأيه: خطأه (٣) معدا: اسم فاعل، أعد للأمر عدته: هيأه له

سبعا يتبيَّنْ لك أخلَفٌ هُو بعدك أم خَلْفٌ « الخَلَفُ ـ بفتح اللام : الولد الصالح ، والخَلْف ـ بسكونها : الطالح ، تقول : أعطاك الله خلفاً مما ذهب لك ولا تقل خَلْفًا ، وتقول أنت خَلْفُ سَوْءٍ من أبيك ، هذا هو الأعرف عند أهل اللغة [1] » وقال رجل لأبيه . يا أبت ، إن عَظِيم حَقِّكَ عَلَيَّ لا يُذْهِبُ صغيرَ حَقِّي عليك ، وإن الذى تمُتُّ به إلىَّ أمُتُّ بمثله إليك ، ولستُ أزْعمُ أنَّا على سواء ، ولكن لا يَحِلُّ الاعتداء ...

وقالوا : إنَّ الولَدَ البارَّ أبَرُّ من الوالِد ، لأنَّ بِرَّ الوالدَيْن طبيعةٌ ، وبِرَّ الولد واجبٌ ، والواجب أبدا ثقيل ، ولعل المتنبي ينظر إلى هذا المعنى إذ يقول :

إنما أنت والدٌ والأبُ القا طعُ أحْنَى من واصِلِ الأولاد

* * *

ومما يستطرف فى هذا الباب ما يروى من احتجاج بعض العَقَقَة لعقوقهم : فقد قيل لبعض الفلاسفة : لِمَ تَعُقُّ والدَيْكَ ؟ قال : لأنهما أخرجاني إلى الكَوْن والفساد ... وضربَ رَجُلٌ أباهُ ، فقيل له : أما عَرَفْتَ حَقَّهُ ؟ قال : لا ، لأنَّهُ لم يَعرِف حقِّي ، قيل : فما حقُّ الولد على الوالد ؟ قال : أنْ يتَخيَّرَ أمَّهُ ، ويُحسِّنَ اسمَه ، ويَختِنَهُ ، ويُعَلِّمَهُ القرآنَ ، ثم كشف عن عَوْرَته فإذا هو أقْلَفُ ـ لم يُختَنْ ـ وقال : اسْمِي بُرْغُوث ... ولا أعْلم حَرْفا من القرآن ، وقد استَوْلَدَنى من زَنجيَّة ... فقيل للوالد : احتمله ، فإنك تستأهل ...

---

(١) قال الله عز وجل : فخلف من بعدهم خلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وقال لبيد :

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم وبقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجْرب

وعيَّر رجل ابنَه بأمه، فقال الابنُ: هي والله خير لي منك، لأنها أحسنت الاختيارَ فولَدَتني من حُرٍّ، وأنت أسأت الاختيارَ فولَدْتَني من أمَةٍ ...

وقال رَجُلٌ لابنه: ماأطيبَ الثُّكْلَ يابُنَيّ! فقال الابنُ: اليُتْمُ أطيب منه ياأبت! وقيل لبعضهم: أيُّ ولدك أحبُّ إليك؟ قال: صَغيرُهم حتى يَكْبَر، ومَريضُهم حتى يَبْرَأ، وغائِبُهم حتى يَقْدَم...

«أقولُ: وإنما قال صغيرهم حتى يكبر، لأن كبير الأولاد في العادة قلما يَظْفَرُ من حب أبيه بمثل مايظفَرُ به الصغير، وقد قالوا في ذلك مايُبين عن السبب، وهو ماروى أن رجلا من العرب رأى بنيه يَثِبون على الخيل وقد تنادَوا بالغارة، فذهب يروم ذلك مرة وثانية فلم يَقْدِرْ، فقال: من سَرَّهُ بنوه ساءته نفسه ... وفي ضِدِّ هذا المعنى يقول أكْثَمُ بنُ صَيْفِيّ حكيم العرب:

إنَّ بَنِيَّ صِبْيَةٌ صَيْفِيُّونْ   أفْلَحَ مَن كان له رِبْعِيُّونْ

«يقال أصافَ الرجل يُصيف إصافةً: إذا لم يُولَدْ له حتى يُسِنَّ ويَكْبَرَ وأولادُه صَيْفِيُّون، والواحد صَيْفِيّ، والرِّبْعِيُّون: الذين وُلِدُوا في حداثته وأوَّل شبابه، ولمَّا حضرتْ سليمانَ بنَ عبد الملِكِ الوفاةُ تمثَّلَ بهذا البيت لأنَّه لم يكن في أبنائه من يُقلِّدُه العهدَ بعدَه، ومعنى ذلك عندهم: أنَّ الأولادَ الكبار أفضلُ من الصغارِ لَدَى الوالدِ، ولا سيما إذا كَبِرَ. وهذا على نقيض قولِ القائل: من سرَّه بَنُوهُ ساءتهُ نفسُه، وإن كان لكلٍّ وِجهة هو مولِّيها»

* * *

وناول عمرُ بن الخطاب رجُلاً شيئا فقال له: خَدَمَك بنوك، فقال عمر: بل أغنانا اللهُ عنهُمْ.

وكان يقال: ابنُك رَيحانُك سَبْعًا، وخادمُكَ سبعًا ثم عدوٌّ أو صديقٌ...

وفى الأثرِ: ريحُ الولدِ من ريحِ الجنَّة...

وكان رسول الله يُقبِّل الحسنَ بنَ عَلِيّ رضى الله عنه - وهو حفيد المصطفى - يوما، فقال الأقرعُ بنُ حابس: إنّ لى عشرةً من الأولاد ماقبّلت واحدا منهم، فقال رسول الله: فما أصنع إن كان الله نَزَعَ الرحمةَ من قلبك!

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا مات الرجل انقطع عملُه، إلا من ثلاث: صَدَقةٍ جارية، أو عِلمٍ يُنتفع به، أوْ وَلدٍ صالحٍ يدعو له.

وقالوا: خيرُ ما أُعطِىَ الرجلُ بعدَ الصحة والأمْن والعقل وَلَدٌ مُوافِقٌ. من زوجةٍ موافقة * ومُتْعَةُ العَيْش بين الأهلِ والولدِ *

وكانت العَرَبُ تُسمّى مَنْ لاوَلَدَ له صُنْبُورًا، والصُّنبورُ فى اللغةِ: الأبترُ لاعَقِبَ له ولا أَخَ، فإذا مات انقطع ذِكْرُه وكان كُفّارُ قُرَيْشٍ يُطلِقون على رسول الله: صُنبورا، فأنزل اللهُ: إنَّ شانِئَكَ هُو الأبْترُ « شانئك: مبغضك، والأبتر الذى لاعقب له »...

وقال حكيم فى مَيِّت: إن كان له ولد فهو حَىٌّ وإن لم يكن له وَلَدٌ فهو ميِّتٌ

ومن أمثال العرب: ابْنُكَ ابنُ بُوحِكَ «أى ابنُ نَفْسِك لامن تَبنَّيْتَه» ومثله: وَلَدُكِ مَنْ دَمَّى عَقِبَيْكِ «يعنون: الذى نَفِسْتِ به فأدمى النِّفاسُ عقبيكِ، أى: ابنك من ولدته لا من تبنيته» وقيل لحكيم: ما السَّعادة؟ قال: أن يكون للرجل ابنٌ واحدٌ، فقيل له: الواحد يُخشى عليه الموتُ! قال: لَمْ تسألونى عن الشقاوة...

* * *

وهناك فريقٌ من الناس يذهبون إلى ذمّ الولد وقلة جدْواه : ومما يروى فى هذا الباب أنه قِيلَ لبعض الزهّادِ : هَلاَّ تزوّجْت ؟ فربما يكون لك خَلَفٌ ؟ فقال : كفى بالتزهيد فيه قوله تعالى : إنَّما أَمْوالُكُمْ وأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ؛ وقوله سبحانه وتعالى : إنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكُمْ فَاْحذَرُوهُمْ ... وقالوا : قِلّةُ العيالِ أحدُ اليَسارَيْنِ ، وقال المتنبي :

وما الدَّهْرُ أَهْلٌ أن يُؤَمَّلَ عنْده حيَاةٌ وأنْ يُشْتاقَ فيه إلى النَّسْلِ

هَلِ الْوَلدُ المحْبُوبُ إلاَّ تَعِلَّةٌ وهلْ خَلْوَةُ الحَسْناءِ إلا أذَى البَعْلِ [1]

وقد ذُقْتُ حَلْوَاءَ الْبنينَ على الصِّبَا فلا تحْسَبَنِّى قلتُ ما قلت عن جَهْلِ

وقال المَعَرِّى ـ وهو إمام الساخطين ، « أو المتشائمين كما يقولون اليوم » ـ :

أرَى وُلْدَ الفتى عِبْئًا عليه لقدْ سَعِدَ الذى أضْحَى عَقِيمَا

فإمّا أنْ يُرَبِّيَهُ عدُوًّا وإمّا أنْ يُخلِّفَهُ يَتِيمَا

وَإمّا أنْ يُصادِفَهُ حِمَامٌ فيبقى حُزْنُه أبَدًا مُقِيمَا

وبُشِّرَ الحسنُ البَصرى بابنٍ فقال : لامرحبا بمَن إن كنت غَنِيا أذْهَلَنِى ، وإن كنتُ فقيرا أتْعبنى ، لا أرضى كَدِّى له كدًّا ، ولا سَعْيِى له فى الحياة سَعْيا ، أهْتمّ بفقْرِه بعد وفاتى ، حين لا ينالنى به سرور ، ولا يُهِمُّه لى حُزْن ، وأصْحَرَ الحسن يوما ـ أى ذهب إلى الصحراء ـ فرأى صيّادا فقال : ما أكثرُ

---

(١) تعلة : يقال : فلان يعلل نفسه بتعلة : أى لهاها به كما يعلل الصبى بشىء من الطعام يتجزأ به عن اللبن . يقول : إن السرور بالولد المحبوب لا يدوم وإنما هو تعليل إلى وقت ، ثم قال : وخلوتك بامرأتك أذى لك فى الحقيقة لأنها تجلب لك ولداً تغتم من أجله وتتأذى بتربيته وربما كانت العاقبة إلى الثكل

ما يقعُ فى شبكتِك ؟ قال : كلُّ طيرٍ زاقٍّ « أى يَزُقُّ أفراخه أى يُطْعمها بفيه » فقال الحسن : هلك المُعِيلون « أى الذين لهم عيال كُثُر »

وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم لأحد ابنَىْ بِنْتِه : إنَّكم لتُجَبِّنُون وإنكم لتُبخِّلُون وإنَّكم لَمِنْ رَيْحانِ الله ، وفى الحديث أيضا : الولدُ مَجْبَنةٌ مَجْهَلةٌ مَبْخَلةٌ .. «يقولُ عليه السلام : إنَّ الْوَلَدَ يَحْمِلُ أباهُ على الجُبْنِ ، فلا يُجاهِدُ ولا يَشْجُع ، لأنَّه يُحبُّ البقاءَ لأجْلِه ، وعلى الجَهْلِ ، بمُلاعَبتِه إيَّاه ونُزُولِه إلى مُسْتواه ، وتَرْكِه العقْلَ ومُقْتضاه ، أو باشتغاله به عن طلب العلم ، وعلَى البُخلِ ، لأنَّه يُبقِى على المالِ لأجْلِه ويَبْخَلُ به ويَشِحُّ » ..

* * *

ومن أحسن ماقيل فى الإشفاق على الأولاد : قولُ حِطَّانَ بن المُعَلَّى ـ وهو شاعرٌ إسلامى ، وأبياته هذه فى الحماسة ـ :

أَنْزَلَنِى الدَّهْـرُ على حُكْمِهِ ... مِنْ شامِخٍ عالٍ إلى خَفْضِ
وغالَنِى الدَّهْـرُ بِوَفْرِ الغِنَى ... فلَيْسَ لى مالٌ سِوَى عِرْضِى
أَبْكانِىَ الدَّهْـرُ ويا رُبَّمَا ... أَضْحَكَنِى الدَّهْـرُ بما يُرْضِى
لولا بُنَيَّاتٌ كزُغْبِ القَطَا ... رُدِدْنَ من بَعْضٍ إلى بعضِ
لَكانَ لى مُضْطَـرَبٌ واسِعٌ ... فى الأرْضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرضِ
وإنمـا أوْلادُنا بَيْنَنـا ... أَكْبادُنا تَمْشى على الأرْضِ
لو هَبَّتِ الرِّيحُ على بَعْضِهِمْ ... لامْتنعت عَيْنِى مِنَ الغُمْضِ

« أنزلنى الدهر على حكمه : أنزله من العزةِ إلى الذلَّةِ يحكم فيه بما شاءَ ، ومن شامخ : من جبل شاهق طويل فى السماء ، وإلى خفض : إلى مطمئن من الأرض ، وهذا تمثيل . وغالنى الدهر : أخذه غيلة من حيث لم يدر ، وبوفر

الغنى : يريد : فى كثرة ماله ، وقوله : فليس لى مال سوى عرضى يريد: لم يبق له الدهر شيئا إلا أتى عليه سوى عرضه فلم يتقصه . والعرض : قال ابن الأثير : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان فى نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره ، وقيل : هو جانبه الذى يصونه من نفسه وحسبه ويحامى عنه أن ينتقص ويثلب ، وقال أبو العباس ثعلب : إذا ذكر عرض فلان فمعناه أموره التى يرتفع أو يسقط من جهتها بحمد أو بذم ، فيجوز أن تكون أمورا يوصف هو بها دون أسلافه ويجوز أن تذكر أسلافه لتلحقه النقيصة بعيبهم وقول الشاعر :

* وأُدرِكُ مَيسورَ الغِنَى ومعِى عِرضى * أى أفعالى الجميلة

وقوله : بما يرضى : أى أضحكنى أحيانا بما يرضينى . وقوله : كزغب القطا : واحدتها زغباء والذكر أزغب والمصدر الزغب ، وهو أوّل مايبدو من ريش الفرخ ، وكذا من شعَر الصبى ، وقوله : رُدِدْن من بعض إلى بعض : تصوير لهيئة تداخل الأفراخ وانضمام بعضهن إلى بعض أوّل نشأتهن ، يصف بناته بأنهن ضعاف لا يستطعن القيام بشُئونِهِنّ . ومضطرَب : أى اضطراب ، أى تحرك . وأكبادنا : تمثيل لمعنى الشفقة عليهن ، وقد بينها بقوله : لو هبت الريح ... البيت ... والغمض بضم الغين : النوم »

* * *

ويقول إسحاق بن خلف[1] ـ من شعراء الدولة العباسية ـ فى بنت أخت له

---

(١) ترجم له صاحب الأغانى وإسحق هذا هو الذى يقول فى صفة السيف :

أَلْقَى بجَانِب خَصْره أَمضى من الأجل المتاح
وكأنمـــا ذرّ الهبا ءَ عليه أنفاسُ الرياح =

تسمى أميمة كان حدبا عليها كلِفًا بها ، وهى من أبيات الحماسة :

لولا أُمَيْمَةُ لم أَجْزَعْ من العَدَمِ ولم أقاسِ الدُّجى فى حِنْدِسِ الظُّلَمِ
وزادنى رَغْبَةً فى العَيْشِ مَعْرِفتى ذُلَّ اليتيمةِ يَجفُوها ذَوُو الرَّحِمِ
أُحاذِرُ الفَقْرَ يوْما أنْ يُلِمَّ بها فيَهْتِكَ السِّتْرَ عن لَحْمٍ على وَضَمِ
تَهْوَى حياتى. وأَهْوَى مَوْتَها شَفَقًا
والمَوْتُ أكْرَمُ نَزَّال على الْحُرَمِ
أَخْشَى فَظَاظَـةَ عَمٍّ أَوْ جَفَاءَ أَخ
وَكُنْتُ أُبقِى عَلَيْهَا مِنْ أَذَى الكَلِمِ

«العَدَم : الفقر ، وقوله : فيهتك الستر ، فالهتك : جذبك السِّتر تقطعه من موضعه أو تشق منه جزءا فيبدو ماوراءه ، وإسناده إلى الفقر مجاز ، وقوله عن لحم على وضم ، فالوضم : ماوضع عليه اللحم من خشب ونحوه ، وكانت العرب فى باديتها إذا نُحر بعير لِلحَىِّ يقتسمونه ، تقلع شجراً وتضع عليه اللحم مُقطعاً يأخذ منه كل شريك قَسْمَهُ ولم يَعْرِضْ له أحد ، وكانت تضرب المثل فى

═ وهو الذى يقول فى مدح العربية من أبيات :

النحو يبسط من لسان الألكن والمَرْءُ تُكْرِمُه إذا لم يَلحَن

قال المبرد : وأحسبه أخذ قوله : والمرء تكرمه إذا لم يلحن من حديث حدثنا به عن الأصمعى قال : كان يقال : ثلاثة يحكم لهم بالنبل لايدرى من هم : رجل رأيته راكبا فى شارة حسنة ، أو سمعته يعرب ، أو شممت منه طيبا . وثلاثة يحكم عليهم بالاستصغار حتى يدرى من هم : رجل شممت منه رائحة نبيذ فى محفل ، أو سمعته فى مصر عربى يتكلم بالفارسية ـ أو الفرنسية أو الانكليزية أو غيرهما من اللغات ـ ورجل رأيته على ظهر طريق ينازع فى القدر .. ماأطيب هـذا الكلام وأسماه وأليقه بأخلاق السادة ..

ضعف النساء وقلة امتناعهن على طُلّابهن إلّا أن يُذادَ عنهن، بذلك اللحم ما دام مع الوضم.
وقوله: شفقا، أى خيفة، وقد شفق يشفق ـ بالفتح ـ وأشفق عليه يُشفِق: خاف، وقوله: والموت أكرم نزّالٍ على الحُرَم؛ فالحرم، جمع حُرمة، وهى عيال الرجل ونساؤه، يريد: أن الموتَ أكرمُ ضيف ينزل عليهن، وفى هذا المعنى قولهم .. دَفْنُ البنات، من المَكْرُمات، وسيمر عليك كلامهم فى هذا المعنى فى باب النساء، وقوله: وكنت أبقى عليها: من أبقيت عليه: إذا أرعيتَ عليه ورحمته »... وقال عِمرانُ بنُ حِطّان ـ وقد كانَ رأسَ القَعَدِ من الصُّفْرية « طائفة من الخوارج، وكان خطيبَهم وشاعرَهم، وهو من التابعين ـ:

لقدْ زاد الحياةَ إلىَّ حُبًّا ... بَنَاتِى أنَّهُنَّ من الضِّعَافِ
مَخَافةَ أنْ يَرَيْنَ البُؤْسَ بَعْدِى ... وَأنْ يَشْرَبْنَ رَنْقًا بَعْدَ صَافِ
وأنْ يَعْرَيْنَ إنْ كُسِىَ الجَوارِى ... فَتَنْبُو العَيْنُ عَنْ كَرَمٍ عِجَافِ
ولولا ذاكَ قد سَوَّمْتُ مُهرى ... وفى الرحمن لِلضُّعَفاءِ كافِ
أبانا مَنْ لنا إنْ غِبْتَ عَنَّا ... وصارَ الحَىُّ بعدكَ فى اختلافِ

« الرنق: الماء الكدر، وكرم: قال ابن سيده وغيره: رَجُلٌ كَرَم: أى كريم، وكذلك الاثنان والجمع والمؤنث تقول: امرأة كرم ونسوة كرم لأنه وصف بالمصدر، وعجاف: جمع عجفاء على غير قياس، والعجف: الهُزال وسوّمت مهرى: فالخيل المسوّمة: المرسلة وعليها ركبانها، وفى التنزيل العزيز: والخيلِ المسوَّمة، من قولك سوّمت فلانا إذا خلّيته وسَوْمَه، أى: وما يريد، وقيل الخيل المسوّمة: هى التى عليها السمة والسومة وهى العلامة »

وقال شاعر جاهلى يمتدح ابنه لِبِرِّه به، وهى من أبيات الحماسة:

رأيتُ رِبَاطًا حينَ تَمّ شَبَابُهُ ... وولّى شبابى ليسَ فى بِرِّه عَتْبُ
إذا كان أولادُ الرجالِ حَزَازَةً ... فأنتَ الحلالُ الحُلْوُ والباردُ العَذْبُ

لنا جانِبٌ منه دَميثٌ وجانبٌ ... إذا رَامَهُ الأعداءُ مُمْتَنِعٌ صَعْبُ
وتأخُذُهُ عند المكارمِ هِزّةٌ ... كما اهتزّ تحتَ البارِحِ الغُصنُ الرَّطْبُ

« قوله ليس في بِرِّهِ عَتْبٌ : يريد ليس في بره لَوْمٌ ولا سخط ، وقوله : إذا كان أولاد الرجال حزازةً ، فالحزازة : وجع في القلب من غيظ ونحوه والجمع حزازات ، وتروى : إذا كان أولاد الرجال مرارةً ، وهي الأنسبُ بقوله فأنت الحلال الحُلْو ، يكنى به عن الرجل الذي لا ريبة فيه ، على المَثَلِ بالحُلْوِ الحلال مما يُذاق ، يصف طيب أخلاقه ، وقوله : دميث : أي سهل ليّن ، والبارح : الريح تهب من الشمال في الصيف خاصة »

وقال عمرو بن شأس ـ وهو شاعر فارس شهد مع سيدنا رسول الله الحديبيةَ وكانت امرأتهُ تُؤذي ابنَه عِراراً ـ وكان من أمَة سَوداءَ ـ تُعَيِّرُه بالسواد وتَشْتُمُهُ ، فلما أعيَتْ أباه عمراً أنشأ كلمة عدتها عشرون بيتا اختار منها أبو تمام هذه الأبيات :

أرادت عِراراً بالْهَوَانِ ومَنْ يُرِدْ ... عِراراً لَعَمْرِي بالْهوانِ فقد ظَلَمْ
فإن كنتِ مِنّي أو تُرِيدينَ صُحْبتي ... فكوني له كالسَّمْنِ رُبَّ له الأَدَمْ
وإنْ كُنْتِ تَهْوِينَ الْفِرَاقَ ظَعِينَتِي ... فكوني له كالذِّئْبِ ضاعَتْ له الغَنَمْ
وإلّا فَسِيرِي مِثْلَ ماسار راكبٌ ... تجشَّمَ خِمْسا ليس في سَيْرِهِ يَتَمْ
وإنَّ عِراراً إن يكُنْ ذا شَكِيمَةٍ ... تُقاسِينَها مِنه فما أمْلِكُ الشِّيَمْ
وإنَّ عراراً إنْ يَكُنْ غيرَ واضحٍ ... فإني أُحِبُّ الجَوْنَ ذا المَنْكِبِ العَمَمْ

« قوله : فإن كنت مني : نقل الكلام من الإخبار إلى الخطاب . ومعنى فإن كنت مني : وإن كنت توافقينني ، من قولهم فلان منّا ، أي : يوافقنا . وقال المرصفي : معناه : فإن كنت مثل نفسي سيدة ، وقوله . أو تريدين صحبتي : أي أو تكونين مثل غيرك في المعيشة لاحظ

لها في السيادة ، وقوله : فكوني له كالسمن : أي كوني له كالسمن الذي لا يتغير ، والرب : خلاصة التمر بعد طبخه وعصره ، والأدم : اسم جمع للأديم وهو الجلد المدبوغ ، يريد الأسقية التي يجعل فيها الرب . وكانت العرب تدهن وعاء السمن بالرب لتمنع فساده ويزيد في طيب ريحه ، فقوله : رُبَّ له الأدم : أي جُعل فيه الرب لئلا يفسد ، وقوله وإن كنت تهوين الخ يقول : وإن كنت تؤثرين مفارقتي مصممة على ذلك فكوني له ذئبا أهملت له الغنم يعيث فيها ، ويقال لزوج الرجل : ظعينة ، وهي مقيمة ، والأصل في الظعينة المرأة في هودجها وهي سائرة ، وقوله : وإلا فسيري الخ ، فالخِمسُ : فلاةٌ يَبعُد ماؤها حتى إن الإبل لَتَرِدهُ في اليوم الرابع سوى اليوم الذي شربت فيه وصدرت ، والينم : الفتور والتقصير والإبطاء ، يقول : وإلا فارقيني وسيري سير راكب تكلف ورود الماء للخمس ، وقوله : وإن عرارا ... البيت ، فالشكيمة : شدة النفس وإباؤها ، والشيمة : الخليقة ، وكان عِرار هذا حديدَ القلب ذَرِبَ اللسان ، يقول : لا أقدر على تغيير خلقه ، فإما أن تلائميه على ما تقاسينه من حدَّته ، وإما أن تفارقيني فإنه أحب إليّ منك ، وقوله غير واضح : أي غير أبيض : مستعار من وضح الصبح وهو بياضه ، والجون هنا : الأسود المشرب حمرة ، والمنكب : مجتمع عظم العضد والكتف ، يصفه بالقوة والشدة ، والعمم : التام ، قالوا : كان عرار هذا أحد فصحاء العقلاء ، توجه عن المهلب بن أبي صفرة إلى الحجّاج رسولا في بعض فتوحه ، فلما تَمثَّلَ بين يدَيِ الحجّاج لم يعرفه وازدراه ، فلما استنطقه أبان وأعرب ماشاء وبلغ الغايةَ والمرادَ في كل ما سأل ، فأنشد الحجاجُ متمثلا :

أرادت عِرارا بالهوان ومن يُرِدْ عرارا لعمري بالهوان فقد ظلم

فقال عرار : أنا ـ أيد الله الأمير ـ عرار ، فأُعْجِبَ به وبذلك الاتفاق .

* * *

صلة الرحم : « وبعد » فلنورد بعض ماقالوا فى صلة الرحم ، والرحم فى الأصل : موضع تكوين الولد ، ثم سميت القرابة رحما ، فالرحم : خلاف الأجنبي ، وقال ابن الأثير : ذَوو الرحم : هم الأقارب ، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب ـ قرابة ـ ويطلق فى الفرائض ـ علم المواريث ـ على الأقارب من جهة النساء . ويقال : رَحِم ورَحْم ورِحْم ، وهى مؤنثة ، قال زهير بن أبى سُلْمى :

خُذُوا حَظَّكُمْ يا آل عِكْرِمَ واذكرُوا
أواصِرَنا والرَّحْمُ بالْغَيْبِ تُذْكَرُ (١)

ومما ورد فى صلة الرحم : قوله جل شأنه : واتقوا الله الذى تَسَاءَلُونَ به والأرحامَ « أى واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، وفى قراءة : والأرحامِ بالخفض ، وإذن يكون المعنى : تساءلون به وبالأرحام ، وهو قولهم : نشدتك بالله وبالرحم . . . » ، وقال صلى الله عليه وسلم : الرحم شُجْنَةٌ من الله ـ وفى رواية : من الرحمن ـ معلَّقَةٌ بالعرش تقول اللَّهُمَّ صِلْ مَنْ وَصَلَنِى واقطعْ مَنْ قَطَعَنى ... « قال الجوهرى : الشجنة بالضم والفتح والكسر : عروق الشجر المشتبكة ، و : بينى وبينه شجنة رحم : أى قرابة مشتبكة ، ومن ذا قولهم : الحديث ذو شجون : أى ذو شُعَب وامتساك بَعضُه ببعض ، وعبارة أبى عبيدة فى تفسير هذا الحديث : شجنة من الله : أى قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق ، شبهه بذلك مجازاً واتساعا ، وأصل الشجنة . شعبة من غصن

(١) من أبيات جميلة تراها فى خزانة البغدادى ج ٢ ص ٢٨٧ « طبعة السلفية »

من غصون الشجر ثم استعمل اتساعا فى الرحم المشتبكة » وقال عبد الله بن أبى أَوْفَى : كُنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : لايجالسنا قاطعُ رَحِمٍ ، فقام شاب ، فأتى خالةً له ، ــ وكان بينه وبينها شيء ــ فأخبرها بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستغفرت له واستغفر لها ، ثم رجع والنبي صلى الله عليه وسلم فى مجلسه فأخبره ، فقال النبي : إن الرحمة لاتنزل على قاطع رحم . وفى الحديث : من أَحَبَّ أن يُبْسَطَ له فى رِزْقِهِ ، ويُنْسَأ له فى أَجَلِه ، فلْيَصِلْ رَحِمَه « يُنسأ : يؤخر ومنه الحديث . صلة الرحم مَثْرَاةٌ فى المال مَنْسَأة فى الأثر . منسأة : مفعلة من النَّسْءِ أى مَظِنَّة له وموضع ، والأثر : الأجل ، وفى الحديث : لا تستنسؤا الشيطان أى إذا أردتم عملا صالحا فلا تؤخروه إلى غد ولا تستمهلوا الشيطان ، يريد : أنَّ ذلك مُهْلة مُسَوَّلةٌ من الشيطان . ولعل المراد من تبسيط الرزق ومد العمر : البركة والخير والسعادة ورفاغة العيش ، وللعلماء فى ذلك كلام كثير راجعه فى المطوَّلات » . . .

✡ ✡ ✡

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم : مَنْ كان منهم يؤثر أقرباءه بالولايات والعِمَالات وإسناد أمور الدولة إليهم ، فإنما كان ذلك ــ بعد كفاية الأقرباء واستحقاقهم ــ للبر صِرْفًا ، أى امتثالا لأمر الله فى وجوب صلة الرحم ، ومن كان منهم يؤثر الأجانب ويُقْصِى الأقاربَ ويَحْرِمُهم أعمالَ الدولة . فإنما كان ذلك للبر أيضا ، إذ كان ذلك إمعانا فى التورع والتأثم وتَرْكًا لما يَريب إلى مالا يَريب . . . وفى ذلك يقول الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه : كان عمر يَمنعُ أقرباءَه ابتغاءَ وجهِ الله ، وأنا أُعطِى قراباتى لوجه الله ، ولن يُرَى مثلُ عُمَرَ . . . فتأمل قوله : ولن يُرى مثل عُمَر . . . أى لن يبلغ إنسان مبلغه فى

الحزم والسياسة الرشيدة وضبطِ النفس أنْ تَستَرسل مع ما يُشبِه الهوى . . .
يعنى أنّ عُمَرَ أفضلُ منى ، رضى الله عن الجميع . .

✿ ✿ ✿

ومما يروى فى معنى حث الأقارب على التعاون : أنّ أكْثَمَ بنَ صَيْفِيّ حكيمَ العرب دعا أولاده عند موته ، فاستدعى بِضِمامَةٍ من السهام « أى حُزمة منها ، لغة فى الإضمامة » وتقدم إلى كل واحد أن يَكْسِرهَا ، فلم يقدر واحد على كسرها ، ثم بدَّدها وتقدم إليهم أن يكسروها ، فاستسهلوا كسرها ، فقال : كونوا مجتمعين ، لِيَعْجِزَ من ناوأكم « أى عاداكم » عن كَسْرِكُمْ ، لعجزكم . . .
وقال الشاعر فى هذا المعنى :

إنّ القِداحَ إذا اجتمعْنَ فرَامَها ... بالكسْرِ ذو حَرْدٍ وبَطْشٍ أيّدِ (١)
عَزّتْ فلَمْ تُكْسَرْ ، وإن هِىَ بُدّدَتْ ... فالوَهْنُ والتكْسِيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ

وقال آخر فى هذا المعنى :

إذا ما أراد الله ذُلَّ قبيلة ... رَمَاها بتشتيت الهوى والتخاذل

« وهذا كما يقال فى الأقارب يقال فى كل جماعة بينهم لُحْمَةٌ تجمعهم ، من وطن وغير وطن » ومما يروى : أن رجلا من العرب قتل ابنَ أخيه ، فدُفع إلى أخيه ليقتادَ منه فلما أهوى بالسيف أُرْعِدَت يداهُ ، فألقَى السيف من من يده وعَفَا عنه ، وقال : ــ والبيتان فى الحماسة ــ :

(١) الحرد بتسكين الراء وبفتحها لغتان : الغضب والغيظ ، قال الأشهب ابن رُمَيلَةَ :

أُسودُ شَرًى لاقت أسودَ خفِيَّةٍ ... تَساقَوْا على حَرْدٍ دماءَ الأساود

والأيد : القوى

أقولُ للنفسِ تأساءً وتعزيةً إحدى يدىَّ أصابتْنى ولم تُرِدِ (١)
كلاهما خلَفٌ من فَقْدِ صاحبه هذا أخى حينَ أدْعُوهُ وذا وَلَدِى (٢)

وفى مثل هذا المعنى يقول الحارث بن وَعْلة الذُّهلى ـ وهى من أبيات الحماسة ـ :

قَوْمِى هُمُ قتلوا، أُمَيْمَ، أخى فإذا رَمَيْتُ يُصِيبُنِى سَهمِى
فلئِنْ عَفَوْتُ لأعفُوَنْ جَلَلاً ولئنْ سَطَوْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمِى
لا تأمَنَنْ قَوْمًا ظَلَمْتَهُمُ وبَدأْتَهُمْ بالشَّتْمِ والرَّغْمِ
أنْ يأبِرُوا نخْلًا لِغَيْرِهِم والشيءُ تَحْقِرُه وقد يَنْمِى
وزَعَمْتُمُ أنْ لاحُلومَ لنا إنّ العصا قُرِعَتْ لذِى الحِلْمِ
ووَطِئْتَنا وطْأً على حَنَقٍ وَطْأَ المُقَيَّدِ نابِتَ الهَرْمِ
وتَرَكْتَنا لَحْمًا على وَضَمٍ لوكنتَ تَسْتَبْقِى من اللَّحْمِ

« يقول فى البيت الأول : قَوْمى ـ ياأميمة ـ هم الذين فَجَعُونى بأخى ووَتَرُونى فيه ، فإذا حاولت الانتصارَ منهم عاد ذلك بالنكاية فى نفسى ، لأن عِزّ الرجل بعشيرته . وهذا الكلام تحزُّن وتفجُّع وليس بإخبار . وقوله : فلئن عفوت ... البيت . يقول : إن تركتُ طلب الانتقام منهم صفحتُ عن أمرٍ عظيم . وإن انتقمتُ منهم أوْهَنتُ عَظْمى : أى أضعفْتُه ، ويقال :

(١) تأساء : تفعال من الأسوة ، يقول : أعزى النفس عنه متأسيا بغيرى ممن قتل ولده ، وقوله إحدى يدى : مبتدأ ، وأصابتنى خبر ، ولم ترد : فى موضع الحال ، والجملة فى موضع نصب على أنه مفعول لقوله أقول

(٢) يقول : كل واحد من الأخ الواتر والابن المفقود يصلح لأن يرضى به عوضا عن فقدان الآخر

عفوت عن الذنب : إذا صفحت عنه ، والسطو : الأخذ بعنف ، والجلل : من الأضداد : يكون الصغيرَ ويكون العظيمَ ، وهو المراد ههنا . وقوله : لاتأمنَنْ قوما ... البيتين ، حوّل الكلام عن الإخبار إلى الخطاب مُتَوَعِّدًا ، والرغم : مصدر رغمت فلانا : إذا فعلت به مايُرغِمُ أنفَه ويُذِلُّه ، وقوله : أن يأبروا : فى موضع نصب على البدل من قوما فى البيت الذى قبله ، كأنه قال : لاتأمَن أبْرَ قومٍ ظلمتهم نخلا لغيرهم ، يقال : أبَرْتُ النخل وأبَّرْته : إذا لقَّحتَه . يقول : إذا ظلمت قوما فلا تأمنهم أن ينتقموا منك فتشتفى أعداؤك منك ، فتكون كمن أصلح أمر غيره ، وقال بعضهم : المعنى : إنه ظلمتونا تحوَّلْنا عنكم ، فلا يكون لكم بَعدنا مُقامٌ - إقامة - فتتحولون أو يَملِككم العدوُّ ، فيكون ماأبَّرْنا نحن وأنتم ، لهم دوننا ودونكم ، وقال أبو العلاء المعرى : قد اختلف فى معنى هذا البيت ، فقيل : أراد أنه يُفارقهم ويَهبِط هو وقومُه أرضا ذات نخل كان لغيرهم فيدفعونهم عنه ويأبِرُونه ، كأنه يتهدَّدُهم بترَحُّله عنهم ، لأن ذلك يؤديهم إلى الذُّلّ ، واستدلوا على هذا الوجه بقوله فى القصيدة :

قَوِّض خِيامَكَ والتَمِسْ بلَدًا   يَنْأى عن الغَاشِيكَ بالظُّلم

وقيل : بل يريد أنه يحاربهم فيصلحهم لغيره فيجعلهم كالنخل التى قد أبرت ، إذ كان عَدُوُّهم ينال غرضه منهم إذا أعانه عليهم ، وقيل : بل عَنَى أنه يَسبِي نساءهم فتوطأ فيكون ذلك كالإبار الذى هو تلقيح النخل . قال التبريزى : وهذا الوجه أشبه بمذهب العرب مما تقدم ، لأنهم يَكنون عن النخلة بالمرأة . وقوله : وزَعمتم أن لاحلوم لنا : فأكثر مايستعمل الزعم فيما كان باطلا أو فيه ارتياب ، والحلوم : العقول ، وقرع العصا : كناية عن التنبيه ،

واختلف فى أولِ من قُرعت له العصا ، فقيـل عمرو بن الظرب العَدْوانى وقيل عمرو بن حُمَمَة الدوسى ، وخبرهما : أن كل واحد منهما كان حَكَماً للعرب يتحاكمون إليـه فى كل مُعْضلة ، قالوا : إن العرب أتَوْا عمرو بن حُمَمَة يتحاكمون إليه ، فغَلِطَ فى حكومته - وكان قد أسَنَّ - فقالت له ابنتُه : إنك قـد صِرْتَ تَهِمُ فى حكومتك - أى تغلط - فقال : إذا رأيتِ ذلك منى فاقْرَعِى العصا ، فكان إذا قرعت له العصا فَطِن . يقول : زعمتم أنه لاعقول لنا وأننا سفهاء ، فإن كان الأمر على مازعمتم فنبهونا أنتم ، وهذا تهكم من الشاعر بهم ، وقوله : ووَطِئتَنا ... ألبيت ، فالحنق : الغيظ ، والهَرْم : شجر ، أو البَقْلة الحمقاءُ - هى التى تُسمَّى الرِّجْلَة - ، أو ضَرْبٌ من الحَمْض فيه مُلوحَةٌ وهو أذله وأشده انبساطا على الأرض واستبطاحا ... وفى المثـل : أذل من الهَرمة ، يقول : وأثَّرتْ فينا تأثير الحنق الغضبان كما يؤثِّر البعير المُقَيَّد إذا وَطِئَ هذا النبت الضعيفَ ، وخَصَّ المقيد لأن وطأته أثقل ، لأنه لايتمكن من وضع قوائمه على حسب إرادته . كما خص الحنق لأن إبقاءه أقل . ومن قول العرب : أعوذ بالله من وطأة الدليل ، أى من أن يطأنى ، لأن وطأته أشد لسوء مَلَكَته ، كما قال امرؤ القيس :

فإنك لم يَفْخَرْ عليكَ كفاخرٍ ضعيفٍ ولم يَغلِبْكَ مثلُ مُغَلَّبِ

وخص النابتَ وأراد : الحديثَ النباتِ ، وهو أغضُّ له وأرق ، ويروى : يابِسَ الهَرْمِ ، وقوله وتركتنا لحما على وضم : فالوضم : الخشبة التى يَضَعُ الجزارُ اللحمَ عليها يُوَقّى بها اللحمَ من الأرض ، أو تقول : خِوانُ الجزّار ، وقد تقدم يقول . تركتنا لادفاع بنا كاللحم على الوضم يتناوله من شاء ، ثم قال : لوكنت تستبقى من اللحم ، أى لو كنت تترك بقية ، قال التبريزى : جعل ذلك مثلا

لاستفساده لهم وسماحته بهم »

* * *

والعرب تقول فى العطف على القريب والحَمِيَّة له وإن لم يكن وادًّا : « أنفُكَ مِنْكَ وإنْ ذَنَّ (١) » وعِيصُكَ منك وإن كان أشِبًا (٢) وقال قائلهم - وهو حُريثُ بن جابرٍ - :

إذا ظُلِمَ المولَى فَزِعتُ لِظلمه حَرَّكَ أحشائى وهَرَّتْ كِلابِيا (٣)

وقيل لأعرابى : ماتقول فى ابن العم ؟ فقال عَدُوُّكَ وعدوُّ عدوِّك » . ولما مات عُبادةُ بنُ الصامتِ بكى عليه أخوه أوْسُ بنُ الصامت ، فقيل له : أتبكى عليه وقد كان يريد قتلك ؟ فقال : حركنى للبكاء عليه ارتكاضُنا فى بطن ، وارْتِضاعُنا مِنْ ثَدْيٍ . . . ودخل رجل من أشراف العرب على بعض الملوك ، فسأله عن أخيه . فأوقع به يَعيبُه ويشْتُمه ، وفى المجلس رجلٌ يَشْنَؤُه - يبغضه - فشرع معه فى القول ، فقال له : مَهْلاً ! إنى لآكُلُ لحمِى ولا أدَعُه لآكل . . . وقال الشاعر - قيل هو زرارة بن سُبيع ، وقيل نضلة بن خالد ، وقيل دودان بن سعد ، وكلهم من بنى أسد ، شعراء جاهليون ، والأبيات من الحماسة :

لَعَمْرِى لَرَهْطُ المرءِ خيرُ بَقيَّةٍ عليهِ وإنْ عالَوْا به كُلَّ مَرْكَبِ

مِنَ الجانبِ الأقصى وإن كان ذاغِنًى جزيلٍ ولم يُخْبِرْكَ مِثْلُ مُجَرِّبِ

---

(١) ذنّ أنفه يذنّ : إذا سال ، والذنان والذنين : المخاط الرقيق الذى يسيل من الأنف (٢) العيص : منبت الشجر ، والأشب : الملتف ، ومعنى المثل : أصلك منك وإن كان ذا شوك مشتبك غير سهل : أى أصلك منك وإن كان أقاربك على خلاف ماتريد ، فاصبر عليهم فإنه لابد منهم . .

(٣) هرّ الكلب يهر هريراً : إذا نبح وكشر عن أنيابه ، ومن طبع الكلب أن يهرّ دون أهله ويذب عنهم

إذا كُنتَ فى قوم عِدًى لستَ مِنْهُمُ فكلْ ماعُلِفتَ مِنْ خَبيثٍ وطَيِّبِ

« عالوا به يريد : عَلَوْا به ، كل مركب : صعب أو ذلول ، يريد : وإن حَمَّلوه مالا يستطيع ، ومن الجانب الأقصى ، يريد : من الحىّ الأبعد ، وقوله : ولم تك منهم ، يرَوَى : ❊ إذا كنت فى قوم عِدًى لستَ منهم ❊

وعِدًى بالكسر : غرباء ، فأما قومٌ عدى فقد ورد فيها الضم والكسر وقوله : فكل ماعلفت : فهذا مثل ، يريد به : المسالمة والمداراة ، ويروى للشاعر بعد هذا البيت :

فإنْ حدَّثتك النفس أنك قادرٌ على ماحَوَتْ أيْدِى الرجالِ فكَذِّبِ

❊ ❊ ❊

وقديما أكثروا من شكوى الأقارب : مِن جهةِ أنهم بِحُكْمِ تجاوُرِهم وقرابتهم أدْنَى إلى الحسد والعداوة ، فقالوا : الأقارب عقارب وأتَمُّهم بك رحما أشدهم بك لَدْغا ، وقال بعض حكماء العجم : ثلاث لا يُسْتصلَح فسادُهم بشيءٍ من الحِيَلِ : العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكفاء ، والركاكة فى الملوك ... ولذلك شَكَوْا مِن أنّ عداوة الأقارب أشدُّ على النفس من عداوة الأباعد فقالوا : — والقائل طَرفَةُ بن العبد — :

وَظُلمُ ذَوِى القربى أشَدُّ مَضاضةً على المرءِ مِنْ وَقْعِ الحُسامِ المُهنَّدِ

وقال الشريف الرَّضى :

ولِلذُّلّ بين الأقربين مَضاضةٌ والذُّلُّ ما بين الأباعد أرْوَح

وإذا أتتكَ مِن الرجال قَوَارِصٌ فسِهامُ ذِى القربى القريبة أجْرَحُ[1]

فنهم من يَحْلُمُ ويُبْقى على مقتضيات القرابة ، ويَتَجافَى عن ذنوب

---

(١) القوارص : جمع قارصة وهى الكلمة المؤذية قال الفرزدق :

قوارِصُ تأتينى وتحتقرونها وقد يَملأُ القطرُ الإناءَ فيُفعَم

أقرباته على الرغم من عِدائهم ، فيقولون ـ والقائل محمد بن عبد الله الأزدى ـ صحابى جليل ـ وهذه الأبيات فى الحماسة ـ :

لاأَدْفَعُ ابنَ العَمِّ يَمْشى علَى شَفًا وإن بَلَغَتْنِى مِن أذَاهُ الجَنادِعُ
ولٰكن أُواسِيه وأنسَى ذُنُوبَه لِتَرْجِعَهُ يوما إلىَّ الرَّواجِعُ
وحَسْبُك مِن ذُلٍّ وسوءِ صنيعةٍ مناواةُ ذِى القربى وإن قيل قاطِعُ

« الشفا : حرف الشيء وحدُّه ، مثل الشفير ، وقد أشفى على الهلاك : أشرف . والجنادع فى الأصل ـ كما قال أبو حنيفة الدِينَوَرى ـ : الجنادب الصغيرة ، وجنادب الضب : دَوابُّ أصغرُ مِن القِرْدَانِ تكونُ عند جُحْرِه فإذا بَدَتْ هى عُلِمَ أن الضب خارجٌ فيقال حينئذ : بَدَت جنادِعُه ، ثم قيل لأوائل الشرّ : بدت جنادعه ، يقول الشاعر : لا أدفعه يمشى على حدِّ الهلاك وإنْ بالغ فى الإساءة ، والمناواة : المعاداة ، وأصله الهمز يقال : ناوأه مُنَاوَأة : أى عاداه . وقوله : وإن قيل قاطع : يريد : وإن قيل فى ذى القربى إنه قاطع لرحمه فلا يحملنك ذلك على مناوأته » وقال الفضلُ بن العباس بن عُتْبَةَ بن أبى لهب :

مَهْلًا بَنِى عمِّنا مهلًا مَوَالينا لاتنْبِشُوا بَيْنَنَا ماكان مَدْفونا
لا تَطْمَعُوا أنْ تُهِينُوناو نُكرِمَكُمْ وَأنْ نَكُفَّ الأذى عنكم وتُؤْذُونا
مهْلا بنى عمّنا مِنْ تحتِ أثْلَتِنا سِيرُوا رُوَيْدا كما كُنْتُمْ تسيرونا
اللهُ يعلَمُ أنَّا لا نُحِبُّكُمُ ولا نَلومُكمْ إنْ لم تحبونا
كلٌّ له نِيَّةٌ فى بُغْضِ صاحبِهِ بنعمة اللهِ نَقْلِيكُمْ وتَقْلونا

« مهلا : يريد : رفقا وسكونا لاتعجلوا ، ويريد ببنى عمه : بنى أمية ، وقد كان فى صدورهم أحقاد ، وقوله لاتنبشوا : يريد لاتستخرجوا ماكان بيننا

من العداوة مدفونا فى الصدور ، وقوله : من نحت أثلتنا ، فالأثلة : واحد الأثل وهو من العَضَاه شجر طوال مستقيم الخشب ومنه تصنع الأقداح والجفان ونحتها : قشرها أو نشرها ، يريد : مهلا بنى عمنا فى إظهار المثالب والمعايب التى تلصقونها بنا ، وقوله : كل له نية الخ يريد : إنا وإياكم لعلى طرفى نقيض نحن نبغضكم لاغتصابكم الملك واستيلائكم على أموال المسلمين وأنتم تبغضوننا على قرابتنا من النبى صلوات الله عليه ، وقلاه يقليه قلى : أبغضه ، وقد حذف نون الرفع من تقلونا ضرورة »

وقال ذو الأصبع العَدْوَانى : (١)

لولا أواصر قُرْبى لَسْتَ تَحْفَظُهَا ورَهْبَةُ اللهِ فى مَوْلًى يُعَادِينى

إِذَنْ بَرَيْتُكَ بَرْياً لا انْجِبَارَ لَهُ إنِّى رَأَيْتُكَ لا تَنْفَكُّ تَبْرِينى

☆ ☆ ☆

ومنهم من اضْطُرَّ إلى الانتقام من أقاربه : أو ممن تربطه بهم آصرة مّا ثم تأَسَّفَ ، فقال قيس بن زهير فى ذلك :

شَفَيْتُ النَّفْسَ من حَمَلِ بن بَدرٍ وسَيْفِى مِنْ حُذَيْفَةَ قَدْ شفَانِى

قَتَلْتُ بِإِخْوَتِى ساداتِ قَوْمِى وقد كانوا لنا حَلْىَ الزَّمانِ

فإِنْ أَكُ قَدْ بَرَدْتُ بهم غَليلى فلم أقطع بِهِمْ إلّا بَنَانِى

وقال النميرىُّ :

فإِنَّكَ حِينَ تَبْلُغُهُمْ أَذاةٌ وإن ظَلَمُوا لَمُحترِقُ الضمير

(١) واسمه حُرثان بن الحارث بن محرّث ، شاعر فارس من قدماء الشعراء فى الجاهلية ، وبيتاه هذان من قصيدة له فى ابن عم له اسمه عمرو وهى قصيدة بارعة جدا أولها :

يامن لقلب شديد الهَمّ محزون أمْسَى تَذَكّر ليلى أُمَّ هارون

وقد ترجم له صاحب الأغانى ، انظر الجزء الثالث طبعة دار الكتب»

وقال المتنبي في ذلك :

وكيف يَتمُّ بأسُكَ في أُناسٍ تُصيبُهُم فيُؤْلِمكَ المُصَابُ

وقال البحتري من قصيدة له يمدح بها المتوكل على الله العبّاسي ويذكر صلح بني تغلب ـ :

وفِرسانِ هَيْجاءٍ تَجيشُ صدُورُها بأحقادها حتى تضيقَ دُرُوعها

تُقتِّلُ من وِترٍ أعزَّ نُفوسِها عليها بأيْدٍ ماتكاد تُطيعها

إذا احتَرَبتْ يوْمًا ففاضَتْ دماؤُها تَذكَّرتِ القُرْبى ففاضتْ دموعها

وقال سيدنا علي كرم الله وجهه ـ حين تصفح القتلى يوم الجمل : شَفَيتُ نَفْسي ، وجَدَعْت أنفي ـ وسيمر بك هذا الكلام بتمامه في موضع آخر من هذا الكتاب ... ومنهم من يركب رأسه ويُخِبُّ في عِداء أقاربه خَبًّا ولا يبالي ـ وقد قال قائلهم ـ أوس بن حَبْناء التميمي ـ :

إذا المَرْءُ أولاكَ الهوانَ فأَوْله هَواناً وإن كانت قريبا أواصِرُه

* * *

ويبلغ الحمق بهذا الصنف من الناس أن يظاهر الأجنبي على القريب وقد شبّه العرب هذا الصِنْفَ بذئب السوء قال الفرزدق ـ :

وكُنتَ كذِئبِ السُّوءِ لمّا رأى دَمًا بصاحبه يوْما أحالَ على الدَّمِ

« وهو معلوم أن الذئبَ إذا رأى بصاحبه دمًا أقبل عليه ليأكله » وإنه لبديهيٌّ أن هذا التمالُؤَ للأجنبيِّ على القريب لا يُثْمر إلا الضررَ الموبق ، وقد قال قائلهم في ذلك ـ وهو أبو يعقوب الخُرَيْميُّ ـ :

كانوا بني أمٍ ففَرَّقَ شَمْلَهم عَدمُ العُقول وخِفَّةُ الأحْلام

* * *

وقد ورد فى علاج العداء الذى يحدث بين الأقارب : وهو علاج مُسَكِّن ... ولكنه لاعلاج غيره ـ قولُ أكْثَمَ بنِ صَيْفِيّ حكيم العرب : تباعَدُوا فى الديار تقاربوا فى المودّة ... وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرىّ : مُرْ ذوى القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا ...

وقال فى هذا المعنى وزاد شاعرٌ جاهلى من بنى أسد ـ وكان له ابن عم يترصَّدُ له مواقع السوء ـ :

داوِ ابْنَ عمِّ السّوءِ بالنَّأيِ والغِنى ... كَفَى بالغِنى والنَّأيِ عنهُ مُداوِيا

يَسُلُّ الغِنى والنَّأىُ أدْواءَ صَدرِه ... ويُبْـدِى التَّدانى غِلْظَةً وتَقاليا

أعانَ علىَّ الدَّهْرَ إذْ حكَّ بَرْكَهُ ... كَفَى الدهْرُ لو وَكَّلْتَهُ بِىَ كافِيًا

« النأى : البعد ، والغنى : مصدر غَنِىَ عن الشىء يَغْنَى : استغنى عنه واطّرَحه فلم يلتفت إليه ، ويسُلُّ : ينتزع برفق ، وأدواءَ صدره : أضغانه وأحقاده ، والتَّدانى : يريد إظهار التقارب منه ، وتقاليا : تباغضا ، وحكّ بركْه : فالحك : إمرار جرم على جرْم ، والبرك فى الأصل : كلكل البعير ، وهو صدره الذى يدكُّ به ماتحته ، استعاره للدهر ، وقوله . كفى الدهر الخ : يريد : كفى حدَثان الدهر وَحْدَهُ فى الاساءة فلا تكونُ إعانتُه وحادثُ الدهر ماعليه »

* * *

ومن كلامهم فى الإخوة : ماورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حَقُّ كبير الإخوة على صَغيرهم كحَقِّ الوالد على ولَده ... ويُروَى أنّ إخوةً حضروا عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فتكلم أصغرُهم ، فقال عليه السلام : الْكُبْرَ الكُبْرَ ... « الكبر : جمع الأكبر ، كأحْمَر وحُمر : أى ليبدأ الأكبر بالكلام ، أو قدّموا الأكبر ، إرشادا إلى الأدب فى تقديم الأسن » وقيل لحكيم معه أخ أكبر منه : أهذا أخوك ؟ فقال بل أنا أخوه ...

وكان بين الحسن والحسين رضى الله عنهما كلام ، فقيل للحسين : ادْخُلْ

على أخيك فهو أكبرُ منك ، فقال : إنى سمعتُ جدّى صلى الله عليه وسلم يقول : أيما اثنين جَرَى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر ، كان سابقَهُ إلى الجنة ، وأنا أكرهُ أن أسبِقَ أخى الأكبر ، فبلغ قولُهُ أخاه ، فأتاه عاجلا وأرضاه ...

* * *

ومما يتصل بالإخوة ويتشعب به القول فى هذا الباب : ما روى فى الأخوين يختلفان فى النَّجابة والتَّخلف والحُسن والدمامة ، فهذا كيِّسٌ رفيعٌ ، وهذا أحمقُ وضيع ؛ وهذا جميل ، وهذا دميم ، قال الأصمعى : لم يقل أحد فى تفضيل أخ على أخ وهما لأب وأمٍ مثل قول ابن المُعْتَزّ لأخيه صخر :

أبوك أبى وأنت أخى ولكن تفَاضَلَتِ المَناكِبُ والرُّؤُس

وفى هذا المعنى يقول بعضهم :

تفرَّد بالعلياء عن أهل بيته وكُلٌّ يُهَدِّيه إلى المَجْدِ والدُ

وتختلف الأثمارُ فى شَجَراتِها إذا شَرِقَتْ بالماء والماءُ واحِدُ

وقال رجل لأخيه : لَأَهْجُوَنّك ، فقال : كيف تهجونى وأنا أخوك لأبيك وأُمِّك ؟ فقال :

غُلَامٌ أتاهُ الُّؤمُ مِنْ شَطْرِ نفْسِهِ ولم يَأْتِهِ مِنْ شَطْرِ أمٍّ ولا أب

وقال رجل لآخر ، وكان هذا الآخر قبيحاً ومعه أخٌ صبيحٌ : مَا أُمُّكَ إلاّ شجرة البلُّوط ، تحمل سنة بَلُّوطًا وسنة عَفْصًا [1] وفى هذا المعنى يقول آخر :

---

(١) البلوط : أبو فروة ، والعفص : نتوء يكون على شجرة البلوط أو ضرب منه

أَمَا رَأَيْتَ بَنِي بَدْرٍ وَقَدْ خُلِقُوا   كَأَنَّهُم خُبْزُ بَقَّالٍ وَكُتَّابِ (١)

قطيعة الإخوة

ومما جاء فى قطيعة الإخوة وتبريرها — والقطيعةُ الهجران ، ضد الصِّلة ـ : ماروى أنه قيل لأعرابى : لِمَ تقطع أخاك شقيقَكَ ؟ فقال : أنا أقْطَعُ الفاسِدَ مِنْ جَسَدِى الذى هو أقربُ إلىّ منه ، فكيف لا أقطعُه إذا فسد ! وكتب الفضلُ بن سهلٍ الوزيرُ إلى المأمون ـ الخليفة العباسى ـ : أما بعد ، فإن المخلوعَ ـ يريد الأمين أخا المأمون ـ وإن كان قسيمَ أمِيرِ المؤمنين فى النَّسب وَاللُّحْمَةِ ، فقد فَرَّق كِتابُ الله بينهما فيما اقتَصَّ علينا مِنْ نَبَإِ نُوحٍ ، فقال : يانُوحُ إنَّهُ ليس من أهلك ، إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فلا صِلَةَ لِأحَدٍ فى معصية الله ، ولا قَطيعة ما كانت القطيعةُ فى ذات الله ، والسلام . . . وقيل لِبُزُرْجِمِهْر : أخوكَ أحَبُّ إليكَ أم صديقك ؟ فقال : إنما أُحِبُّ أخِى إذا كان صديقاً . ويقال : القَرَابةُ محتاجة إلى المَوَدَّة ، والمودَّةُ أقرب الأنساب ، والبيت المشهور فى هذا :

فإذَا القَرابةُ لا تُقَرِّبُ قاطِعًا   وَإذا المَوَدَّةُ أقْرَبُ الأنْسابِ

الناس تجاه البنات

وقد كان الأوائلُ تُجاهَ البنات ـ وكذلك الناس إلى يومنا هذا — فريقين ـ : فأمّا فَرِيقٌ فقد كانوا يُفَضِّلُونَهُنَّ وَيَحْنُونَ عليهنّ ، ومن قولهم فى ذلك مايُرْوَى أنّ مَعْنَ بنَ أوسِ المُزَنِيَّ — شاعر إسلاميٌّ من الفحول —

(١) البقال : بائع البقول ، والكتاب : المدرسة يحفظ فيها كتاب الله وما اليه

كان مِئناثاً — وكان له ثمان بنات ، وكان يُحسِنُ صُحبَتَهُنَّ وتربيتَهُنَّ ، فوُلِدَ لبعض عَشيرَته بنتٌ ، فكَرِهَها وأظهَرَ جزَعًا من ذلك ، فقال مَعْنٌ :

رَأيتُ رِجالًا يَكْرَهونَ بَناتِهِمْ
وفيهِنَّ — لا تُكذَبْ — نِساءٌ صَوالِحُ
وَفيهِنَّ — والأيَّامُ يَعْثُرْنَ بالفتى — عَوائِدُ لا يَمْلَلْنَهُ ونَوائِحُ

وَدَخَلَ عَمْرُو بنُ العاص على معاوية وعنده ابنَتُهُ عائشةُ ، فقال : مَنْ هذه يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال : هذه تُفّاحَةُ القَلبِ ؛ فقال : انبِذْها عَنْكَ ، قال : وَلِمَ ؟ قال : لأنَّهُنَّ يَلِدْنَ الأعداءَ ، ويُقرِّبْنَ البُعَداءَ ، ويُوَرِّثْنَ الضَّغائِنَ[1] . فقال : لا تَقُلْ ذاك يا عمرو ، فوَاللهِ ما مَرَّضَ المَرْضَى ولا نَدَبَ المَوْتَى ولا أعانَ على الأحزانِ مِثْلُهُنَّ ، وإنَّكَ لَواجِدٌ خالًا قد نَفَعَهُ بَنُو أُخْتِه ؛ فقال له عمرو : ما أعلَمُكَ إلاَّ حَبَّبْتَهُنَّ إليَّ . .

وقال بعضهم : البناتُ حسناتٌ . والبنونَ نِعَمٌ ، والحسناتُ مُثابٌ عليها ، والنِّعَمُ مَسْئولٌ عنها . . .

✿ ✿ ✿

وأما الفريق الآخرُ فيكره البنات : وإذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بالأُنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ — كما قال سبحانه وتعالى — وقديمًا قالوا : نِعْمَ الخَتَنُ القَبْرُ[2] . . . وَدَفْنُ البنات مِنَ المَكْرُمات . . .

✿ وما خَتَنٌ فينا أعَفُّ مِنَ القَبْرِ ✿

ونظر أعرابيٌّ إلى بنت تُدفن ، فقال : نِعمَ الصِّهر صاهَرْتُمْ . . . وقال

---

(١) يؤرّث : من أرّث النار : أوقدها (٢) الختن : زوج البنت

الحسين بن على رضى الله عنه : والد البنت مُتْعَبٌ ، ووالدُ بِنْتَيْنِ مُثْقَلٌ ، ووالد ثلاث فعلى الناس أنْ يُعينوه ... وقال الزُّهرىُّ : كانوا لا يَرَوْنَ على صاحب ثلاثِ بنَاتٍ صَدَقةً ولا جهادًا ... وكانت العَرَبُ لا تأكل طعامَ صاحب البناتِ وقد قال قائلهم :

إذا ما المَرْءُ شبَّ له بَنَاتٌ عَصَبْنَ برأسه عَنَتا وَعَارا

وأد البنات : وناهيك فى هذا الباب شُنْعَةً وَسُوءَ صَنِيعةٍ بما كان العربُ يفعلون فى الجاهلية من وَأْدِ البنات[1] ... وما فَتِئُوا إلى أن أُرْسِلَ سَيِّدُ البشر صلوات الله عليه ، فنَهَى عن ذلك ، وأنزل الله عز وتقدس : وإذا المَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بأىّ ذنب قُتِلَت ؟ وكثيرا من الآيات فى هذا المعنى المُفْظِع ... ودخل قيس بن عاصِم المِنْقَرِىُّ ـ وهو سيِّد أهل الوبر ـ على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنى وأدتُ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ بِنْتا ، فما أصنَعُ ؟ فقال رسول الله : أَعْتِقْ عَنْ كلِّ مَوْودةٍ نَسَمَةً ، فقال له أبو بكر رضى الله عنه : فما الذى حَملَك على ذلك وأنت أكثرُ العرب مالا ؟ فقال : مخافةَ أن يَنْكِحَهُنَّ مثلك[2] ، فتبسم رسول الله وقال : هذا سيد أهل الوَبَر ... قال قيس : ما وُلِدَتْ لِىَ ابْنَةٌ إلا وأدْتُهَا سوى بُنَيَّةٍ ولَدَتْها أمُّها وأنا فى سفرٍ ، فلما عُدتُ ذَكَرَتْ أنها ولَدَت ابنةً مَيِّتَةً ... فأوْدَعَتْهَا أخوالَها حتى كَبِرَتْ ، فأدْخلَتْهَا مَنْزِلى مُتَزَيِّنَةً ،

(١) وأد بنته يئدها وأدا : دفنها فى القبر وهى حية

(٢) هذه عجرفة وعنجهية من هذا الأعرابى الجلف فى حق الصديق رضى الله عنه وإن كان قيسَ بن عاصم سيدَ أهل الوبر ، وما أحلم سيدنا رسول الله الذى أرسل ليتمم مكارم الأخلاق ، والذى أُمر بأن يدعوالناس الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .

فاستَحْسَنْتُها ، فقلتُ : مَن هذه ؟ فقالت : هذه ابنَتُكَ ، وهي التي أَخْبَرْتُكَ أني ولدتُهَا ميتةً ، فأَخَـذْتُها ودفنْتُها حَيَّـةً وهي تَصيح وتقول : اتـتْرُكني هكذا ؟ فلم أَعَرِّجْ عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم : من لا يَرْحَم لا يُرْحَم ...

الخال والخؤلة

بقي بعد ذلك أن نورد شيئا ممـا قالوا فى الخؤلة والخال : والقول فى ذلك يتشعب أيضا ، فقد قالوا فى مَـدْح الخال وذَمِّه ، وقالوا فى معنى نِزَاعِ الولد إلى خاله [1] ، فَلْنَنْتَقِ شيئا ممـا قالوا فى هذه المعانى ، فأما قولهم فى اعتبار الخؤلة وكونها كالأبُوَّة ، فمن ذلك مايروى أن الأسودَ بنَ وهب خالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليه ، فبسط صلى الله عليه وسلم له رِدَاءَهُ ، فقال الأسود : حَسْبي أن أَجلِسَ على ما أنت عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : اجلس فإن الخال والد ... ومِنْ طريف هذا الباب ما يُروى أن الحجاج قال لابن مِعْمَرٍ : إنك تزعُم أن الحسنَ والحُسينَ ابنا رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، قال : والله لأقْتُلَنَّكَ ، فقال ابن معمر : أليس الله يقول : ومنْ ذُرِّيَّتِهِ داودَ وسليمانَ ، إلى قوله : وزكريا ويحيى وعيسى ، وإنمـا عيسى ابنُ مَرْيم : ابن بنت ، فقال نَجَوْتَ ... وأما من عدَّ الخؤلة ليست من النسبِ والقرابة ، فمن قولهم فى ذلك ــ والقـائل ضَمْرَة بن ضمرة بنِ جابر بن قَطَنَ ــ شاعر جاهلي ــ وقيل غيره ــ :

إذا كنْتَ فى سَعْدٍ وأُمُّكَ مِنْهُمْ غريباً فلا يَغْرُرْكَ خالُك منْ سَعْدِ

---

(١) نزع فلان إلى أبيه أو خاله ينزع نزوعا ونزاعا : ذهب إليه وأشبهه ، ومثله نزع الإنسان إلى أهله والبعير إلى وطنه نزاعا ونزوعا : حنّ واشتاق

فإنَّ ابنَ أُختِ القومِ مُصغًى إناؤُه إذا لم يُزاحِمْ خالَه بأبٍ جَلْدِ[1]

وتقدم شابٌّ إلى عبد الله بن الحسين رضى الله عنه فقال : إنَّ جَدِّى أَوْصَى بِثُلُثِ ماله لولدِ وَلَدِه ، وأنا من ولد بِنْتِه ، والوصىُّ ليس يُعطِينى منه ، فقال : لاحقَّ لك فيه ، أمَا سمعت قول الشاعر :

بَنُونَا بنُو أبنَائِنَا وبَنَاتُنا بَنُوهُنَّ أبْناءُ الرِّجالِ الأباعِدِ

« يقول : إن بنى أبنائنا مثل بنينا ، أما بنو بناتنا فليسوا منا وإنما هم أبناء الأجانب ، فبنونا خبر مقدم وبنو أبنائنا مبتدأ مؤخر ، وهذا البيت لايعرف قائله على شُهرَته . قال الإمام العَيْنِىّ : هذا البيت استشهَدَ به النحاةُ على جَوَازِ تقديم الخبر ، والفَرَضِيُّون ـ علماء المواريث ـ على دخول أبناء الأبناء فى الميراث وأن الانتساب إلى الآباء ، والفقهاءُ كذلك فى الوصية ، وأهلُ المعانى والبيان فى التشبيه ، ولم أر أحدا منهم عَزَاهُ إلى قائله »

وقالوا فى نزاع الولد إلى خاله :

عليك الخالَ إنّ الخالَ يَسرِى إلى ابنِ الأُختِ بالشَّبَهِ المُبِين

وقالوا :

لِكلِّ امْرِئٍ شَكلٌ يَقَرُّ بِعَيْنِه
وقُرَّةُ عَيْنِ الفَسْلِ أنْ يَصْحَبَ الفَسْلا
وتَعْرِفُ فى مَجْدِ امْرِئٍ مَجْدَ خالِهِ
ويَنْذُلُ أنْ تَلْقَى أخا أُمِّهِ نَذْلاَ

---

(١) مصغًى إناؤه : نقص حظه ، يقال أصغى فلان إناء فلان : إذا أماله ونقصه من حظه يقول هذا الشاعر : لاتغتر بخؤلتك فإنك منقوص الحظ مالم تزاحم أخوالك بآباء شراف وأعمام أعزة .

« الفَسل : النذل الذى لا مروءة له ولا جَلَد » وقال رافع بن هُرَيم :-
شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم ، يخاطب بنى أخوته -:

فَهلاً غيرَ عَمِّكمُ ظَلَمْتُمْ   إذا ما كنتُمُ مُتَظَلِّمينا
عفاريتًا علىَّ وأكْلِ مَالِي   وَجُبْنًا عَنْ رجالٍ آخرينا
ولو كنتُمْ لِمُكَيِّسَةٍ أكاسَتْ   وكَيْسُ الأُمِّ كَيْسٌ للبنينا
ولكن أُمُّكُمْ حَمُقَتْ فجئتم   غِثَاثًا ما ترى فيكم سَمِينا

وموضع هذه الأبيات باب إنجاب الأمهات فى كتاب النساء وترى نظائر له هناك

« قوله متظلمينا ، تقول : تظلمنى مالى : أى ظلمنى مالى ، و « ما » فى : إذا ما كنتم : زائدة ، والمكيسة : المرأة التى تلد أولادا أكياسا ، وأكاست المرأة : ولدت ولدا كيسا ، والكَيْسُ : خلاف الحمق ، ورجل كيّس : أريب ظريف ، وقوله : ولكن أمكم حمقت : أى صارت حمقاء ، والغثاث : جمع غثيث بمعنى مهزول »

مُدَّعُو القرابة البعيدة

ومما يستطرف من محاسنهم فى مدّعى القرابة البعيدة : قول رجل لآخر : لست ترعى حقّى وبيننا قرابة ! فقال : من أين ؟ قال : إن أباك كان قد خطَبَ أُمّى ، فلو تمّ الأمر لكنت أنا أنت ... فقال : هذه والله رحِمٌ ماسّة ...
وتَعرَّضَ رَجُلٌ لهشامِ بن عبدالملك وادّعى أنه أخوه ، فسأله : من أينَ ذلك؟ قال : من آدم ! فأمر بأن يُعطَى دِرْهما ، فقال : لا يُعطِى مثلُكَ دِرهما ، فقال هشام : لو قَسَمْتُ ما فى بيت المال على القرابة التى ادّعَيْتَها لم يَنَلْكَ إلا دُون ذلك ... وفى هذا المعنى - معنى ادعاء القرابة وانتِفائها - يقول حسان بن ثابت :

لَعمرُكَ إنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ   كإلِّ السَّقْبِ من رَألِ النعام (١)

محاسنهم فى الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى

ولنعطف على سائر محاسنهم فى الآباء والأبناء والقرابات من بابات شتى:
فمن ذلك تفاخرهم بالحسب وكرم المَحْتِد ، قال عدى بن أرطاة لإياس: دُلَّنى على قوم من القُرَّاء أُوَلِّيهم ، فقال : القُرَّاء ضربان : ضربٌ يعملون للدنيا ، فما ظَنُّكَ بهم : وضربٌ يعملون للآخرة فلا يعملون لك ، ولكن عليك بأهل البيوتات الذين يستَحْيُون لأحسابهم ... وقال زُهَيْرُ بن أبى سلمى :

وما يَكُ مِن خَيْرٍ أَتَوْهُ فإنما   توارَثَهُ آباءُ آبائِهم قبـلُ

وقال :

وهل يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلّا وَشِيجهُ   وتُغْرَسُ إلا فى مَنابِتِها النخل

« الخَطِّىُّ : الرمح ، قال أبو حنيفة الدينورى العالم النباتى الأشهر : الخطى : الرماح ، وهو نسبة قد جَرَى مجرى الاسم العلم ونسبته إلى الخَطّ ، خط البحرين ، وإليها ترفأ السفن إذا جاءت من أرض الهند ، وليس الخَطِّى ـ الذى هو الرماح ـ من نبات أرض العرب . وزاد الجوهرى : وإنما نسبت إلى الخط لأنها تحمل من بلاد الهند فتقوّم به . ووشيجه : فالوشيج شجر الرماح » ...

ودخل بعض أولاد عبد الله بن الزبير على سليمان بن محمد ، فجلس على نُمْرُقَة

(١) الإلّ : القرابة ، والسقب : ولد الناقة ، والرأل : ولد النعام ، يهجو حسان أبا سفيان الحارث بن عبد المطلب ، وزعم بعضهم أن هذا الشعر يقوله حسان لعقبة بن أبى معيط ، وذكروا أنه كان لزنية ولذلك قال له عمر حين أمر رسول الله بضرب عنقه ، فقال : أأقتل من بين قريش صبرا ، فقال عمر : « حَنّ قِدح ليس منها »

« الوسادة يتكأ عليها » فاغتاظ من ذلك وقال : مَن أجاسك ههنا ؟ قال : صَفِيَّة بنت عبد المطلب : فسكن غضبه . وقال أبو تمام :

نَسَبٌ كأنَّ عليه من شمس الضُحى ... نُوراً وَمِن فلَقِ الصَّباح عَمودا

* * *

وقالوا فيمن يشبه أباه فى علاء ابناه : شِنْشِنَةٌ أعرِفُها من أخزم [1] و :

وإنّ امْرَءًا فى الفَضْل أشبَهَ جَدَّه ... ووالِدَهُ الأدْنى لَغَيرُ ظلومِ

وقال أبو تمام فيمن مكارِمُهُ تَدُلُّ على كريم أسلافه :

فُروعٌ لا تَرِفُّ عليْكَ إلا ... شَهِدتَ بها على طِيبِ الأُرومِ [2]

وَفِى الشَّرَفِ الحديث دليلُ صِدْقٍ ... لِمُخْتَبِرٍ على الشَّرَفِ القديم

وقال عامر بن الطفيل [3] فى المستغنى بنفسه عن حسبه :

إنى وإن كنتُ ابنَ فارِسِ عامرٍ ... وفى السِّرِّ منها والصَّميمِ المهذَّبِ [4]

فما سوَّدَتْنى عامرٌ عن وِراثةٍ ... أبَى اللهُ أنْ أسْمُو بأُمٍّ ولا أبِ

ولكِنَّنى أحْمِى حِماها وأتَّقى ... أذاها وأرْمِى منْ رَماها بمِقْنَبِ [5]

---

(١) الشنشنة : العادة والطبيعة وهذا مثل ، وأصله لأبى أخزم الطائى وهو جد جد مرتين حاتم الطائى ، وكان له ابن يقال له أخزم كان عاقاً فمات وترك بنين فوثبوا يوماً على جدهم أبى أخزم فأدموه فقال :

إن بنىّ ضرجونى بالدم ... شنشنة أعرفها من أخزم

يعنى أن هؤلاء أشبهوا أباهم فى العقوق

(٢) الأروم : جمع أرومة ، وهى الأصل

(٣) شاعر مخضرم وفارس مذكور بعيد الصوت فى العرب

(٤) وفى السر منها : من سر الوادى ، وهو أكرم موضع فيه يريد أنه فى كرم موضع من نسبها (٥) مقنب كمنبر : جماعة الخيل والرجال والجمع مقانب ويروى : من رماها بمنكب ، والمنكب فى الأصل: مجتمع عظم العضد والكتف ، ضربه مثلا للشدة والقوة

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب :

لَسْنا وإنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنا يوْمًا على الأحسابِ نتَّكِلُ

نَبْنِى كما كانت أَوَائِلُنا تَبْنِى ونَفْعَل مثْلَ ما فعلوا

وقال المتنبي :

خُذْ ماتراهُ ودَعْ شيئاً سَمِعْتَ به في طَلْعَةِ الشَّمْسِ ما يُغنيكَ عن زُحَلِ

وقال :

لا بِقوْمى شَرُفْتُ بل شَرُفوا بى وبنفسى فَخَرْتُ لا بجُدودى

وما فُضِّل الولد على الوالد بأحسنَ من قول المتنبي :

وإنْ تكنْ تغلِبُ الغَلباءُ عُنْصُرَها فإنَّ فى الخمرِ مَعْنًى ليس بالعِنَبِ

وقوله أيضا : * فإنك ماءُ الوَرْدِ إنْ ذَهَب الوَرْدُ *

وقال ابن الرومى فيمن ازداد شرف آبائه به :

وَكَمْ أبٍ قدْ عَلَا بابْنٍ ذُرَا شَرَفٍ كما عَلَتْ بِرَسولِ الله عَدنانُ

يَسْمُو الرجالُ بآباءٍ وَآوِنةً تَسْمُو الرجال بأبناءٍ وتَزْدانُ

* * *

وقالوا فى أنه لا اعتداد بمَنْ شَرُف أصله إذا لم يَشْرُفْ بنفسه :

ـ والقائل المعلم الأول أرسطوطاليس ـ : إذا كان الإنسانُ خَسيسَ الأبوَيْنِ شريفَ النفس، كانت خِسّةُ أبَوَيْهِ زائدةً فى شرفه، وإذا كانَ شريفَ الأبوين خسيسَ النفس، كان شرف أبويه زائداً فى خسّته. وقال ابن الرومى :

وما الحَسَبُ الموروثُ لادَرَّ دَرُّهُ بُمحتَسَبٍ إلا بآخَرَ مُكتَسبْ

إذا العُودُ لم يُثْمِرْ وإن كان شُعْبَةً مِنَ المُثْمِراتِ اعْتَدَّه الناس فى الحَطَبْ

« لادَرّ درّه : لازكا عمله ، دعاء عليه أن لايجعله الله نافعا »

وقال سقراط ـ فى الاعتذار عمن شرفت نفسه ولم يشرف أصله — وقد عَيّرَهُ رجل بحسبه ـ : حَسَبِي مِنّى ابتدأ ، وحَسَبُكَ إليك انتهى ... وقال قائل فى هذا المعنى : لأنْ يكون الرجل شريف النفس دنىءَ الأصل ، أفضَلُ من أن يكون دنىء النفس شريف الأصل ، ألا ترى أنّ رأس الكلب خيرٌ من ذَنَب الأسد !

✡ ✡ ✡

ومما يستطرف من اعتذار المتخلفين الأنذال ، عن تخلفهم عن آبائهم الأشراف ماروى : أنه قيل لأعرابى : ما أشبَهتَ أباك ! فقال : لو أشْبَهَ كلُّ رجل أباه كنّا كآدم ... وخطب رجل قَصَّرَ عن أبيه إلى رجل رفيع القدر ، ابنَتَهُ ، فقال له العظيم : لو كنتَ مثلَ أبيك ! فقال : لو كنتُ مِثلَ أبى لم أخْطُبْ إليك ...

✡ ✡ ✡

ومن محاسنهم فى ذمّ من قصر عن آبائه : قولُ بعضهم :

لـئِنْ فَخَرْتَ بآباءٍ لهم شرَفٌ لقد صَدَقْتَ ولكن بِئْسَما وَلَدُوا

وقول أبى تمام :

يا أكرمَ الناسِ آباءً ومُفْتَخَرًا وألأمَ الناسِ مَبْلُوًّا ومُخْتَبَرَا

ونظر رجل إلى ابنٍ نذلٍ من أب كريم فقال : سبحان الله من قائل : يُخْرِج الخبيثَ من الطيب . وقال شاعر فى لئيم النفس كريم الأبوين :

فلا يَعجَبَنَّ الناسُ مِنك ومنهما فما خَبَثٌ مِنْ فِضَّةٍ بِعَجِيبِ

« الخبث منَ الحديد والفضة ونحوهما : مانفاه الكير ولا خير فيه »

✡ ✡ ✡

وقالوا فيمن يَخْزَى من ذكر آبائه : فمن ذلك أن رجلا سُئِل عن نسبه ، فقال : أنا ابن أخت فلان ، فقال أعرابى : الناسُ ينتسبون طولا وأنت تنتسب عَرْضا

* * *

ومن محاسنهم فيمن لا يُعتدّ بأبيه : قول الأخطل :

وَإذا وَضَعْتَ أباكَ فى ميزانهم   رَجَحوا وشَالَ أبوكَ فى الميزانِ

« شال الميزانُ : ارتفعت إحدى كِفَّتَيه ، ويقال : شال أبوك فى الميزان، وهو مثل فى المفاخرة يقال : فاخَرْته فشال ميزانه : أى فَخَرْتُه بآبائى وغلبته » وقال بعض شعراء أَصْفهان :

تَبَجّحَ بالكتابةِ كُلُّ وَغْدٍ   فَقُبْحًا للكتابةِ والعِمَاله

أرَى الآباءَ نِسْبتَهُم جَميعاً   إلى الأبناء من فرط النذاله

* * *

وقالوا فى الابن يجارى أباه : العصا من العُصَيَّة و : هل تَلِدُ الحية إلا حُيَيَّة وقال شاعر :

وإنَّ أحَقَّ الناسِ أنْ لا تلومَهُ   على الشَّرِّ مَنْ لم يفْعَلِ الخيْرَ والِدُهْ

إذا المَرْءُ ألْفَى والِدَيْهِ كِلَيْهِما   على اللُّؤْمِ فَاعْذِرْهُ إذا خابَ رائِدُه[1]

وقالت الخنساء ـ وقيل لها : ما مَدَحْتِ أخاك حتى هجوت أباك ! فقالت :

جارَى أباه فأقبلَا وَهُما   يَتَعاوَرانِ مُلاءَةَ الحُضْرِ

حتى إذا نَزَتِ القُلوبُ وقد   لُزَّتْ هُناكَ العُذْرُ بالعُذْرِ

وعَلا هُتافُ النَّاسِ أيُّهما   قالَ المُجيبُ هناكَ : لا أدرى

---

(١) أصل الرائد : الذى يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث

بَرَزَتْ صحيفةُ وجْهِ والده ومَضى على غُلَوائه يجرى
أولى فأولى أن يساويه لولا جَلالُ السِّنِّ والكِبْرِ
وَهُما وقــد برزَا كأنهما صَقْرانِ قد حَطَّا إلى وَكْر

«قولها: مُلاءَة الحُضر: فالحضر: العَدْو والجرى، وإنما تريد بملاءة الحضر: الغُبارَ. وكأن عَدِىَّ بنَ الرِّقاع نظر إلى هذا فى قوله يصف حمارا وأتانا:

يتعاوران فى الغُبار مُلاءةً بيضاءَ مُحدَثَةً هُما نَسَجَاها

ونزت القلوب: يريد طمحت واشرأبت لتعرف من السابق، ولُزَّت: قرنت. والعذر: جمع عذار وهو ماسال من اللجام على خد الفرس، ويروى القَدر بالقَدر، والقدر: المنزلة، والكبر: أظنها بضم الكاف بمعنى الأكبر أى ولولا جلال الأكبر، ولك أن تقرأها الكبر بكسر الكاف أى الكِبَرَ ولكنه أسكن الباء ضرورة»

أما الإسلام فقد عدَّ الشرف والحسب إنما هو بالتُّقى فقال سبحانه: إن أكرَمكُم عند الله أتقاكم، قال بعضهم: ماأبقى الله بهذه الآية لأحد شرَفَ أبُوَّة ... ورأى عمر بن الخطاب رجلا يقول أنا ابنُ بَطحاءِ مكة، فوقف عليه وقال: إن كان لك دينٌ فلك شرف، وإن كان لك عقل فلك مُرُوءَة وإن كان لك علم فلك شرف، وإلا فأنت والحمارُ سواء، وقالوا: كان الشرف فى الجاهلية بالبيان والشجاعة والسماحة، وفى الاسلام بالدين والتقى ...

* * *

وقالوا فى الدِّعْوة: أى ادّعاءِ الولد الدَّعِىَّ غيرَ أبيه، أى انتسابه إلى غير أبيه، وقد كانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية، فنهى الاسلام عنه، وكان سيدنا رسول الله قد تبنَّى زيدَ بنَ حارثةَ عتيقَ الرسول، فكانوا يقولون له: ابن

محمد ، فأمر الله عزّ وجل أن ينسب الناس إلى آبائهم وأن لا ينسبوا إلى من تبنّاهم فقال : وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم « أى لا حقيقة له فى الواقع » والله يقول الحق « أى ماله حقيقة عينيّة » وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله « هو : أى دعوتهم لآبائهم ، وأقسط : أعدل ، ومعناه البالغ فى الصدق » فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيما ...

والأحاديث فى ذلك متوافرة ، فمنها قوله صلوات الله عليه : الوَلدُ للفِراش وللعاهر الحَجَرُ . . . « يعنى أن الولد لصاحب الفراش ، من السيد أو الزوج ، وللزانى الخيبة والحرمان ، وهذا كما تقول : مالك عندى شئ غير التراب ، وما بيدك غير الحجر ، وذهب قوم إلى أنه كنى بالحجر عن الرجم ، قال ابن الأثير : وليس كذلك لأنه ليس كلّ زانٍ يُرجم » . . وقالوا فى التعريض بالنسب ـ والقائل أبو نواس :

إذا ذكرتَ عَدِيًّا فى بنى ثُعَلٍ فقدِّم الدال قبل العين فى النسب

ودخل ابن مُكَرَّم على أبى العيناء ـ صاحب النوادر والمجون وكان ضريرا ـ ليُهَنِّيَهُ بابن وُلِدَ له ، فوضع عنده حَجرا ، فلما خرج أُخْبِرَ أبو العيناء ، فقال : لعن الله هذا ، أما تعلمون ماذا عَنَى ؟ إنما أراد قول رسول الله : الولد للفراش وللعاهر الحجر ...

ولقى رجل رجلا فقال له : من أنت ؟ قال : قُرشى والحمد لله ، فقال : الحمد لله فى هذا الموضع ريبة ... وقال زياد بن أبيه ـ وهو ابن أبى سفيان لِرِيبة ـ لرجل : يادَعِىّ ، فقال : الدّعوة قد تشرّف بها المدعى علىّ ، فكيف عيَّرتها !

وفى قولهم فيمن لايشبه والدَيه وذويه خِلْقَةً :

ألوانُهُم إليك عن أنسابِهِم مُعْتَذِرَه

وكان بأصْبِهَانَ رجل مجنون يعرف بابن المستهام ، فقيل لأحمدَ بن عبد العزيز : إنه مليح ذو نوادر ، فاستحضره ، فلما تأمله قال — أى المجنون — :

فى اختلاف الوجوه من آلِ عِجْلٍ لَدَليلٌ على فسادِ النساء

فأراد أحمد أن يَبطِشَ به ، ثم كفَّ عنه مخافةَ أن يتحدث الناس بذلك ...

ومن طريف ماقالوا أيضا فى التعريض بالرجل أن ابنه من زِنْيَةٍ ، مايروى أنه قيل لرجل : إن امرأة فلان وَلَدت بعد الزِّفافِ بِخَمْسَةِ أشهرٍ فقال : إنه بَنَى جدَارَه على أُسِّ غيرِه ...

وخاصَمَ ذو الرمة رجلا من وَلَد زياد بن أبيه فقال له الزيادى : يادعىّ ، فأنشد ذو الرمة :

بُثَيْنَةُ قالت ياجميل أرَبْتَنا فقلت كلانا يابثينُ مريب [1]

* * *

ومما يصح أن يذكر فى هذا الباب : كما يصح أن يذكر فى كتاب النساء قولهم فى أنَّ الولدَ الذى يَنْسِلُ من الأقارب يخرج ضاويا ضعيفا ، فمن ذلك قوله صلوات الله عليه : «اغْتَرِبُوا لاتُضْوُوا» أى تزوجوا الغرائب دون القرائب فإنَّ ولد الغريبةِ أنجب وأقوى من ولد القريبة ، وقد أضْوَت المرأة إذا ولدت ولدا ضعيفا ، فمعنى لاتضووا : لاتأتوا بأولاد ضاوين ، أى ضُعفاء نحفاء ، الواحد : ضاوٍ » وكذلك قال صلوات الله عليه : لاتَنْكِحُوا القرابَةَ القريبة

(١) أربتنا : رأينا منك مايريبنا ونكرهه منك

فإن الولد يُخلق ضاويا ... ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم من قريش صغار الأجسام فقال : مالكم صَغُرتم ؟ قالوا : قُربُ أمّهاتنا من آبائنا ، قال : صدقتم ، اغتربوا لاتضْوُوا ... وقال العتبى : تزوّج أهل بيت ، بعضهم فى بعض ، فلما بلغوا البطن الرابع بلغ بهم الضعف إلى أن كانوا يَحْبُون حبوًا لايستطيعون القيام ضعفا ...

الرضاعة

وكذلك نورد هنا قولهم فى الرّضاعة : قال رسول الله : يَحْرُم من الرّضاعة مايَحْرُم من النسب «انظر كتب الفقه» ونهى رسول الله عن رضاع الحَمْقاء وقال : لاتسترضعوا الحمقاء فإن الولد يَنزِع إلى اللبن ... وقال رجل فى وصف آخر نسبه إلى الرعونة : كيف لايكون أرْعنَ وقد أرضعته فلانة ! ووالله إنها كانت تَزُقّ الفَرْخ ـ أى بفيها ـ فأرى الرعونة فى طيرانه .. ورَوَوا أن الحسن البَصرىّ رحمة الله عليه كانت أمُّه تَغْشى أمّ سَلَمة زوج سيدنا رسول الله ، فدرّت عليه من لبنها ، فورث منه علمه وفصاحته وورعه :

☆ ☆ ☆

الإحسان

وعبقرياتهم فى الجود واصطناع المعروف وقِرَى الأضياف
وذم البخل والسؤال

وهذا لَونٌ ثان من ألوانِ البِرّ هو فى الواقع يَنتظمُ لَوْنَين ، فأمّا أوّلهما فهو هذا الذى نحنُ بصددِه الآنَ ، وهو الجودُ واصطناعُ المعروف ، وسائر مايمُتّ إلى ذلك بسبب واصل من قِرى الأضياف وذم البخل ، وأما الآخرُ فهو حُسن الخلق ، وسنفرد له وَصْلًا تراه عقيب هذا .

تحفى الإسلام بالإحسان : وكما أنَّ صِلَةَ الرَّحم بعامَّة ، وبِرَّ الوالدين بخاصَّة ، مما تحفَّى به الإسلامُ كلَّ التحفِّى ، حتى قرَنَه بالتوحيد وبالتقوى ، ترى هذا الدينَ الحنيفَ ، لقدْ تحفَّى كذلك كلَّ التحفِّى بالإحسانِ إلى مُسْتحقِّيه ، وذمَّ الشُّحَّ ونَعاهُ على أهليه ، وامتدحَ الجودَ ونَوَّه به كلَّ التنويه ، حتى قَرَن ذكرَه بالإيمان ، ووصفَ أهله بالفَلاح ، والفلاحُ اسمٌ جامعٌ لسعادة الدارَين ، فقال سبحانه وتقدس : الٓمٓ ، ذلك الكتاب لا رَيْبَ فيه هُدًى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رَزقناهم يُنفقون ، والذين يؤمنون بما أُنزِلَ إليك وما أُنزل مِن قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . . وقال فى وصف الأنصار : ويؤثِرون على أنفُسِهم ولو كان بهم خَصاصةٌ ، ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فأُولئك هُمُ المفلحون . . . « الخصاصة : الفقر ، ويوقى : يصان » وقال عزَّ وجلَّ : مَثَلُ الَّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمَثَل حَبَّةٍ أنبتت سبْعَ سنابِلَ فى كُلِّ سُنْبُلةٍ مائةُ حبَّة والله يُضاعِف لمن يشاء والله واسع عليم ، إلى أن قال سبحانه : ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حَبَّةٍ بِرَبْوةٍ أصابها وَابِلٌ فآتت أُكُلَها ضِعْفيْن . . . الآيات . . . « قوله سبحانه : كمثل حبة . . . الآية ، فإن ذلك تمثيل لا يقتضى وقوعه ، والجنة : البستان ، والربوة : الموضع المرتفع ، وشجره فى العادة يكون أحسن منظراً وأزكى ثمراً ، والوابل : المطر العظيم » وقال : لنْ تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شىء فهو يخلفه والله خير الرازقين . « والبر ههنا : فهو بِرُّ الله ، أى خيرُ الدنيا والآخرة ، أى السعادةُ والفلاحُ والفوزُ ، أو تقول : لن تنالوا البر : أى لن تنالوا حقيقةَ البرِّ حتَّى تُنفِقوا مما تحبون »

قال الراغب فى الذريعة : وَحُقَّ للجود أن يُقرَنَ بالإيمان ، فلا شىءَ أخصُّ به ، وأشدُّ مُجانسةً ، منه ، إذْ مِن صِفةِ المؤمن انشراحُ الصدر : فمن يُرِدِ الله أن يَهْدِيَهُ يَشرَحْ صَدْرَه للإسلام ومن يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صدْرَه ضَيِّقاً حَرَجاً كأنما يَصَّعَّدُ فى السماء . . . وهذا من صفات الجوادِ والبخيلِ ، لأن الجوادَ يوصَفُ بِسَعَةِ الصَّدْر للإنفاق ، والبخيلَ يُوصَف بِضِيقِ الصَّدْر للإمساك . . .

الناس مجبولون على البخل

« وأما بعد » فإنّ أكْثرَ هذا الناسِ لقدْ جُبِلوا على البُخْلِ ، فالبُخلُ هو الأصل ، وَإنَّما الجودُ فى سائرِ ألوانِه ، تكَلُّفٌ وتَعَمُّلٌ وَحَمْلٌ للنَّفْسِ على مكْروهِها وعلى غير ماجُبلتْ عليه ، وقد قيل لحاتِم الطائِيِّ الذى يُضرَبُ به المثلُ فى الجُود : كيف تجدُ الجودَ فى قلبكَ ؟ فقال : إنِّى لأجِدُه كما يجده الناسُ ، ولكنِّى أحمِلُ نفْسِى على خُطَط الكرام (١) ، وقال بعض الأجواد : إنَّا لنَجدُ كما يجدُ البخلاءُ ولكنَّا نَصْبِرُ ولا يَصْبِرُون . . . وفى هذا المعنى يقول البحترى :

وَأشَقُّ الأفعالِ أنْ تَهَبَ الأنـــفُسُ ما أُغْلِقتْ عليهِ الأكُفُّ

ويقول أبو يعقوبَ الخُرَيْمِىُّ :

وَدُونَ النَّدَى فى كُلِّ قَلْبٍ ثَنِيَّةٌ بِهَا مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومُنْحدَرٌ سَهْلُ (٢)

ويقول أبو العتاهية :

اِطْرَحْ بطَرْفِكَ حيثُ شِئْـــتَ فلَنْ تَرَى إلَّا بخيلا

ويقول ابن نُباتة السعدى :

---

(١) الخطط: جمع الخطة ، وهى الحال والأمر والخطب

(٢) الثنية : المكان المرتفع الصعب المطلع ، أى أن الكرم شاق على النفس

كيف السبيلُ إلى الغِنَى والبُخْلُ فى الناسِ فِطْنَه

وأكثرُ مَن يَتسخَّى ويَجودُ فإنّما يجودُ رَغَبًا أو رَهَبًا - رغبا فى عاجلِ الجزاء * كمُلْقِى الحَبِّ للطَّيْرِ ليَصيدَ به لا لِيَنْفعَه *

ومَن يَظُنُّ نَثْرَ الْحَبِّ جُودًا وينْصِبُ تحتَ ما نَثَرَ الشباكا (١)

ورَهَباً مِنْ عابٍ يَلتصق به أو مكروهٍ يُصيبُه :

مِثْلُ الْحِمارِ المُوَقَّعِ الظَّهْر لا يُعطِيك شيئاً إلا إذا رَهِبا (٢)

وهناك صِنفٌ من الناسِ يُعطِى ويمنع لا بُخلا ولا كرماً ، وإنما يكونُ ذلك تَهَوُّرًا واندفاعا منْه مع نَزْوَةٍ من نزوات النفوسِ ، كما قال الأديب أبو بكر الخوارزمى فى الوزيرِ الصاحبِ بن عباد :

لا تَحْمَدَنَّ ابنَ عبَّادٍ وإنْ هَطَلَتْ يداهُ بالْجُودِ حتَّى أَخْجلَ الدِّيَما

فإنها خَطَراتٌ مِن وَساوِسِه يُعْطِى ويمنعُ لا بُخْلا ولا كرما

وقَلَّ مِنَ الناس مَن يجُود اسْتجابةً لفطرته ، ولداعى الضمير ، كما يقولون . فلْيُلْحَظ هذا ، ولْيُلْحَظ كذلك أنَّ البُخْلَ رَذِيلةٌ تَسْتَتْبِعُ رذائل ، وناهيك بالجبن رذيلة ، هى ألْزَمُ الرذائل للبخل : كما أنّ الجودَ فضيلةٌ تَسْتتبعُ فضائلَ ، وحسبك بالشجاعة فضيلة هى أخصُّ الفضائل بالجود :

---

(١) للمتنبى ، وقوله ومن يظن : عطف على كل نفس فى البيت قبله وهو :

وآمَنَّا فداءك كل نفس وإن كانت لمملكة ملاكا

يقول : الملوك يجودون لطلب العوض كما نثر الصائد حبا تحت الشبكة ، ولا يعد ذلك جوداً لأنه إنما نثر لأخذ الصيد الذى هو خير من الحب

(٢) للحكم بن عبدل الأسدى ، والموقع الظهر : الذى بظهره آثار الدبر لكثرة ما حمل عليه وركب ، فهو ذلول .

ذَرِينى فإنَّ الشُّحَّ يا أُمَّ هَيْثَمٍ ... لِصالحِ أخلاقِ الرِّجالِ سَروقُ (١)

✡ ✡ ✡

وإذا اختبرتَ علمت غير مُدافَعٍ ... أنَّ السماحَ سَجِيَّةُ الأبطال

وقال أبو تمام فى ذلك ـ من أبيات يمدح بها خالد بن يزيد الشيبانىّ :

وإذا رأيت أبا يزيدٍ فى نَدًى ... وَوَغًى ومُبدِىَ غارةٍ ومُعِيدا

يَقْرِى مُرَجِّيه مُشاشةَ مالِهِ ... وشَبا الأسِنَّةِ ثُغْرةً ووَرِيدَا

أيقنتَ أنَّ مِن السماحِ شجاعةً ... تُدْمِى وأنَّ من الشجاعة جودا (٢)

وقال المتنبي :

هو الشجاع يَعُدُّ البُخْلَ مِن جُبُنٍ ... وَهْو الجوادُ يَعُدُّ الجُبْنَ مِنْ بُخُلِ

وقد عدوا الشجاعة لوناً من الجود فقال مسلم بن الوليد :

يجُودُ بالنَّفسِ إذ ضَنَّ البخيلُ بها ... والجودُ بالنَّفس أقصَى غايةِ الجودِ

---

(١) من أبيات جميلة نبيلة لعمرو بن الأهتم ، وبعد البيت :

ذرينى وحُطِّى فى هواى فإنَّنى ... على الحسب العالى الرفيع شفيق

ومُسْتَنْبِحٍ بعد الهدوء دعوته ... وقد كان من سارِى الشِّتاء طُرُوقُ

فقلت له أهلا وسهلا ومرحباً ... فهذا مبيت صالح وصَدِيق

أضفتُ فلمْ أُفحِش عليه ولم أقُلْ ... لِأَحرِمَه إنَّ الفِناءَ مَضيقُ

لَعمرُك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكنّ أخلاقَ الرجال تَضِيقُ

(٢) الوغى : الحرب ، وقرى الضيف يقريه قرى : أضافه وأحسن اليه ، والمشاشة واحدة المشاش وهو رأس العظم الذى يمكن مضغه ، يقول : انه يطعم المجتدى ماله حتى انه ليمتش العظم وهذه مبالغة فى أنه يمكن المجتدى من ماله . والشبا : جمع شباة ، وشباة كل شيء : حدّه ، والثغرة : نقرة النحر

ولأجل هذين الملحظين ، تظاهرت الآياتُ والأحاديثُ وما أُثِر عن الأوائل من العلماء والحكماء والشعراء والربَّانيِّين ، على ذَمِّ البخل وامتداح الجودِ والإحسان ، وأكثروا وافْتَنُّوا وأبدَعوا ، الأمرُ الذى يدلُّ على أنهم قدَرُوا أثرَ الجودِ والبُخل فى الخُلُق حقَّ قدْرِهِ ،وأنهم لذلك شَنُّوا هذهِ الغارةَ الشَّعْوَاءَ على الإنسانِ الأنانِيِّ الكَزِّ الشحيحِ الكامِن فى نفس كُلِّ إنسان ...

عبقرياتهم فى مدح الجود وذم البخل

ولنأخذ الآن فى عبقرياتهم فى ذم البخل ومَدح الجود والإحسانِ واصطناع المعروف ، والكلام فى هذه المعانى يدخلُ بعضه فى بعض . . كتب رجلٌ مِنَ البُخلاء إلى رجلٍ من الأسخياء يُخَوِّفُه الفقرَ ، فأجابه : الشيطانُ يَعِدُكمُ الفَقْرَ ويأْمُرُكم بالفحشاء واللهُ يعِدُكم مَغْفِرَةً منه وفضلا ... وإنى أكرهُ أن أتْرُكَ أمْرًا قد وقع لِأمْرٍ لعَلَّهُ لا يَقَعُ . « يقول سبحانه : إنَّ الشيطانَ يَعِدُ الناسَ الفَقْرَ فى الإنفاق ، أى يقول لهم : إن عاقبةَ إنفاقِكم أنْ تَفْتَقِرُوا - والوعدُ كما يُسْتَعْمَلُ فى الخير يستعمل فى الشَّرِّ - ويأمركم بالفحشاء ، أى يغريكم بالبُخْلِ ومنعِ الصدقات إغراءَ الآمِرِ للمأمور ، فالفحشاءُ هنا : البُخْلُ ، والفاحِشُ عند العرب : البَخِيل ، قال طرَفَةُ بنُ العبد فى مُعَلَّقَته :

أرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ ويَصْطَفِى
عَقِيلَةَ مالِ الفـاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ (١)

ثم قال سبحانه : والله يعدكم فى الإنفاق مغفرةً لذنوبكم وكفارةً لها ، وأن

(١) يعتام : يختار ، والعقائل : كرائم الأموال والنساء ، الواحدة عقيلة ، والفاحش البخيل ، يقول طرفة : إن الموت لا يبقى على الأجواد والبخلاء فيصطفى الكرام وكرائم أموال البخلاء فلا يجدى البخل على صاحبه ، فالجود أحرى لأنه أحمد .

يُخلِفَ عليكم أفضلَ مما أنفقتم » وقيل لإبليس : مَنْ أحبُّ الناس إليكَ ؟ فقال : عابدٌ بخيلٌ ... قيل : فمَنْ أبغضُ الناس إليك ؟ قال : فاسقٌ سخيٌّ ، فإن سخاءَه يُنْجيه ... أفرأيتَ ! أليس هذا الكلامُ تمثيلا جميلا لِحالَي البخيل والجواد ! حتى إنهم فضّلوا الفاسق السخيَّ على العابد البخيل ، وأحسَنُ منهما جميعا لعمري : العابدُ الكريمُ ، وإنما كان العابدُ البخيلُ مفضولا ، لأن العبادةَ الحقَّ لاتجتمع والبُخلَ ... وقال بعضهم لآخر : إنك مِتلافٌ ، فقال : مَنْعُ الْجُودِ سُوءُ ظَنٍّ بالمعبود ، قال تعالى : وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين . ومن هذا قول بعض الحكماء : عليكم بأهل السخاء والشجاعة فأنهم أهلُ حُسْنِ ظَنٍّ بالله ، ولو أنَّ أهلَ البُخل لم يَدخُلْ عليهم من ضَرِّ بُخلهم ، ومَذَمَّةِ الناس لهم ، وإطباقِ القلوب على بُغضهم ، إلا سوءُ ظَنِّهمْ بربهم في الخَلَفِ ـ أي العوض ـ لكان عظيما ، وفي هذا المعنى يقول محمود الورّاق :

مَنْ ظَنَّ بالله خيرا جاد مُبْتَدِئاً ... والبُخْلُ مِنْ سُوءِ ظَنِّ المَرْءِ بالله

وورد في الحديث : خَصْلَتَانِ لايجتمعان في مؤمن : البُخْلُ والكِبرُ وقال بعضهم في هذا المعنى :

أُناسٌ تائهُونَ لهم رُوَاءٌ ... تَغِيمُ سماؤُهمْ مِنْ غَيْرِ وَبْلِ [1]

ومن أمثالهم في ذلك : رُبَّ صَلَفٍ تحتَ الرَّاعِدَةِ ... « الراعدة : السحابة ذات الرعد ، والصلف قلة الخير ، وهذا المثل يضرب للبخيل مع الوُجْدِ والسعة ، ولأئمة اللغة كلام كثير في هذا المثل راجِعْهُ في مادة «صلف» بلسان

(١) تائهون : من التيه وهو الزهو والكبر . والرواء : حسن المنظر ، والوبل : المطر العظيم

العرب » ... ومن قولهم فى البَخِيل لا يُرْجَى خيرُه ولا يَبِضُّ حَجَرُهُ :

يُعالِج نفساً بَيْنَ جَنْبَيْهِ كَزَّةً إذا هَمَّ بالمعروفِ قالتْ لهُ مَهْلا

ومن المستطرف من كناياتهم فى هـذا المعنى ما يروى : أن امرأة قالت لزوجها : والله ما يُقيم الفأرُ فى دَارِكَ إلا لِحُبِّ الوطن ... وقال رجل : إنى أقصد فلانا رَاجياً نَداه ، فقال له صاحبه :

وتَرْجُو النَّدَى من إناءٍ قَلَّمَا ارْتَشَحَا

كالْمُسْتَذِيب لِشَحْمِ الكَلْبِ مِنْ ذَنَبِهْ

وقال ابن الرومى ـ وهو من مُقْذِعاته المُضْحِكة ـ :

يُقَتِّرُ عِيسى على نفْسِه وليس بباقٍ ولا خالِدِ

ولو يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِه تَنفَّس مِنْ مَنْخِرٍ واحِدِ

« المَنْخِر : ثقب الأنف » وقال آخر :

يُحِبُّ المديحَ أبو خالدٍ ويَفْزَعُ من صِلَةِ المادِحِ

كبِكْرٍ تَوَدُّ لَذيذَ النكاحِ وتَهْلَعُ من صَوْلَةِ الناكحِ

وقال البُحْتُرِىُّ ـ وهو معنى بديع ـ :

جِدَةٌ يذُودُ البُخْلُ عن أطْرافِها كالبَحْرِ يدْفَعُ مِلْحُهُ عن مائِه (١)

وقال بشار :

إذا جِئْتَهُ فى حاجةٍ سَدَّ بابَهُ فَلَمْ تَلْقَهُ إلا وأنْتَ كَمِينُ

إذا سَلَّمَ المِسكينُ طار فُؤادُهُ مَخافةَ سُؤْلٍ واعْتراهُ جُنُونُ

---

(١) الجدة : الغنى ، ويذود : يدافع

وقال ابن الرومى . وهو كذلك من هجائه المضحك :

تجنَّبْ سليمانَ قُفْلَ النَّدى فقد يَئِسَ الناسُ من فتْحِه

ولو كان يملكُ أمرَ استِهِ لما طَمِع الحُشُّ فى سَلْحِه

« الحُشُّ : المستراح ـ موضع قضاء الحاجة ـ والسلح : النجو ـ الغائط ـ »

وقال ابن الرومى أيضا ـ وهو معنى بديع ـ وإن كان من بابة غير هذه البابة :

وإذا امْرُؤٌ مَدَحَ امْرَءًا لِنوالِه وأطال فيه فقد أراد هِجاءَهُ

لو لم يُقدِّرْ فيه بُعْدَ المُسْتَقَى عند الورودِ لما أطالَ رشاءَهُ

« الرشاء : حبل الدلو » وقالوا : من لم يأت الخير صغيرا لم يأتِه كبيراً ، وفى ذلك يقول المَعْلوطُ السَّعدى ـ وهو شاعر إسلامى ـ :

إذا المَرْءُ أعيَتْه المُروءَةُ ناشِئاً فمَطْلَبُها كهْلًا عليه شديدُ [1]

وقالوا فى البخيل كلما ازداد ثراء ازداد بخلًا وكزازة ، والقائل ابن الرومى ـ والبيتان من أوابده وتوليداته البديعة :

إذا غَمرَ المالُ البَخيلَ وَجدْتَهُ يَزيدُ به يُبْسًا وإنْ ظُنَّ يرْطُبُ

وليس عجيباً ذاكَ منه فإنَّهُ إذا غَمرَ الماءُ الحِجارةَ تَصْلُبُ

وقال :

ألم تَرَ أنَّ المالَ يُهلِكُ أهْلَهُ إذا جَمَّ آتيهِ وسُدَّ طريقُهُ

---

(١) من أبيات جميلة يقول فيها :

مَتى مايَرَ النَّاسُ الغَنىَّ وجارُه فقير يقولوا عاجِزٌ وجَليدُ

وليس الغِنى والفقْرُ من حيلة الفَتى ولكِنْ أحاظٍ قُسِّمَت وجُدُودُ

فكمْ قدْ رَأينا من غَنىٍّ مُذمَّمٍ وصُعْلوكِ قوْم ماتَ وهو حميدُ

إذا المرء .... البيت

وَمَنْ جاوَرَ الماءَ الغزيرَ مَجَمَّهُ ... وسُدَّ سبيلُ الماءِ فهوَ غَرِيقُه

وقال :

المالُ يكسبُ رَبَّهُ ـ مالم يَفِضْ ... فى الراغبينَ إليهِ ـ سُوءَ ثناءِ

كالماءِ تأسَنُ بِئْرُهُ إلا إذا ... خَبَطَ السُّقاةُ جِمامَه بدلاءِ

« تأسن : تتغير ، وخبطه : ضربه ، والجمام : بتثليث الجيم : معظم الشيء »

عبقرياتهم فى الجود واصطناع المعروف

ولندع البُخلَ والبخلاء لحظة ونتنقل إلى عبقرياتهم فى الجود والإحسان واصطناع المعروف : جاء فى كليلة ودمنة : إن أحسنَ الناس عَيْشاً من حَسُنَ عَيْشُ الناس فى عَيْشِه ، وإن من ألذِّ اللَّذَّةِ الإفضالَ على الإخوان ، وفى الحديث : ليس لك من مالِكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبِسْتَ فأبْليتَ ، أو أعطيت فأمْضيت ، وما سوى ذلك فهو مِلك الوارث وقال شاعرهم :

أنتَ للمال إذا أمسكْتَهُ ... فإذا أنفقتَه فالمالُ لَكْ

وقال سعيد بن العاص من خُطبة له : مَنْ رَزَقه الله رزقاً حَسَناً فلْيُنْفِقْ منه سِرًّا وجهراً حتى يكونَ أسعدَ الناسِ به ، فإنه إنما يُتْرَكُ لأحد رجلين : إمَّا مُصلِح ، فلا يَقِلُّ عليه شيءٌ ، وإمّا مُفْسد فلا يَبْقَى له شيء ... فقال معاوية : جَمَع أبو عثمانَ طَرَفَي الكلام ...

وقال الأحنف بن قيس : ما شاتَمْتُ رجلا مُذْ كنتُ رجلا ، ولا زَحَمتْ رُكْبتايَ رُكْبتَيْه ، وإذا لم أَصِلْ مُجْتَدِيَّ حتَّى يَنْتَضِحَ جبينُه عَرَقاً كما يَنتضِحُ الحَمِيتُ ، فوالله ماوَصَلْتُه ... « قوله : مجتدى : يريد . الذى يأتيه يطلب ماله يقال : اجتداه يجتديه واعتفاه يعتفيه واعتراه يعتريه واعتَرَّه يعتَرُّه وعراه

يعرُوه» : إذا قصده يتعرَّض لنائله . ويَنْتِحُ كيضرِبُ : يَرْشَحُ ، والحَميتُ : وعاء السمن . يقول الأحنف : إنه لا يُحوج سائلَه إلى أن يَترشَّحَ جبينه عرقا ، لمبادرته بإعطائه » وقال معاويةُ بنُ أبى سفيان لِوَرْدان مولى عمرو بن العاص : مابقى من الدنيا تلَذُّه ؟ قال : العريضُ الطويلُ ، قال : وما هو ؟ قال : أنْ آتىَ أخاً قد نَكَبَهُ الدهرُ فأَجبُرَه ، قال : نحْنُ أحقُّ بهذا منك . . . قال : إنَّ أحقَّ بهذا منك مَن سبَقكَ إليه . . . وقال ابن عباس : ثلاثة لا أكافئهم : رجلٌ بدأنى بالسلام ، ورجل وَسَّعَ لى فى المجلس ، ورجل اغْبَرَّت قدَماهُ فى المشى إلىَّ إرادةَ التَّسليم علىّ ؟ فأما الرابع فلا يكافئه عنى إلا الله عز وجل ، قيل : ومن هو ؟ قال : رَجلٌ نزَل به أمرٌ فبات ليلتَه يفكِّرُ بمَن يُنزِلُه ، ثم رآنى أهْلا لحاجتــه فأنزَلها بى . وقال ابن عباس أيضا : لا يُزَهِّدَنَّك فى المعروف كفْرُ من كفَره ، فإنه يَشكرك عليه مَنْ لم تَصطنعْهُ إليه : «كفر من كفره : يريد : كفر النعمة ، أى عدم شكرها ، وقوله : من لم تصطنعه إليه يريد الله عز وجل»

وأنشد عبدُ الله بنُ جعفر بنِ أبِى طالب ، أحدُ الأجواد فى الإسلام قولَ الشاعر :

إنَّ الصَّنيعةَ لا تكونُ صنيعةً حتَّى يُصابَ بها طريقُ المَصْنَعِ [(١)]

فقال : هـذا رجل يريد أنْ يُبخِّلَ الناسَ ، أمْطِر المعروفَ مَطَرًا فإن صادف موْضِعا فهو الذى قصَدْتَ له ، وإلا كنْتَ أحقَّ به

« وبعد » فهناك فى هــذا المعنى كما ترى مذهبان ، فمذهب يرى إعطاءَ

(١) الصنيعة : ما أسديت من المعروف ، وبعد هذا البيت :

فإذا صَنعْتَ صنيعةً فاعْمِدْ بها لِلهِ أوْ لذَوِى القرائبِ أوْدَعِ

المستحق وغير المستحق ، الكريم واللئيم ، الشاكر ، والكافر : ويقول هذا المذهب ـ والقائل الشاعر محمود الورّاق :

فإمّا كريمٌ صُنْتُ بالجودِ عِرْضَهُ وإمّا لئيمٌ صُنْتُ عن لُؤْمِه عِرْضِى

وقال بعضهم : لأنْ أُخطِئَ باذلا ، أحبُّ إلىَّ من أن أُصيبَ مانعا « باذلا ومانعا : حالان من فاعل أخطئ وأصيب »

ومذهب آخر يرى حرمانَ اللئام ومَنْ يُسْتَضَرُّ بإعطائه ، قال قائلهم : اتَّقُوا صَوْلة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبِع . وقالوا : اللئيمُ يَزْدَاد بالعُرف خَبَالا ، كما يزداد المريض من كثرة الطعام وبالا ، « خبالا : فسادا » وقال شاعر :

* ليس فى مَنعِ غَيْرِ ذى الْحَقِّ بُخْلُ *

وقال الآخر :

ومَنْ يَصْنَعِ المعروفَ معْ غيرَ أهلِهِ
يُلاقِ كما لاقى مُجِيرُ أمِّ عامرِ (١)

(١) أم عامر : الضبع ، وكان من حديث هذا المثل أن قوما خرجوا إلى الصيد فى يوم حار ، فبينما هم كذلك إذ عرضت لهم أم عامر ، وهى الضبع ، فطردوها ـ أى حاولوا صيدها ـ فأتعبتهم حتى ألجأوها إلى خباء أعرابى فاقتحمته ، فخرج إليهم الأعرابى فقال : ماشأنكم ؟ فقالوا : صيدنا وطريدتنا . قال : كلا ، والذى نفسى بيده لاتصلون إليها ماثبت قائم سيفى بيدى . فرجعوا وتركوه . فقام إلى لَقحة ـ و اللَّقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ـ فحلبها وقرّب إليها ماء ، فأقبلت مرة تلغ من هذا ومرة تلغ من هذا حتى عاشت واستراحت ، فبينما الأعرابى نائم فى جوف بيته إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وشربت دمه وأكلت حُشوته ـ أمعاءه ـ وتركته فجاء ابن عم له فوجده على تلك الصورة فالتفت الى موضع الضبع فلم يرها فقال : صاحبتى والله ، وأخذ سيفه فى كنانته واتبعها فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشد البيت

وأخيرا قالوا ـ والقائل أبو العتاهية ـ:

إذا المال لم يُوجِبْ عليك عطاءَه صنيعةُ تقوى أو خليلٌ تُخالقُه
منَعْتَ وبعضُ المَنْعِ حزمٌ وقوةٌ ولم يبْتَذِلْكَ المالَ إلا حقائقُه(١)

وقال الحسنُ والحُسَيْنُ رضوان الله عليهما لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسْرَفْتَ فى بذل المالِ ! قال : بأبى أنتما ، إن الله عَوَّدَنِى أنْ يُفْضِلَ علىَّ ، وعودته أن أُفْضِلَ على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة ، فيقْطع عنِّى ...

ومرَّ يزيدُ بنُ المُهَلَّب بأعرابية ، فى خروجه من سجن عمرَ بنِ عبد العزيز(٢) ، يريد البصرة ، فقرَتْهُ عَنْزًا فقَبِلَها ، وقال لابنه معاوية : مامعك من النفقة ؟ فقال : ثمانمائة دينار ، قال : فادفعها إليها ، فقال له ابنه : إنك تريد الرجال ، ولا يكون الرجال إلا بالمال ، وهذه يُرْضيها اليسير ، وهى بعدُ لا تعرِفُكَ ، فقال له : إن كانت تَرْضَى باليسير فأنا لاأرْضى إلا بالكثير ، وإن كانت لاتعرفنى ، فأنا أعرِفُ نفسى ، ادْفَعْها إليها ...

وأورد المبرِّدُ فى الكامل مايأتى : وأشرف عمرُ بنُ هُبيرة الفَزارىُّ ـ والى العراقين ليزيد بن عبد الملك ـ من قصره بالكوفة يوما ، فإذا هو بأعرابىٍّ

(١) حقائقه : جمع حقيقة : مايحق عليك أن تحميه

(٢) وذلك سنة ١٠١ للهجرة ، وكان عمر بن عبد العزيز أخذه بعدة وعدها سليمان بن عبد الملك ، وذلك أن يزيد كان عامله على حراسان ، فافتتح جرجان وطبرستان ، ثم بشره بفتحهما فى كتاب أرسله إليه يقول فيه « وقد صار عندى من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار لكل ذى حق حقه فى الفىء والغنيمة ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين ان شاء الله ... ثم مات سليمان وولى الخلافه عمر ، فسأل يزيد ، فتلكأ فأمر بسجنه ، ثم هرب لما بلغه شدة مرض عمر الذى مات به مخافة من يزيد بن عبد الملك الخليفة بعده لما كان بينهما من التباغض

يُرَقِّصُ جَمَلَه الآلُ [1] فقال: لحاجبه: إن أرادني هذا فأوصله إليّ، فلما دنا الأعرابيّ سأله، فقال: قصدت الأمير، فأدخله إليه، فلما مثل بين يديه قال له عمر: ماخطبك؟ فقال الأعرابي:

أَصْلَحَكَ اللهُ قلَّ مابيَدِى فما أُطيقُ العِيالَ إذ كَثُرُوا
أَلَحَّ دَهْرٌ أنحَى بكَلْكَلِه [2] فأَرْسَلُونى إليك وانتَظَرُوا
رَجَوْكَ لِلدَّهْرِ أنْ تكونَ لهم غَيْثَ سحابٍ إن خانَهم مَطَرُ

فأخذتْ عمرَ الأرْيَحِيَّةُ، فجعل يَهْتَزُّ فى مجلِسِه، ثم قال: أرسلوكَ إليَّ وانتظروا! إذن واللهِ لا تجْلِس حتى ترجع إليهم غانِما. وأمَر له بألف دينار، وَرَدَّه على بعيره ... قال المبرِّد: وحُدِّثْتُ أن الخبر لِمَعْنِ بن زائدة. أقول: وقد أورده ابن خِلكان منسوبا لمعن.

✡ ✡ ✡

وهذا معن بن زائدةَ هو الآخَرُ له فى المكارم غُرَرٌ وأوضاحٌ، وهو أشهرُ فى باب الأريَحِيَّة والجود والإقدام والحلم من أن يُنَوَّه به، وهو معن بن زائدة الشيبانى، كان فى أيام بنى أمية مُتَنَقِّلًا فى الولايات، ومنقطعا إلى يزيدَ ابن عمرَ بن هُبَيْرة والى العراقين، فلما أدال من بنى أمية بنو العباس، وجرَى بين أبى جعفر المنصور وبين يزيدَ بن عمر المذكور ماجرى، أبْلَى يومئذ معنٌ مع يزيدَ بلاءً حسنا، فلما قُتِل يزيد خاف معن من أبى جعفر المنصور، فاسْتَتَرَ عنه مدة وجرى له مُدَّةَ اسْتِتَارِه غرائب، وهنا يحدثنا شاعره الفَحْلُ مَرْوان بن حَفْصة بحديث طريف من هذه الغرائب. قال:

(١) الآل: ما تراه فى الضحى كالماء بين السماء والأرض، ويرقصه: يحمله على الرقص، وهو نوع من السير كالخبب

(٢) انحى: اعتمد ومال، والكلكل: الصدر، استعاره لوطأة الدهر وثقله

أخبرنى معنٌ وهو يومئذ مُتَوَلٍّ بلادَ اليمن : أنَّ المنصور جدَّ فى طلبى ، وجعل لمن يَجيئنى إليه مالا ، قال معن : فاضْطُرِرتُ لإلحاحه فى الطلب إلى أن تعرَّضتُ للشمس حتى لوَّحتْ وجهى ، ولبِسْتُ جُبَّةَ صُوف ، وركِبْتُ جملا وخرجت مُتَوجِّها إلى البادية لأُقيمَ بها ، فلما خَرجتُ من باب حَرْبٍ — أحد أبواب بَغْداد — تبِعَنى أسْوَدُ مُتقلِّدٌ سيفا حتى إذا غِبْتَ عن الحَرَس ، قبض على خِطامِ الجمل ، فأناخه ، وقبض على يدى ، فقلت له : مابك ؟ قال : أنت طَلِبَة أمير المؤمنين ، قلت : ومن أنا حتى أُطْلب ! قال : أنت معن بنُ زائدة ، فقلت له : ياهذا ، اتق الله عز وجل ، وأينَ أنا من معْنٍ ! فقال : دَعْ هذا ، فإنى — والله — لأعْرَفُ بك منك ، فلما رأيت منه الجِدَّ قلت له : هذا عِقْد جَوْهَر قد حَمَلتُه معى بأضعاف ماجعله المنصور لمن يجيئُه بى ، فَخُذْهُ ولا تكن سببا لِسفْكِ دمى ، قال : هاته ، فأخرجته إليه ، فنظر فيه ساعة ، وقال صدقت فى قيمته ، ولستُ قابِله حتى أسألَكَ عن شىء ، فإن صدَقْتَنى أطْلَقْتُك ، قلت : قلْ ، قال : إن الناس قد وصفوك بالجود ، فأخبِرْنى : هل وهَبْتَ مالَكَ كُلَّه قطُّ ؟ قلت : لا ، قال فنِصْفَه ، قلت : لا ، قال : فثُلُثَه قلت : لا ، حتى بلغ العُشْر ، فاستحييت وقلت : أظُنُّ أنِّى قد فعلت هذا ، قال : ماذاك بعظيم ، أنا والله راجلٌ — يريد من المشاة — ورِزْقى من أبى جعفر المنصور كلَّ شهر عشرون دِرهما ، وهذا الجَوْهر قيمته ألوف دنانير ، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولِجُودك المأثور بين الناس ولتعلمَ أن فى هذه الدنيا مَن هو أجوَدُ منك ، فلا تُعجبُك نفسُك ، ولتَحْقِر بعد هذا كلَّ جودٍ فعلتَه ولا تتوقَّفْ عن مكرُمةٍ ، ثم رمى العقدَ فى حِجْرى ، وترك خِطام الجمل ، وولّى منصرفا ، فقلت : يا هذا ، والله لقد فضحْتَنى ،

ولَسفْكُ دمي عليَّ أهونُ مما فعلتَ ، فخذ مادفعتُه لك فإنّي غنيٌّ عنه ، فضحك وقال : أردْتَ أن تُكَذِّبني في مقالي هذا ! والله لا أخذْتُه ولا آخذ لمعروف ثمنًا أبدا ، ومضى لسبيله ، فوالله لقد طلبته بعد أن أمِنت ، وبذلت لمن يجيء به ما شاء فما عرَفت له خبرا ، وكأنّ الأرضَ ابتلعته ... ألا ترى معي أن ما فعله هـذا الجندي الفقير إن لم يَفُقْ به معنَ بنَ زائدة وأشباهَ معنِ بنِ زائدة ، في باب المروءة والفتُوّة والنجدة والكرم وعبقرية الروح فإنه لا يقل عنهم !

جُهْدُ المُقِلِّ إذا أعطاك نائلَهُ ومُكْثِرٌ من غِنًى سِيَّانِ في الجُودِ

فهو كما قال الشاعر :

ولم يكُ أكثرُ الفِتيان مالاً ولكن كان أرْحبَهمْ ذراعا

✿ ✿ ✿

ومن هنا حثُّوا على الجود والمُروءةِ والتَّسخّي حتى في حالة العُسْر والضِّيق فمن ذلك ما قرأناه منسوبا لبُزُرْجِمهْرَ أو ليحيي بن خالد البرمكي أو لامرأة من العرب توصي به ابنها ، وهو : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفِقْ ، فإنها لا تَفْنَى ، وإذا أدبرَتْ عنك فأنفق فإنها لا تبقى . أخذه بعض الشعراء فقال :

وأنفِقْ إذا أنفقتَ إنْ كنْتَ مُوسِرًا
وأنفِقْ على ما خيَّلت حين تُعْسِرُ
فلا الجود يُفْني المالَ والجَدُّ مُقبلٌ
ولا البخلُ يُبقِي المالَ والجَدُّ مُدْبِرُ

وقال الآخر في معناه :

لا تَبْخَلنَّ بدُنْيا وهي مُقْبِلةٌ فليس يَنْقُصُها التَّبذِيرُ والسَّرَفُ

فإنْ تولَّتْ فأحْرَى أنْ تجُودُ بها والشُّكرُ منها إذا ماأدبرَتْ خلَفُ

✡ ✡ ✡

ولا تنْسَ أنَّ مرادهم بالإنفاق والجُود هنا : الإنفاقُ فى سبيل الله والبرّ لافى سبيل الشيطان والإثم ، والجودُ على ذوِى الحقوق ومَن هُمْ فى حاجة إليك حتى مع إدبار الدُّنيا عنك ، وبالحَرِىّ مرادهم بالسَّرَفِ : السَّرَفُ فى الشرف ، وما يُكْسب المرءَ محْمَدةً ومِقَة[1] . ويؤثَر عن مُعاوية أو المأمون ـ وقد قيل لأحدهما : لاخير فى السرف ـ فقال : لاسَرَفَ فى الشَّرَف . . .

وقال سلم بن قتيبة : أحدُكم يحْقِر الشيءَ فيأتى ماهو شرٌّ منه « يعنى المنع » يريد الحثّ على إعطاءِ القليل إن لم يُستطعْ إعطاءُ الكثير » وقال حمّاد عجْرَد فى ذلك من أبيات :

بُثَّ النَّوالَ ولا تمنَعْكَ قِلّتُهُ فكلُّ ماسَدَّ فقْرًا فهْوَ محمودُ

يقول فيها :

إنَّ الكَريمَ ليُخفِى عَنْكَ عُسْرَتَهُ حتَّى تراهُ غنيًّا وهْوَ مجهُودُ
إذا تكرَّمْتَ أنْ تُعطِى القليلَ ولمْ تقْدِرْ على سَعةٍ لمْ يَظْهرِ الجودُ
ولِلبَخيلِ على أمْوالِهِ عِلَلٌ زُرْقُ العُيون علَيْهَا أوْجُهٌ سُودُ
أوْرِقْ بخَيْرٍ تُرَجّى لِلنَّوالِ فمَا تُرْجَى الثّمارُ إذا لم يُورِقِ العودُ

والعرب تقول : من حقَرَ حرَمَ ... « حقر الشيء : عده حقيراً » أى من حقر يسيرا يقْدِرُ عليه ولم يقدر على الكثير ضاعت لديه الحقوق » وفى الحديث : لاتردُّوا السائلَ ولو بظِلْفٍ مُحْرَقٍ « الظلف من كل مايجْتَرُّ من

(١) مقة : محبة

الحيوانات كالبقرة والظَّبي بمنزلة الحافر من الفرس، ويقال : أحرق الشيء بالنار وحَرَّقه شدّد لكثرة » وقال المعرى :

إذا طرقَ المِسْكينُ بابَكَ فاْحْبُهُ قليلاً ولو مِقْدَارَ حبَّةِ خَرْدَلِ
ولا تحتَقِرْ شيئًا تُساعِفُه به فكمْ من حَصاةٍ أيَّدَتْ ظَهْرَ مِجْدَلِ

« المجدل : القصر المُشرف » وكان ابن عباس يقول : صاحب المعروف لايقع ، فإن وقع وجد مُتَّكأً . وهذا من قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : المعروف يَقِى مصارعَ السُّوء ... وكانَ ابنُ عبَّاس يقول أيضا : مارأيت رجلا أوليتُه معروفا إلا أضاءَ مابينى وبينه ، ولا رأيت رجلا أوليتُه سوءًا إلا أظلم مابينى وبينه ، ومما يروى فى هذا المعنى أن رجلا كان فى مجلس خالد بن عبد الله القَسْرِىّ ، فقام من المجلس ، فقال خالد : إنى لأُبْغِضُ هذا الرجلَ ومالَهُ إلىَّ ذنْبٌ ، فقال رجل من القوم : أَوْلِه أيُّها الأميرُ معروفا ففعل ، فما لَبِث أن خَفَّ على قلبه وصار أحدَ جُلسائه . وفى هذا المعنى يقول سيِّد مُوسِيقِيِّ الإسلام أبو إسحاق الموصلى :

أرى الناسَ خُلَّانَ الجوادِ ولا أرى بخيلا له فى العالمين خليلُ
ومِنْ خَير حالات الفتى لو علمتِه إذا نال شيئا أن يكون يُنِيلُ
فإنى رأيت البخل يُزْرى بأهله فأكرمت نفسى أنْ يُقالَ بخيلُ

ويقول المتنبى :

وأحسَنُ وجه فى الورَى وجْهُ مُحْسِنٍ وأيمَنُ كفّ فى الورى كفُّ مُنْعِمِ

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن اتَّصلت نِعَمُ الله عليه ، كَثُرَت حوائجُ الناس إليه ، فمن لم يحتمل تلك المُؤَن عَرَّض لزوال تلك النِّعَم ، وقال خالد بن عبد الله القسْرىُّ أيضا : حوائج الناس إليكم نِعَمٌ مِنَ الله عليكم ،

فلا تملُّوا النعم فتتحوّلَ نِقمًا، قال الشاعر :

بَدَا — حِينَ أثْرَى — بإخوانه ... فَفَلَّلَ عنهمْ شَباةَ العَدَم[1]

وذكَّرَه الحزمُ غِبَّ الأمُور ... فبادرَ قبْلَ انتِقال النِّعَمْ

وعن سيدنا رسول الله : تنزِلُ المَعونة على قدْرِ المَئونة » ومعناه : أنه كلما تكاثر على المرء من يحق عليه أن يعولهم ويقوم بمؤنتهم، ففعل، أو كلما أنفق المرء فى سبيل البر، أعطاه الله بمقدار ذلك، وجاء فى الحديث المرفوع : من وسَّعَ وُسِّعَ عليه، و : كلما كَثُرَ العيال كثر الرزق...

وقالوا فى معنى النجدة وإقالة العثرات وواجبات ذوى الجاه : بَذْلُ الجاه زكاةُ الشرَف. وفى الحديث : إن اللهَ يَسْألُ العبدَ عنْ جاهه كما يسألهُ عن ماله وعُمْره، فيقول : جعلتُ لك جاها فهلْ نَصرْتَ به مظلوما أوْ قوَّمت به ظالما أو أغثت به مكروبا! وفى الحديث أيضا : أفضلُ الصدقة أنْ تُعِينَ من لا جاهَ له . . . وقال أبو تمام :

وإذا امْرُؤٌ أسدى إلىّ صنِيعَةً ... مِنْ جاهِهِ فكأنها من مالِه

وكان زياد بن أبيه يقول لأصحابه : اشْفَعُوا لِمَنْ ورَاءَكم فليس كلُّ من أراد السُّلطان ـ يريد : كلّ مَنْ بيده الأمر ـ وصل إليه، ولا كلُّ مَنْ وصل استطاع أن يُكَلِّمه... والأصل فى هذا قوله سبحانه : مَنْ يشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يكُنْ لهُ نَصيبٌ منها ومن يَشْفعْ شفاعةً سَيِّئَةً يكنْ له كِفْلٌ منها، وكان الله على كلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً . » قال المفسرون : الشفاعةُ الحسَنَةُ : هىَ التى رُوعىَ بها حقُّ مُسْلِمٍ ودُفِعَ بها عنه شَرٌّ أو جُلب إليه خَيْرٌ وابْتُغِىَ وَجْهُ اللهُ ولم

(١) بدا، هى : بدأ، بالهمز، فسهل للشعر، والشباة : طرف السيف وحدّ كل شىء وفلل : كسر

تُؤخذ عليها رِشْوَة ، والسَّيِّئَةُ ماكانت بخلاف ذلك . وقوله سبحانه : يكن له نصيب منها : فذلك النصيب : هو ثوابُ الشَّفاعةِ وجزاؤها عند الله ، وقوله يكنْ له كِفلٌ منها : أى نصيب مِنْ وِزْرِها مُساوٍ لها فى القَدْر ، وقوله عز وجل : وكان الله على كل شىء مقيتا ، فالمقيت : المُقْتَدِرُ منْ أقات على الشىء : إذا قدَر ، قال الزُّبَيْرُ بنُ عبد المطلب وقيل لأبى قيس بن رفاعة - :

وذى ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ
وكنْتُ على مَسَاءَتِهِ مُقِيتَا (١)

وفُسِّرَ المُقيت بالحافظ واشتقاقه من القُوتِ ، فإنه يقوِّى البدن ويحفظُه » .

ومن أجمل ما قيل فى الجود قول حاتم طيئ :

أماوِىَّ مايُغْنِى الثَّرَاءُ عن الفَتَى
إذا حَشْرَجَتْ يوما وضاق بها الصَّدْرُ

---

(١) روى الصاغانى هذا البيت مع أبيات أخرى هكذا :

وذى ضِغْنٍ كفَفْتُ النَّفْسَ عنهُ وكنْتُ على مَساءَتِه أُقِيت
يَبِيتُ الليلَ مُرْتَفِقًا ثَقِيلاً على فَرْشِ الفَتَاةِ وما أَبِيتُ
تَعِنُّ إلىَّ منه مُؤذياتٌ كما تُؤذِى الجَذَامِيرَ البَرُوتُ

« المرتفق : المتكئ على مرفقيه ، وتعن : تسرع وتظهر ، والجذمار : مابقى من أصل السعفة ، والبروت : الفأس ، لغة يمانية ينطقونها البرت والبرت ، والبروت فاعل تؤذى »

(٢) ماوى : منادى مرخم ماوية وهى زوجه حاتم ، وحشرجت : أى النفس وإن لم يتقدم لها ذكر ، لدلالة الكلام

أماوِيَّ إنْ يُصْبِحْ صدَاىَ بِقَفْرَةٍ
مِنَ الأرْضِ لاماءٌ لَدَيَّ ولا خَمْرُ (١)

تَرَىْ أنَّ ما أبْقَيْتُ لمْ أكُ رَبَّهُ
وأنَّ يَدِى مِمَّا بَخِلْتُ بِهِ صِفْرُ (٢)

أماوِيَّ إنَّ المَالَ غادٍ ورَائِحٌ
ويَبْقَى مِنَ المَالِ الأحاديثُ والذِّكرُ

غنِينَا زَمانًا بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى
وكُلًّا سَقَاناهُ بكأسَيْهِمَا الدَّهْرُ (٣)

فما زادنا بَأْوًا على ذى قرابة
غِنانا ولا أزرَى بأحسابنا الفقر (٤)

ألست معى فى أن على هذه الأبيات مَسحةً من الجمال وأثرا بيِّنا من الصدق وأن لها لَوْطَةً مِن ثَمَّ بالقلب ! أليس حاتمٌ يقول : الحقَّ أقول : إنه لا ينبغى لك ياماوية أن تلومينى على إنفاق مالى فى سبيل البِرِّ والإلطاف ، والتَّخَرُّقِ فى النوال وقرى الأضياف ، أما تعلمين أن مال المرء لا يُغْنى عنه شيئا إذا ما الموت رماه بسهامه وغادر هذه الحياة ، أما تعلمين أن المرء متى نُبِذ جسدُه بالعَرَاء وأُودع حُفرةً مُوحشةً مُقفرة ليس معه شىء مما كان يحْتَازُهُ فى هذه الدنيا من مال ، بدا لك أن المال الذى تركتُهُ وبَخِلتُ به على مُسْتَحِقِّيه أصبح

(١) الصدى هنا : جسد الانسان بعد موته

(٢) ربه : صاحبه ، وصفر : خلو (٣) غنينا : عشنا ، غنى كفرح : عاش ، وغنى بالمكان : أقام ، والمراد بالتصعلك الفقر ، وبكأسيهما : يعنى الفقر والغنى

(٤) البأو : الكبر والفخر ، يقال : بأوت على القوم أبأى بأوا ...

مِلكا لغيري وأصبحت أنا خاليَ الوِفاض[١] باديَ الإنفاض[٢] لا أملك من هذا المال شَرْوَى نقير[٣]! أليس الأخلقُ بي لذلك أنْ أُنفِقَهُ وأتسَخّى به على أهليه، فأنتفعَ بعد موتي ـ إذا أنا فعلتُ ـ بالذكر في الناس والحديث الحسن! وأيَّةُ قيمة للمال يا ماوية، ذلك الذي يجيء ويذهب، ويغدو ويروح! أليس الأخلقُ بالعاقل الثاقب النظر أن يُفيد منه ماهو أبقى على الزمن الباقي من الزمن ـ أن يفيدَ منه الذكر من طريق إنفاقه، والجودَ به في وجوه استحقاقه! لقد عشنا يازوجتي حينا من الدهر أغنياء كما عشنا حينا فقراء، وكُلاًّ سقاناه الدهر بكأسيهما، فما أزرى الدهر بأحسابنا، ولا أصْغَى إناءَ أعْراضنا، ولا أسفَّ بأخلاقنا، كما هو شأنه مع ضعفاء النفوس، وكذلك إذ كنّا أغنياء، ما أبطرنا الغِنى، وما أطغانا، على ذوي قُربانا، لأنا نعلم علما ليس بالظنِّ أن المال عَرَضٌ زائل، أمّا الجوهر، أما الذِّكر، أما الشرف، أما الخُلق، فكل أولئك هو الذي عليه المعوَّل، وإنه لذخيرة لاتنْفَدُ، وهي حَسْبُ العاقل الذي راض نفسه على السكون إلى الحقائق، ولم يُخلِدْ إلى أُمّ دَفرٍ[٤] باطل الأباطيل...

* * *

«أما بعد» فلقد أذكرتنا هذه العبقريات الكريمة من القول، عبقريَّةَ رجل من رجالات السلف لقد بلغ المبالغ في الإحسان واصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنه لحقٌّ علينا أن نعرض شيئا لهذه العبقرية من الفَعال[٥]، إذ أن كتابنا هذا ليس بمقصور على العبقري من القول وإنما نعرض كذلك للعبقري من الأناسيّ في أي معنى من المعاني[٦] على شريطة أن يكون ذلك لِمَاماً، فلا

(١) فارغ الجراب (٢) ظاهر الفقر (٣) النقير: نكتة في النواة يكون منها منبت النخلة وشروى نقير: مثل هذه النكتة (٤) أم دفر: الدنيا وأصل الدفر: النتن (٥) الفعال بفتح الفاء: الفعل الحسن (٦) في أي معنى: متعلق بالعبقري

نغفل الإغفال كله ما يعنينا من سير العبقريين، ويمت منها بسبب واصل إلى أى باب من أبواب هذا الكتاب، ولا تتبسط التبسط الذى يلحقنا بأصحاب السير والمترجمين؛ وشخصيتنا التى حبب الله إلينا أن نلم بعبقريتها فى باب البر والإحسان هو رجل من رجال أسلافنا كما قلنا — هو قاضى القضاة أحمد بن أبى دُوَاد . . . .

أحمد بن أبى دواد *

كان هذا أحمد بن أبى دُوادٍ شخصيةً ضخمةً ذاتَ أثر فعّالٍ خالدٍ فى تاريخ الإسلام، إذ أنه كان من أشياع المُعْتَزِلةِ ، وكان فى طليعة القائلين بخلق القرآن ، العاملين على ترويج هذه البدعة ، مستظهراً على ذلك بجاهه ونفوذه لدى المأمون والمُعتصم والواثق . وليس فيه من مَغْمَز — فى نظر رجالِ الحديث وأهل السُّنَّة والجماعةِ — إلا هذه ... قال محمد بن يحيى الصولى : لولا ماوَضَع به نفسه من مَحَبَّةِ المِحْنة — مِحْنَة القول بخلق القرآن ، وحَمل الناس عليه — لاجتمعت الألسُنُ عليه ، ولم يُضَفْ إلى كرمه كرمُ أحدٍ ... ومَنْ أحبَّ الوقوف على مَوْقف ابن أبى دُوادٍ من هذه المسألة فليرجع إلى مظانِّها ... ومن قولهم فى مكانته من العلم والأدب ، ومنزلته من الجاهِ والسلطان ، ورسوخِ قدمه فى الفضل والنُّبل ومكارم

(*) قال ابن خلكان — بعد أن سرد نسبه ونماه إلى إياد بن نزار بن معد بن عدنان أى أنه عربى إيادى — إن أصله من قرية بقنسرين ، واتجر أبوه إلى الشام وأخذه معه وهو حدث ، فنشأ أحمد فى طلب العلم وخاصة الفقه والكلام حتى بلغ مابلغ ، وصحب هياج بن علاء السلمى — وكان من أصحاب واصل بن عطاء — فصار الى الاعتزال ، وكانت ولادته سنة ١٦٠ هـ بالبصرة وتوفى سنة ٢٤٠ بعد أن أصيب بالفالج فى زمن المتوكل

الأخلاق ، وأفاعيله المُخَلَّدَة في هذه المعاني - والكلام يدخل بعضه في بعض - : قال أبو العيناء[1] مارأيت رئيساً قطّ أفصح ولا أنطَقَ من ابن أبي دُواد ، وقال : كان ابنُ أبي دُوَادٍ شاعراً مُجيداً ، فصيحا بليغا : وقد ذكره دِعْبِل بن عليّ الخُزَاعيُّ - الشاعر العبقريُّ - في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وروى له أبياتا حِسانا : وقال أبو بكر الجُرْجانيّ : سمعت أبا العيناء الضريرَ يقول : مارأيت في الدنيا أقوَمَ على أدبٍ من ابن أبي دُواد - يُريد أبو العيناء بالأدبِ هنا : أدبَ النفس - ماخرجت من عنده يوما قطّ فقال : ياغلام خذ بيده ، بل قال : ياغلام أخرُجْ معه ، فكنت أنتقدُ هذه الكلمة عليه ، فلا يُخِلُّ بها ولا أسْمَعُها من غيره ... قالوا : وهو أوّلُ مَن افتتح الكلامَ مع الخلفاءِ ، وكانوا لا يَبْدَؤُهم أحدٌ حتى يبْدَؤُه . وقال إبراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون ، فذكروا من بايَعَ من الأنصار ليلةَ العَقَبَة ، فاختلفوا في ذلك ، ودخل ابنُ أبي دُواد ، فعدَّهم واحداً واحدا بأسمائهم وكُناهم وأنسابهم ، فقال المأمون : إذا اسْتجلسَ الناس فاضلا فمِثْلَ أحمد ، فقال أحمد : بل إذا جالس العالِمُ خليفةً فمِثْلَ أمير المؤمنين ، الذي يفْهَم عنه ، ويكون أعلَمَ بما يقوله منه . وقال أحمد بنُ عبد الرحمن الكلبيُّ : ابن أبي دُواد رُوحٌ كلُّه من قرنه إلى قَدَمِه . وقال لازونُ بن اسماعيلَ : مارأيت أحدا قَطُّ أطوعَ لأحد ، من المُعْتصم لابن أبي دُوَاد ، كان - المعتصم - يُسْئَلُ الشيءَ اليسير فيمتنع منه ، ثم يدخل ابن أبي دُواد فيكلمه في أهله

(١) أبو العيناء هو أبو عبدالله محمد بن القاسم الضرير ، ولد سنة ١٩١ وتوفى سنة ٢٨٢ كان من ظرفاء العالم وفيه من اللسن وسرعة الجواب مالم يكن لأحد من نظرائه ، وترى نوادره مبعثرة في هذا الكتاب

وفى أهل الثغور وفى الحرمين وفى أقاصى أهل المَشْرِق والمغرب ، فيجيبه إلى كل مايريد ، ولقد كلمه يوما فى مقدار ألفِ ألف دِرْهم ليُحْفَرَ بها نهر فى أقاصى خراسان ، فقال له : وما علىَّ من هذا النهر ، فقال : ياأمير المؤمنين ، إن الله تعالى يسألُكَ عن النظر فى أمر أقصى رَعِيَّتك ، كما يسألك عن النظر فى أمر أدناها ، ولم يزل يَرْفُقُ به حتى أطلقها . قالوا : وكان ابتداء اتِّصال ابن أبى دُواد بالمأمون ماحدَّث به ابنُ أبى دواد نفْسُه ، قال : كنت أحْضُرُ مجلسَ القاضى يَحْيَ بنِ أكْثم ، مع الفقهاء ، فإنى عنده يوماً إذ جاءه رسول المأمون ، فقال له : يقول لك أميرُ المؤمنين : انتقل إلينا أنتَ وجميعُ من معك من أصحابك ، فلم يُحِبَّ أن أحضُرَ معه ، ولم يستطع أن يُؤَخِّرَنى ، فحضرت مع القوم ، وتكلَّمْنا بحضرة المأمون ، فأقبل المأمون ينْظُر إلىّ إذا شرَعْتُ فى الكلام ، ويتفهَّم ماأقول ، ويستحسِنُه ، ثم قال لى : مَن تكون ؟ فانْتَسَبْتُ له ، فقال : ماأخَّرَك عنا ؟ فكَرِهت أن أُحِيلَ على يَحيي ، فقلت : حُبْسَة القدَر ، وبلوُغ الكتاب أجلَه ، فقال : لاأعْلَمَنَّ ما كان لنا من مجلس إلا حَضَرْتَه ، فقلت : نعم ، ياأمير المؤمنين ، ثم اتصل الأمر ، وقيل : قَدِم يحيى بنُ أكْثَمَ قاضيا على البَصرة من خُراسان ، من قِبَل المأمون ، فى آخر سنة ٢٠٢ وهو حَدَثٌ ، سِنُّه نَيِّفٌ وعشرون سنة . فاستصحب جماعةً من أهل العلم والمُرُوآت ، منهم ابن أبى دُواد ، فلما قَدِم المأمون بغداد فى سنة ٢٠٤ قال ليحيي : اخْتَرْلى من أصحابك جماعةً يُجالسوننى ويُكْثِرُونَ الدخول إلىّ . فاختار منهم عشرين ، فيهم ابن أبى دواد ، فكثروا على المأمون ، فقال : اخْتَرْ منهم ، فاختار عشرة فيهم ابن أبى دواد ، ثم قال : اخْتَرْ منهم ، فاختار خمسة ، فيهم ابن أبى دواد ، واتصل أمرُه ... وكان من وصية المأمون إلى أخيه المُعتصم عند الموت :

وأبو عبدالله أحمد بن أبي دواد لا يُفارِقُك الشركةَ في المَشورَةِ في كلِّ أمرِك، فإنه موضع ذلك، ولا تتّخذنّ وزيرا، فلما ولىَ المعتصم، جعل ابنَ أبي دواد قاضيَ القضاة مكان يحيي بن أكثم، وكان لا يفعل فِعلا باطنا ولا ظاهرا إلا برأيه ... ولما مات المعتصم وتولّى بعده ولدُه الواثقُ بالله حَسُنَت حالُ ابن أبي دواد، وما زال إلى أن وَلِيَ أخوه المُتوكِّلُ، فأُصيب ابن أبي دواد بالفالج فكانت مدة عظمة ابن أبي دواد ونُفوذه وجاهه نحوًا من ثمان وعشرين سنة ...

قال ابن خلكان ـ ألذى نعتمد عليه فى هذا الباب ـ: وكان ابن أبي دواد كثيرا ما يُنشِد ـ ولم يذكر أنهما له أو لغيره ـ :

مَا أنْتَ بالسَّببِ الضَّعيفِ وإنما ... نُجْحُ الأُمورِ بقُوَّةِ الأسْبابِ

فاليومَ حاجَتُنا إليكَ وإنما ... يُدْعَى الطَّبيبُ لِشِدَّةِ الأوْصابِ

ومن كلامه: ثلاثةٌ ينبغي أن يُبَجَّلوا وتُعرف أقدارُهم: العلماء، ووُلاةُ العدل، والإخوان، فمن استخفَّ بالعلماء أهلَكَ دينَه، ومن استَخفَّ بالوُلاة أهلَكَ دُنياه، ومن استخفَّ بالإخوان أهلك مُروءته، ومن كلامه أيضا: ليس بكامل من لم يَحْمِلْ وليَّه على مِنْبَرٍ ولو أنه حارس، وعَدُوَّه على جِذْعٍ ولو أنه وزيرٌ [1]

---

(١) هذا على حد قول عبدالله بن معاوية:

إذا أنْتَ لم تنْفَعْ فضُرَّ فإنما ... يُرَجَّى الفَتى كيما يَضُرَّ ويَنْفَعا

وقول الآخر:

ولكن فَتَى الفِتْيان من رَاحَ واغْتَدَى ... لِضَرِّ عدُوٍّ أو لِنَفْعِ صَديقِ

وقول المتنبي:

لمنْ تَطْلُب الدنيا إذا لم تُرِدْ بها ... سُرورَ مُحِبٍّ أوْ إساءَةَ مُجْرِمِ

وقول ابن الرومي:

وكان بين ابن أبى دواد وبين الوزير الجبّار محمد بن عبد الملك الزيات ، الذى تؤثر عنه هذه الكلمة : الرحمةُ خَوَرٌ فى الطبيعة ـ منافساتٌ وشَحْناء ، حتى إن شخصا كان يصحب ابن أبى دواد ويختص بقضاء حوائجه ، مَنَعه الوزير المذكور من التردُّد إليـــه ، فبلغ ذلك ابنَ أبى دوادٍ ، فجاء إلى الوزير وقال : والله ، ماأجيئك مُتَكَثِّرا بك من قِلّة ، ولا مُتَعَزِّزا بك من ذِلّة ، ولكن أمير المؤمنين رَتَّبكَ مَرْتبة أوْجَبَت لِقاءك ، فإن لَقِيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلَكَ ... ثم نهض من عنده ... قال ابن خلكان : وكان فيه ـ فى ابن أبى دواد ـ من المكارم والمحامد ما يستغرق الوصف ... وكان يقال : أكرَمُ من كان فى دولة بنى العباس البرامكة ثم ابن أبى دواد ... حدَّث الجاحظ قال : غَضِبَ المعتصم على رجل من أهل الجزيرة الفُراتيّة ، وأُحضِر السيف والنِّطع [1] فقال له المعتصم : فعلْتَ وصَنعْت ، وأمر بضرب عُنُقِه ، فقال له ابن أبى دواد : ياأمير المؤمنين ، سَبَقَ السيفُ العَذَلَ [2] ، فتأنَّ فى أمره فإنه مظلوم ، قال : فسكن المعتصم

= وليس يَصْلُح لاستِصْلاح مَمْلكةٍ غيرُ امْرِىءٍ نافِعٍ بالحقِّ ضَرَّارِ

ووليه : يريد صديقه وكل من يمتّ إليه بسبب واصل ، ويريد بحمله على المنبر نصرته والارتفاع به ، ويريد بحمل عدوه على جذع : صلبه والقضاء عليه ، وقوله : ولو أنه حارس ، أى خفير ، يريد ولو أنه حقير ، ولعله قال هذه الكلمة وهو يعرض بابن الزيات الوزير .

(١) النطع : بساط من جلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس وفيه لغات : نِطْع ونَطْع ونَطَع ونِطَع والجمع نطوع وأنطاع

(٢) هذا مثل ، والعذل : اللوم وأصله أن الحارث بن ظالم ضرب رجلا فقتله فأخبر بعذره فقال : سبق السيف العذل ، يضرب لما قد فات

قليلا ، قال ابن أبي دواد : وغَمَزنى البَوْلُ فلم أقدر على حبسه ، وعَلِمت أنى إن قُمْتُ قُتِل الرجل ، فجمعْتُ ثيابى تحتى وبُلْتُ فيها ، حتى خَلَّصْتُ الرجل قال : فلما قمت نظر المعتصم إلى ثيابى رَطْبَةً فقال : ياأبا عبد الله ، أكان تحتك ماءٌ ؟ فقلت : لا ، ياأمير المؤمنين ، ولكنه كان كذا وكذا ! فضحك المعتصم ، ودعالى وقال ، أحسنت، بارك الله عليك ، وخلَع عليه وأمر له بمائة ألف درهم ... وقال أبو العيناء : كان الأفْشِينُ ـ التركىُّ وكان من أجلّ قواد المعتصم ، وأبْلىَ فى أمرِ بابَك الخُرَّمِيِّ بلاءً حَمِده له ـ يَحْسُدُ أبا دُلَفَ القاسمَ بنَ عيسى العِجْلىَّ (١) ـ وهو كذلك أحد قُوّاد المأمون ثم المعتصم من بعده . وكان تحت إمْرَةِ الأفشين فى حرب بابَك ـ للعربية والشجاعة

(١) وهذا أبو دلف كان كذلك كريما سريا جوادا ممدحا شجاعا مقدما فاضلا ، مدحه أبو تمام وعلى بن جبلة المعروف بالعكوك وبكر بن النطاح ، وفيه يقول العكوك قصيدته التى يقول فيها :

إنما الدنيا أبو دُلَفٍ ... بين مَغْزاه ومحتَضَرِه
فإذا وَلّى أبو دلفٍ ... ولّتِ الدنيا على أثرِه
كلُّ من فى الأرض من عرب ... بين باديه إلى حَضرِه
مُستعيرٌ منك مكرُمَةً ... يكتسيها يومَ مفتخَرِه

ويقول بكر بن النطاح :

ياطالبا للكيمياء وعِلمِهِ ... مدْحُ ابن عيسى الكيمياءُ الأعظم
لولم يكن فى الأرض إلا دِرهم ... ومَدَحْتَه لأتاك ذاك الدرهم

وقد أعطاه أبو دلف على هذين البيتين عشرة آلاف درهم ... هذا ودلف اسم علم ممنوع من الصرف للعلمية والعدل لأنه معدول عن دالف، قاله ابن برى

فاحتال عليه حتى شَهِد عليه بجناية قَتْل ، فأخذه ببعض أسبابه ، فجلس له وأحْضره ، وأحضر السَّيَّافَ ليقتلهَ ، وبلغ ابنَ أبى دؤاد الخبرُ ، فركِب من وقته مع من حضر من عُدُولِه ، فدخل على الأفشين ، وقد جىء بأبى دُلَفَ ليُقتل ، فوقف ، ثم قال : إنى رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرك أن لاتُحْدِث فى القاسم بن عيسى حدَثا حتى تُسَلِّمه إلىَّ ، ثم التفت إلى العدول وقال : اشهدوا أنى أدَّيتُ الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسمُ حىٌّ مُعافًى ، فقالوا : قد شهدنا ، وخرج ، فلم يقدرِ الأفشين عليه ، وسار ابن أبى دواد إلى المعتصم من وقته ، وقال : ياأمير المؤمنين ، قد أدَّيْتُ عنك رسالةً لم تقُلها لى ، ماأعتدُّ بعملِ خيرٍ خيرًا منها ، وإنى لأرجو لك الجنة بها ، ثم أخبره الخبر ، فصوَّب رأيه ، ووجَّه من أحضر القاسم ، فأطلقه ووهب له : وعنَّفَ الأفشينَ فيما عزَم عليه ... ومن مُروآته : أن المعتصم كان قد اشتدَّ غيظه على محمد بن الجهْم البَرْمَكىِّ ، فأمر بضرب عُنُقِه ، فلما رأى ابن أبى دواد ذلك وأن لاحيلة له فيه وقد شُدَّ برأسه وأقيم فى النِّطْعِ وهُزَّ السيفُ قال ابن أبى دواد للمعتصم : وكيف تأخذ ماله إذا قتلته ؟ قال المعتصم : ومَن يحُولُ بينى وبينه ؟ قال : يأبىالله تعالى ذلك ، ويأباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأباه عدل أمير المؤمنين ، فإن المال للوارث إذا قتلته حتى تُقيمَ البيِّنةَ على مافعله ، وأمْرُه باستِخْراج ماأختانَه أقربُ عليك وهو حىٌّ ، فقال : احْبِسوه حتى يُناظَر ، فتأخَّر أمره على مالٍ حمله « أى كفَله » ، وخلَص محمد ... وقال أبو العيناء : غضب المعتصم على خالد بن يزيد بن مِزْيَدٍ الشَّيبانىّ ، وأشخصه من وِلايته ، لعَجْزٍ لحِقه فى مالٍ طُلِبَ منه ، وأسبابٍ غير ذلك ، فجلس المعتصم لعقوبته ، وكان قد طَرح نفسه على ابن أبى دُواد ، فتكلم فيه فلم يُجبه المعتصم ،

فلما جلس لعقوبته حضر ابن أبى دواد ، فجلس دون مجلسه ، فقال له المعتصم : يا أبا عبد الله ، جلست فى غير مجلسك ! فقال له : ما ينبغى أن أجلس إلا دون مجلسى هذا ... فقال له : وكيف ؟ قال : لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعى موضع من يَشْفَعُ فى رجل فلا يُشَفَّع ، قال : فارجع إلى مجلسك ، قال : مُشَفَّعاً أو غير مُشَفَّع [١] ؟ فقال : بل مشفَّعاً ، فارتفع إلى مجلسه ، ثم قال : إن الناس لا يعلمون رضا أمير المؤمنين عنه إن لم يَخْلَع عليه [٢] ـ فأمر بالخلع عليه ـ فقال : يا أمير المؤمنين ، قد استحقَّ هذا وأصحابُه رِزْقَ ستة أشهر لابد أن يقبضوها ، وإن أمرت لهم بها فى هذا الوقت قامت مقام الصِّلَة ، قال : قد أمرتُ لهم بها ، فخرج خالد وعليه الخِلع ، والمال بين يديه ، وإن الناس ينتظرون فى الطرق الإيقاع به ، وصاح رجلٌ : الحمد لله على خَلاصك يا سيدَ العرب ، فقال خالد : اسكتْ ، سيِّدُ العرب والله أحمد بن أبى دواد ... وقال الواثق يوما لابن أبى دواد ـ تضجُّراً بكثرة حوائجه : قد أختلَّتْ بيوت المالِ بطلباتك للَّائذين بك والمُتوسِّلين إليك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، هى نتائجُ شُكْرُها مُتَّصِلٌ بك ، وذخائرُ أجْرُها مكتوب لك . ومالى من ذلك إلا أن أَخلِّدَ المدح فيك ، فقال : أحسنت .

« وبعد » فلنَتجزَّأ بهذا المقدار من مساعى ابن أبى دواد سيد العرب وعبقريِّها فى النجدة والمروءة والكرم والأريحيّة والشجاعة الأدبية

(١) يقال : شفع له وتشفع له إلى الملك مثلا ، فشفعه فيه تشفيعا ، فالطالب شفيع وشافع ، والمشفَّع : الذى تقبل شفاعته ، أما المشفِّع فهو الذى يقبل الشفاعة

(٢) قال فى أساس البلاغة : خلع عليه : إذا نزع ثوبه وطرحه عليه ، وكساه الخلعة والخلع

وما ألف لف هذه المعانى الكريمة مما انبعثت له قرائح فحول شعراء الإسلام، أمثال أبى تمام، فأنطقتهم بالمأثور من الشعر الفخم، وامتدحوا به هذا الرجل العظيم ، فقال أبو تمام :

لقد أنست مساوى كل دهر   محاسن أحمد بن أبى دواد
وما سافرت فى الآفاق إلا   ومن جدواك راحلتى وزادى

قال على الرازى: رأيت أبا تمام عند ابن أبى دواد ومعه رجل ينشد عنه قصيدة منها هذان البيتان ، فلما أنشدهما قال ابن أبى دواد لأبى تمام : هذا المعنى تفردت به أم أخذته ؟ فقال : هولى ، وقد ألممت فيه بقول أبى نواس :

وإن جرت الألفاظ منا بمدحة   لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

ومدحه أبو تمام أيضا بقصيدته التى أولها :

أرأيت أى سوالف وخدود   عنت لنا بين اللوى وزرود

وفيها الأبيات الثلاثة البديعة فى الحسد :

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت   ما كان يعرف طيب عرف العود
لولا التخوف للعواقب لم تزل   للحاسد النعمى على المحسود

ودخل أبو تمام عليه يوما ، وقد طالت أيامه فى الوقوف ببابه ولا يصل إليه ، ولما وصل قال له ابن أبى دواد : أحسبك عاتبا يا أبا تمام ، فقال أبو تمام : إنما يعتب على واحد وأنت الناس جميعا ، فكيف يعتب عليه ! فقال له : من أين لك هذا يا أبا تمام ؟ فقال من قول الحاذق — يعنى أبا نواس — فى الفضل بن الربيع :

وليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يجمعَ العالَم فى واحد[١]

ولمّا وُلِّىَ ابنُ أبى دواد المظالمَ قال أبو تمام قصيدة يتظلم إليه، من جملتها قوله :

إذا أنتَ ضَيَّعْتَ القَريضَ وأهْلَهُ فلا عجَبٌ إن ضَيَّعَتْهُ الأعاجِمُ

فقدْ هَزَّ عِطْفَيْه القريضُ توَقُّعًا لِعَدْلِك مُذْ صارتْ إليك المَظالمُ

ولَولا خِلَالٌ سَنَّهَا الشعرُ مادَرَى بُغاةُ العُلى مِنْ أين تؤْتَى المَكارِمُ

ومَدائحُ أبى تمام وغيرِ أبى تمام فيه كثيرة متوافرة ... وقال أبو بكر بن دريد : كان ابن أبى دواد مُوَالِفًا لأهل الأدب من أىّ بَلَدٍ كانوا ، وكان قد ضمَّ منهم جماعةً يَعُولهم ويَمُونُهم ، فلمــا مات حضر ببابه جماعةٌ منهم وقالوا يُدفَنُ من كان ساقةَ الكَرَم [٢] وتاريخَ الأدب ولا نتكلَّمُ فيه ! إنَّ هذا وَهْنٌ[٣] وتقصير ، فلمّا طَلَعَ سَريرُه قام إليه ثلاثةٌ منهم ، فقال أحدهم :

اليومَ مات نِظامُ المُلْكِ واللَّسَنِ ومات من كان يُسْتَعْدَى على الزَّمَنِ[٤]

---

(١) وأخذه أبو نواس من قول جرير :

إذا غَضِبَتْ عليك بنو تميم حَسِبْتَ الناس كُلَّهُم غِضابَا

(٢) الساقة : جمع سائق وهم الذين يسوقون جيش الغزاة ويكونون من ورائه يحفظونه ، فلعل هؤلاء الأدباء يريدون بقولهم من كان ساقة الكرم : أنه كان يحوط الكرم ويحفظه فكأنه الجيش الذين يحفظون جيوش الكرم، والمراد : أنه أمير الكرم إذ أنه يحوطه ويحفظه

(٣) وهن : ضعف

(٤) يقال : استعديت الأمير على فلان فأعدانى : أى استعنت به عليه فأعاننى والاسم منه العدوى وهى المعونة

وأظلمتْ سُبُلُ الآداب إذْ حُجِبَتْ   شمْسُ المكارِمِ فى غَيْمٍ مِنَ الكَفَنِ

وتقدم الثانى فقال :

تَرَكَ المنابِرَ والسَّريرَ تَواضُعًا   وله مَنَابِرُ لَوْ يَشَا وسَرِيرُ
ولغيره يُجْبَى الخراجُ وإنما   تُجْبَى إليْهِ مَحَامِدٌ وأُجورُ(١)

وتقدم الثالث فقال :

وليس فَتِيقُ المِسْكِ رِيحَ حُنُوطِهِ   ولـكنَّهُ ذاكَ الثناءُ المُخَلَّفُ(٢)
وليس صَرِيرُ النَّعْشِ ما تَسْمَعُونَهُ   ولـكنه أصْلَابُ قوْمٍ تَقَصَّفُ(٣)

رسالة للجاحظ ينصح فيها عن الجود

«وبعد» فلْنَنْعطِفْ على كلامهم فى الجُودِ وذَمِّ البُخْل : أورد الجاحظ فى كتابه « البخلاء » رسالة جميلة جدًّا نسبها إلى أبى العاصى بن عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفىّ ـ أرسلها إلى رجل من عشيرته، وقد سمع بأنه يَجْلِسُ إلى قومٍ من البُخلاء، أمثال سَهْل بن هارون والأصمَعِيّ، وقد تأثر بمذهبهم فى البخل وامتداحهم إياه، فكتب إليه هذه الرسالة يَنْعَى فيها على البخلاء مذهبهم، ويذم البخـل وينَوِّه بالجود ـ ونحن فإنا نقتطف من هذه الرسالة نُتَفًا ونترك سائرها لمن يحب أن يراجِعَها فى كتاب البخلاء ـ قال :

---

(١) أجور : جمع أجر وهو الثواب

(٢) فَتْقُ المسك : استخراج رائحته بشىء تخلطه به، ومسك فتيق : مستخرج الرائحة بحلّه فى غيره ـ كما يفعلون اليوم به وبالعنبر .

(٣) الأصلاب : جمع صلب وهو العظم من لدن الكاهل إلى العجب، وتقصف : بحذف إحدى التاءين أى تتقصف والتقصف : التكسر

وهل تزيدُ حالُ مَن أنفق جميعَ مالِه، ورأى المكْروهَ في عيالِه، وظهَر فقرُه، وشَمِتَ به عدوُّه، على أكثرَ مِن انصرافِ المؤْنِسين عنه، وعلى بُغضِ عياله [١]، وعلى خُشونةِ الملبَس، وجُشُوبةِ المأكل [٢]؟ وهذا كلّه، مُجْتمِعٌ في مَسْك [٣] البخيل، ومَصْبوبٌ على هامَة [٤] الشحيح، ومُعجَّل للئيم [٥] ومُلازِمٌ للمَنُوع؛ ألَا إنّ المُنفِقَ قد رَبِحَ المَحْمَدَةَ، وتمتَّع بالنِّعمة، ولم يُعطِّل المَقْدُرَة [٦] ووَفَّى كُلَّ خَصْلةٍ منْ هذه حقها، ووفَّر عليها نَصيبَها، والمُمسِكُ معذَّبٌ، بِحَصْرِ نفسه، وبالكدِّ لِغيره؛ مع لُزوم الحجة [٧]، وسقوط الهِمّة [٨] والتعرُّض للذمِّ والإهانة، ومع تحكيم المِرّة السوداءِ في نفسه [٩] وتسليطها على عِرضه، وتمكينِها من عيشه، وسرورِ قلبه [١٠]

إنَّ الله جوادٌ لا يَبْخَل، وصَدُوقٌ لا يَكذِب، وَوَفِيٌّ لا يَغْدِر، وحكيمٌ لا يَعْجَل، وعدْلٌ لا يظْلِم. وقد أمَرَنا بالجود، ونهانا عن البُخْل؛ وأمرنا بالصدق، ونهانا عن الكذب؛ وأمرنا بالحِلْم، ونهانا عن العَجَلة؛ وأمرنا بالعدل، ونهانا عن الظلم؛ وأمرنا بالوفاء، ونهانا عن الغَدْر.

---

(١) أي بغضهم له (٢) جشوبة المأكل: غلظه وخشونته أو قلة إدامه
(٣) المسك: الجلد والمراد: النفس والشخص (٤) الهامة: الرأس والجمع: هام (٥) اللئيم: الشحيح النفس (٦) أي لم يعطل المقدرة على فعل الخير وكسب الثناء (٧) مع لزوم الحجة: أي مع قيام الحجة عليه في بخله وعجزه عن الذياد عن نفسه (٨) سقوط الهمة: العجز عن جلائل الأعمال

(٩) المرة: خلط من أخلاط البدن، والمزاج الأسود: هو المزاج المضطرب الكثير المخاوف والوساوس

(١٠) وتسليطها: يعني أنه بمخاوفه ووساوسه يستهدف للذم، وتتمكن هذه المرة من نفسه فتنغص عليه عيشه وتعصف بسروره

فَلَمْ يَأْمُرْنا إلا بما اختار لنفسه ، ولم يَزْجُرْنا إلا عما لم يَرْضَهُ لنفسه : وقد قالوا بأجمعهم : إنّ اللهَ أجودُ الأجودِين ، وأمجدُ الأمْجَدِين ؛ كما قالوا : أرْحمُ الراحمين ، وأحسنُ الخالقين . وقالوا فى التأديب لسائليهم ، والتعليم لأجوادهم : لاتجاوِدوا الله[1] فإنّ اللهَ - جَلَّ ذِكْرُه - أجودُ وأمجدُ . وذكر نفسه جلّ جلالُه ، وتقدّستْ أسماؤه - فقال : « ذو الفضل العظيم » و « ذو الطَّوْل[2] لا إله إلا هو » وقال : « ذو الجلال والإكرام »

✡ ✡ ✡

وذكَروا النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : لم يَضعْ دِرْهمًا على درهم ، ولا لَبِنَةً على لَبِنَة . وملَكَ جزيرةَ العرب ، فقبَض الصدقاتِ ، وجُبِيَتْ له الأموالُ ، ما بين غُدْرانِ العِراقِ إلى شَحْرِ عُمانَ[3] إلى أقصى مَخالِيف[4] اليمن ثم تُوُفّىَ وعليه دَيْنٌ ، ودِرْعُه مرهونةٌ . ولم يُسْألْ حاجةً قطُّ فقال : لا . وكان إذا سُئِل أعطى ، وإذا وَعدَ أو أطْمعَ ، كان وَعْدُه كالعِيان[5] ، وإطْماعُه كالإنجازِ . ومدحَتْه الشُّعراءُ بالجود . وذَكَرتْهُ الخطباءُ بالسَّماحِ . ولقد كان يَهَبُ للرجل الواحدِ الضاجعةَ من الشَّاء[6] والعَرْجَ من الإبل[7] - وكان أكثرُ مايهَبُ الملِكُ من العرب مائةَ بعيرٍ ، فيقال : وهب هُنَيدةً[8] . وإنما

---

(١) أى لاتحاولوا أن تصلوا فى الجود إلى مثل جود الله (٢) الطول : الإفضال والإنعام (٣) ساحل البحر بين عمان وعدن (٤) المخلاف : الكورة وهو عند أهل اليمن واحد المخاليف وهى كورها أى المدن والأصقاع

(٥) العيان : مصدر عاين الشيء : أبصره والمعنى : أن وعده فى الوثوق بتحققه كالشيء المشاهد (٦) الضاجعة : الغنم الكثيرة (٧) العرج من الإبل : مابين السبعين إلى الثمانين وقيل : مابين الثمانين الى التسعين ، وقيل : مائة وخمسون وفويق ذلك ، وقيل : من خمسمائة الى الألف (٨) هند وهنيدة : اسم للمائة من الإبل خاصة

يقال ذلك ، إذا أريد بالقول غايةُ المدح ، ولقد وَهَبَ لرجلٍ ألفَ بعير . فلما رآها تزدحمُ فى الهوادى [١] قال : أشهدُ أنك نبيٌّ . وما هذا مما تجودُ به الأنفُس .

وأجمعَتِ الأممُ كلُّها بَخيلُها وسَخيُّها وممزوجُها ، [٢] على ذمّ البخل ، وحَمْدِ الجود ، كما أجمعوا على ذمّ الكذب وحَمْدِ الصدق .

فمن أراد أن يخالف ماوصف الله ـ جل ذكرُه ـ به نفسَه ، وما مَنَح من ذلك نبيَّه (صلى الله عليه وسلم) ، وما فَطَر على تفضيله العربَ قاطبةً ، والأممَ كافةً ؛ لم يكن عندنا فيه إلا إكفارُهُ واستسقاطُه [٣]

ولمْ نرَ الأمّةَ أبغضتْ جوادًا قطُّ ولا حقَّرتْهُ ، بل أحبتْه وأعْظَمتْه ، بل أحبّتْ عَقِبهُ وأعْظَمت من أجله رَهْطَه . ولا وجدْناهم أبغضوا جوادا ، لمجاوزته حدَّ الجود إلى السَّرَف ، ولا حقَّرتْه ، بل وجدْناهم يتعلمون مناقِبَه ، ويتدارَسون محاسِنَه ، وحتى أضافوا إليه من نوادِرِ الجميل [٤] مالم يفعله ونَحَلُوهُ [٥] من غرائب الكرم مالم يكن لِيبْلُغَه ، ولذلك زعموا أن الثناء فى الدنيا يُضاعف [٦] كما تُضاعف الحسنات فى الآخرة . نعم ، وحتى أضافوا إليه

---

(١) الهادية والهادى : العنق؛والهادية من كل شىء : أوله وما تقدم منه فيكون معنى تزدحم فى الهوادى : تزدحم بأعناقها وهذا ما يشاهد فى الإبل . أو يكون المعنى : تزدحم فى أوائلها وهذا مشاهد أيضا فى كل قطيع

(٢) ممزوجها : من امتزج فيه السخاء والبخل فكان وسطا بين الكريم والبخيل

(٣) فى اللسان : وأكفرت الرجل : دعوته كافراً ، واستسقاطه : إسقاطه من بين العقلاء

(٤) الفعل الجميل (٥) نحلوه : نسبوا اليه (٦) يضاعفه الناس أضعافا كثيرة بما يضيفون اليه ويزيدون عليه

كلَّ مديح شارد [1] ، وكلَّ معروفٍ مجهولِ الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم للبخيل على ضدِّ هذه الصفة ، وعلى خلاف هذا المذهب: وجدناهم يُبغضونه مرَّة ، ويُحقِّرونَه مرَّة ، ويُبغضون بفضل بغضه ولَدَه ، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رَهْطَه ، ويُضيفون إليه من نوادر اللؤم مالم يَبْلُغْه ، ومن غرائب البُخل مالم يفعله ، وحتى ضاعَفوا عليه من سوء الثناء بقدر ماضاعفوا للجواد من حُسن الثناء .

وعلى أنَّا لانجد الجوائحَ [2] إلى أموال الأسخياء ، أسْرَع منها إلى أموال البخلاء ، ولا رأينا عدد مَن افتقر من البخلاء أقلَّ .

والبخيل عندالناس ليس هو الذى يَبْخَل على نفسه فقط : فقد يستحق عندهم اسمَ البخيل ويستوجب الذم ، من لا يَدَعُ لنفسه هوًى إلا ركِبه ، ولا حاجة إلا قضاها ، ولاشهوة إلا ركبها وبلغ فيها غايته . وإنما يقع عليه اسم البخيل ، إذا كان زاهداً فى كل ماأوجب الشكر ، ونَوَّه بالذكر ، وادّخر الأجر

وقد يُعَاقُّ البخيلُ [3] على نفسه من المُوَن ، ويُلزمُها من الكُلَف ، ويتخذ من الجوارِى والخدم ، ومن الدوابِّ والحَشَم [4] ، ومن الآنية العجيبة ، ومن البِزَّة الفاخرة [5] . والشارَةِ الحسنة [6] ، مايُرْبِى على نفقة السَّخِىِّ المُثرى [7] ويَضعُف على جُود الجواد الكريم [8] فيَذهب مالُه وهو مذمومٌ ، ويتغيَّر

(١) شارد : نافر ، يريد المديح الغريب الذى لايخطر عادة بالبال

(٢) الجوائح : جمع جائحة وهى الآفة

(٣) يعلق : يوجب ويكلف (٤) الحشم : الخدم وهى كلمة فى معنى الجمع ولا واحد لها من لفظها (٥) البزة : الهيئة : يقال : هو حسن البزة

(٦) الشارة هنا : الزينة واللباس

(٧) يربى : يقال : أربى الشىء على كذا : زاد عليه

(٨) ضعف يضعف « من باب كرم » زاد

حاله وهو ملوم . وربما غلَب عليه حبُّ القِيان [١] واستُهْتِر بالخِصْيان [٢] .
وربما أفْرَط فى حُبّ الصيد ، واستولى عليه حبُّ المراكب [٣] ، وربما كان
إتلافه فى العُرْس والخُرس [٤] والوليمة ، وإسرافُه فى الإعذار [٥] وفى العقيقة [٦]
والوكيرة [٧] ، وربما ذهبت أمواله فى الوضائع [٨] والودائع . وربما كان
شديدُ البُخل ، شديدَ الحبّ للذِّكر [٩] ويكون بُخْله أوشَج [١٠] ولؤمه أقبح ،
فيُنْفِق أموالَه ويُتلف خزائنه ، ولم يَخْرُجْ كَفافا [١١] ولم يَنْجُ سليما

كأنك لم تَرَ بخيلا مخدوعا [١٢] ، وبخيلا مضعوفا ، وبخيلا مِضياعا ، وبخيلا

---

(١) القيان : جمع قينة « بفتح فسكون » الأمة البيضاء مغنية أو غير مغنية

(٢) استهتر بالشيء « بالبناء للمجهول » : أولع به : والولوع بالخصيان نوع من السرف والترف كان شائعا فى أيامهم

(٣) المراكب : جمع مركب والمراد ما يركب من الخيل ونحوها

(٤) الخرس بالضم والخراس بالكسر : طعام يصنع ابتهاجا بالولادة

(٥) الإعذار : وليمة الختان وطعام البناء « الدخلة »

(٦) العقيقة : الشاة تذبح فى اليوم السابع من ولادة المولود

(٧) الوكيرة : الطعام يتخذه الرجل ويدعو إليه عند انتهاء ما كان يبنيه

(٨) الوضائع : جمع وضيعة وهي ما يرفعه الدائن عن المدين من الدين

(٩) شديد الحب لأن يذكر بما ينفقه من مال فى هذه السبيل

(١٠) أى أعلق بنفسه

(١١) الأصل فى معنى الكفاف : ما يكف عن سؤال الناس ويغنى ، ومعنى لم يخرج كفافا هنا : لم يخرج خاليا من الذم وهو فى معنى : ولم ينج سليما

(١٢) يتخيل كاتب الرسالة أن المخاطب ينكر ما ذهب إليه فهو يتجه اليه قائلا : كأنك الخ ، والمضعوف : ضعيف الرأى

نفّاجا [1] وبخيلا ذهب مالُه فى البناء، وبخيلا ذهب ماله فى الكيمياء [2]، وبخيلا أنفق ماله فى طمع كاذب، وعلى أمل خائب، وفى طلب الولايات، والدخول فى القَبالات [3]، وكانت فِتنتُه بما يؤمّل من الإمرة [4]، فوق فتنته بما قد حواه من الذهب والفضة، وقد رأيناه [5] يُنفِق على مائدته وفاكهته ألفَ دِرْهم فى كل يوم، وعنده فى كل يوم عُرْس [6]، ولَأنْ يَطعَنَ طاعِنٌ فى الإسلام، أهونُ عليه من أن يطعن طاعن فى الرغيف الثانى، ولَأنْ يَشُقَّ عصا الدين، أهونُ عليه من شَقِّ رغيف، لا يَعُدُّ الثُّلْمَةَ فى عِرْضه ثلمة، ويعدها فى ثريدتِه من أعظم الثُّلَم [7]

وإنما صارت الآفاتُ إلى أموال البخلاء أسرعَ والجوائحُ عليهم أكْلَبَ [8]؛

---

(١) النفاج: المدعى المتباهى بما ليس له

(٢) الكيمياء فى زعمهم: تحويل المعادن الخسيسة ـ بالصناعة ـ إلى معادن نفيسة، أقول: وقد رأيت بعينى رأسى رجلا ثريا من ذوى قرابتنا كان يضرب به المثل فى البخل ولكنه فى أواخر أيامه أضاع ثروته التى كانت تبلغ ثلثمائة فدان من أجود أطيان مديرية الغربية فى سبيل هذا الكيمياء بعد أن تعرف على رجل مغربى قد اشتهر بهذه الصناعة التى كم خربت من بيوت أمثال هؤلاء البخلاء المخبولين

(٣) القبالة ـ بالفتح ـ الكفالة، واسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوها، والقبيل: الكفيل والضامن

(٤) الإمرة: اسم مصدر، من أمر علينا: إذا ولى

(٥) يريد بخيلا من البخلاء

(٦) العرس من معانيه: الوليمة

(٧) الثلمة: الفرجة فى الشىء المهدوم أو المكسور

(٨) أكلب: أضرى وأولع وأشد

لأنهم أَقلُّ توكُّلاً ، وأسوأُ بالله ظنًّا . والجوادُ إما أن يكون متوكلا ، وإما أن يكون أحسنَ بالله ظنًّا ، وهو على كل حال بالمتوكل أشبهُ ، وإلى ما أشبهه أنزعُ[1] ، وكيفما دار أمرُه ، فليس ممن يَتَّكِل على حَزْمه ، ويلجأ إلى كَيْسِه[2] ويرجع إلى جَوْدَةِ احتياطه وشدة احتراسه

واعتلالُ البَخيل بالحَدَثان ، وسوء الظن بتقلُّب الزمان ، إنما هو كناية عن سوء الظن بخالق الحدثان[3] ، وبالذى يُحْدِث الأزمان وأهلَ الزمان . ولا تجرى الأحداث إلا على تقدير المحدِث لها ؟ وهل تختلف الأزمنة إلا على تصريف من دبَّرها ؟ أوَلَسْنا وإن جهِلنا أسبابها فقد أيقنَّا بأنها تجرى إلى غاياتها ؟[4]

والدليل على أنه ليس بهم خوفُ الفقر ، وأن الجمعَ والمنعَ إما أن يكون عادةً منهم ، أو طبيعةً فيهم ، أنك قد تجد المَلِكَ بخيلا ، ومملكتُه أوسَعُ ، وخَرْجهُ أدرُّ ، وعدوُّه أسكن[5] وقد علمنا أن الزِنْجَ أقصرُ الناس مِرَّةً[6] ورَوِيَّةً وأذهَلُهم عن معرفة العاقِبة[7] : فلو كان سَخاؤهم إنما هو لِكَلالِ حَدِّهم[8] ،

(١) الضمير فى أشبهه يعود الى المتوكل وأنزع : أميل

(٢) كيسه : عقله وفطنته

(٣) حدثان الدهر : نوائبه . واعتلال البخيل بالحدثان : أى تلمسه العلل والأعذار بالخوف من نوائب الدهر الخ

(٤) الفاء من فقد : زائدة ، لأن جملة فقد أيقنا : خبر ليس

(٥) الخرج والخراج : ما يحصل من غلة الأرض ، وأدر : أكثر ، وعدوه أسكن : أى غير متحفز لقتاله وإذن فالمال موفور لديه

(٦) المرة : العقل والإحكام

(٧) أى وهم مع ذلك أسخياء

(٨) كلال الحد : أصله فى السيف والسكين ونحوهما والمراد هنا الغباء وقلة الذكاء والفطنة

ونَقْصِ عقولِهم ، وقـلّة معرفتهم ، لكان ينبغى لفارسَ أن تـكونَ أبْخَـلَ من الروم وتـكونَ الرُّومُ أبْخَلَ من الصَّقالبة [١] ؛ وكان ينبغى فى الرجال ، فى الجملة ، أن يـكونوا أبخلَ من النساء ، فى الجملة ، وكان ينبغى للصبيان أن يـكونوا أسخى من النساء ، وكان ينبغى أن يـكون أقلُّ البخلاء عقلًا ، أعقلَ مِن أشدِّ الأجواد عقلا ؛ وكان ينبغى للكلب ـ وهو المضروبُ به المَثَلُ فى اللؤم ـ أن يـكون أعرَف بالأمور من الدِّيك ، المضروب به المثل فى الجود [٢]

ونحن لانجـد الجوادَ يَفِرُّ من اسمِ السَّرَف إلى الجود ، كما نجد البخيلَ يفِرُّ من اسمِ البُخل إلى الاقتصاد [٣] . ونجد الشجاعَ يَفِرُّ من اسم المنهزم ، والمستحى يفِرُّ من اسم الخَجِل . ولو قيل لخطيب ثابت الجَنان : وَقَاحٌ [٤] لجزِع ـ فلو لم يـكن مِن فضيلة الجود إلا أن جميع المتجاوزين لحدود أصناف الخير يكرهون اسم تلك الفضْلة [٥] ـ إلا الجواد [٦] ، لقد كان فى ذلك ما يُبين قدرَه ، ويُظْهِر فضله .

ولو كانوا لأوْلادهم يَجْمَعُون ، ولَهُمْ يَـكُدُّون ، ومن أجْلِهم يَحرِصون ، لجعلوا لهم كثيرا مما يطلبُون ، ولَـتَركوا محاسبَتَهم فى كثير مما يَشْتهون .

(١) الصقالبة : جيـل تتاخم بلادهم بلاد الخزر ـ فى الروسيا ـ وبحر الخزر هو بحر قزوين

(٢) وصف الديك بالجود لأن من عادته أن يدعو الدجاج ويثير لها الحب

(٣) ونحن الخ ، وذلك لأن الجواد لايخاف من اسم السرف خوف البخيـل من اسم البخل لأن السرف فى رأى الجواد يكاد يلحق بالجود

(٤) الوقاح : القليـل الحياء

(٥) الفضلة هنا : تجاوز الحدّ فى الفضيلة

(٦) إلا الجواد ، أى فإنه لايـكره أن يلقب بالمسرف

وهذا بعضُ ما بغَّض بعضَ المورِّثين إلى الوارثين ، وزهَّدَ الأخلاف [١] في طولِ عُمرِ الأسلاف ...

ولو كانوا لأولادهم يُمهِّدُون ، ولهم يجمعُون ، لَمَا جمع الخِصْيانُ الأموالَ ، ولَمَا كَنزَ الرُّهبانُ الكنوزَ ، ولاستراحَ العاقرُ مِنْ ذُلِّ الرَّغبة [٢] ولَسَلِمَ العَقيمُ من كدِّ الحِرْص . وكيف ؟ ونحن نجدُه بعد أن يَموتَ ابنُهُ الذي كان يعتل به [٣] ، والذي مِنْ أجله كان يَجْمع ، على حاله [٤] في الطلب والحرص ، وعلى مِثْل ماكان عليه من الجمع والمنع

والعامّةُ لم تُقَصِّر في الطلب والحُكْرة [٥] ، والبُخلاءُ لم يَحُدُّوا شيئاً من جُهْدهم [٦] ولا أَعْفَوْا بعدُ قُدرتَهم [٧] ، ولا قصروا في شيء من الحرص والحَصْر [٨] ، لأنهم في دَارِ قُلْعَةٍ ، بعَرَض نُقْلة [٩] . حتى لو كانوا بالخلود مُوقنين ، لأغفلوا تلك الفُضولَ [١٠]

---

(١) الأخلاف : جمع خلف وهم أبناء الانسان الذين يخلفونه بعد موته

(٢) ذل الطمع والحرص (٣) يعتل به : يتخذه علة وسببا للجمع والمنع

(٤) على حاله : متعلق الجار والمجرور مفعول ثان لتجد (٥) والعامة الخ كأنه ألحق العامة بالبخلاء ، لصفات البخل فيهم ، والحكرة هنا : الجمع والإمساك

(٦) أي لم يحبسوا جهودهم في سبيل جمع الأموال (٧) اعفى : أنفق العفو من ماله وهو مايفضل عن النفقة وبعد قدرتهم : أي بعد اقتدارهم وإيسارهم

(٨) الحصر : البخل

(٩) يقال : الدنيا دار قلعة : أي انقلاع وارتحال ، وقوله : وبعرض نقلة : أي أن الدنيا دار يعرض فيها انتقال فلا تدوم على حال (١٠) حتى لوكانوا الخ هذا من الترقي في الدليل يقول : لوكتب لهم الخلود ، لوجب أن يغفلوا طلب مايزيد على عيشهم وحالتهم ولجادوا به لوحصل في أيديهم ولكنهم لايعقلون بسبب ماركب فيهم من الحرص والجشع

فالبخيلُ مجتهد ، والعامىُّ غير مقصّر . (١) فمن لم يَسْتَعِنْ على ما وصفنا بطبيعة قوية ، وبشهوة شديدة ، وبنظر شاف ، كان إمّا عاميّا ، وإما بخيلا شقيّا (٢) — فيم اعتلالهم بأولادهم ، واحتجاجهم بخوف التلوُّنِ من أزمنتهم (٣) ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لِوَافِدٍ كذَبَ عِنْدَه كَذْبةً ، وكان جواداً : لولا خَصْلةٌ وَمِقَكَ اللهُ عليها ، لشرَّدْتُ بك مِنْ وافِدِ قوم (٤) ... وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لك في بِيضِ النِّسَاءِ وأُدْمِ الإبل (٥) ، ؟ قال : ومَنْ هم ؟ قال : بَنُو مُدْلِج (٦) . قال : يَمْنَعُنِى من ذاك قِرَاهم الضيفَ ، وصِلتُهم الرَّحِمَ . وقال لهم أيضا : إذا نَحَرُوا ثَجُّوا (٧) ، وإذا لَبَّوْا عجُّوا (٨) .

وقال للأنصار : مَنْ سَيِّدُكم ؟ قالوا : الحُرُّ بنُ قيس ، على أنه يُزَنُّ (٩) فينا ببخل ، فقال : وأىُّ داء أدْوَأ من البخل ؟ جعله من أدوإ الداء .

---

(١) معنى اجتهاد البخيل هنا أنه يفعل مايفعل عن احتجاج واقتناع بصواب مايفعل . أما العامى فليس له من العقل مابه يقيم الحجة على حكرته وإنما هو مسوق إلى ذلك بطبيعته فهو ملحق بالبخلاء

(٢) فمن لم يستعن الخ ، على ماوصفنا : على مابينا من تمكن البخل والجشع من النفوس . والطبيعة القوية : السليمة من العلل النفسية ، أما الشهوة الشديدة : فهو يريد بها الميل الشديد للتخلص من هذا الضعف ، وقوله وبنظر شاف : يقصد به التفكير الصحيح المؤسس على البرهان القويم لاالسفسطة

(٣) تلون الأزمنة : تقلبها وتنكرها (٤) ومقه يمقه ، كوثق يثق : أحبه . وشردت بك : أبعدتك وطردتك ، وقوله من وافد قوم : هو بيان للكاف فى « بك »

(٥) الأدم : جمع آدم وأدماء ، والأدمة فى الإبل : لون مشرب سوادا أو بياضا أو هو البياض الواضح والتقدير : هل لك فى قوم الخ أى هل لك فى غزو قوم الخ كما يفهم من المقام (٦) بنو مدلج قبيلة من كنانة (٧) وقال لهم : أى قال فى حقهم ، وثجوا : أسالوا دماء الذبائح فى الحج (٨) التلبية فى الحج قول : لبيك اللهم لبيك الخ وعج يعج « بالكسر والفتح » صاح ورفع صوته (٩) يزنّ : يتهم

وقال للأنصار: أنا والله، ما عَلِمْتُكُمْ إلاَّ لَتَكْثُرُون عند الفزَع وتَقِلُّونَ عند الطمع [١]، وقال: كَفَى بالمرء حِرْصا رُكُوبُهُ البحرَ [٢] ـ. وقال: لو أنَّ لابن آدمَ وادِيَيْنِ مِنْ مالٍ لابْتَغَى ثالثا، ولا يُشْبِعُ ابنَ آدمَ إلا التراب ويتوبُ الله على منْ تاب [٣]. وقال: السخاء من الحياء، والحياء من الإيمان وقال: إن الله جوادٌ يُحب الجود. وقال: أَنفِق يابلال، ولا تَخْشَ من ذى العرش إقلالا [٤].

هذا مارأينا اختياره من هذه الرسالة الجاحظية البارعة الجامعة. ونعود إلى سائر عبقرياتهم فى الجود والإحسان

كلمة عُلْوية لسيدنا رسول الله

عن أبى سعيد الخُدْرِىّ رضى الله عنه قال: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال: إنى أخاف عليكم بَعدى ما يُفْتَحُ عليكم مِن زَهرةِ الدُّنيا وزِينَتِها ... قال: فقال رجل: أوَ يأتى الخيرُ بالشرّ يارسول الله؟ قال: فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأينا أنه يُنزَلُ عليه [٥]، فأفاق يَمسَحُ عنه الرُّحضاء [٦] وقال: أين هذا السائل ـ وكأنه حَمِدَه ـ فقال: إنه لايأتى

---

(١) لتكثرون الخ: أى لتجتمعون بجموعكم للنجدة والذود، وقلتهم عند الطمع: لسماحتهم وكرمهم وقلة حرصهم، والمراد: الطمع فى مغنم حرب أو نحوه

(٢) كفى بالمرء الخ يذم صلى الله عليه وسلم الجشع والحرص على جمع المال ولا سيما عند توقع الخطر كركوب البحر فى تلك الأيام وليس المراد ذم السعى على الرزق الحلال من أى وجه كان، كماهو ظاهر

(٣) واديين: نهرين (٤) أنفق الخ، بلال: هو بلال بن حمامة الحبشى مؤذن سيدنا رسول الله

(٥) ينزل عليه: يوحى إليه (٦) الرحضاء: العرق الكثير وكثيرا مايستعمل

الخير بالشر ، وإنَّ مما يُنبتُ الربيعُ ما يَقتُلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ [١] ، إلا آكلةَ الخَضِر [٢] ، فإنها أكلتْ حتى إذ امتلأت خاصِرَتاها استقبلت عينَ الشمس فثلَطت [٣] وبالت ثم رتعت . وإن هـذا المـال خَضِرَةٌ حُلوة ، ونِعْم صاحب المُسلم هو ، إن أعْطى المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيل . أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

✡ ✡ ✡

« قال الإمام اللغوى أبو منصور الأزهرى [٤] : فى هذا الحديث مَثَلان ، ضرب أحدهما للمُفرط فى جَمْع الدنيا مع مَنْع ماجمع من حقه ، والآخر ضربه للمقتصد فى جمع المـالَ وبذلِهِ فى حقه ، فأما قوله صلى الله عليه وسلم : وإن ممـا ينبت الربيع مايقتل حبطا ، فهو مَثَلُ الحريص المفرط فى الجمع والمنع ، وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب [٥] التى تحلَوْليها المـاشية فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهْلِك ، كذلك الذى يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشح على ماجمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها ، يهلك فى الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب ـ أقول : ويهلك فى الدنيا كذلك ، وهل لايعد هلاكا لمن هذه حاله مايلاقيه من إزراء الناس به وازورارهم عنه وانطوائهم له على البغض والحقد والحسد وصنوف الأذى وعـدِّهم إياه خنزيرا من خنازير البشر أو مجنونا من صرعى الأثرة والأنانية وحب الذات ، وبالحَرِىِّ لاخير فيه لأحد ولا لنفسه وإنما هو لا يعدو

(١) الحبط ـ كما سيمر بك ـ أن تأكل المـاشية فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها فتهلك ، ويلم : يقرب ويدنو من الهلاك فى عرق الحمى والمرض

(٢) الخضر بفتح فكسر جمع خضرة : ضرب من الجنبة أى عروق العشب الغامضة فى الأرض كما سيأتى

(٣) ثلطت : تغوطت وأكثر مايقال للإبل والبقر والفيلة

(٤) هو محمد بن أحمد بن الأزهر الهروى ، الإمام المشهور فى اللغة ، صاحب التهذيب ولد سنة ٢٨٢ وتوفى سنة ٣٧٠ بمدينة هراة إحدى مدن خراسان ، فالأزهرى نسبة جده أزهر

(٥) أحرار العشب : الرقيق الرطب منه

أن يكون صيرفا أو حارس مال ليس غير :

يَجْنِى الغِنَى لِلئَامِ لوعقَلوا مالَيسَ يَجْنِى عليهِمُ العدمُ

هُمْ لأموالِهِم ولَسْنَ لهم والعارُ يَبْقَى والجُرْحُ يَلْتَئِمُ

✡ ✡ ✡

أنتَ للمال إذا أمْسَكْتَهُ فإذا أنفقْتَهُ فالمالُ لَكْ

هذا إذا أضاف الشُّحّ على نفسه إلى الشح على ذوى الحقوق

أما إذا آثر نفسه بالتمتع بلذات الدنيا فأى هلاك بعد الذى يصيبه من الأسقام والأوجاع وسائر أدواء الترف والسرف واجتواء المحرومين إياه وحنقهم عليه وما عساه يتولد من ذلك كله من الغوائل الاجتماعية التى نرى أفاعيلها اليوم ـ قال الأزهرى : وأما مَثَل المقتصد المحمود فقوله صلى الله عليه وسلم : إلا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت ، وذلك أن الخَضِر ليس من أحرار البقول التى تستكثر منها الماشية فتهلكها أكلا ولكنه من الجَنْبَة [1] التى ترعاها بعد هيج العشب ويُبْسِه ، والماشية ترتع منها شيئا شيئا ولا تستكثر منها فلا تحبط بطونها عنه . فضرب النبى صلى الله عليه وسلم آكلة الخضر مثلا لمن يقتصد فى أخذ الدنيا وجمعها ولا يسرف فى الحرص عليها وأنه ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر ، ألا تراه قال : فإنها إذا أصابت من الخضر استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ، وإذا ثلطت فقد ذهب

(١) أسلفنا أن الجنبة هى الكلأ الذى له عروق فى الأرض ، قال أبو حنيفة الدينورى : الجنبة ما كان فى نبتته بين البقل والشجر فيكون فوق البقل ودون الشجر مثل الحاط مما يبقى أصله فى الشتاء ويبيد فرعه ، وسمى جنبة لأنها كما قال الأزهرى صغرت عن الشجر الكبار وارتفعت عن التى لا أرومة لها فى الأرض

حبطها، وإنما تخبط الماشية إذا لم تثلط ولم تبل ، ثم حث صلوات الله عليه على إعطاء المسكين واليتيم من هذا المال، مع حلاوته ورغبة الناس فيه، ليقيه الله تبارك وتعالى وبال نعمتها فى دنياه وآخرته.

✿ ✿ ✿

هيهات أن أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى

ومن كلمة لسيدنا على رضى الله عنه فى كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة: ولو شئتُ لاهتديت الطريق إلى مُصَفَّى هذا العسل، ولُبابِ هذا القمح، ونَسائج هذا القَزّ، ولكن هيهات أن يغلِبَنى هوایَ، ويقودَنى جَشَعى إلى تخيُّر الأطعمة، ولعلَّ بالحجاز وباليمامة من لا طمعَ له فى القُرص، ولا عَهْدَ له بالشبَع! أو أبيت مبطانا وحولى بطونٌ غَرْثى،[1] وأكبادٌ حَرَّى، أو أكونَ كما قال القائل:

وحَسْبُكَ عارًا أنْ تَبيتُ ببِطْنَةٍ وحَوْلَكَ أكْبادٌ تحِنُّ إلى القِدِّ[2]

أأقنَعُ من نفسى بأن يقال: هذا أمير المؤمنين ولا اشاركُهم فى مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم فى جُشوبةِ العيش[3]! فما خُلقت ليَشغَلَنى أكلُ الطيبات، كالبَهيمة المربوطة همُّها علفُها، أو المُرسَلة شُغْلُها تقَمُّمها، تكترش من أعلافِها، وتلهُو عما يُراد بها ...

(١) المبطان: الذى لايزال عظيم البطن من كثرة الأكل، وغرثى: جائعة

(٢) البطنة: الكظة، وذلك أن يمتلئ الإنسان من الطعام امتلاء شديدا، والقد: سيور تقد - تقطع - من جلد غير مدبوغ. وهذا البيت من أبيات لحاتم الطائى المشهور بالجود

(٣) جشوبة العيش: خشونته وغلظه

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم ـ وكان مِنْ قَبلِهِم مؤدِّبُهم سيدُنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يَرَوْن ـ ونِعِمَّا رأوْا ـ أن السياسة الرشيدة، وأن الطريق إلى الإحسان ـ ولا طريق غيرها ـ إنما تتحقق بالرغبة عن شهوات الحياة الدنيا، وتنكُّب السرف والترف، وكانوا يريدون عُمّالهم على هذه السياسة التي لا سياسة غيرها.

كان الخلفاء الراشدون مُثُلاً عليا في الرغبة عن شهوات الحياة الدنيا

قال الربيع بن زياد الحارثى: كنت عاملا لأبى موسى الأشعرى على البحرين، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعماله، وأن يستخلفوا جميعاً. قال: فلما قدمنا أتيت يَرْفأ «مولى عمر» فقلت: يايرفأ مُسْتَرْشِدٌ وابن سبيل ... أيُّ الهيئات أَحَبُّ إلى أمير المؤمنين أن يَرَى فيها عماله، فأومأ إلىّ بالخشونة. فاتخذت خُفَّيْن مُطارَقَيْن[1] ولبِسْتُ جُبَّةَ صوف ولثتُ عمامتى على رأسى[2]. فدخلنا على عمر، فصفَّنا بين يديه، فصعّد فينا وصَوّب[3] فلم تأخذ عينه أحداً غيرى، فدعانى فقال: مَنْ أنت؟ قلت: الربيع ابن زياد الحارثى، قال: وما تتولى من أعمالنا؟ قلت: البحرين، قال: كم ترتزق؟[4] قلت: ألفاً، قال: كثيرٌ ... فما تصنع به؟ قلت: أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقاربَ لى، فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين، قال: فلا بأس، ارْجِعْ إلى موضعك، فرجعت إلى موضعى من الصف، فصعّد فينا وصوّب فلم تقع

(١) طراق النعل: ما أطبقت عليه فخرزت به، فمعنى مطارقين: خصفت إحداهما فوق الأخرى (٢) أى أدرت بعضها على بعض على غير استواء

(٣) صعد فينا: رفع رأسه فنظر الأعلى، وصوّب: خفض رأسه فنظر الأسفل

(٤) أى كم مرتبك

عينه إلا عليّ فدعاني فقال : كم سنّك ؟ قلت : خمسٌ وأربعون سنةً ، قال : الآن حين استحكمت .[١] ثم دعا بالطعام وأصحابي حديثٌ عهدُهم بلين العيش ، وقد تجوّعتُ له ، فأُتِيَ بخبزٍ وأكسار بعير[٢] فجعل أصحابي يَعافون ذلك وجعلتُ آكل فأُجيد ، فجعلتُ أنظر إليه يلحظني من بينهم ، ثم سبقت مني كلمة تمنيت أني سُخْتُ في الأرض[٣] فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك ، فلو عمدتَ إلى طعامٍ ألينَ من هذا ! فزجرني ، ثم قال : كيف قلتَ ! فقلت : أقول - يا أمير المؤمنين - : أن تنظر إلى قُوتِك من الطحين فيُخبَزَ لك قبل إرادتك إياه بيوم ويُطبَخ لك اللحمُ كذلك ، فتُؤتى بالخُبزِ ليّناً واللحمِ غريضًا[٤] ... فسكّنَ مِن غَرْبِهِ[٥] وقال : أهُهنا غُرتَ ؟[٦] قلتُ : نعم ، فقال : يا ربيع ، إنّا لو نشاءُ ملأنا هذه الرحابَ من صلائقَ وسَبائكَ وصِنابٍ[٧] ، ولكني رأيت الله عزّ وجلّ نَعَى على قومه شهواتِهم

(١) استحكمت : تناهيت عما يضرك في دينك ودنياك

(٢) أكسار : جمع كسر ، والكسر : عظم ليس عليه كثير لحم

(٣) ساخ في الأرض : غاص فيها ودخل

(٤) غريضاً : طريا (٥) يريد حدّته (٦) غرت : أي ذهبت يقال : غار الرجل : إذا أتى الغور وناحيته مما انخفض من الأرض ، وأنجد : إذا أتى نجدا أو ناحيته مما ارتفع من الأرض (٧) صلائق جمع صليقة وهي القطعة المشوية من اللحم والسبائك : ما يسبك أي ينخل من الدقيق فيؤخذ خالصه وهو ما يسمى الحوارى أي ما ينق من لباب البر . والصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب

(٨) نعى على قوم شهواتهم : عابها ووبخهم عليها . أما الآية التي ذكرها الفاروق بعد فهي : ويَومَ يُعرَضُ الَّذينَ كَفروا على النارِ أذْهَبْتُمْ طيِّباتِكم في حياتكمْ الدنيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بها فاليَوْمَ تُجزَوْنَ عذابَ الهُونِ بمَا كنتمْ تَستَكبِرُونَ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ وَبمَا كُنْتُمْ تَفسُقون

فقال : أَذْهَبْتُمْ طيِّباتِكم فى حياتِكم الدنيا ... ثم أمر أبا موسى بإقرارى وأن يَسْتَبْدِلَ بأصحابى . . . وهذا من الفاروق هو ـ فضلا عن أنه الأليق بكل من وُلِّىَ أمر الناس ـ غاية فى السداد والسياسة الرشيدة الحازمة كما قلنا

عظمة الفاروق

فى زهده وتقواه

هذا والله المُلْكُ الهنىء

ومما يصح إيراده هنا ما يأتى : لمّا أُتِىَ بالهُرْمزان صاحبِ تُسْتَر، إلى عمر ابن الخطاب ـ وكان هذا الهرمُزان من أعظم قوّاد الفُرْس ، وكان على مَيْمَنة جيش رُسْتُم وزير ملك فارس يَزْدَجِرْدَ بن شهريار بن ابرويز فى حرب القادسية سنة ١٤ من الهجرة ، فلما قتل رستم وانتصر المسلمون فرّ الهُرمُزان بمن بقى من جُنْدِه ، وما زال المسلمون يتابعونه الغارة بعد الغارة حتى لجأ إلى مدينة تُسْتر[1] ، وتحصَّنَ بها ، فحاصروه أشدَّ حِصار ، ثم أنزلوهُ على حُكْمِ الفاروق ، فأسلمه قائد جيش المسلمين أبو سَبْرَةَ بن أبى رُهْم إلى وفد فيهم أَنَس بن مالك والأحنف بن قيس ، فأتوا به إلى الفاروق ـ وكان الفاروق يلتف فى كِسائه وينام فى ناحية المسجد ، فجعلوا يسألون عنه ! فيقال : مَرّ هٰهُنا آنفا ! فيَصْغُرُ فى قلب الهُرمُزان ، إذ رآه كبَعْضِ السُّوَق[2] ... حتى انتهوا به إلى عمر وهو نائم فى ناحية المسجد ... فقال الهُرمُزان : هذا والله المُلْكُ الهنىء ...[3] فلما جلس عمر امتلأ قلبُ العِلْج[4] منه هيبة ، لما رأى عنده

(١) تستر : مدينة عظيمة جعلها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقربها منها

(٢) السوق : جمع سوقة كغرفة وغرف ، وهم الرعية (٣) إذ لا يحتاج إلى أحراس ولا عدد (٤) العلج فى الأصل : الحمار الوحشى : وقد أطلقه المسلمون على الرجل من كفار العجم ومن يشبه العجم

من الجِدّ والاجتهاد، وأُلْبِسَ من هَيبة التقوى ... ثم نظر عمر إليه وقال : آلهُرمُزان ! قال : نعم ، فقال عمر : الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهَه ، وأمر بنزع ما عليه من الديباج المُذْهَبِ، والتاج المكلل بالياقوت ، وأمر له بثوبٍ صفيق[1]، وهَمَّ بقتله ، فطلب الهُرمُزانُ ماءً ، وقال : أخاف أن أُقتلَ وأنا أشْرَب ! فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربَ ، فأراقَهُ ، فقال عمر : والله لا أنخدِعُ حتَّى تُسْلِم ، فأسْلَمَ ، وفَرَضَ له فى العطاء ألفَيْنِ ، وأقام بالمدينة .

✡ ✡ ✡

نعود إلى عبقرياتهم فى الجود من بابات شتى ... ولقد أسْلَفنا أن الأوائل لم يَتْرُكوا معنًى إلا طَرَقوه : ✡ وهل غادرَ الشُّعراءُ من مُتَرَدَّمِ ✡ [2]

وهو معلوم أن الخمر تُحْدِثُ فى شاربها إذا انتشى هِزَّةً وطَرَبا وأريحيَّةً وقدْ تُحيلُ البخيلَ كريما ، فماذا قالوا فى ذلك ؟ قالوا : ـ والقائل البُحتُرىُّ ـ :

تكرَّمْتَ مِنْ قَبلِ الكُؤُسِ عليهمِ ... فما آسْطَعْنَ أنْ يُحْدِثْنَ فيكَ تكرُّمَا

وقال أبو نُواس :

فتًى لا تُذِيبُ الخمرُ شَحْمةَ مالِهِ ... ولكِنْ أيادٍ عُوَّدٌ وبَوادِى [3]

وقال المتنبى :

(١) صفيق : جيد النسج (٢) صدر بيت لعنترة وتمامه :

✡ أم هل عَرَفت الدار بعد توهم ✡

وهذا البيت مطلع معلقته ، يقول عنترة : إن الشعراء قد سبقونا إلى القول ، فلم يدعوا مجالا لقائل ، والمتردم فى الأصل : الموضع الذى يرقع ويستصلح

(٣) شحمة ماله : أطيبه، وقوله : ولكن أيادعوّد وبوادى، يقول : ولكنه يعطى عطاياه قبل الخمر وبعد الخمر ودائما ، فعطاياه تبتدأ وتعاد

لا تجِـــدُ الخمرُ فى مَكارِمِه إذا انتشى ـ خَـلَّةً تلافاها (١)

والأصل فى هذا قول عنترة فى معلقته :

وإذا صَحَوْتُ فما أُقصِّرُ عنْ نَدًى وكما عَلِمْتِ شمائِلِى وتَكرُّمِى

وقال زُهَير :

أخو ثِقة لا تُهلِكُ الخمرُ مالَهُ ولكِنَّهُ قد يُهلِكُ المَالَ نائِلُهْ

وقد غَضُّوا من قول عَمْرِو بن كُلْثومٍ :

✡ إذا ما الماءُ خالَطَها سَخِينَا (٢) ✡

ومعنى ذلك كلِّه أنهم لا يَعُدُّون جودَ السَّكْرانِ جُوداً ، وإنما الجودُ عندهُمْ ماكان من كَرَمٍ فِطْرِىٍّ لاتبعثُه خمرٌ وما يُشبه الخمرَ . وإذا هم وصَفُوا الخمرَ بأنها تُورِثُ شاربَها شيئاً يُشبه الكرمَ ، فذاك من باب استِقْصائِهم لمعانى الخمر وما تحدثه فى شاربها ، كما قد سيمر بك فى بابه ...

ولقد سَمَت مكارمُ الأخلاق بكثيرٍ مِنْ ذَوِى الأرْيَحِيَّة إلى أنهم لا يَقْطَعون نوالهم عَمَّنْ يَغْضَبُون عليهم ويَيْبَسُ الثَّرَى بينَهم ، وقد رُوِىَ فى ذلك أنَّ

(١) الخلة : الخصلة والثلمة ، وتلافاها ــ بحذف إحدى التاءين : تتلافاها ، أى تتداركها

(٢) عجز : بيت من معلقته وصدره :

✡ مُشَعْشَعةً كأَنَّ الحُصَّ فيها ✡

يصف الخمر يقول : اسقنى الخمر مشعشعة ، أى ممزوجة بالماء ، فإنها من شدة حمرتها كأنما التى فيها الحص ـ وهو الورس ـ نبات أحمر يشبه الزعفران ـ وإذا شربناها وسكرنا جدنا بعقائل أموالنا وسمحنا بذخائر أعلاقنا ، فسخينا : فعل من سخى يسخى سخاء ــ وهذه لغة ـ ولغة فيها وهى سخا يسخو سخاوة ، وثالثة وهى سخو يسخو ـ ويجوز أن تكون سخينا صفة ومعناها الحار فيكون المعنى : كأنها حال امتزاجها بالماء وكون الماء حارا نور هذا النبت ، وإذن فلا مطعن عليه

بعضَ النُّبلاء كان يُجرِى على رجُلٍ شيئاً ، ثم غَضِبَ عليه ، وحَدَثَ أن كتب ابنُه إطلاقاتٍ، ورُفِعت إليه الإطلاقاتُ ، وتَرَكَ اسمَ المغضوبِ عليه ، فقال له أبوه : فأين ذِكْرُ رِزْقِ فُلانٍ ؟ فقال : إنَّكَ قد كنتَ غضِبْتَ عليه ، فقال : يا بُنيَّ ، غضَبِي لا يُسْقِطُ هِبَتِي ... إنَّ أباكَ لا يَغْضَبُ فى النَّوال ...

وحتَّى المحتاجينَ المغضوب عليهم كانت أنفُسُهم كريمةً أبيَّةً ، فقد رُوِيَ أنَّ بعضَهم كان يُجْرِى على رَجلٍ شيئاً ، فغضِبَ عليه ، فقطَعَه ، ثم رَضِيَ عنه فردَّه ، فأبَى الرجل أن يَقْبَلَه وقال : إنِّى كنتُ أظُنُّ أنّ عطاءَه مكرُمةٌ ؛ فأمَّا وقد صار غضبُه يقطعُه ، فلا حاجة لى فيه ... وكذلك بَلَغتْ بهم مكارمُ الأخلاق أن يُعطوا المُعْتَفِين ، أكانوا فُقراءَ أمْ أغنياء ، ولا يَخُصُّون ، وقد رُوِيَ فى الخبر : أعْطُوا السائل ولو جاء على فرس ، وروى أيضا : كلُّ معروفٍ صدقة ، لغنيٍّ أو فقيرٍ ؛ ويُشبِّهون مَن هذا حاله بالغيث ، قال ابن المعتز :

ويُصيب بالجودِ الفقيرَ وذا الغِنَى كالغيثِ يَسْقِى مُجْـدِبا ومَرِيعا

وقال المتنبي :

ويَدٌ لها كرَمُ الغَمامِ لأنَّه يَسْقِى العمارَةَ والمكانَ البَلْقَعا

وكذلك تسامَوْا وبلغوا من عبقرية الرُّوح أن صاروا يعُدُّون الانخِداع عن المال والتَّبالُهَ فى ابتذاله كرَماً ، وقالوا : إنَّ الكريم إذا ما خادَعْتَه انخَدَعا ... وفى ذلك يقول البحترى :

وإذا خادَعْتَه عن ماله عَرف المَسلَكَ فيه فانخَدَعْ

ويقول :

وقد يتغابَى المَرءُ عَنْ عُظْمِ مالِهِ ... ومِن تحتِ بُرْدَيْه المُغيرَةُ أَو عَمْرُو

« المغيرة : هو المغيرة بن شعبة، وعمرو : هو عمرو بن العاص وكانا من الدهاة »... وقيل لبعضهم : ماالشرَف ؟ فقال : الانخداع عن المال ، ولا تجد أحداً يتغافل عن ماله إلا وجدْتَ له فى قلبه فضيلة لا تَقدر على دفعها ، وقد أدَّبنا نبيُّنا صلى الله عليه وسلم بقوله : رحم الله سَهْلَ البيع سهلَ الشراء، وهذا خلاف قول الناس : المَغْبُون غير محمود ولا مأجور ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ألَا أدُلُّكمْ على شيء يُحِبُّه الله ورسوله ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : التَّغابُنُ للضعيف ... ومما يُروى فى هذا الباب ماأورده ابن خلكان فى ترجمة الوزير الخطير أبى الحسن على بن الفرات وزير المقتدر بالله ابن المعتضد بالله العباسِيّ ـ وكانت وفاته سنة ٣٢٧ هـ ـ وهو : أن رجلا اتّصلت عُطْلَتُه ، وانقطعت مادَّتُه ، فزَوَّر كتابا من أبى الحسن بن الفُراتِ إلى أبى زُنْبور المـارِدانِى عامل مِصر ، يتضمن الوَصاةَ به والتأكيدَ فى الإقبال عليه والإحسانِ إليه ، وخرج إلى مِصر ، فلَقِيَه به ، فارتاب أبو زُنبور فى أمره لتغيُّرِ الخطاب على ماجرَتْ به العادةُ ، وكَونِ الدعاء أكثرَ مما يَقتضيه مَحَلُّه فراعاه مُراعاةً قريبةً ووَصَلَه بِصلةٍ قليلةٍ ، واحتبَسَه عنده على وَعْدٍ وعَدَه به وكتب إلى أبى الحسن بن الفُرات يَذكرُ الكتاب الوارد عليه ، وأنفذه بعينه إليه ، واستَثْبَتَه فيه ، فوقف ابنُ الفُرات على الكتاب المزوَّرِ ، فوجد فيه ذِكرَ الرجل وأنه من ذوى الحُرُمات والحقوق الواجبة عليه ، وعرَضَه على كُتَّابه وعَرَّفَهم الصورة فيه وعَجِب إليهم منها ومما أقدم عليه الرجل، وقال لهم : ماالرأىُ فى أمر هذا الرجل عندكم ؟ ! فقال بعضهم : تأديبُه أو حَبْسُه ، وقال آخر : قطعُ إبهامِه لئلا يُعاوِدَ مثل هذا، ولئلا يَقتدىَ به غيرُه فيما هو

أكثر من هذا، وقال أجملُهم محضراً: يُكشف لأبى زُنبور قصتُه، ويُرسَمُ له طَردُه وحِرمانه، فقال ابن الفرات: ما أبعدَكم من الحرية والخيرية: وأنفرَ طِباعَكم عنها! رجل توسَّل بنا وتحمّل المشقّة إلى مصر فى تأميل الصلاح بجاهنا، واستمداد صُنع الله عز وجل بالانتساب إلينا، ويكون أحسنُ أحواله عند أحسنِكم محضرا تكذيبَ ظنّه وتخييبَ سَعْيه! والله لا كان هذا أبدا، ثم إنه أخذ القلم من دواتِه ووقّع على الكتاب المزوَّر: هذا كتابى، ولست أعلم لِمَ أنكرت أمرَه واعترضتك شُبْهة فيه! وليس كلُّ مَن خدَمنا وأوجب حقًّا علينا تعرفه! وهذا رجل خدمَنى فى أيام نَكْبتى، وما أعتقدُه فى قضاء حقّه أكثرُ مما كلَّفتُك فى أمرِه من القيام به، فأحسِن تفقُّدَه ووفِّرْ رِفدَه وصَرِّفْهُ فيما يعود عليه نفعُه ... وردَّه إلى أبى زُنبور من يومه؛ فلما مضت على ذلك مدة طويلة دخل على أبى الحسن بن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة وبِزّة جميلة، وأقبل يدعو له ويُثنى عليه ويَبكى ويُقبِّل الأرض، فقال له ابن الفرات: من أنت بارك الله فيك! ـ وكانت هذه كلمته ـ فقال: صاحب الكتاب المزوّر إلى أبى زنبور، الذى صحّحه كرمُ الوزير وتفضُّله، فعل الله به وصنع، فضحك ابن الفرات، وقال: كم وصل إليك منه؟ قال: وصل إلىّ من ماله ومما قسّطه على عُمّاله وعملٍ صرّفَنى فيه، عشرون ألف دينار، فقال ابن الفرات: الحمد لله، الزَمْنا، فإنا نُعرِّضك لما يزدادُ به صلاحُ حالِكَ، ثم اختبره فوجده كاتباً مُبيناً، فاستخدمه وأكسبه مالا جزيلا ...

قِرَى الأضياف

وهناك لون من ألوان الجود، لقد أكثروا فيه القول وافتنُّوا، وأطالوا فى التفاخر به والإشادة بمحاسنه، وجعلوه عنوانَ الكرم والنجدة والمُروءة ووضَعُوا له آداباً ودساتيرَ. ذلك هو قِرَى الأضياف، ونحن فإنا نختار ذَرْوًا من عبقرياتهم فى هذا المعنى. وفيما يتأشب إليه ويَنْشَعب منه والله المستعان ...

معنى قرى الضيف : قال علماء اللغة : يقال : قَرَى الضيفَ قِرًى وقَرَاءً : أضافه وأحسن إليه، واستقرانى واقترانى وأقرانى : طلب منى القِرَى، وإنَّه لَقَرِىٌّ للضيف، والأنثى قريّة، وكذلك : إنه لَمِقْرًى للضيف ومِقراء، والأنثى مِقْراةٌ ومِقراء ...

«وأما بعد» فقد قلنا فى البخل إنهُ جِبِلَّةٌ وَإنّه الأصلُ وإنَّ الناس لقد خُلِقوا بخلاءَ، إلى آخر ماقلنا صَدْرَ هذا الباب، وهذا الذى قلنا يقال فى قِرَى الأضياف، وأن الأصل هو البُخْل بالقِرَى؛ فلنورد عليك شيئاً مما قالوا فى البخل بالقِرَى ثم نردفه بالقول على الجود بالقرى وحثهم عليه، والكلام يدخل بعضه فى بعض .

طَرَفٌ من مُلَحِهم فى ذلك : قال بعض البخلاء لغلامه : هاتِ الطعامَ، وأَغْلِقِ الباب، فقال الغلام : يامولاى، ليس هذا بحزم ! وإنّما أُغْلِقُ الباب، وأُقدِّم الطعامَ، فقال له : أنتَ حُرٌّ لِوَجه الله ... وطبخ بعض البخلاءِ قِدْرًا، وجلس يأكلُ مع زوجته فقال : ماأطْيَبَ هذا الطعامَ لولا كثرةُ الزِّحام ! فقالت : وأىّ زحام وما ثَمَّ إلا أنا وأنت ! قال : أُحِبُّ أن

أكون أنا والقِدْر ... وعَزَم بعضُ إخوانِ أشْعَبَ عليه ليأكل عنده ، فقال : انّى أخاف من ثقيلٍ يأكلُ مَعَنا فيُنَغِّصُ لذّتنا ، فقال : ليس عندى إلا ماتُحِبُّ ، فمضى معه ، فبينما هما يأكلان ، إذا بالباب قد طُرِق ، فقال أشعبُ : ما أرانا إلا قد صِرْنا لِمَا نكره ، فقال صاحب المنزل : إنّه صديق لى : وفيه عَشْرُ خِصالٍ إنْ كَرِهْتَ مِنها واحدةً لم آذَنْ له ، قال أشعبُ : هاتِ ، قال : أوّلهـــا أنه لا يأكل ولا يشرب ، فقال : التسع لكَ ودَعْهُ يدخل ، فقد أَمِنّا منه مانخافه ...

وأكل رجل مع بعض البخلاء ، وكان على مائدته أرغفة هنا وهناك ، فلما فرغ من رغيفه قال : ياغلام ، قَرِّبي ، فقال الداعى البخيل : وما تصنع به ؟ قال : أرْكبُه إلى ذلك الرغيف ... وحدّثَ أبو نُوَاسٍ قال : قلت لرجل من أهل خراسانَ : لِمَ تأكُلُ وَحْدَكَ ؟ قال : ليس علىّ فى هـذا الموضع سؤال ، إنما السؤال على مَن آكل مع الجماعة ، لأن ذاك تكلُّف ، وأكْلِى وَحْدِى هو الأكلُ الأصلىّ ... وأضاف رَجُلٌ أعرابيًّا ، فلم يأتِه بشىء يأكله حتى غُشِيَ عليه من الجوع ، فأخذ يقرأ عليه القرآن ، فقال :

لَخُبْزٌ يا أُخَىَّ عليْهِ لَحْمٌ   أحبُّ إلىَّ مِنْ حَسَنِ القُرانِ
تظَلُّ تُدَهْدِهُ القرآن حَوْلِي   كأنِّى مِنْ عَفاريتِ الزَّمانِ

وقيل للجمّاز : مَن يحضُر مائدةَ فلان ؟ فقال : أكْرَمُ خَلْق الله : الكراهُ الكاتبون ... واصطحب رجلان فقال أحدهما للآخر : تعالَ حتّى نأكُلَ معاً ، فقال : معى خبزٌ ومعكَ خبزٌ ، فلولا أنك تريد الشرّ لأكلتَ وحدك ... وقيل لآخر : ألاَ تأكُلُ مَعَنا ؟ فقال : الجماعة مَجاعة ... ودخل على ابْنٍ لِرَجُلٍ من الأشراف داخِلٌ وبين يَدَيه فراريجُ ، فغَطَّى الطبقَ بمِنْديله وأدخلَ رأسه فى جَيْبِه وقال للداخل عليه : كُنْ فى الحُجْرةِ الأخرى حتى

أفرَغ مِن بَخُورى ... ودخَل رجُلٌ على رجل يوما والمائدة موضوعةٌ والقومُ يأكلون وقد رَفَع بعضُهم يدَه ، فمدَّ يدَه ليأكُل ، فقال : أَجْهِزْ على الجَرْحَى ، ولا تَتعرَّضْ للأصحاء... » يريد : كُلْ ما كُسِرَ ونِيلَ منه ولا تَعْرِضْ إلى الصحيح ، ورأى رَجُلٌ الحُطيئة ـ الشاعر المخضرم العبقرى اللئيم ـ وبيده عَصًا فقال : ماهذه ؟ قال : عَجْراءُ مِن سَلَمٍ[1] ، قال : إنى ضيف ، قال : للضِّيفان أعددتُها... ووصف أعرابىٌّ قوماً فقال : أَلغَوْا من الصلاة الأذان ، مخافة أن تَسْمَعَه الآذان ، فيَهُلَّ عليه الضِّيفان ... وفى هذا المعنى يقول شاعرٌ :

تَرَاهُمْ خَشْيَةَ الأضيافِ خُرْسًا ... يقيمون الصلاةَ بلا أذانِ

✡ ✡ ✡

وكانوا يَعُدُّون أن يبيت الرجل شَبْعانَ وجارُه جَوْعانُ ، عاراً وشَناراً ولؤماً ونذالة ، ويتهاجَوْنَ بذلك ، وأحسن ماقيل فى هذا قول الأعشى ـ ميمون بن قيس ـ فى علقمة بن عُلاثة :

تبيتُونَ فى المَشْتَى مِلاءً بُطُونُكم ... وجاراتكم غَرْثَى يَبِتْنَ خَمائِصا[2]

وقول بشار بن بُرد :

وضَيْفُ عَمْرٍو وعَمْرٌو يَسْهَرانِ مَعًا ... عَمْرٌو لِبِطْنَتِه والضَّيفُ لِلْجُوعِ

وقال شاعرٌ :

وَجِيرَةٍ لا تَرَى فى الناسِ مِثْلَهُمُ ... إذا يكون لهم عِيدٌ وإفطارُ

إنْ يُوقِدُوا يُوسِعونا مِن دُخانِهِم ... وليس يَبْلُغُنا ما تُنْضِجُ النَّارُ

✡ ✡ ✡

ومن مُلحِهم فيمن لا يُظْفَرُ بخُبزِه . قولُ أبى نُوَاس :

---

(١) العجراء : العصا التى فيها أُبن ـ عقد ـ ، والسلم : شجر

(٢) رووا أن علقمة لما سمع هذا البيت قال : فضحنى والله ، اللهم أخزه إن لم يكن صادقا، وغرثى : جائعات، ومثله خمائص

وما خُبْزُهُ إلا كعَنْقاءِ مُغْرِبٍ (١) تُصَوَّرُ فى بُسْطِ الملوكِ وفى المُثُلْ

وقال الآخر :

قد فَرَّ مِنْ مَنْزِلِهِ فأرُهُ وعاذَ بالجيران مرتزقا

وهذا من قول امرأة لزوجها : والله مايقيم الفأر فى دارك إلا لحب الوطن ، وقد تقدم آنفا ... وقيل لبخيل : إنك تُكرِم خبزَكَ وتُهِينُ لإكرامه نفسك ! فقال : كيف لا أفعل ذلك والخبز هو الذى أخرج آدمَ وحواءَ وإبليسَ والطاوُس من الجنة ... وتغدّى الجماز عند هاشميٍّ ، فمرّ الغلام بصحفة يقطر منها قطرةٌ على ثوب الجماز ، فقال الهاشمى : آتِه بطَسْت يغسلها ، فقال الجماز : دَعْه ، فمرقتكم لا تُغيِّر الثِّياب ... « يريد : لا دَسَمَ فيها »

* * *

تفاخرهم بالإحسان إلى الضيف والجار : ولأنهم يعدُّون شِبَع المرء وجارُه جائع ، عارا - كما تقدم - تراهم يتفاخرون بإكرام الضيف والجار ، ومن أحسن ماقيل فى ذلك قول عروة بن الورد :

وإنى امْرؤٌ عافِى إنائىَ شِرْكَةٌ وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحدُ

(١) عنقاء مغربٍ وعنقاء مغربٌ . وعنقاء مغربة : طائر معروف الاسم مجهول الجسم ، قال ابن الكلبيّ : كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان بأرضهم جبل يقال له دمخ مصعده فى السماء ميل ، فكان ينتابه طائرة كأعظم ما يكون لها عنق طويل ، من أحسن الطير ، فيها من كل لون ، وكانت تقع منقضة فكانت تنقض على الطير فتأكلها فجاعت وانقضت على صبيّ فذهبت به فسميت عنقاء مغربا لأنها تغرب - تبعد - بكل ما أخذته ، ثم انقضت على جارية ترعرعت وضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ، ثم طارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم ، فدعا عليها فسلط الله عليها آفة فهلكت ، فضربتها العرب مثلا فى أشعارها ويقال : ألوت به العنقاء المغرب ، وطارت به العنقاء ...

أُقَسِّمُ جسمي في جسُومٍ كثيرةٍ وأَحْسُو قَراحَ الماءِ والماءُ باردُ

« العافى : طالب المعروف ، يريد بالبيت الأول : أنه ليس من شِرار الناس يأكل وحده ، وقوله : والماء بارد : كنى بذلك عن تحمّله ضرر نفسه وعبارة بعض الشراح : يقول عروة : إن قُوتَه الذى هو قِوام رَمَقِه ومُقيم جسمه ، يطعمه ويؤْثِر به على نفسه ، وأنه عند الجَهد وشدة الزمان يَحْسُو الماء ويَسقى اللبن ، فإنما رَغْبة الجواد فى المال ليَهَبَه ، وطلبُه له ليُنْهِبَه . »

وفى هذا المعنى يقول مِسكينٌ الدارمى ـ وهو شاعر شجاع من أهل العراق كان فى زمن معاوية بن أبى سفيان ـ :

إنْ أُدْعَ مِسْكيناً فما قصَرَتْ قِدْرِى بيُوتُ الحَىِّ والجُدُرُ (١)

ما مَسَّ رَحْلِى العَنْكبوتُ ولا جَدَياتُه من وَضْعِه غُبْرُ (٢)

لا آخُذُ الصِّبيانَ أَلْثِمُهُمْ والأمرُ قد يُغْزَى به الأمْرُ (٣)

ولَرُبَّ أمرٍ قد تَركتُ وما بينى وبين لِقائِه سِتْرُ

لا يَرْهبُ الجيرانُ غَدْرَتَنا حتى يُوارِىَ ذِكْرَنا القبرُ

(١) قوله فما قصرت قدرى الخ : فبيوت فاعل قصرت ، يقول : إن قدرى بارزة لاتحجبها السواتر والحيطان ، يصف نفسه بأنه مضياف جواد محسن إلى جيرانه

(٢) قوله ما مس رحلى العنكبوت الخ : كناية مليحة عن مواصلته السير لأن العنكبوت إنما ينسج على مالا تناله الأيدى ولا يكثر استعماله ، والجديات جمع جدية بسكون الدال وهى باطن دفة الرحل ، يقول : إن جديات رحله ليست غبراء لكثرة ترحاله

(٣) يقول : لا أقبل الصبي وأنا أريد التعرض لأمه ، وما أحلى قوله : والأمر قد يغزى به الأمر . ويغزى : يقصد ، ومثل هذا قول عقيل بن علفة :

ولا أُلقِى لِذى الوَدَعاتِ سَوْطِى أُلاعِبُهُ وزَلَّتَه أُريدُ

وزلته يروى وغرته ويروى وريبته ، وألاعبه يروى لألهيه . وللشعراء فى هذا المعنى كثير ، وهو معنى يدل على أن العرب غاية فى الفطنة ودقة الملاحظة وأنهم لا تخدعهم

لَسْنا كأقوامٍ إذا كَلَحت إحدى السِّنينَ فجارُهُمْ تَمْرُ (١)
مولاهُمُ لَحْمٌ على وَضَمٍ (٢) تنْتابُه العِقْبانُ والنَّسْرُ
نارِى ونارُ الجارِ واحدةٌ وإليه قَبْلى تُنْزَلُ القِدْرُ (٣)
ماضرَّ جارِىَ إذْ أُجاوِرُهُ أنْ لايكونَ لبَيْتِه سِتْرُ
أَعْشَى إذا ماجارَتى خَرَجتْ حتى يُوارِىَ جارَتى الخِدْرُ (٤)
ويَصَمُّ عمَّا كانَ بينَهما سمعى ومابى غيْرَهُ وَقْرُ (٥)

ظواهر الأمور عما تخفى وراءها. وغواة الناس إلى يومنا هذا قد استغلوا هذا المعنى استغلالاً مكشوفاً قبحهم الله.

(١) فجارهم تمر: أى يستحلى الغدر به كما يستحلى التمر

(٢) الوضم: خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم، وتركهم لحماً على وضم: أى أذلهم

(٣) يروى أنه كان لمسكين هذا امرأة تماضه ـ تلاحيه وتنازعه ـ فلما قال: نارى ونار الجار واحدة قالت له: أجل، إنما ناره ونارك واحدة لأنه أوقدولم توقد، والقدر تنزل إليه قبلك، لأنه طبخ ولم تطبخ وأنت تستطعمه، ولما قال أن لايكون لبيته ستر قالت له: أجل، إن كان له ستر هتكته

(٤) من دقائق هذه اللغة ماقاله صاحب الكشاف فى تفسير قوله تعالى: ومن يعش عن ذكر الرحمن، قال: بضم الشين وفتحها، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة فى بصره قيل عَشِىَ ـ أى والمضارع يعشَى، وإذا نظر نظر العُشْى ولا آفة به قيل عشا ـ والمضارع يعشو ـ ونظيره عَرِج لمن به آفة وعَرَج لمن مشى مشية العَرجان من غير عرج قال الحطيئة:

مَتى تأْتِه تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِه تجِدْ خيْرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ

أى تنظر إليها نظر العُشْى لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء، فمعنى الفتح: ومن يَعمَ عن ذكر الرحمن وهو القرآن، وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره، أى يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى. (٥) الوقر: الثقل فى الأذن

وصية بخيل لابنه

وهاكَ وصيةَ بخيل لابنه أراد بها أن يَنْصَحَ ابنه بالتقليل من الطعام، شُحًّا وكزازةً، ولكنه أودعها على الرغم منه نصائحَ قيمةً يجْمُلُ أن تُتَّخذَ دُستوراً فى الطعام لمن أراد أن يَصِحَّ ويُعافى، فهى حقٌّ أريد بها باطل، ومن ثم اخترناها، وهى وصية جاحظية أوردها الجاحظ فى كتابه البخلاء ونسبها إلى رجل يسمى أبا عبد الرحمن الثَّوْرى كان يحب الرؤس ـ رؤس الضأن وغير الضأن ـ قال الثورى لابنه ـ :

إياك ونَهَمَ الصِّبيان [١]، وشَرَهَ الزُّرَّاع [٢]، وأخلاقَ النوائح [٣] ودَعْ عنك خَبْطَ المَلَّاحِينَ وَالفَعَلةِ [٤] ونَهْشَ الأعرابِ والمَهَنة [٥]. وكُلْ مابين يديْكَ؛ فإنّما هو حَقُّكَ الذى وَقَع لك، وصار أقربَ إليك؛ واْعلم أنَّه إذا كان فى الطّعامِ شىءٌ طَريفٌ، ولُقْمةٌ كريمةٌ، ومُضْغةٌ شهيَّة، فإنما ذلك للشَّيخِ المعظَّم، والصَّبيِّ المُدلَّل. ولستَ واحداً منهما. فأنت قد تأتى الدَّعواتِ

---

(١) النهم : إفراط الشهوة فى الطعام (٢) الشره : غلبة الحرص على الطعام، وإنما خص شره الزراع لأنهم أهل كدّ ونصب وحركة فيشرهون إلى الطعام لفرط مايبذلون من قواهم البدنية (٣) النوائح جمع نائحة : اسم يقع على النساء يجتمعن فى مناحة، ولعله يريد أن النوائح ينحن ما ينحن فإذا حضر الطعام أقبلن عليه شرهات ونسين ما كنّ فيه من بكاء وعويل (٤) الملاح : نوتى السفينة ، والخبط : السير على غير هدى ، والفعلة : عملة الطين ونحوه . يقول : لاتذهب فى الطعام على غير هدى كالملاحين، ولا تكن عنيفاً فى أكلك كما تفعل الفعلة

(٥) يقول : لاتنهش اللحم كما ينهشه الأعراب الجفاة وكما ينهش المهنة : جمع ماهن، وهو العبد الخادم

والولائمَ ، وتَدخُلُ منازلَ الإخوانِ ، وعهدُك باللّحم قريب . وإخوانُك أشدُّ قرَما إليه منك ، وإنما هو رأس واحد ، فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتُصيبَ بعضا . وأنا ـ بعدُ ـ أكره لك الموالاةَ بين اللحم ، فإن الله يُبغِضُ أهلَ البيت اللَّحِمِين[1] وكان يقول : إياكم وهذه المَجازِرَ فإنّ لها ضَرَاوَةً كضراوَةِ الخَمْر[2] وكان يقول : مُدْمِنُ اللحم كمُدْمِنِ الخمر . وقال الشيخ ـ ورأى رجلا يأكلُ اللحمَ ، فقال : لحمٌ يأكُلُ لحماً ... أُفٍّ لهذا عملا !

وقال الأوّلُ : أهلَكَ الرِّجالَ الأحْمَرانِ : اللحمُ والخمرُ ، وأهلَكَ النِّساءَ الأحمران ! الذهبُ وَالزَّعفران[3] ... أىْ بُنيَّ ، عَوِّدْ نفسَكَ الأَثَرَةَ[4] ، ومجاهَدةَ الهَوى والشَّهْوةِ.[5] ولا تَنْهَش نَهْشَ الأفاعِي ، ولا تَخْضَمْ خَضْمَ البراذين[6] ، ولا تُدِمِ الأكلَ إدامةَ النِّعاج ، ولا تَلْقَمْ لَقْمَ الجِمال ، إنّ

(١) هذا حديث أورده ابن الأثير فى النهاية هكذا : إن الله ليبغض أهل البيت اللحمين ، قيل هم الذين يكثرون أكل لحوم الناس بالغيبة : وقيل : هم الذين يكثرون أكل اللحم ويدمنونه ، وهو أشبه ...

(٢) فى اللسان : وفى حديث عمر : اتقوا هذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر ، أراد مواضع الجزارين التى تنحر فيها الإبل وتذبح البقر والشاء ويباع لحمانها وإنما نهاهم عنها لأنه كره لهم إدمان أكل اللحوم ، وجعل لها ضراوة كضراوة الخمر ، أى عادة كعادتها ، لأن من اعتاد أكل اللحوم أسرف فى النفقة فجعل العادة فى أكل اللحوم كالعادة فى شرب الخمر ، لما فى الدوام عليها من السرف فى النفقة والفساد

(٣) فالذهب للحلية والزعفران للتطييب

(٤) الأثرة : اسم مصدر من آثر يؤثر إيثاراً ، أى عوّد نفسك أن تؤثر غيرك على نفسك (٥) ومجاهدة الخ : إمّا أنه يريد المعنى العام وإما يريد : لا تطلق لنفسك العنان فيما تشتهيه وتهواه من ألوان الطعام (٦) الخضم : الأكل بجميع الفم والبراذين : جمع برذون كفرعون وهو من الخيل العظيم الخلقة الجافيها الغليظ الأعضاء

اللهَ قد فضَّلك ، فجعلك إنساناً ؛ فلا تجعلْ نفسَك بهيمةً ولا سَبُعًا ، واحذَرْ سُرْعةَ الكِظَّة [١] ، وسَرَف البِطْنة ، وقد قال بعض الحكماء : إذا كنتَ بَطِينًا فَعُدَّ نفسَك فى الزَّمْنَى [٢] . وقال الأعشى :

* والبِطنةُ مِمَّا تُسَفِّهُ الأحلامَا [٣] *

واعلمْ أنَّ الشِّبَعَ داعِيةُ البَشَم [٤] ، وأنَّ البَشَم داعيةُ السَّقَم ، وأنَّ السَّقَم داعيةُ الموْتِ . ومَنْ مات هذه المِيتَةَ فقد مات مِيتةً لئيمة . وهو قاتل نفسِه ، وقاتل نفسِه ألْوَمُ من قاتل غيره [٥] أىْ بُنَىَّ ، إنّ القاتلَ والمقتولَ فى النار [٦] ولو سألت حُذَّاقَ الأطبَّاء لأخبروك أن عامَّةَ أهلِ القبور إنما ماتوا بالتُّخَم ، واعرِف خطأَ من قال : أُكلةٌ ومَوتةٌ ! وخُذ بقول من قال : رُبَّ أُكلَةٍ تمنع أكلات [٧] . وقد قال الحسن البصرى : يا ابن آدم كلْ فى ثلث بطنك ، واشرب فى ثلث بطنك ، ودع الثُّلُثَ للتفكُّر والتنفس . وقال بكر بنُ عبدالله المُزَنِىّ [٨] : ماوجدت طعمَ العيش حتى استبدلت الخُمْصَ بالكِظَّة [٩] ، وحتى لم ألبَس من

---

(١) الكظة : الامتلاء من الطعام ، وسرعة الكظة أن يسرع إليه الامتلاء وهو لا يزال يتناول الطعام فيتفاقم عليه الأمر

(٢) البطين : عظيم البطن من كثرة ما يأكل . والزمنى : ذوو العاهات الذين يدوم مرضهم زمناً طويلا (٣) الأحلام : العقول وتسفه الأحلام : تطيشها والبيت :

يا ابنى المنذر بن عبدان والبطـ ـنة مما تسفه الأحلاما

(٤) البشم : التخمة من كثرة الأكل (٥) ألوم من قاتل غيره : أحق منه بأن يلام (٦) يقول : إن من مات بالتخمة فقد قتل نفسه فهو قاتل ومقتول فى وقت معاً فهو فى النار على رأيه

(٧) أى لما ينشأ عنها من الأمراض (٨) كان من أفاضل التابعين صالحاً تقيا قال الجاحظ : وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخها الحسن وفتاها بكر ... مات سنة ١٠٨ هـ (٩) الخمص : الجوع أى حتى اتخذت الجوع بدل الكظة

ثيابي ما يَستخدمني[1]، وحتى لم آكُلْ إلا مالا أغسل يدي منه! يا بُنيّ، والله ما أدّى حقَّ الرُّكوع، ولا وظيفةَ السجود، ذو كِظَّة، ولا خَشَعَ لله ذو بطنة[2]، والصوم مَصَحَّةٌ[3]، والوَجَبَاتُ عيش الصالحين[4]، ثم قال: لأمرٍ مّا[5] طالت أعمارُ الهند[6]، وصحّت أبدانُ الأعراب. لله دَرُّ الحارث بن كَلَدَة[7]، حين زعم أن الدواء هو الأزْمُ[8]، وأن الداء هو إدخال الطعامِ في أثر الطعام!

أي بُنيّ لِمَ صَفَتْ أذهان العرب؟ ولِمَ صدَقَتْ أحسَاسُ الأعراب[9]، ولِمَ صحّت أبدان الرُّهْبان، مع طول الإقامة في الصوامِع؟ وحتى لم تَعْرِف النِّقْرِس، ولا وجَعَ المفاصل، ولا الأوْرام؛ إلا لقلّة الرُّزْءِ[10] من الطعام، وخِفَّة الزَّادِ، والتبلُّغ باليسير[11]

أي بُنيّ، إن نسيمَ الدنيا ورَوحَ الحياة[12] أفضل من أن تبيتَ كظيطا،

(١) يستخدمني: أي يجعلني خادما له أي بالمحافظة عليه، لأنه ثمين

(٢) يقول: إن الممتلئ طعاما لا يمكن أن يركع في الصلاة تمام الركوع ولا أن يسجد تمام السجود، والخشوع وتفريغ القلب لله تعالى لا يكون مع التخمة والعناء منها

(٣) مصحة: يصح عليه (٤) الوجبات جمع وجبة وهي الأكلة الواحدة في اليوم والليلة

(٥) لأمر ما: أي لأمر عظيم (٦) أي أعمار أهلها (٧) طبيب العرب سافر إلى فارس وتعلم هناك الطب واشتهر فيه ونال به مالا وأدرك الإسلام

(٨) أزم، من باب ضرب: أمسك عن المطعم والمشرب روى أن عمر بن الخطاب سأل الحرث بن كلدة عن الطب، فقال: هو الأزم، يعني: الحمية

(٩) الأحساس جمع حس وهو الشعور بالشيء (١٠) الرزء هنا: ما يصيبه الإنسان من طعام (١١) التبلغ باليسير: الاكتفاء به (١٢) روح الحياة: راحتها وما يستروح إليه

وأن تكونَ لِقِصَرِ العُمر حليفا . وكيف لاترغب فى تدبيرٍ يجمَعُ لك صِحّةَ البدن ، وذكاءَ الذّهن ، وصلاح المِعَى ، وكُثرةَ المال ، والقُرْبَ من عيش الملائكة[١] ؟ أى بنىَّ ، لِمَ صار الضَّبُّ أطوَلَ شيءٍ عُمُراً ؛ إلا لأنه إنما يعيش بالنَّسيم[٢] ؟ ولِمَ قال الرسولُ صلى الله عليه وسلم إن الصوم وِجاءٌ[٣] ، إلا ليجعل الجوعَ حِجَازًا دونَ الشَّهوات . أى بنىّ . قد بلغتُ تسعين عامًا مانغَضَ لى[٤] سِنٌّ ، ولا تحرّكَ لى عَظْم[٥] ، ولا انْتَشَرَ بى عَصَبٌ[٦] ، ولا عرَفْتُ دَنين أنفٍ[٧] ، ولا سيَلانَ عينٍ[٨] ، ولا سَلَسَ بَوْل[٩] ، مالذلك عِلّةٌ إلا التَّخفيف من الزّاد . فإن كنت تُحِبُّ الحياةَ ! فهذه سبيل الحياةِ ، وإن كنتَ تُحِبُّ الموتَ ، فلا يُبْعِدُ اللهُ إلا مَن ظَلَم .

✡ ✡ ✡

بخيل يبيع القرى

ونزَل جَرِيرٌ ـ الشاعر الإسلامى الأشهر ـ بقوم من بنى العنبر بن عَمْرو ابن تميم فلم يَقْرُوهُ ، حتى اشترى منهم القِرَى ، فانصرف وهو يقول :

(١) إذهم : لايأكلون ولايشربون (٢) كون الضب لايعيش إلا بالنسيم ولا يأكل ألبتة غير صحيح ولكن الثورى نقل خرافة قديمة (٣) وجاء : مانع من الشهوات

(٤) نغض : اضطرب وتحرك ويروى نقص (٥) لعله يريد بالتحرك الالتواء كاحديداب الظهر (٦) الانتشار : الانتفاخ فى العصب للإتعاب

(٧) الدنين : المخاط الرقيق الذى يسيل من الأنف ويروى دنين أذن والدنين صوت الذباب ونحوه من هينمة الكلام الذى لايفهم والمراد مايشبه هذا الصوت فى الأذن من الكبر (٨) هو مايحدث فى الكبر من ضعف العينين فتسيل منها دموع وسوائل أخرى (٩) سلس البول : استرساله وعدم استمساكه لحدوث مرض بصاحبه

يامالكَ ابنَ طَريفٍ إنَّ بَيْعَكُمُ رِفْدَ القِرَى مُفْسِدٌ لِلدِّينِ وَالحَسَبِ
قالوا نَبيعُكَهُ بَيْعًا فقلتُ لهُم بِيعُوا المَوالِيَ واسْتَحْيُوا مِنَ العَرَبِ
لولا كِرامُ طَريفٍ ماغَفَرْتُ لكم بَيْعِي قِرَايَ ولا أَنسأْتُكُمْ غضبي
هلْ أنتمُ غيرُ أَوْشابٍ زَعانِفةٍ رِيشِ الذُّنابَى وليس الرأْسُ كالذَّنَبِ

«قوله : بيعوا الموالى واستحيوا من العرب، قال المبرد : تزْعُم الرواة : أنّ جِلّة المَوالى ـ عُظماءَهم ـ أنِفُوا من هذا البيْت، لأنه حَطّهم ووَضعهم ورأى أن الإساءة إليهم غيرُ محسوبة عَيبا ... وقوله : ولا أنسأتكم غضبي، يقول : لم أُؤخّره عنكم، وقوله : هل أنتم غير أوشاب زعانفة، فالأشابة الجماعة تدخل فى قوم وليست منهم وقد تطلق الأوشاب على أخلاط الناس تجتمع من كل أوب، مأخوذ من أشب الشيء كضرب . خلطه، وأما الزعانف فأصلها أجنحة السمك، سُمِّى بذلك الأدعياءُ لأنهم التصقوا بالصميم كما التصقت تلك الأجنحة بعظام السمك»

عبقرياتهم فى قرى الأضياف

قال الله جلّ شأنه فى مدح قوم : ويطعمون الطعام على حُبِّه مسكيناً ويتيما وأسيراً ... وقال سيدنا رسول الله : أيّما رَجُلٍ ضافَ قوماً فأصبح الضيفُ محْرُوما، فإنّ نَصْرَهُ حقّ على كل مسلم حتى يأخذَ بقِرَى ليلته من زرْعِه وماله [1] ...

(١) قال الإمام العلقمى : قال شيخنا : هذا الحديث وماهو بسبيل منه كان فى أول الأمر حين كانت الضيافة واجبة، وقد نسخ وجوبها . أقول : وعلى أنه نسخ وجوبها فلا تزال معدودة فى باب الفضائل الإنسانية المرغوب فيها والمثاب عليها والدالة على النحيزة البارّة الكريمة

وفى الحديث أيضا : الخيرُ أسرعُ إلى مُطعِم الطعام من الشَّفْرةِ فى سَنام البعير « الشَّفْرة : السكين العظيمة العريضة » وقال صلوات الله عليه : ليس منا من بات شبعانَ وضَيفُه بَطْنُه طاوٍ . وقال تعالى فى مدح القائم بخدمة ضيفه : هل أتاك حديث ضَيفِ إبراهيمَ المُكْرَمِينَ ؟ قيل وصفهم بذلك لأنه قام بخدمتهم بنفسه ... ونزل ضيفٌ على جعفر بن أبى طالب ، فتخَفَّفَ هو وغلمانه عند نزوله وعاونوه فى حلوله ، فلما أراد الارتحال عنهم لم يُعِنْه غلمانُه ، فشكاهم فقال : إن غلماننا لا يعينون على الارتحال ... وقالوا : أمدحُ بيت قالته العرب قولُ حسان بن ثابت :

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كلابُهم لا يَسألونَ عن السَّوَادِ المُقْبِل

« يقول : قد أنِسَتْ كلابهم بالزوّار فهى لا تَنْبَحُهم ، وهم من شجاعتهم لا يسألون عن جيش يقبل نحوهم لقلة اكتراثهم ولثقتهم ببسالة أنفسهم وشدتهم على أعدائهم ، ومثل هذا قول أبى تمام :

إذا استُنْجِدُوا لم يسألوا من دعاهم لأيّة حرب أو لأىّ مكان

أو تقول : لا يَسألون عن السواد المقبل ، أى أنهم فى سَعَة لا يؤودُهم الجمعُ الكثير لِسَعَتهم وسخائهم »

وقال إبراهيم بن هَرْمَةَ من أبيات فى ابتهاج الكلب بالضيف :

يَكاد إذا ما أبْصَرَ الضَيفَ مُقْبِلاً يُكلِّمُهُ مِنْ حُبِّه وهو أعجمُ

وقال حاتم الطائى وهو سيد الأجواد بالطعام :

أُضاحِكُ ضَيْفِى قبلَ إنزالِ رَحْلِه ويُخْصِبُ عندى والمَحلُّ جَدِيبُ

وما الخِصْبُ لِلأضيافِ أنْ يَكْثُرَ القِرَى

ولكنّما وَجْهُ الكريمِ خَصِيبُ

ومن قولهم فى الحث على ترك التكلف وتعجيل الحاضر : سُئل أَقْرَى أهل اليمامة للضيف : كيف ضبطتم القِرَى ؟ قال : بأن لا نتكلّفَ ماليس عندنا ... وقال بعضهم : الضيفُ إلى القليل العاجل أحوجُ منه إلى الكثير الآجل ، أما سمعت قول الله تعالى : فما لَبِثَ أن جاء بِعِجْلٍ حَنِيذ [1] وقال تعالى : إلى طعامٍ غيرَ ناظرين إِنَاهُ ... « أى غير منتظرين نُضْجَه وإدراكه وبلوغه ، يقال : أنى يأنى : إذا نضج »

ومن قولهم فيمن آثر على نفسه : قولُ صوفيٍّ لآخر : كيف يعمل فقراؤكم ؟ قال : إذا وجدوا أكلوا ، وإذا عَدِموا صَبَروا ، فقال : هذا فِعْلُ الكلاب ، إن الفقير منا إذا عَدِمَ صَبر ، وإذا وَجَدَ طعامًا آثر به غيره ...

وقالوا فى وصف الرجل الكريم يَسُوء خلقه مع أهله خوف التقصير : والقائل زينب بنت الطَّثْرِيَّة ترثى أخاها يزيد :

إذا نَزَلَ الأضيافُ كان عَذَوَّرًا على الأهل حتى تَسْتَقِلَّ مراجلُهْ
يُعِينُكَ مَظْلومًا ويُنْجِيكَ ظالمًا وكُلُّ الذِى حُمِّلْتَــهُ فهو حامِلُه

« العَذَوَّر : السيّئ الخلق القليل الصبر فيما يريده ويهمّ به ، وإنما جعلته عَذَوَّرًا لشدّة تهمّمه بأمر الأضياف وحِرصِه على تعجيل قِراهم حتى تستقل المراجل على الأثافِيّ [2] ، والمراجل : القــدور واحدها مِرْجل . وقوله : وينجيك ظالما ، أى إنْ ظَلمْتَ فَطُولِبْتَ بِظُلْمِكَ حماك ومَنع مِنك »

(١) حنذ الشاة : شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ.

(٢) الأثافى : جمع أثفية : وهى الحجر توضع عليه القدر وثالثة الأثافى : القطعة من الجبل يجعل القدر عليها وعلى حجرين أمامها ويقال : رماه بثالثة الأثافى : أى بالشر كله

هذا؛ ومن السُّنة ـ كما وَرَد فى الحديث ـ أن يَمشِىَ الرجل مع ضيفه إلى باب الدار.

وقد كان الأضياف يُعطون النُّدُلَ وَيَرضَخُون لهم بالمال [1] فقد رَوَى بعضهم قال: رأيت ابن عباس فى وَليمة فأكل وألقَى للخبّاز درهما.

محادثة الضيف

وكانوا تجاه محادثة الضيف على الطعام فريقين، ففريق يَستَحِبُّه ويستحسنه، ومِن صاحب الدعوة أحسَنُ، وقالوا فى ذلك: محادثةُ الإخوان ـ تَزيدُ فى لَذّة الطعام. وقال شاعرُهم:

وأكثرُ ما ألَذُّ به وألْهُو   محادثةُ الضُّيوفِ على الطعام

وأما الفريق الآخر فيكره الحديث على المائدة وقالوا فى ذلك: مَن أكثر الكلام على طعامه غَشّ بطنَه وثَقُلَ على إخوانه. وقال الجاحظ فى كتابه «التاج»: ولِشَىْءٍ مّا كانت ملوك آلِ ساسانَ ـ إذا قُدّمتْ مَوائدُهم ـ زمْزَمُوا عليها [2]، فلم يَنطِقْ ناطِقٌ بحَرْفٍ حتى تُرْفَع، فإن اضْطُرّوا إلى كلام، كان مكانَهُ إشارَةٌ أو إيماءٌ يدُلُّ على الغرض الذى أرادوا والمعنى الذى قصدوا. . . وكانوا يقولون إنَّ هذه الأطعمة بها حياة هذا العالم، فينبغى للإنسان أنْ يَجْعلَ ذِهْنَه فى مطْعَمِه ويَشْغلَ رُوحَه وجَوارِحَهُ فيه، حتى تأخذَ كُلُّ جارحةٍ بقِسْطِها من الطعام، فيَغْتذى بها البدنُ والرُّوحُ الحيوانيّة التى فى القلب والطبيعةُ التى فى الكبد، اغتذاءً تامّا، وتقبله الطبيعة قبولا جامعا. قال الجاحظ: وفى ترْكِ الكلام على الطعام فضائل كثيرة هى فى آيينهم [3]. . .

(١) الندل: خدم الضيافة: ويقال: رضخ له من ماله رضخة: أعطاه قليلا من كثير

(٢) الزمزمة: تراطن العلوج على أكلهم وهم صموت (٣) آيينهم: قانونهم ودستورهم

وقال المسعودى فى مروج الذهب : ذكروا أن كيومرث هو أول من أمر بالسكوت عند الطعام ، لتأخذ الطبيعة بقسطها ، فيصلح البدن بما يَرِدُ إليه من الغذاء ، وتسكن النفس عند ذلك ، فتدبر لكل عضو من الأعضاء تدبيرا يُؤدّى إلى مافيه صلاح الجسم من أخذ صفو الطعام ، فيكونُ الذى يَرِدُ إلى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبُها وما فيه صلاحُها ، وإنّ الإنسان متى شُغِلَ عن طعامِه بضَرْبٍ من الضروب ، انصرف قِسْطٌ من التدبير وجزءٌ من التّغذّى إلى حيثُ انصبابُ الهمة ووقوعُ الاشتراك ، فأضر ذلك بالنفس الحيوانية والقُوى الإنسانية ، وإذا كان ذلك دائما أدّى ذلك إلى مفارقة النفس الناطقة المميّزة الفكرية لهذا الجسدالمَرْئىّ ، وفى ذلك تَرْكٌ للحكمة وخروجٌ عن الصواب ... أقول : وقد أيّدَتِ التجاريب الحديثة هذا المذهبَ ، إذ تحققت أن الكلامَ على الطعام مَدْرَجةٌ لسوء الهضم . . . وإنّى بحمد الله لَعلَى هذا المذهب مُذْ نشأتى ، أى أنى بفطرتى لاأتحدّث على الطعام ، حتى عَدّ ذلك أهلى ومَنْ يخالطوننى مَغْمَزًا فِىّ يَشِف عمّا وراءه ، مما يُشبه النَّهَم وليس به يعلم الله وإنما هى الفطرة التى فطرنى الله عليها ، ومن خُلُقِى أنى أعدُّ الكلام على الطعام ضربا من التكلف الذى لا أستسيغه . . . على أن الأكل مهمة حيوانية سَخِيفة يجمُل أن لا يُحتَفَل بها هذا الاحتفالَ الكِسْرَوِىَّ الذى نراه هذه الأيام ، ورَحِم الله جمال الدين الأفغانى إذ يقول : ودِدْتُ لو أنى خُلقتُ مُصْمَتًا ![1] وقبله قال الخليل بن أحمد : أثقلُ ساعاتى الساعةُ التى آكُل فيها ، أو كما قال :

أما محادثة الأضياف على غير الطعام : فمن المجمع على استحسانه ، وفى

(١) المصمت : الذى لاجوف له

ذلك يقول مسكين الدارمى أو عتبة بن بجير :

لِحَافى لِحَافُ الضَّيْفِ والبيتُ بيتهُ ... ولمْ يُلْهِنِى عنه الغَزالُ المُقنّعُ

أُحَدِّثهُ إنَّ الحديثَ مِنَ القِرَى ... وتَعْلَمُ نفسى أنَّه سوف يهْجَعُ

« الغزال المقنع : زوجته ، ويهجع : ينام ، يريد أنه يحدثه ويَقْرِيه بهذا الحديث حتى ينامَ »

وكانوا لكرمهم يُفضّلون الاجتماعَ على الأكل ويستقبحون التفرُّد : شكا رجل إلى سيدنا رسول الله قلّة البركة فى طعامهم ، فقال : لعلكم تتفرقون على طعامكم ! قال : نعم ، قال : اجتمعوا عليه واذكروا اسم الله لدَيه ... وفى الحديث أيضا : ألا أُخبِرُكم بشراركم ؟ : من أكلَ وحدَه ، وضرب عَبْدَه ، ومنع رِفْدَه « الرفد : العطاء » ... وقال قيس بن عاصم المِنْقَرى:

إذا ماصَنَعْتِ الزّادَ فالْتَمِسى له ... أكِيلًا فإنى لَستُ آكلُهُ وَحْدى[1]

(١) بعده :

قَصِيًّا كريما أو قريبا فإننى ... أخافُ مَذَمّاتِ الأحاديث من بعْدِى

وكيف يُسيغُ المرء زاداً وجارُهُ ... خَفيفُ المِعَى بادِى الخَصاصةِ والجَهْدِ

ولَلمَوْتُ خيرٌ من زيارة باخلٍ ... يُلاحِظُ أطرافَ الأكيل على عَمْدِ

وإنى لَعَبْدُ الضَيف مادامَ نازِلًا ... وما فىَّ إلا تلكَ من شِيمَة العبْد

وقوله قصيا كريما أو قريبا : قال المبرد : هذا من طريف المعانى وذلك أنه لم يحتج إلى أن يشترط فى نسبته الكرم لأنه ضمن ذلك واشترط فى القصى أن يكون كريما لأنه كره أن يكون مؤاكله غير كريم . ورواية الأغانى :

* أخاً طارقا أوْ جار بيت فإننى *

ورووا أن قيسا لما قال فالتمسى له أكيلا : أرسلت زوجته جارية فأتته بأكيل وقالت :

أبى المرء قيس أن يذوق طعامه ... بغير أكيل إنه لكريم

وقال عبد الله بن المعتز فى اجتماع الأيدى على الطعام :

كأنّ أكُفّ القوْمِ فى جَفَناتِه قَطًا لمْ يُنَفِّرْهُ عن الماءِ صارِخُ [1]

وكانت العرب تَعُد التفرُّد بالأكل احْتِقابَ وِزْر [2] حتى أنزَلَ الله عز وتقدّس : ليس عليكم جُناحٌ أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا [3]...

السـؤال

وعبقرياتهم فيه ، من جميع نواحيه

ذَمّ السؤال : لما احْتُضِر قيس بن عاصم المِنقَرىّ [4] سيد أهل الوبَر ، قال

---

(١) الجفنات : جمع جفنة : القصعة الكبيرة

(٢) يقال : احتقب فلان الإثم والوزر : احتمله ، كأنه جمعه واحتقبه من خلفه، أى جعله فى حقيبة، والحقيبة الوعاء الذى يجعل الرجل فيه زاده وكانوا يجعلونها خلفهم على الراحلة (٣) قال البيضاوى : نزلت هذه الآية فى بنى ليث بن عمرو من كنانة ، كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده ؛ أو فى قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه ؛ أو فى قوم تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع فى القذارة والنهم

(٤) تقدم له ذكر فيما أسلفنا وهذا قيس هو الذى يقول فيه عبدة بن الطبيب يرثيه ـ وعبدة شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم وكان فى جيش النعمان بن مقرن الذين حاربوا معه الفرس بالمدائن ـ :

وما كانَ قيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحد ولكنه بُنْيانُ قوم تَهدَّما

وعبدة هذا هو صاحب الأبيات التى روى أن عبد الملك بن مروان قال يوما لجلسائه : أى المناديل أفضل ؟ فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غرقئ البيض ، وقال آخرون مناديل اليمن ، كأنها نور الربيع ، فقال عبد الملك : بل مناديل أخى بنى تميم : عبدة بن الطبيب حيث يقول :

لبنيه : يا بَنِيَّ ، احفظوا عنّي ثلاثا ، فلا أحدَ أنصَحُ لكم مِنّي ، إذا أنا مِتُّ فسوِّدوا كبارَكم ولا تُسَوِّدوا صغارَكم ، فيُحَقِّرَ الناس كِبارَكم وتَهُونوا عليهم ، وعليكم بحِفْظ المال ، فإنه مَنْبَهَة للكريم ويُسْتَغْنَى به عن اللئيم ، وإياكم والمسألةَ فإنها أَخِرُ كسبِ الرجل ... «سَوِّدوا كبارَكم : فالسيد هنا الرئيس أى أسندوا رياستكم إلى كبارِكم ، ومنبهة للكريم : أى مُشْعِرٌ بقَدْره ومُعْلٍ له ، وقوله : فإنها أَخِرُ كَسْب الرجل فأَخِرُ بقصر الهمزة : أى أدنى وأرذل ، وإذا مُدّ فمعناه : أن السؤال آخر مايكتسب به المرء عند العجز عن الكسب ، وقد جاء فى الحديث إياكم والمسألة فإنها أخر كسب الرجل ، فلعل قيسا أخذها من سيدنا رسول الله ، لأن قيسا ممن أسلم ونزل البصرة. وفى الحديث أيضا : من سأل وهو غنى جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا أو خُمُوشا أو كُدوحا فى وجهه « الكدوح : الخدوش ، وكل أثرٍ من خَدْش أو عض فهو كدح » وقال صلوات الله عليه : إن أحدكم يخرُجُ بمسألتِه من عندى متأبِّطاً ، وما هى إلا النار ، فقال عمر رضى الله عنه : ولِمَ تُعطيه وهى نارٌ ؟ فقال : يأبَوْن إلا أن يَسألوا ويأبَى الله لِيَ البُخلَ ... وقالوا : إياك وطلبَ مافى أيدى الناس فإنه فقرٌ حاضر ، وقال ابن المُقفَّع : السخاء سخاءان : سخاؤك بما فى يدك ، وسخاؤك بما فى أيدى الناس ، وهو أمحَضُ فى

لَمّا نَزَلْنا ضَرَبْنا ظِلَّ أَخْبِيَةٍ وفارَ لِلقومِ باللَّحمِ المراجيلُ
وَرْدٌ وأشقرُ مايُؤْنِيهُ طابخُهُ ماغَيَّر الغَلْيُ منه فهْوَ مأكولُ
ثُمَّتَ قُمْنا إلى جُرْدٍ مُسوَّمَةٍ أَعْرافُهُنَّ لأيدينا مناديلُ

« يعنى بالمراجيل : المراجل فزاد فيها الياء ضرورة ، وما يؤنيه : ماينضجه ، والجرد المسومة : الخيل

الكرم ، وأبعدُ من الدَّنَس ، ومن جمعهما فقد استكمل الفضل ... وقال شاعرٌ :

لا تَحْسَبَنَّ المَوْتَ مَوْتَ البِلَى   وإنما الموتُ سُؤال الرِّجال

كِلاهُما موتٌ ولكنَّ ذا   أشدُّ من ذاكَ على كلِّ حال

وقد كانوا يتحملون المكارِهَ تفادِيًا من السؤال : رَوى الأصمعى قال : مررت بكنَّاس بالبصرة يَكْنُس كنيفا ويُغنّى :

أضاعونى وأىَّ فتًى أضاعوا   لِيَوم كريهةٍ وسِداد ثَغْرِ [1]

فقلت له : أمّا سِدادُ الكنيف فأنت مَلِىءٌ به [2] ، فلا عِلْمَ لى بك كيف أنت فيه ! وكنتُ حديثَ السِّنِّ فأردت العَبَثَ به ـ فأعرض عنى مَلِيًّا ثم أقبل علىَّ وأنشد مُتمثِّلا :

وأُكْرِمُ نفسى إننى إن أهَنْتُها   وحَقِّكَ لم تَكْرُمْ على أحد بعْدِى

قال الأصمعى : فقلتُ له : والله ، مايكون من الهَوان شىءٌ أكْثَرَ مما بذلتها له ، فبأىّ شىء أكرمتها؟ فقال: بلَى ، والله ، إن من الهوان لشرّا مما أنا فيه ، فقلت : وما هو؟ فقال : الحاجة إليك وإلى أمثالك من الناس ، فانصرفتُ عنه أخزَى الناس ... ومثله مارُوى أن أبا عمرو بن العلاء قال : اجتزت بكنّاس يُنْشِد :

إذا أنت لم تَعرِفْ لنفسك قدرَها   هوانا لها كانتْ على الناس أهونا

فقلت : سبحان الله ، أتُنْشِدُ مثل هذا وتتعاطى مثل هذا الفعل ؟ فقال : إن إنشادى لمثله أصارَنى إلى هذا ، فرارا من ذُلِّ السُّؤال ...

✡ ✡ ✡

(١) سيمر بك حديث طريف عن هذا البيت فى موضع آخر من هذا الكتاب

(٢) ملىء به : مضطلع به

ذم الإلحاح والحث على الإجمال فى الطلب :

فى الحديث : إن الله يُبْغِضُ من عباده السائلَ المُلْحِف ، وقال حكيم : لا يُكْثِرَنّ الرجلُ على أخيه المسألةَ ، فإنّ العِجْلَ إذا أفرَطَ فى مَصّ أمّه نَطَحَتْهُ ونَحّتْهُ ، وقال بشار بن برد : * وليْسَ للمُلْحِفِ مثلُ الرّدِّ *

ووقّع بعض الكبار فى قصةِ مُلحٍ مُكْثِرٍ للسؤال : دَعْ هذا الضَرْعَ يَدِرّ لغيرك كما دَرّ لك . وقالوا : اطلبوا الحاجات بعِزّة النفس فإنّ بيد الله قضاءَها ... وقال ابن الرومى فى الإحسان يُتَوَصّلُ إليه بهوان :

إذا أنا نالتْنى فواضلُ مُفْضِلٍ فأهْلاً بها مالم تَكُنْ بِهَوانِ
فأمّا إذا كان الهوانُ قرينَها فبُعْدًا لها ماينْقَضِى لأوانِ
ومن ذا الذى يَلْتَذُّ شَهْدًا بعَلْقَمٍ أبتْ لَهَواتى ذاكَ والشفتانِ
يدُ مكاناً من كريمٍ يَصُونُنِي وإلا فلِى رزْقٌ بكل مكانِ

* * *

دقة موقف السائل : ومن عبقرياتهم فى صعوبة موقف من يسأل لنفسه شيئا ولا سيما إذا كان ممن يُكْرمون أنفسهم :

قال سعيد بن العاص : موطنان لاأعْتَذِر مِنَ الغِيّ فيهما : إذا سألتُ حاجةً لنفسى ، وإذا كلّمتُ جاهلا ... وسار الفضلُ بن الرّبيع ـ الوزير كان ـ إلى أبى عبّاد فى نكبتِه يسأله حاجة ، فأُرْتِجَ عليه ، فقال له أبو عبّاد : بهذا اللّسان خدَمْتَ خليفتين ! فقال الفضل : إنّا تعَوّدْنا أنْ نُسْألَ لا أنْ نَسْألَ ... وكَلّمَ أعْرابِىٌّ خالدَ بن عبد الله ، وتَلَجْلَجَ فى كلامه ، فقال : لا تَلُمْنِى على الاختلاطِ ، فإنّ مَعِى ذُلّ الحاجةِ ومعك عِزّ الاسْتِغْنَاء...

* * *

عبقرياتهم فى آداب السؤال واستنجاح الحوائج

ولهم فى السؤال وآدابه واستنجاح الحوائج ودستوره، محاسنُ رأينا أن نُلِمّ بها، إتماما لهذا الباب، فمِنْ ذلك حثُّهم على سُؤال الشبان دُون الشيوخ، والصِّباح دون القِباح، والكريمِ الفقير دون الغنى اللئيم. وهذا لعمْرِى من حِذق الأوائل وتفطنهم إلى طبائع النفوس...

قال حكيم: طلبُ الحوائج عند الشُّبّان أسهلُ منها عند الشيوخ، ألاترى أن يعقوبَ عليه السلام لمّـا سأله بنوه أن يستغفر لهم قال: سوف أستغفر لكم ربى، وقال يوسف عليه السلام: لاتثريبَ عليكم اليوم... وفى الأثر: اطْلُبوا الحوائج إلى حِسَان الوجُوه[1]... وسُئِلَ ابنُ عائشة عن هذا الحديث فقال: معناه: اطلبوها من الوجوه التى يَحْسُنُ بالمَرْءِ أن يَطْلُبَها مِنها... وقال البحترىُّ:

مَنْ حَسّنَ اللهُ وَجْهَهُ وسَجَا ... يَاهُ وأعطاهُ كُلِّفَ الكُلَفَا

وقال السَّرِىّ الرَّفّاء:

صَرَفْتُ عن الكثير الوفْرِ طَرْفِى ... وها أنا للقليل الوفْرِ راجِ[2]

وكم من نُطفَةٍ عَـذُبَتْ وكانَتْ ... أَحَبَّ إلىَّ مِنْ بحرٍ أُجَاجِ[3]

وقالت امرأة من ولد حسّانَ بن ثابت:

---

(١) فى الجامع الصغير: اطلبوا الخير إلى حسان الوجوه

(٢) الوفر: المـال الكثير (٣) النطفة: المـاء القليل الصافى يبقى فى الدلو أو القربة ونحوهما، وأجاج: مِلحٌ مُرّ

سَلِ الْخَيْرَ أَهْلَ الْخَيْرِ قِدْمًا ولا تَسَلْ
فَتًى ذَاقَ طَعْمَ الْعَيْشِ مُنْذُ قريب

وقال مسلم بن قتيبة : لا تَطْلُبَنْ حاجتك إلى كذاب ، فإنَّهُ يُقَرِّبُها وهى بعيدٌ ، ويُبَعِّدُها وهى قريبٌ [١] ، ولا إلى أحمقَ فإنه يُريد أن ينفعك فيَضُرّك ، ولا إلى رجُلٍ له عِنْدَ من تسْألُه الحاجةَ حاجَةٌ ، فإنَّهُ لا يُؤثِرُك على نفسِه .

وقال شاعر :

لا تَطْلُبَنّ إلى لئيمٍ حاجَة وٱقعُدْ فإنّكَ قائمًا كالقاعِدِ
ياخادعَ البُخلاءِ عَنْ أمْوالهمْ هَيْهَاتَ تَضْرِبُ فى حَدِيدٍ بارد

وقال بعض الأدباء : عليك بذى الحَصَرِ البَكِىِّ [٢] ، وبذى الخِيمِ الرَّضِىِّ [٣] فإنّ مثقالا من شدة الحياء والعِىِّ ، أنفَعُ فى الحاجة مِن قنطارٍ مِنْ لسانٍ سليط وعَقْلٍ ذكىّ ، وعليك بالشهْمِ النَّدْب [٤] الذى إن عجز أيأسك ، وإن ... أطمعَك ... وقال الفاروق رضى الله عنه : لا تَسْتَعِنْ على حاجتك إلا ... يُحِبّ نجاحَها لك ... وقال ابن عبّاس : لا تسألنْ حاجةً بالليل ، ولا تس... أعْمَى ، فإنّ الحياء فى العينين .

ومن آداب السؤال عندهم أن لا يُتجاوزَ الحدُّ فيه : قالوا : من سأ...

---

(١) بعيد وقريب : يوصف بهما المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ومنه قوله تعالى «إن رحمة الله قريب من المحسنين »

(٢) الحصر : ضرب من العىّ ، والبكى : القليل الكلام

(٣) الخيم : الخلق والطبيعة والسجية والأصل ، قال :

ومَن يَبتدع ماليسَ من خِيمِ نفْسه يدَعْهُ ويَغْلبْه على النفس خِيمُها

(٤) الشهم : الذكى الفؤاد ، المتوقد النجد النافذ فى الأمور ، والندب : الخفيف فى الحاجة

فوق قدره ، فقد استوجب الرّد ، ومن لم يَرْجُ إلا ماهو مُسْتحِقٌّ له ، فإلى الرِّفد ... وقال الشاعر :

إنَّكَ إنْ كلَّفتَنِي مالم أُطِقْ   ساءكَ ما سَرَّكَ مِنّى من خُلُق

وكانوا لايرون بأسا بسؤال الملوك وسؤال الابن أباه : فقالوا : مسألة الرجلِ السلطانَ ، ومسألةُ الابن أباه ، لا تَنْقُصهُ ولا تَشينُه :

وإذا ابْتُليتَ بِبَذْلِ وجْهِكَ سائلا   فابْذُلْه لِلْمُتَكَرِّمِ المِفْضالِ

وقال أبو جعفر المنصور لرجل أَحْمَدَ منه أمرا : سَلْ حاجتك فقال : يُبْقيك الله يا أمير المؤمنين ، قال : سل ، فليس يمكنك ذلك فى كل وقتٍ ؛ فقال : ولِمَ يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ، لاأستقصر عمرَك ولا أرهَبُ بُخلَك ولا أغتنم مالك ، وإن سؤالك لَزَيْن وإن عَطاءَك لَشرَفٌ ، وما على أحد بَذَلَ وجهَه إليك نقصٌ ولا شَيْنٌ ، فأمر حتى مُلِئَ فوه دُرًّا ... وقال العتَّابىُّ : إن طلبت حاجة إلى ذى سلطانٍ ، فأجمِل فى الطلب إليه ، وإياك والإلحاحَ عليه ، فإن إلحاحَك يَكْلِمُ عِرضك ، ويُريقُ ماء وجهك ، فلا تأخذ منه عِوَضا لِما يأخذ منك ، ولعل الإلحاحَ يَجمع عليك إخلاقَ ماءِ الوجه وحِرمانَ النجاح فإنه ربما ملَّ المطلوبُ إليه حتى يَستخِفَّ بالطالب .

ومن قولهم فى الحث على الحِذْق واللطافة فى المسألة : قال رجل لآخر : لو أنا مِتُّ ما كنت تفعل ؟ قال : كنت أُكَفِّنُكَ وأَدفِنُك ، قال : فاكْسُنى الساعةَ بما تُكفِّننى به ، وإذا مِتُّ فادْفِنِّى عُريانا ... وقال شاعر :

احْلُبْ لَبونَكَ إبْساسًا وتَمْرِيَةً   لا يَقطَعُ الدَّرَّ إلا عُنفُ مُحْتَلِبِه

« اللبون : الناقة أو الشاة ذات اللبن ، والإبساس : أن يَمسح ضَرع الناقة يُسكِّنها لِتَدِرَّ ، ومثله التمرية ، والدر : اللبن » ... وسأل أعرابىٌّ عبدَ الملك بن مَرْوان ـ

وكان بخيلا وكانوا يطلقون عليه : رَشح الحجر ـ فقال له : سل اللهَ ، فقال : سألته فأحالني عليك ، فضحك منه وأعطاه .. وأتى رجل بعضَ الوُلاة ، وكان صديقه ، فتشاغل عنه ، فتراءى له يوما ، فقال : اعذرني فإني مشغول ، فقال لولا الشُّغْلُ ماأتيتك ، لا بلَّغَني الله يوم فراغك . وفي هذا المعنى يقول أبو عليّ البصير :

لا تُصيِّرْ شُغْلَك اليو م اعتذارًا لمطالِكْ
إنما يُحمَدُ أن تفـرُغ في وقتِ اشتغالِكْ
لو تفرَّغتَ من الشُّغل استوينا في المسالِكْ

وقال بعض الأدباء للصاحب بن عبّاد : إن جرذانَ داري [1] يمشين بالعصا هزالاً ، فقال : بشِّرْهُنَّ بمجيء الحنطة ... وقسّمَ بعضُهم مالاً بين بنيه فقال له عبد صغير : فأعطني أوّلاً ، فقال له : ولِمَهْ ؟ قال : لأن الله تعالى يقول : المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، فبدأ بالمال ، وأنا مالُك ، فأعطاه وقدَّمه ... ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مُسلم ، فقال له : إني أتيتُك في حاجة ، فإن شئت قضيتَها وكنا جميعا كريمين ، وإن شئت منعتها وكنا جميعا لئيمين . » قال ابن عبد ربه صاحب العقد : أراد : إن قضيتها كنت أنت كريما بقضائها ، وكنت أنا كريما بسؤالك إياها لأني وضعتُ طلبتي في موضعها ، فإن لم تقضها كنت أنت لئيما بمنعك ، وكنت أنا لئيما بسوء اختياري لك ، وسرَق حبيب ـ أبو تمام ـ هذا المعنى فقال :

عيَّاشُ إنك لَلَّئيمُ وإنني مُذْ صِرتَ مَوْضِعَ مَطْلَبي لَلَئيمُ

ومن مُلَحِ المُكْدِينَ ووصاياهم : قيل لرجل مُكدٍ : متى تعلمت الكُدية والسؤال ؟ قال : يومَ وُلِدتُ ، مُنِعْتُ الثَّدْيَ فصحتُ ، وبكيت فأُعطيت

(١) الجرذان جمع جرذ : الفأر

الثدى، فسكتُ ... وقال رجل لآخر : قد وَضع مِنْك سؤالُك ؟ فقال : لقد سأل موسى والخِضْرُ عليهما السلام أهلَ قرية ، فأَبَوْا أن يُضيفوهما ، فوالله ماوضع هذا من نبىِّ الله وعالِمِه ؛ فكيف يضع منى ! وقال بعض المُكْدِينَ : مكتوبٌ على باب الجنة : مَن صَبَر عبَرَ ... وقال آخر : كلبٌ طائف ، خيرٌ من أسَدٍ رابض ، وقالوا : الهيبة خيبة ، وقال سَلْمٌ الخاسر :

من راقَب الناسَ مات غمّا ... وفاز باللَّــذَّة الجَسورُ

وقال أَشْجَع السلمى :

ليس للحاجات إلا ... مَن له وَجْهٌ وَقَاح

وقال أبو تمام :

وَخُذْهمْ بالرُّقى إنَّ المَهارَى ... يُهَيِّجُها على السَّـيْرِ الحُدَاءُ

وقال ابن الرومى :

وإنَّ الأُمَّ لم تُرْضِـعْ صَبِيًّا ... معَ الإشفاق لو سَكَتَ الغُلامُ

ومن قولهم فى الحث على معاودَة السؤال : قولُ عمر رضى الله عنه : إذا سألتمونا حاجـةً فعاودونا فيها ، فإنما سميت القلوب قلوباً لتقلبها ... وقال عبد الملك بن مروان فى خطبة له : لا يمنَعَنْ رجـلا سأل اليوم شيئاً فمنَعْتُه ، أن يسأل غدا ؛ فإنّ الأمورَ بيد الله لابيدى . وقال شاعرٌ :

لا يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ كَرِيمٍ نَبْوَةٌ ... يَنْبُو الفَتَى وهْوَ الجَوَادُ الخِضْرِمُ [(١)]

فإذا نَبَـا فاسْــتَبْقِهِ وتأَنَّهُ ... حتَّى يَجِيءَ بِهَا الطِّبَاعُ الأكْرَمُ [(٢)]

(١) النبوة : الجفوة والتباعد ويقال : نباعنه بصره ينبو : تجافى ولم ينظر إليه كأنه حقره . والخضرم بالكسر : الجواد الكثير العطاء أو السيد الحمول

(٢) يقال : تأنيتك حتى لاأناة بى ، أى تنظرتك حتى لاانتظار بى ، والطباع كالغرار واحد طباع الإنسان أى الخليقة والسجية التى طبع عليها قال الزجاجى الطباع واحد

وقالوا : إذا سألتَ كريماً حاجة فدعه وسَوْمَ نفسه (١) فإنّهُ لا يُفكِّرُ إلا فى خير ، وإذا سألت لئيماً حاجةً فعاقِصْه (٢) ولا تدعه يتفكر فيتَغَيّر ، وقال بعضهم فى ضد ذلك : إذا سألت لئيماً حاجةً فأَجّلْهُ حتى يروض نفسَه ... « أى يعالج نفسه الكزة اللئيمة »

ولهم فى الاعتذار عن سؤال اللئيم وأخذهم منه : قال أبو تمام :

خُذْ ما أتاك من اللّئا ... مِ إذا نأى أهْلُ الكرَم
فالأُسْدُ تفْترِسُ الكِلا ... بَ اذا تعَذَّرَتِ الغَنَمْ

وقال المتنبي :

غيرَ اختيارٍ قَبِلْتُ بِرّكَ بى ... والجوعُ يُرْضِى الأُسودَ بالجيفِ

وقال المهلبي الوزير :

ما كُنْتَ إلا كَلَحْمِ مَيْتٍ ... دعا إلى أكْلِهِ اضْطِرارُ

ولأبي على البصير :

لعَمْرُ أبيك ما نُسِبَ المُعَلّى ... إلى كرَم وفى الدنيا كريمُ
ولكنَّ البلادَ إذا اقْشَعَرّتْ ... وَصَوّحَ نبتُها رُعِىَ الهشيمُ

«اقشعرت : قال الأزهرى : يقال : اقشعرت الأرض من المَحْل - الجدب - وفى الحديث : إن الأرض إذا لم ينزل عليها المطر اربدّتْ واقشعرت : أى تقبضت وتجمعت ، وصَوَّح نبتها : يبس »

ومن قولهم فى التعريض بالسؤال : قال أمية بن أبى الصلت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك إنّ شيمتك الحياء

حذكر كالنجار - الأصل - (١) أى وما يريد ويتجه اليه
(٢) فعاقصه : فاسلك معه مسلكا ملتوياً بعزة

إذا أثنى عليك المرءُ يوماً كفاهُ من تعرّضه الثناءُ

وقال ابن الرومي :

يا مَن إذا التعريضُ صافحَ نفسَهُ أغنى العُفاةَ به عن التصريحِ

وقال المتنبي :

أُقِل سلامِي حُبَّ ماخفَّ عنكمُ وأسكُتُ كيما لايكونَ جوابُ

وفي النَّفسِ حاجاتٌ وفيكَ فَطانةٌ سُكوتي بيانٌ عندها وخِطابُ

وقال أبو بكر الخوارزمي :

وإذا طلبتَ إلى كريمٍ حاجةً فلقاؤهُ يكفيكَ والتسليمُ

فإذا رآكَ مُسلّماً عَرَف الذي حَمّلتَهُ فكأنّه مَلزومُ

المسئول تُجاهَ السائل

قال شُرَيح (١) : مَن سأل حاجةً فقد عَرَض نفسَه على الرِّقّ ، فإن قضاها

(١) هو القاضي شريح بن الحارث ، استقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة فأقام قاضيا خمساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل وإصابة ، وكان شاعراً محسنا وكان مزاحا ، دخل عليه عدى بن أرطاة فقال له : أين أنت أصلحك الله فقال : بينك وبين الحائط ، قال : استمع مني ، قال : قل أسمع ، قال : إني رجل من الشام ، قال : من مكان سحيق ، قال : تزوجت عندكم ، قال : بالرفاء والبنين قال : وأردت أن أرحلها ، قال : الرجل أحق بأهله ، قال : وشرطت لها دارها قال : الشرط أملك قال : فاحكم الآن بيننا ، قال : قد فعلت ، قال : فعلى من حكمت ؟ قال : على ابن أمك ، قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالتك ... ويُروى أن على بن أبي طالب رضى الله عنه دخل مع خصم له ذمى إلى القاضى شريح هذا فقام له ، فقال على : هذا أول جورك ، ثم أسند ظهره الى الجدار وقال : أما لو أنّ خصمي كان مسلما لجلست بجانبه ... وتزوج شريح امرأة من بنى تميم تسمى زينب فنقم عليها شيئا فضربها ثم ندم وقال :

المسؤولُ استعبده بها ، وإن رَدَّه، رجع حُرًّا، وهما ذليلان ، هذا بِذُلِّ اللؤم وهذا بذلِّ السؤال . وقال أبو تمام :

ماماءُ كفِّكَ - إن جادتْ وإنْ بخِلَتْ   من ماءِ وَجْهِي إذا أفنيتُه - عِوَض

وقالوا : العَجَبُ لمن يشترى العبيدَ بالأموال ولا يشترى الأحرارَ بالنوال ...

وسُئِل خالدُ بن يَزيدَ : ماالجود ؟ قال : أن تُعطىَ مَن سألك ، فقال ابنه : ياأبَتِ ، هـذا هو الـكَدُّ ، إنمـا الجودُ أن تُعطِى من سألك ومن لم يَسألْكَ ...

وقالوا : أهنأُ المعروف أعْجَلُه . وقال بعض الناس : إذا أوليتنى نِعمةً فعَجِّلها ، فإن النفسَ مولَعةٌ بحُبِّ العاجل ، وإن الله تعالى قد أخبر عما فى نفوسنا فقال : كلا ، بل تُحبُّونَ العاجلة ... ولزِم بعض الحكماء بابَ بعض ملوك العجم دَهْرًا فلم يصل إليه ، فتلطف للحاجبِ فى إيصال رُقعة ، ففعل ، وكان فيها أربعة أسْطُر

السطر الأول : « الأمل والضرورة أقْدَمانى عليك »

والسطر الثانى : « والعُدْمُ لايكون معه صَبْرٌ على المُطالبة »

والسطر الثالث : « الانصرافُ بلا فائدة شماتةٌ للأعداء »

والسطر الرابع : « فإما نَعَمْ مُثْمِرةٌ ، وإما لا مُريحة »

فلما قرأها وَقَّع فى كل سطرٍ : زِهْ ؛ فأُعطِىَ سِتَّةَ عشر ألفَ مِثقالِ فِضّة - «زِهْ فى لغة الفرس معناها : أحسنت» ... ووقفتْ عجوزٌ على قيس بن سعد فقالت :

رأيتُ رِجالا يَضرِبون نِساءهم   فَشَلَّتْ يَمِينِى يومَ أضْرِبُ زينبا

أأضْرِبُها مِنْ غيرِ ذنْبٍ أتتْ به   فماالعَدْلُ منِّى ضربُ مَنْ ليس مُذْنِبا

فزينبُ شمْسٌ والنِّساءُ كواكبٌ   إذا طلعتْ لم تُبْقِ منهنّ كوكبا

توفى شريح سنة ٨٧ هـ وهو ابن مائة سنة .

أشكو إليك قلة الجرذان ؛ قال : ما أحسن هذه الكناية ؟ املئوا بيتها خبزاً ولحماً وسمناً وتمراً . وقد تقدم مثلها .

الاعتذار عن المسئول إن لم يعط

قال أبو نواس :

فإن تولِني منك الجميلَ فأهلُه — وإلا فإنى عاذر وشكورُ

وقال ابن الرومى :

وإنْ عاقَ القضاءُ نَداكَ عنى — فلستُ أراك فى مَنْعى مُليما (١)

وما غَيْثٌ إذا يجتازُ أرضاً — إلى أُخرى بمعتَقدٍ لَئيما

وكتب أبو العيناء إلى ابن أبى دُواد : مَسَّنا وأهلَنا الضُّرُّ ، وبضاعتُنا المَوَدَّةُ والشكر ، فإن تعطنا فأنت أهل لذاك ، وإن لم تُعطِنا فلسنا ممن يَلمزُك فى الصدقاتِ ، فإن أُعطُوا منها رَضُوا وإن لم يُعطَوا منها إذاهم يَسخطون (٢) وهناك من لا يعذِر ، رَوَوا أن الحجاج لما دخل مكةَ قال لأهلها : أتيناكم وقد غاض الماءُ لكثرة النوائب ، فاعذِرونا ، فقال رجل : لا عذَر اللهُ مَن عذَرك ، وأنت أمير المِصرَيْنِ وابنُ عظيمِ القريتين (٣) فقال : صدَقتَ ، واستقرض مالا من التُّجَّار ففرَّقه فيهم ، وقال أبو تمام :

فلو حارَدَتْ شَولٌ عذَرْتُ لِقاحَها

ولكن حُرِمْتُ الدَّرَّ والضَّرْعُ حافِلُ (٤)

---

(١) مليما : فاعلا ما يلام عليه (٢) اللمز : العيب والوقوع فى الناس . يشير الى الآية الكريمة (٣) القريتان : مكة والطائف

(٤) حاردت الناقة : قل لبنها ، والشول جمع شائلة والشائلة من الإبل التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، واللقاح : جمع لقحة : الحامل والمراد : عذرتها

طلب الكثير والرضا بالقليل

قال أعرابيٌّ لخالد بن عبد الله من أبيات :

أخالِدُ بين الحمد والأجر حاجتي فأيُّهما تأتي فأنت عمادُ

فقال له خالد : سَلْ مابَدالك ، فقال : مائة ألف درهم ، قال : أسرفت ، قال : ألف درهم ، قال خالد : ماأدرى أمِن إسرافك أتعجّب أمْ من حَطّك ، فقال : إنى سألْتُك على قدرك ، فلما أبيتَ سألتُ على قدرى ، فقال : إذن والله لا تَغلِبنى على معروفى ...

من يسأل حاجة يزعمها صغيرة

قال رجل لعمارة بن حمزة : أتيتُك فى حُوَيجة ، فقال : اطلب لها رُجَيْلًا ... وقال آخر مثل هذا فقال : دَعْها حتى تكبَر ... وقال رجل لعبد الله بن عباس رضى الله عنه : أتيتُك فى حاجة صغيرة ، فقال : هاتِها ، فالحُرُّ لا يَصْغُر عن كبير أخيه ولا يكْبُرُ عن صغيره ...

الحث على الصبر والأناة فى طلب الحاجات

قال الشاعر :

إن الأمورَ إذا انسدَّتْ مَسالِكُها فالصبر يفتَح منها كلَّ ماارْتُتِجا (١)

أخلِقْ بذى الصَّبرِ أنْ يحظى بحاجته ومُدْمِنِ القَرْع للأبواب أنْ يَلِجا

لا تأيَسن وإن طالتْ مُطالبَــةٌ إذا استَعَنْت بصَبْرٍ أنْ ترى فرَجا

وقال أبو نواس :

هذه الشول والدر : اللبن ، وحافل : ملآن (١) كل ماارتتج : كل ماأغلق

ولا يُدْرِكُ الحاجاتِ مِنْ حيثُ تُبْتَغَى
من الناسِ إلّا المصبحون على رِجْلِ [(١)]

تَأَنَّ مواعيدَ الكرامِ فرُبَّما
أصبْتَ من الإلحاحِ سَمْحًا على بُخْلِ

وقال القطامىُّ :

قدْ يُدْرِكُ المُتأَنّى بَعْدُ حاجتَهُ وقد يكونُ مع المُستَعْجِلِ الزَّلَلُ

والعرب تقول : رُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً ؛ يريدون أن الرَّجُلَ قد يَخْرَقُ ويَحْمُقُ فيَعْجَلُ فى حاجته فتتأخر أو تبطُل بذلك .

العطية لا تجدى فى غير وقتها

قال البحترى :

واعْلَمْ بأنَّ الغيثَ ليس بنافعٍ للمرْءِ ما لَمْ يأتِ فى إبَّانِهِ

وقال : ＊ يُرْجَى الطبيبُ لِساعةِ الأوصاب ＊

المسئول أهل لأن يُسأل

قال عَلْقَمةُ بن عَبَدَةَ الفَحْل من قصيدة يخاطب الحارث بن أبى شمر الغسانى ـ وكان أسر أخاه شأساً فرحل إليه يطلبه منه ـ :

وفى كُلِّ حَىٍّ قد خَبَطْتَ بنِعْمةٍ فَحُقَّ لِشأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ [(٢)]

وقال أحمد بن أبى طاهر ـ :

أتيتُكَ لمْ أطمَعْ إلى غيرِ مَطْمَعٍ كريمٍ ولَمْ أفزَعْ إلى غير مَفْزَعِ [(٣)]

---

(١) يقول : إنما يقضيها المشمرون القيام لا المتزملون النيام

(٢) خبطه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما ، شبه بخابط الليل . والذنوب : الحظ والنصيب (٣) فزع إليه : لجأ إليه

التأسف على الحرمان

قال البحترى من أبيات يمدح بها الفتح بن خاقان ويعاتبه :

سحابٌ خَطَانِي جَوْدُه وَهْوَ مُسْبِلٌ وبَحْرٌ عَدَانِي فَيْضُه وَهْو مُفْعَمُ(١)

وبَدْرٌ أضاءَ الأرْضَ شَرْقًا ومَغْرِبًا وموضِعُ رَحْلِي منه أسْوَدُ مُظْلِمُ(٢)

أأشكو نَدَاهُ بَعْدَ أنْ وَسِعَ الوَرَى وما إنْ يَذُمُّ الغَيْثَ إلّا مُذَمَّمُ

تعريضهم بمن خيبهم

وَقَفَ أعرابيٌّ على دارٍ سائلا : فقال له صبيٌّ من الدار : بورك فيك ، فقال له : قَبَحَ اللهُ هذا الفم ، فقد تعلَّم الشرَّ صغيراً ... ووقف سائلٌ على قوم فقال أحدُهم : صناعتُنا واحدة ، فقال السائل : فأنا قَوَّادٌ فهل أنتم قَوَّادون ؟

✡ ✡ ✡

يَرَون الهدايا والرُّشَى مَدْرَجَةً للنجاح

كانت العرب تقول : مَن صانَعَ لم يَحْتَشِمْ مِنْ طلب الحاجة «صانع : هادَى» ... وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نِعْمَ الشيءُ : الهَدِيَّةُ أمامَ الحاجة ... وكان سفيان الثَّورى يقول : إذا أردتَ أن تتزوّجَ فاهْدِ إلى الأُم ... ومن أمثالهم : مَنْ يخطُبِ الحَسْناءَ يُعْطِ مَهْرا ... « يريدون مَن طلبَ حاجةً مُهِمَّةً بذَلَ فيها » ، وقال شاعرهم :

(١) الجود : المطر الغزير ، ومسبل : هاطل (٢) الرحل : المنزل ، ومفعم : مالىء

ما مِنْ صديقٍ وإنْ تمّتْ صَداقتُه
يوْمًا بأنجح فى الحاجاتِ مِن طَبَقِ
إذا تقنّعَ بالمنْديـلِ مُنْطلِقًا لم يَخْشَ نَبْوةَ بوّابٍ ولا غَلَقِ
لا تُـكْذَبَنّ فإنّ الناسَ مُذْ خُلِقُوا لِرَغْبةٍ يُكْرِمُون الناسَ أوْ فَرَقِ

« نبوة : جفوة ، وفرق : خوف » وقال رُؤْبةُ بن العَجّاج :

لمّـا رأيتُ الشُّفَعاءَ بَـلّدُوا وسـألوا أميرَهم فأنْكَدُوا
نامَسْتُهم برِشْـوةٍ فأقْرَدُوا وسَهّلَ اللهُ بها ما شَـدّدوا

« بلّدوا : يقال : بَـلّدَ الرجل : إذا لم يتّجهْ لشيء ، وبَـلّدَ : إذا نَـكّسَ فى العمل وضعف حتى فى الجرى . وقوله : فأنـكدوا : أى وجـدوه عَسِراً مُقلّلا إذ لم يجدوا عنـده إلا نزراً قليلا ، وقوله : نامستهم برشوة : يقول : أفهمتهم أن يلجأوا إلى رشوة الأمير ويحتالوا بذلك ، قال فى اللسان : نامَسَ الرجل صاحبه : سارّه ، ومنه الناموس ، وهو صاحب سرّ الرجل ـ ويقـال له اليوم السكرتير الخاص ـ وقوله : فأقردوا : أى خضعوا ، وفى الحديث : إياكم والإقرادَ ، قالوا : يارسول الله ، وما الإقراد ؟ قال : الرجل يكونُ منكم أميرًا أو عاملا فيأتِيهِ المِسكينُ والأرْمَلةُ فيقول لهم : مكانَكم ، ويأتِيه الشريفُ والغنيُّ فيُدْنِيه ويقول : عجّلوا قضاءَ حاجتِه ويُـتْرَكُ الآخرون مقردين أى ساكتين ذُلاً »

قطع العـادة

ومن أحسن ماقيل فى قطع العادة قول أعرابيّ ـ وقدسأل قوما ، فرَقّ له رجُلٌ منهم فضمّه إليه وأجرَى له رزْقا أياماثم قطع عنه ـ فقال الأعرابيُّ :

تَسَرَّى فلما حاسبَ المرءُ نفْسَه رَأَى أنه لا يسْتقيمُ له السَّرْوُ

« تسرّى : أى تكلف السَّرْو ، والسَّرْو : السخاء » وقال شاعر ـ قيل هو أبو الأسود الدؤلى ، وقيل أنس بن أبى أنس الليثى ـ :

لَيْتَ شِعْرى عن أَميرِى ما الّذى غالهُ فى الوُدّ حتَّى وَدَّعَهْ

لا تُهِنِّى بعدَ إذ أكرمتَنى وشديدٌ عادةٌ مُنْتَزَعَهْ

لا يكُنْ بَرْقُكَ بَرْقاً خُلَّبًا إنّ خيرَ البَرْقِ ما الغَيْثُ معَه

« البرق الخلب : الذى لا مطر معه » وفى الحديث : الخير عادة والشّرّ لجاجة » يقال، لَجَّ فى الأمرِ يَلُجّ ويَلِجّ لجاجة ولجاجًا ولَجَجًا : إذا تمادى عليه وأبى أن ينصرف عنه وهو يعلم أنه شر وأن غيره خير منه » وتقول العرب فيمن اصطنع معروفا ثمّ أفسده بالمَنّ أو قطعه حين كاد يتمّ : شوَى أخوك حتى إذا أنضجَ رَمَّدَ « رَمّدَ : ألقى الشىء فى الرّماد »

شكوى العافين

من تفضيل بعضهم على بعض فى العطاء

قَدِم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفْدٌ من العرب ، فأعطاهم وفضّل رجلا منهم ، فقيل له فى ذلك ، فقال : كلُّ القوم عِيالٌ عليه .

وأعطى سيدنا رسول الله يوم حُنَيْنٍ المُؤَلَّفَةَ قلوبُهم ، وكانوا أشرافا ، يتألفهم ويتألف بهم قومهم ، فأعطى فيمن أعطى ، عُيَيْنَةَ بنَ حِصْن الفَزارِىّ ، والأقرعَ بن حابس التميمى ، أعطى كُلا منهما مائة بَعير ، وأعطى عبّاس بنَ مِرْداسٍ أباعِرَ ، وكان كذلك من المُؤَلَّفةِ قلوبهم ، وكان شاعرا ، فَسَخِطها وقال يعاتبُ سيدنا رسول الله :

أتجعَـلُ نَهبي ونَهبَ العُبَيْـدِ بين عُيَينةَ والأقرعِ (١)
وما كان حِصْنٌ ولا حابِسٌ يفوقانِ مِرْداسَ في مَجمعِ (٢)
وما كنتُ دونَ امرئٍ منهما ومَن تَضعِ اليومَ لا يُرفَعِ
وقد كنتُ في الحربِ ذا تُدْرَأٍ فلم أُعطَ شيئا ولم أُمنَعِ (٣)
إلّا أفائِـلَ أُعطِيتُها عديدَ قوائمِهِ الأربعِ (٤)

فلما أنشدها بين يدى رسول الله قال لعلى بن أبى طالب : ياعليُّ ، اقطع عنى لسانَه ، فقبض على يده وخرج به فقال : أقاطعٌ أنت لسانى ياأبا الحسن ؟ فقال : إنى لَمُمْضٍ فيك ماأُمِرْت ، ثم مضى به إلى إبِلِ الصدقة فقال خذ ماأَحبَبْت …

بلاغة المكدين

سأل أعرابىٌّ فقال فى مسألته : لقد جُعْتُ حتى أكلتُ النَّوَى المُحْرَق ، ولقد مَشَيتُ حتى انْتَعَلْتُ الدم ، وحتى سقط من رِجْلى بخَصُ لحمٍ ، وحتى تمنَّيْت أن وجهى حِذاءٌ لِقدمى ، فهل من أخ يرحَمُنا ! « البخص : لحم يخالطه بياض من فساد يَحُلّ به » … ووقف أعرابى على حَلْقة الحسن البَصرى فقال : رحِم الله امرءًا أعطى من سَعَةٍ وواسَى من كفافٍ وآثر من قوت . فقال الحسن :

(١) النهب : الغنيمة ، والعبيد بالتصغير اسم فرس العباس ، وكان يدعى فارس العبيد.
(٢) مرداس مصروف ولكنه هنا ممنوع من الصرف للضرورة «انظر كتب النحاة».
(٣) تدرأ : من الدرء وهو الدفع قال فى الصحاح : وقولهم : السلطان ذو تدرأ ، أى ذو عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وهذا اسم موضع للدفع ، وقوله : فلم أعط شيئا الخ أى لم أعط شيئا طائلا أو لم أعط شيئا أستحقه وهو المائة : ولم أمنع من الإعطاء لأنى أعطيت بعضا
(٤) الأفائل : جمع أفيل بالفاء كالفصيل وزنا ومعنى

ماترك أحداً منكم حتى سأله ... وقال المازنيّ : وقف علينا أعرابي فقال : رحم الله آمرءًا لم تَمُجُج أذناه كلامى ، وقدَّم لنفسه مَعاذًا من سوءِ مُقامى ، فإن البلاد مُجْدِبة والحال مُصْعِبة (١) والحياء زاجرٌ يمنعُ من كلامكم ، والعُدْم عاذر يدعو إلى إخباركم ، والدعاء أحد الصدقتين ، فرحم الله آمرءًا أمر بِمَيْر ودعا بخير . فقال له رجل من القوم : ممن الرجل ؟ فقال : اللهم غَفْرًا من لاتضرُّكَ جهالتُه ، ولا تنفعُك معرفته ، ذُلُّ الاكتساب ، يمنع من عزّ الانتساب .

حسن الخلق

وعبقرياتهم فيه وفيما يتأشب إليه

وهذا هو أحد لَوْنى الإحسان إلى الناس ، وإن شئت قلت هو اللَّوْن الثالث من ألوان البِرّ ، أعني حُسنَ الخلق

تحضيضهم على حسن الخلق

قال الله عز وجل : واخْفِضْ جَناحَك لمن آتبعك من المؤمنين . وقال : خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالْعُرْفِ وأعرِضْ عنِ الجاهلين . « خذ العفو : فالعفو : السهل الميَسّر ، يقول سبحانه : احْتَمِلْ أخلاق الناس واقْبَل ماسَهُل منها وتيسَّرَ ، ولا تَسْتَقْصِ عليهم فيستقصى الله عليك ، مع مافيه من العداوة والبغضاء قال شُرَيح :

خُذِى العفْوَ مِنِّى تستديمى مودّتى ولا تَنطِق فى سَوْرَتى حين أغْضَبُ

---

(١) يقال صعب الأمر وأصعب : صار صعباً

فإنى رأيتُ الحُبَّ فى الصّدرِ والأذى
إذا اجْتَمَعا لم يَلْبَثِ الحبُّ يَذْهَبُ

وقوله سبحانه وتعالى : وأَعْرِضْ عن الجاهلين ؛ فالجهل هنا ماقابل العقل والجاهلون : الحمْقى الأشرار السيئوا الأخلاق ، أمَر الله نبيه بأن لا يُمارِىَ الجاهلين ولا يُكافئهم بمثل أفعالهم »

وقال سيدنا رسول الله : إنكم لن تسَعُوا الناس بأموالكم فَسَعُوهم بأخلاقكم . ومِنْ ذا قول حكيم وقد قيل له : هلْ من جُودٍ يُتناوَلُ به الخَلْقُ ؟ فقال : نعم ، أن تحسِّنَ الخُلقَ وتنوى الخير لكل أحد ... وقال صلوات الله عليه : ألا أُخبِرُكم بأحبّكم إلىّ وأقربِكم منّى مجالِسَ يومَ القيامة ! : أحاسِنُكم أخلاقا المُوطَّئُون أكْنافا ، الذين يألَفُون ويُؤْلَفون ، ألا أُخْبِرُكم بأبغضكم إلىّ وأبعدِكم منى مجالسَ يومَ القيامة ! الثَّرْثارُون المُتَفَيْهِقون ... « قوله : أحاسنكم أخلاقا يريد : الأحاسن منكم على إرادة التفضيل لا الوصف ، وذلك أن العرب تقول فى الوصف : رجُلٌ حَسَنٌ ولم تقل رجل أحسن ، مع قولهم امرأة حسناء . ونظيره فى عكسه : غلامٌ أمْرَدُ ولم يقولوا جاريةٌ مَرْداء . وقوله : المؤطَّؤن أكنافا : يريد دَماثة الخلق ولين الجانب وأن ناحيته يتمكّن فيها صاحبُه غيرَ مُؤْذًى ولا نابٍ به موضِعُه . وأصل التوطئة : التذليل والتمهيد يقال : فِراشٌ وطىء إذا كان وَثِيرًا ـ أى لَيِّنًا ـ والثرثارون : الذين يُكثِرون الكلام تكلُّفا وتجاوُزاً وخُروجا عن الحق ، وأصل هـذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء يقال : عينٌ ثَرْثارة وثَرّارة : إذا كانت كثيرة الماء ... والمتفيهقون : بسبيل من « الثرثارون » وهو تأسيس له ، واشتقاقه من قولهم : فَهِق الغدير يفهَقُ : إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد : يصفهم

بأنهم يوسعون أشداقهم ويملأونها بالكلام . قال أبو العبّاس المبرد بعد ما أورد ما أوردناه من تفسير هذا الحديث : وتصديق مافسرناه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يُريد الصدق فى المنطق والقصدَ وتركَ مالا يُحتاجُ إليه : قولُه لجَرير بنِ عبدِ الله البَجَلى : ياجرير : إذا قلت فأوجزْ وإذا بلغتَ حاجتَك فلا تتكلَّفْ » وقال الله جل شأنه فى الحثّ على لين الكلام : وقُولُوا لِلنّاسِ حُسْنًا . وقال : فقُولَا له قَوْلًا ليِّنًا ، وقال : وقُلْ لهما قَوْلًا كريما . وقال : فقلْ لهم قوْلًا مَيْسُورًا ... وقالوا : مَن لانت كلمته وجبت محبّتُه . وقالت جدة سفيان بن عُيَيْنة له :

بُنَيَّ إنَّ البِرَّ شيءٌ هَيِّنُ   المَفْرَشُ اللَّيِّنُ وَالطُّعَيِّمُ

* ومَنْطِقٌ إذا نطقْتَ لَيِّنُ *

« قولها هَيِّنُ » : فالعرب تقول : رَجلٌ هَيْنٌ لَيْنٌ وهَيِّنٌ لَيِّنٌ » وفى الحديث : المؤمنون هَيْنُون لَيْنُون كالجمل الأَنِفِ إن قُدْتَه انقادَ وإن أَنَخْتَه على صخرة استناخ « جمل أَنِفٌ : أى مأنوف ، أى يشتكى أنفه من خِشاشٍ أو بُرَةٍ [1] أو خِزامة فى أنفه فلا يمتنع على قائده فى شىء للوجع ، فهو ذلول مُنْقادٌ ، ومعنى المؤمنون كالجمل الأنف : أنهم لا يَريمون التشكِّى ، أى يُديمون التشكى مما بهم إلى الله وحدَه لا إلى سواه . أقول : وأحسن من هذا التفسير قول بعضهم : الجمل الأنف : الذليل المُؤاتى الذى يأنف من الزجْر ومن الضرب ويُعْطى ماعنده من السير عَفْواً سهلا ، كذلك المؤمن ، لا يحتاج إلى زَجر ولا

(١) الخشاش : عويد من خشب يُدخَل فى عظم أنف البعير يشدّ به الزمام ليكون أسرع لانقياده . والبرة : مايوضع فى لحم أنف البعير ويكون من صفر ـ نحاس أبيض ـ أما الخزامة فهى من شعر

عِتاب ، وما لَزِمه من حقٍّ صَبَرَ عليه وقام به ، وهذا تفسير جميل ، وهو أليق بكلام سيدنا رسول الله » . وسُئلت عائشة رضى الله عنها عن خُلُقِ النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : أوماتقرؤن القرآن : وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم ... وقالوا : صفاءُ الأخلاق من نَقاء الأعراق . «الأعراق جمع عِرق وهو الأصل يقال رجل مُعْرِقٌ فى الحسب والكرم قالت قُتيلة بنت النضر بن الحارث أو أخته :

أمُحمَّدٌ ولأنت ضِنْءُ نجيبة ... فى قومها والفحلُ فحلٌ مُعْرِق

أى عريق النسب أصيل ، ويستعمل فى اللؤم أيضا تقول : إن فلانا لَمُعْرِق فى الكرم ، ومعرق فى اللؤم . والضنء : الولد والأصل والمعدن» وقال البحترىّ :

سلامٌ على تلك الخلائق إنها ... مُسَلَّمَةٌ من كلِّ عارٍ ومأثم

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص : ثلاثة من قريش أحسنها أخلاقا وأصبحُها وجوها وأشدُّها حياءً ، إن حدَّثوك لم يَكْذِبوك ، وإن حدَّثتهم بحقٍّ أو باطل لم يُكذِّبوك : أبو بكر الصِّدِّيق ، وأبو عُبيدة بن الجرّاح ، وعثمان بنُ عفان رضى الله عنهم ...

وفى الأثر أيضا : أن حُسنَ الخُلق وحُسنَ الجوار يُعمِّران الديار ويَزيدان فى الأعمار . وفى كتاب للهند : مَن تزوَّد خمساً بلَّغته وآنَسته : كفُّ الأذى ، وحسن الخلق ، ومُجانبة الرِّيَب ، والنُّبْلُ فى العمل ، وحسن الأدب

نَهيُهم عن سوء الخلق

وقالوا : سوء الخُلق يفسد العمل كما يُفسد الصَّبِرُ العسلَ « الصبر هو هذا الدواء المُرّ ولا يسكن إلا فى ضرورة الشعر » وفى الحديث : مَن ساء خُلقُه عذَّب نفسه ، وقال العتَّابىُّ :

وكُنتَ امْرءًا لو شئتَ أنْ تبلُغَ المنى بلغتَ بأدْنى غايةٍ تستديمُها
ولكن فِطامُ النَّفْسِ أثقلُ مَحْمِلًا من الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ حينَ تَرُومُها

وقال عِقال بن شَبَّة : كنت رديفَ أبي ، فلقيَه جريرٌ على بغل ، فحيَّاه أبي وألطفَهُ ، فلما مضى قلت : أبَعْدَ ما قال لنا ماقال ! قال : يابُنيَّ ، أفأُوسِّعُ جُرْحي ! . وقال ابن الحنفية : قد يُدْفَعُ باحتمال مكروهٍ ماهو أعظم منه...
وقال أبو الدرداء : إنا لنَكْشِرُ في وجوه قوم وإن قلوبَنا لتَقْليهم (١)

وقالوا : لا مُداراةَ للخلق السيئ القبيح ، كالشجرة المُرَّة لو طُليَت بالعسل لم تُثمر إلا مُرًّا ، وكذَنَبِ الكلب لو أدخلتَه القالَبَ سنينَ لعادَ إلى اعْوجاجه . ومن طُرَفهم في هذا المعنى قول بعضهم لأحمدَ بنِ أبي خالد : لقد أُعطيتَ مالم يُعطَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لئن لم تخرُج من ذلك لأضربنك ، فقال الرجل : إن الله تعالى قال لنبيه : ولو كنت فظا غليظ القلب لانْفضُّوا من حولك وأنت فظٌّ ونحن لا نَنْفضُّ من حولك . وقال بعضهم : خَطبْتُ امرأةً ، فأجابتني فقلت : إني سيئ الخُلق ؛ فقالت : أسوأُ خُلقا منك من يُلجئك إلى سوء الخلق ... وقال بعضهم لرجل سيئ الخلق : إنِ استطعت أن تغير خلقك وإلا فليَسَعْك من أخلاقنا ماضاق به ذرْعُك ...

صعوبة تغيير الطباع والمتخلق يرجع إلى شيمته

قالوا في ذلك : تأبى الطباعُ على الناقِل ؛ و : العادة طبيعة ثانية ، وَ :
ظَلَمْتَ امْرَءًا كلَّفْته غيرَ خُلْقِه وهل كانتِ الأخْلاقُ إلا غرائزَا
و : كلُّ إناءٍ بما فيه يَرْشَح

(١) نكشر في وجوه قوم : أي نبسم في وجوههم وأصل الكشر : بدوّ الأسنان يكون ذلك في الضحك وغيره ؛ ونقليهم : نبغضهم

و : ٭ إنّ التَّخلُّقَ يأتي دونَهُ الخُلُقُ ٭

وقال ذو الإصْبَع العَدْوانى :

وَمنْ يَبْتدِعْ ماليس مِن خِيمِ نفْسِه   يدَعْهُ ويَغْلِبْهُ على النَّفْسِ خِيمُها

« الخيم : السجية والطبيعة والأصل » وقال زُهَير بن أبى سُلْمى :

ومهما يَكنْ عند امرئٍ من خَليقةٍ   وإنْ خالها تَخْفَى على الناسِ تُعلَمِ

وقال أبو تمام :

والسَّيفُ مالمْ يُلْفَ فيه صَقيلٌ   من سِنْخِه لم يَنتفِعْ بصِقالِ

« السنخ : الأصل ، والصقال : الجلاء» وقال المتنبي :

وكُل يَرى طُرْقَ الشَّجاعةِ والنَّدَى   ولكنَّ طبْعَ النَّفْسِ لِلنَّفس قائِدُ

وقال :

ولِلنَّفسِ أخلاقٌ تدلُّ على الفتَى   أكان سَخاءً ما أتَى أمْ تَساخِيَا

مداراة الناسُ

قال النَّظامُ[1] : مايسُرنى تركُ المُداراةِ وَلِى حُمُرُ النعَم ، فقيل له : ولِمَ؟ قال : لأن الأمرَ إذا غشِيَك فشَخَصْتَ له أرداك ، وإذا طأطأتَ له تخطَّاك ... وقال شاعر :

وأنْزَلَنى طُولُ النَّوى دارَ غُرْبةٍ   إذا شئتُ لاقَيتُ امْرَءًا لاأشاكِلُهْ

فحامَقْتُه حتى يقالَ سَجِيَّةٌ   ولو كان ذا عَقْلٍ لكنْتُ أعاقِلُهْ

وقال بشار بن بُرد :

وما أنا إلا كالزَّمانِ إذا صحَا   صحوْتُ وإنْ ماقَ الزمانُ أمُوقُ

« ماق يموق موقا ومُوقا ومُوُوقا واستماق ، كل أولئك : حَمُقَ فى»

(١) هو إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ وأحد كبار المعتزلة .

غباوة، ويقال : فلان أحمق مائق : والعرب تقول : أنت تئق وأنا مئق، أي أنت ممتلئ غضبا وأنا سيئ الخلق، فلا نتفق، وقال معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه : لوكان بينى وبين الناس شَعْرَةٌ ماانقطعت، لأنهم إذا جذبوها أرسلتُها، وإذا أرسلوها جذبْتُها، وهكذا كان معاوية نبيّ الحِلم والأناة والكياسة والرياسة والسياسة.

من حسن خَلْقه وخُلُقه ومن اختلف خَلْقه وخُلُقه

قال ابن الرومى :

كلُّ الخِلال التى فيكم محاسِنُكم — تشابَهَتْ فيكم الأخلاقُ والخِلَق
كأنكم شجرُ الأُتْرُجّ طاب معًا — حَمْلًا ونَوْرًا وطاب العودُ والورَقُ

« الأترجّ والتُّرُنج : ثمر من فصيلة الليمون ويسميه أهل الشام الكبّاد، والحمل بفتح الحاء - والكسر لغة - ثمر الشجرة ؛ ومن دقائق هذه اللغة الكريمة أنها تفرق بين الحِمْل الذى يحمل على ظهر أو رأس، وبين الحَمل الذى يحمل فى البطن من الأولاد فى جميع الحيوانات، فالأول يكسرون حاءه، والآخر يفتحون حاءه، قائلين : ما كان لازما للشيء فهو حَمل وما كان بائنا فهو حِمل وأما حَمل الشجرة فلما كان شبيها بحمل المرأة لاتصاله فتحوا حاءه ولما كان يُشبِه حِمل الشيء على الرأس لبروزه من جهة ولأنه ليس مستبطنا كحَمل المرأة من جهة أخرى كسروا حاءه ؛ والنور بفتح النون : الزهر » وفى الأثر : ماأحسنَ الله خَلقَ أحد وخُلُقَه فأطعمه النارَ ... ووصف بعضهم رجلا فقال : يَقْرِى العينَ جمالا والأُذُنَ بيانا[1] ... وقال قتادة :[2] مابعث الله نبيا إلا حَسَنَ

(١) يقرى يريد : يطعم، ولك أن تضع مكان يقرى : يغترق، من قولهم فى الحسناء إنها تغترق العين أى لاتدعها تنظر إلى غيرها جمالا (٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة

الخُلُق حسَنَ الوجه ... وقال الفلاسفة: قلّ صورةٌ حسنةٌ تَتْبَعُها نَفْس رديئة.
وقال جالينوس: ينبغى الرجل أن يَنظُرَ إلى وجهه فى المرآة، فإن كان حَسنَ الوجه جَعلَ عنايته أن يَضُمّ إلى جمال وجهه كمالَ خُلُقه وكمالَ نفسه، وإن رأى صورة سَمِجَةً تحرَّزَ من أن يكون ذَميمَ الخَلق ذميمَ الخُلق ...
ونظر فيلسوف إلى غلام حَسَنِ الوجهِ يتعلم العلمَ فقال: أحسنتَ، إذ قرنْتَ بحُسْن خَلقك حُسنَ خُلقك ... ونظر فيلسوف إلى رجل حسن الوجه خبيث النَّفس فقال: بيتٌ حَسَنٌ وفيه ساكن نَذْلٌ ... ورأى آخرُ شابا جميلا فقال: سَلَبَتْ محاسِنُ وجهك فضائلَ نفسك ... وقالوا:

فلا تجعل الحُسنَ الدَّليلَ على الفتى ... فما كلُّ مصْقولِ الحديد يمانِ

و: ألمْ ترَ أن الماءَ يَخْلُفُ طعمُه ... وإن كان لَوْنُ الماء فى العين صافيا [1]

واستعرض المأمون الجُنْدَ فمرَّ به رجل دميم، فاستنطقه، فرآه ألْكَنَ، فأمر بإسقاطه وقال: إن الرُّوحَ إذا كانت ظاهرةً كانت وَسامَةً، وإذا كانت باطنةً كانت فصاحةً، وأُراه لاظاهرَ له ولا باطن ...
«وبعد» فسيمرُّ بك كثير من عبقرياتهم فيما يتصل بهذه المعانى ويمُتُّ إليها بسبب واصل، فى باب الطبائع ... وباب الصداقة والصديق ... وباب عبقرياتهم فى معانٍ شتى ...

التقوى

وهاك اللونَ الأخيرَ من ألوان البرِّ، ولقد أسمعناك فيما أسلفنا أن التقوى

إلا أنه كان من كبار علماء التابعين ولد سنة ٦٠ وتوفى سنة ١١٨ هـ
(١) خلف الماء واللبن والطعام من باب دخل: إذا تغير طعمه أو ريحه

هي عمادُ البرِّ وقِوامُه، على جميع ألوانه ، أي أنه مادام هناك تقوى بمعناها الصحيح كان هناك صِلةُ الرَّحِم ، وكان هناك الإحسانُ ، وكان هناك مكارم الأخلاق، وكان هناك الخير كله والبر في جميع مايشتمل عليه وينتظمه ، ولنورد عليك باديَ ذي بَدْء قولَهم في التقوى والمراد بها ، ثم نردف ذلك بعبقرياتهم في التقوى وما يتأشب إليها ... ويجرى منها على عِرق ...

معنى التقوى

التقوى في اللغة من الاتقاء، بمعنى اتخاذ الوقاية ، وفي اصطلاحهم: صيانة النفس عما تستحق به العقوبةَ من فِعل أو ترك ، وقال أبو البقاء في كلياته : التقوى - على ما قاله علي رضي الله عنه - ترك المعصية وتركُ الاغترار بالطاعة ، وهي التي يَحْصُل بها الوقاية من النار والفَوزُ بدار القرار ، وغايةُ التقِيِّ البراءةُ من كل شيء سِوى الله ، ومبدؤُها اتِّقاءُ الشِّرْك ، وأوسطها اتقاء الحرام ، وغايتها مُنْتَهى الطاعات . قال : وقد تُسمَّى التقوى خوفًا وخَشْيةً ... أقول :

فإن لا يَكُنْها أو تَكُنْه فإنه   أخوها غَذَتْهُ أُمُّهُ بلِبانِها (١)

وقد عقد الإمام أبو حامد الغزالى للخوف كتابا في كتابه الإحياء جاء فيه : إن التقوى والورَعَ أسامٍ اشْتُقَّتْ من مَعانٍ شَرطُها الخوف ، فإن خلت من الخوف لم تُسَمَّ بهذه الأسامى ... أقول : ومن أروع ماقيل في الخوف قوله تعالى : إنما يَخْشَى اللهَ من عباده العلماءُ ... أقولُ : وإذَنْ يكون : كلما ازداد المرءُ علماً بالله سبحانه ازداد منه خوفا ، كما جاء في الأثر : أعلمُكم بالله أشدُّكم له .

---

(١) لأبي الأسود الدؤلي في نبيذ التمر ، واللبان بكسر اللام ، يقال : هو أخوه بلبان أمه ولا يقال بلبن أمه ، إنما اللبن : الذي يشرب من ناقة أو شاة أو غيرهما من البهائم .

خشية ... ومن كان من العلماء لا يخشى الله ولا يراقبه في سائر أحواله، فليس من العلم بالله في كثير ولا قليل ... وما أجمل ما يقول عبد الله بن همام السلولي (١) في وصف هذا الصنف من العلماء:

إذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا ولكن حسن القول خالفه الفعل
وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ما يدر لها ثعل

« قوله: إذا نصبوا الخ يريد: إذا نصبوا أنفسهم للقول وأعدوها له، والأصل في النصب: أن يقوم رافعاً رأسه؛ ورضع يرضع كضرب يضرب في لغة قيس، وكسمع يسمع في لغة أهل الحجاز، فقوله: يرضعونها: تقرأ

---

(١) من التابعين، وعداده في أهل الكوفة، وبيتاه المذكوران من أبيات له قالها للنعمان بن بشير الأنصاري عامل معاوية على الكوفة، وكان معاوية أمر لأهل الكوفة بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم فأبى النعمان أن ينفذها لهم فقال عبد الله:

زيادتنا نعمان لا تحرمننا خف الله فينا والكتاب الذي تتلو
فإنك قد حملت منا أمانة بما عجزت عنه الصلاخمة البزل
وإن يك باب الشعر تحسن فتحه فلا يك باب الخير منك له قفل
فقد نلت سلطاناً عظيما فلا يكن لغيرك جمات الندى ولك البخل
وأنت امرؤ حلو اللسان بليغه فما باله عند الزيادة لا يحلو
وقبلك قد كانوا علينا أئمة يهمهم تقويمنا وهم عصل

والصلاخمة: الصلاب المانعة وفي الحديث: عرضت الأمانة على الجبال الصم الصلاخم وأصل الصلخم: البعير الجسيم الشديد الماضي، والبزل: جمع بازل، ويقال رجل بازل على التشبيه بالبعير، يعنون بذلك كمال عقله وتجربته واستكمال قوته. وجمات: كثيرات، وقوله: كانوا علينا أئمة فأئمة فاعل كانوا وهذا على لغة أكلوني البراغيث وإذا أرجعت الضمير في كانوا إلى المذكورين في البيت الثاني فتكون أئمة خبر كانوا، وعصل: فالعصل الاعوجاج وكل معوج فيه صلابة: أعصل.

بكسر الضاد وبفتحها؛ وأفاريق جمع أفواق جمع فِيقة بكسر الفاء، وهو اسم للّبن الذى يجتمع بين الحلبتين، يريد: أنهم يرضعونها ثم يتركونها مقدار مايجتمع اللبن فيرضعونها، وهكذا، والثعل بضم الثاء وفتحها: خِلْف زائد صغير من أخلاف الناقة وضَرع الشاةِ لايَدِرُّ من اللبن شيئا، يَصِفُهُم بأنهم أحرص الناس على طلب المال يستنزفونه من خزائنه حتى لم يبق منه شيء، وإنما ذكر الثعل للمبالغة فى الارتضاع، والثعل لايدرّ، وهى مبالغة حسنةٌ فى معنى الاستئصال والنّفاد.

* * *

ومما جاء فى الخوف أيضا قوله سبحانه: وأما من خاف مَقام ربِّه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنةَ هى المَأْوَى، وقوله جل شأنه: وخافونِ إن كنتم مؤمنين، وقوله: وهُدًى ورحمة للذين هم لربِّهم يَرهَبون، وقوله تعالى: إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِر الله وَجِلَت قلوبهم وإذا تُلِيَت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم؛ وقال عز وتقدّس: واعلموا أنّ الله يعلم مافى أنفسكم فاحذَروه... قال سفيان بن عُيَيْنة: لولم يُنْزل الله تعالى علينا إلا هذه الآيةَ لكان قد أعْذَرَ. أعذر: بلغ أقْصى الغاية فى العذر، أى صار معذوراً عندك إذ حذرك أن لا تَحْذَرَه وهو يعلم مافى أنفسنا؛ ومن هذا المثل: مَن أنذر فقد أعذر.

ومما يُؤثر فى باب الخوف قوله صلى الله عليه وسلم: رأس الحِكمة مخافةُ الله.

الحكمة

وهذا الحديث الشريف ـ على وضوحه وجماله وإشراقه وإنارته، وعلى أنه مما كنا نستظهره إبّانَ الحداثة، إذ يلقنوننا إياه أوائل التعليم في المكاتب لابدّ من التبسط في القول عليه. قال صاحب القاموس: الحكمة تأتي بمعنى العدل[١] والعلم[٢] والحِلم[٣] والنُّبُوّة والقرآن والإنجيل[٤] ووضع الشيء في موضعه وصواب الأمر وسداده، وقال أبو البقاء في كلياته ـ بعد أن أورد ماقال صاحب القاموس ـ: والحكمة في عرف العلماء: استكمال النفس الإنسانية، باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة قدْرَ طاقتها، قال: وقال بعضهم: الحكمة هي: معرفة الحقائق على ماهي عليه بقدر الاستطاعة، وهي العلم النافع المُعَبَّرُ عنه بمعرفة مالها وما عليها، المُشار إليه بقوله تعالى: ومن يُؤتَ الحكمة فقد أُوتِيَ خيرا كثيرا. وإفراطُها الجَرْبَزة[٥] وهي استعمال الفِكر فيما لاينبغي كالمُتشابهات[٦]، وعلى وجه لاينبغي كمخالفة

---

(١) ضد الجور، فلا يميل بصاحبه الهوى حتى يجور في الحكم

(٢) أي العلم بحقائق الأشياء على ماهي عليه والعمل بمقتضاها

(٣) هو ضبط النفس عند هيجان الغضب (٤) فالحكمة في قوله تعالى: ويعلمه الكتاب والحكمة وقوله: وآتاه الله الملك والحكمة وقوله: وآتيناه الحكمة: بمعنى النبوّة والرسالة، كما أنها تأتي بمعنى القرآن والإنجيل، لتضمن كل منهما الحكمة في لونيها ـ العلمية والعملية.

(٥) يقال في اللغة: رجل جُربز: خب خداع خبيث منكر والظاهر أن الجربزة والجربز والقربز معربات (٦) قال صاحب اللسان ـ بعد أن أورد كلاما كثيرا في معنى المتشابه من القرآن وفي الحديث ـ في صفة القرآن: آمنوا بمتشابهه واعملوا بمحكمه:

الشرائع؛ وتفريطُها : الغباوة التي هي: تعطيل القوة الفكرية والوقوف عن اكتساب العلم ... انتهى .

« وبعد » فإن المُسْتَقْصِيَ لكل ماأوردوه من معانى هذه الكلمة ـ الحكمة ـ يرجع إلى إحكام الشيء ، أى إتقانه ، كيلا يتسرَّب إليه خللٌ أو فسادٌ ، وكى يبلغ ذُروةَ الكمال جُهْدَ الاستطاعة ، حتى قيل لكل من يُحسن دقائق الصناعات ويُتْقِنُها : حكيم ، ومن ثم يقال للعالِم العامل بعلمه : حكيم ، والرجل العاقل المُهَذَّب المُوفَّق : حكيم ، وللقاضى العادل فى أحكامه : حكيم ، وللرجل المجرَّب الذى حنَّكته التجاريب ووثَّقته حتى لايصدر عنه إلا كلُّ ماهو سَدَاد : حكيم ، ويقال للمواعظ والأمثال التى ينتفع الناس بها : حكمة ، ولكل كلام نافع يمنع من الجهل والسَّفَه : حكمة ، ومن ذا تسميةُ القرآن والإنجيل وسائر الكتب المنزلة ، وكلٍّ مايحذو على حذوها ، مما يتضمن مواعظ وآدابا وأخلاقا فاضلة : حكمة ، إذ كل أولئك يرتدُّ إلى معنى الإتقان والتوثيق والإصابة والسَّداد ... وإذن يكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله : أُسُّ الحكمة وقوامها : الخوف منه سبحانه، لأن الحكمة من شأنها أن تمنع النفسَ عن كل ما نُهينا عنه ، ولا يحدو المرءَ على العمل بها إلا الخوفُ منه ، عز وتقدس ، ومتى كان هذا الخوف شعاره حاسَبَ نفسه على كل خطرة ونظرة ولذة ؛ وبذلك تكون مخافةُ الله آكَدَ أسباب النجاة ولا تتمُّ الحكمة إلا بها ...

* * *

المتشابه : مالم يتلق معناه من لفظه ، وهو على ضربين : أحدهما إذا رد إلى المحكم عرف معناه والآخر ، مالا سبيل إلى معرفة حقيقته ، فالمتتبع له متتبع للفتنة لأنه لا يكاد ينتهى إلى شىء تسكن نفسه اليه «راجع اللسان مادة شبه»

هذا، ويُعجبني من الشعر في باب الخوف من الله قول محمود الورّاق [١]:

يا ناظراً يَرْنو بعيْنَيْ راقِدِ ومُشاهِداً للأمرِ غيرَ مُشاهِدِ [٢]
مَنَّيْتَ نفْسَك ضَلَّةً وأَبَحْتَها طُرُقَ الرَّجاءِ وهُنَّ غيرُ قواصِد [٣]
تَصِلُ الذُّنوبَ إلى الذنوبِ وترْتجي دَرْكَ الجِنانِ بها وفوْزَ العابِدِ [٤]
ونَسِيتَ أنّ اللهَ أخرجَ آدمًا منها إلى الدنيا بذَنْبٍ واحدِ

وقال الحسن البصريّ: إن خوفَكَ حتى تَلقَى الأمْنَ، خير من أمْنِك حتى تَلقَى الخوف ... وقال: ينبغي أن يكون الخوفُ أغلَبَ على الرَّجاء، فإن الرَّجاءَ إذا غلب الخوف فَسَد القلب ... وقال بعضهم: قلت لِسُفْيان: بلغني في قول الله تعالى: (إلَّا مَن أَتَى الله بقلب سليم) أنه الذى يَلقَى ربَّه وليس فيه أحد غيره، فبكى وقال: ماسمعت منذ ثلاثين سنة أحسنَ من هذا التفسير ... وقالوا: من خافَ اللهَ أخافَ اللهُ منه كلَّ شيء، ومن لم يخَف الله أخافه الله من كلِّ شيء ... وقال الفضيل بن عياض: إني لأَسْتَحِي من الله أن أقول توكّلتُ على الله، ولو توكلت عليه حقَّ التوكل، ماخِفْت ولا رَجوتُ غيره.

« وأما بعد » فهو معلوم من الدين بالضرورة أن الله سبحانه خلق الإنسانَ وهو يعلم ماتُوَسْوِس به نفسه، وهو أقربُ إليه من حبل الوريد [٥] ما يَلفِظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد [٦]، وإنَّ عليكم لحافِظِين كِراماً كاتبين

(١) هو محمود بن الحسن الوراق البغدادي مولى بني زهرة يكنى أباحسن، شاعر كثير الشعر جيده، وعامته في الحكم والمواعظ والزهد؛ ترجم له صاحب فوات الوفيات.
(٢) يرنو: ينظر (٣) غير قواصد، يريد: وهي حائرة غير مستقيمة
(٤) درك: اسم من الإدراك
(٥) حبل الوريد: عرق في العنق (٦) عتيد: حاضر

يعلمون ما تفعلون [١] :

إن مَنْ يَركبُ الفواحشَ سِرًّا ... حينَ يخلو بِسِرِّه غيرُ خالِ
كيف يَخلو وعنده كاتِباه ... شاهِداه، وربُّه ذو الجلالِ [٢]

وكذلك هو معلومٌ «أن الناس قَوارِي الله فى أرضه [٣]» أى أن الناس ولا سيما الصالحون منهم ـ شُهودُ الله فى أرضه ـ لأنهم يتتبّع بعضهم أحوالَ بعض، فإذا شَهِدوا لإنسان بخير أو بِشرّ فقد أوْجَب [٤] ... وبعبارة أخرى : إن على كلِّ إنسانٍ رُقباءَ هُمْ له بالمِرْصاد، يُزَنِّؤُونَ عليه [٥]، ويَجعَلون بالهَم إليه، ولا تكاد تخفى عليهم خليقةٌ لَدَيه :

ومَهما يكن عند امرِئٍ من خليقة ... وإنْ خالَها تَخفى على الناسِ، تعلم

أليس فى نفس كلِّ إنسانٍ قَبَسٌ من نور الله الذى هو نورُ السموات والأرض ؟ والناس بهذا النور ـ ولا سيما الصالحون منهم، أولئك الذين يبدو فيهم هذا النور خالصاً غيرَ مشوب برَيْنٍ وطَبَعٍ وغَيمٍ ـ يَرَون بعضُهم من بعض ما قد يَتوهَّمُ الجاهلون أنه لا يُرى، فكأن الناسَ لذلك شُهودُ الله فى

(١) كل هذه آيات كريمة مقتبسة من القرآن الكريم (٢) هذان البيتان لنابغة بنى شيبان واسمه عبد الله بن المخارق بن سليمان، شاعر بدوى كان يفد إلى ملوك بنى أمية بالشام وأكثر من مدح منهم الوليد بن يزيد (٣) حديث شريف، وقوارى: أخذه من أن الناس يقـرون الناس، أى يتتبعونهم فينظرون إلى أعمالهم، وقال الزمخشرى : المسلمون قوارى الله فى الارض، أى أمناؤه وشهداؤه الميامين، شبهوا بالقوارى من الطير وهى الخضر التى يتيمنون بها

(٤) يقال : أوجب الرجل : إذا عمل عملا يوجب له الجنة أو النار، والموجبة : الكلمة أو الفعلة توجب لقائلها الجنة أو النار

(٥) زنأ عليه : إذا ضيق عليه، وعامة المصريين يستعملون اليوم هذا الحرف بمعناه الصحيح

الأرض ، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو بشر ، فلكلّ نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وكلٌّ يُجْزَىّ بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهذا كله حقٌّ لاسبيل إلى الإلحاد فيه ... وشيء آخر ، وهو أن من كان شِعارُه خوفَ الله فى السِّرِّ والعَلَن وحَسُنت سريرتُه ، رَشَدَ وحسنت سِيرته ، ومَن عَرّاهُ الله من هذا الشعار وساءت سريرته ، غَىَّ وساءت سيرته . وجملة القول : أن خوف الله وما يَستتبعُهُ من قلّة الاكتراث لما سواه من الخلق فى سبيل الحق ، مما يورث صاحبه مايطلقون عليه اليوم « الشجاعة الأدبية » فضلاً عن الجُرأة والإقدام وسائر الخلال الكريمة النبيلة . فخوف الله كما ترى أُس من أُسسِ الأخلاق ، وهذا مصداق الحديث الشريف « رأس الحكمة مخافة الله » ...

هذا ، وقد يَظُنُّ ظان أن مخافةَ الله مَغْزاها الخوف من عقابه والطمع فى ثوابه ، فمن عمل صالحاً فكى يُثابَ ويُجزَى الجزاءَ الأوفى ، ومَن أثلم فلكىْ ينجو من عذاب النار ، وهذا لَعَمْرى ، وإن عُدَّ خوفا ، بَيْدَ أنه أدْنَى درجات الخوف ، وهو خوف العامّةِ وأشباهِ العامّة . قال بعض الحكماء : إنى لأَستَحِى من ربى أن أعبُدَه رَجاء الجنة فأكونَ كالأجير ، أو خوفَ النار فأكون كعبدِ السَّوْءِ ، إن خاف عَمِلَ وإن لم يَخَفْ لم يعمل ، لكن يَستخرج منى حُبُّ ربى مالا يستخرجه غيرُه .. وقال بعضهم : مَن عبَد الله بعِوَض فهو لئيم . وقال بعض الصوفيّة : لولم يكن لله ثوابٌ يُرْجَى ولا عقابٌ يُخشى لكان أهلا أن لا يُعْصى ، ويُذكرَ فلا يُنْسى ، بلا رَغَب فى ثواب ولا رَهَب من عقاب ، لكن لِحُبِّه ، وهو أعلى الدرجات ، أما تسمعُ قولَ موسى عليه السلام : وعَجِلْتُ إليك رب لترضى ، أقول : إذن فأفضل الأعمال ما كان

للحقّ والخير والجمال والمثــل الأعلى فى ذات الله العليّ الأقدس الذى له الأسماء الحسْنى [1].

وَلْتَفْعلِ النَّفسُ الجميلَ لأنَّه خيرٌ وأحسنُ لا لِأَجْلِ ثوابِها [2]

أما الثواب والعقاب فالله سبحانه وما يُعِدُّ لعبده من ذلك، وحقيق بالعبد أن يُحسن ظنه بربه ويرجو لديه رحمته التى وَسِعَت كلَّ شىء، وليكن كما قال محمد بن وُهيب:

وإنى لأَرْجُو اللهَ حتى كأننى أرى بجميل الظَّنِّ ماالله صانِع

وسيمرُّ عليك قريبا طَرَفٌ من قولهم فى الرجاء.

عبقرياتهم فى التقوى

ولنأخذ الآن فى عبقرياتهم فى التقوى: قال الله سبحانه: «إن أكرمَكم عند الله أتقاكم» قال الإمام البيضاوى فى تفسيره: فإن التقوى بها تَكمُل النفوس وتتفاضل الأشخاص، فمن أراد شرفا فليلتمِسْه فيها، كما قال عليه الصلاة والسلام: مَن سَرَّه أن يكون أكرَمَ الناس فليتَّقِ الله، ومن سَرَّه أن يكون أقواهم فليتوكل على الله، ومن سَرَّه أن يكون أغنى الناس فليكنْ بما فى يدِ الله أوْثَقَ منه بما فى يديه... أقول: هذا كلامٌ عُلْوِىٌ مُعْرَق له فى الصدق والحق والكمال والمثل الأعلى.

(١) الحسنى: تأنيث الأحسن يقال: الاسم الأحسن والأسماء الحسنى. والأسماء الحسنى معروفة وهى ٩٩ اسما «انظر نهاية الأرب ج ٥ ص ٢٢٦» ومرادنا بقولنا ولله الأسماء الحسنى: الصفات، وهى الوحدانية والقدرة الى آخر مسميات هذه الأسماء الحسنى... وقد جاء فى القرآن الكريم: «ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون» سورة الأعراف.

(٢) للمعرى، وقد تقدم هذا البيت صدر باب البر والتقوى.

كُلَيمة في التوكل

« وبعد » فلمناسبة ذكر التوكل واقترانه بالتقوى فيما أوردنا عليك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وإشادة الإسلام به، والحث على أن يكون شعارَ المؤمن في كل أسبابه ، رأينا أن نُلِمّ به وبحقيقته إلماما . فنقول : التوكل : كلمة يراد بها أمران ، لا يُعَدّ التوكل توكلا على الحقيقة إلا إذا تحققامعا . فأما أول الأمرين فهو : الاعتقاد بأن الله عزّ وتقدّس هو وحده الذي بيده كلُّ شيء ، وأنه لاسواه الذي له مقاليد السموات والأرض ، وأنّ جميعَ الخلق فقراء كلَّ الفقر إلى عونه سبحانه ، وأنّه :

إذا لم يكن عَونٌ من الله للفتى فأول ما يَجني عليه اجتهادُهُ

وكل هذا مما لا خفاء بأنه مما تقتضيه عقيدة التوحيد التي قام عليها الإسلام ؛ وأما الأمر الآخر فهو : أن لا يكون المرءُ وُكَلَةً ، فلا يعتمد بعد الله إلا على نفسه ، وهذا الأمر الثاني يَكادُ يكون ضَرْبَ قولهم اليوم « الاعتماد على النفس » أو قول الطغرائي :

وإنما رَجُلُ الدنيا وواحدُها مَن لا يُعَوّل في الدنيا على رجل

والشطر الأول يَقتضي الاعتقادَ بالقَدَر خيره وشرّه ، والشطر الآخر يقتضي السعيَ والاحتياطَ لأمره ، ولا تنافُرَ بينهما ألبَتّة، وإنما هما ، لدى إنعام النظر ، شيء واحد يُعَبّر عنه بالتوكل ...

جاء رجل إلى سيدنا رسول الله فقال له : إني أُرسِلُ ناقتي وأتوكل ؛ فقال صلوات الله عليه : بل اعْقِلْها وتوكل ... ومرّ الشَّعبي بإبل قد فشا فيها الجرَب ، فقال لصاحبها : أما تُداوي إبِلَك ؟ فقال : إن لنا عَجوزاً نتّكل على دعائها ! فقال : اجعَل مع دعائها

شيئا من القَطِران ... وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر رضى الله عنه حين كَرِه طواعينَ الشام ورجع إلى المدينة : أ تفرُّ من قدر الله ؟ قال : نعم ، إلى قدر الله ... فقال له أينفع الحذَرُ من القدَر ؟ فقال : لسنا مما هناك فى شىء « تأمل » إنَّ الله لا يأمر بما لا ينفع ولا يَنْهَى عما لا يَضُرُّ « ألقِ بالك » ، وقد قال تعالى : ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التَّهْلُكة ، وقال تعالى : خذوا حِذْرَكم ... وفى كتاب كليلة : لا يَمنعُ العاقلَ يقينُه بالقدرِ من تَوَقِّى المخوفِ ، بل ليجمع تصديقاً بالقدَر وأخذاً بالحزم ، وقال شاعر :

والمرءُ تلقاهُ مِضياعاً لفُرْصَتِه   حتى إذا فاتَ أمْرٌ عاتبَ القَدَرَا

وقال آخر :

إذا عُيِّروا قالوا مَقادِيرُ قُدِّرَتْ   وما العارُ إلا ماتَجُرُّ المقادِر

وقال آخر :

وأوّلُ عجزِ القومِ عمَّا ينوبُهُم   تَدَافُعُهم عنه وطُولُ التَّواكُلِ

وقالوا فى المثل : مِن العَجْز الإحالةُ على المقادير ...

وإليك ما قاله الإمام الحافظ ابن حجر العَسْقلانى فى شرحه على صحيح البخارى المسمى فتح البارى [١] تأييداً لهذا الذى قلنا فى التوكل : والمراد بالتوكل : اعتقادُ ما دلّت عليه الآية : وما من دابَّةٍ فى الأرض إلا على الله رزقُها ، وليس المراد به تركَ التَّسَبُّب والاعتمادَ على ما يأتى من المخلوقين ، لأن ذلك قد يجُرُّ إلى ضِدّ ما يُرادُ من التوكل ، وقد سُئِل أحمد ـ بن حنبل ـ عن رجلٍ جلس فى بيته أو فى المسجد وقال : لا أعمل شيئا حتى يأتينى رزقى ، فقال : هذا رجل جَهِل العِلمَ « تأمل » فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله جعل رزقى تحت ظِلّ رُمحى ،

(١) ج ١١ ص ٢٥٦ طبعة عبد الرحمن محمد

وقال: لو توكلتم على الله حقّ توكّله لرزقكم كما تُرزَق الطير تَغدو خِماصًا وتَروح بِطانًا (١). فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق؛ قال: وكان الصحابة يتّجرون ويعملون في نخيلهم، والقُدْوَةُ بهم ... انتهى. «وبعد» فإن التوكل كما ترى وعلى ضوء هذا الذى قلنا: أُسٌّ من أُسسِ الأخلاق، إذ أنه يَكسِبُ صاحبه الجُرأة والإقدام و«الشجاعة الأدبية»، وأن لا يَخشى فى الحقّ لومةَ لائم، ويَنفِى عنه الجُبْنَ والتخاذل والخوف من الموت والجزعَ لدى نزول المصائب وما يجرى هذا المَجْرَى؛ ويَكسِب صاحبَه كذلك خُلُقَ الاعتمادِ على النفس وأن لا يَتّكل بعد الله إلا على نفسه. ومصداقُ هذا كله قوله صلى الله عليه وسلم: من سَرّه أن يكون أعزّ الناس فليكن بما فى يَدِ الله أوثقَ منه بما فى يده، ومَن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

عود إلى عبقرياتهم فى التقوى

وقال سبحانه: ومن يتّقِ الله يجعل له مَخْرَجًا ويَرْزُقْهُ من حيث لا يَحْتَسب، ومَن يتوكل على الله فهو حسبُه، إن الله بالِغُ أمرِه قد جعل الله لكلّ شيء قَدْرا « مَخرجًا: مَخلَصاً من مضايق الدهر، وقوله سبحانه: من حيث لا يحتسب، أى من وجهٍ لا يخطر بباله ولا يقع فى حسابه، وبالغ أمره: يبلغ ما يريد ولا يفوتُه مراد ولا يُعجِزُه مطلوب، وجعل لكل شيء قدرا: أى تقديرا وتوقيتا، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا عُلِمَ أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يَبق إلا التسليمُ للقدر والتوكلُ، ولا معنى للسُّخط وعدم الرضا » وعنه صلى الله عليه وسلم: إنى لأَعْلم

---

(١) أى تغدو بكرة وهى جياع وتروح عشاء وهى ممتلئة الأجواف.

آيةً لو أخذ الناس بها لـكفتْهم : ومن يتق اللهَ ... الآية . وقال سبحانه : ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاتِه ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون . « حق تقاته أى حق تقواه ، وهو استفراغ الوُسْع فى القيام بمـا أَمَرَ الله به واجْتنابِ ما نَهى الله عنه ، ومثـلُه : فاتقوا الله ما استطعتم ، يريد : بالِغُوا فى التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع شيئا ، وعن عبدالله بن مسعود : هو أن يُطاعَ فلا يُعْصَى ويُشْكَرَ فلا يُـكْفَر ويُذْكَرَ فلا يُنْسى ، وقيـل : هو أن تُـنَزَّهَ الطاعاتُ عن الالتفات إليها ، وعن تَوَقُّع المجازاة عليها ، وقيـل : هو أن لا تأخُذَه فى الله لومَةُ لائم وأن يقوم بالقِسْط ـ العـدل ـ ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه » وقال سبحانه : إن الله مع الذين اتقَوْا والذين هم مُحْسِنون « محسنون : أى فى أعمالهم ، مِن أحسن الشيء : أتقنَه » ... وقال بَزَرْجُمَهر : من قَوِىَ فليَقْوَ على طاعةِ الله ، ومن ضَعُف فليَضْعُف عن معصية الله ... قال ابن المقفّع : ليَحْرِص البلغاء أن يَزيدوا على هذه الكلمة ـ كلمة بزرجمهر ـ حرفاً ، « يريد : أنهـا كلمة جامعة » وقال عبد الملك بن مروان لبنيه فى مَرَضه : أُوصيكم بتقوى الله ، فإنها أزْيَنُ حُـلَّةٍ وأحصنُ كَهْفٍ ، فقال مَسْلمة بن عبد الملك ـ وكان حاضراً ـ وأقربُ إلى الصواب ، وأنفع فى المـآب : فقال عبدالملك : هاتان لا الأُوليان ... « الحُـلَّة : كل ثوبٍ جديد ، ولا يقال له حُلة إلا إذا اجتمع معه ثوب آخر وعمامة ، والـكهف : الملجأ ، وأصله كالبيت المنقور فى الجبل » وقال الحطيئة :

ولَسْتُ أرَى السعادةَ جَمْعَ مالٍ ولـكنّ التَّقِىَّ هو السعيد
وتقوى الله خـيرُ الزّادِ ذُخراً وعنـد الله للأتـقَى مَزيدُ
وما لابُدَّ أن يأتى : قريب ولـكنّ الذى يَمضى بَعيد

وقال الأعشى فى أبياته التى مَدح بها سيدَنا رسولَ الله :

أَجِدَّكَ لم تَسمَعْ وَصاةَ محمدٍ ... نبيِّ الإله حيثُ أَوْصَى وأشهَدا

إذا أنت لم تَرْحَل بزادٍ من التُّقى ... ولاقَيْتَ بعد الموتِ من قد تزوَّدا

نَدِمْتَ على أن لاتكون مكانَه ... فتَرْصدَ للموت الذى كان أَرْصَدا

« قوله : أجدك قال سيبويه : هو مصدر كأنه قال . أجدًّا منك ، ولكنه لايستعمل إلا مُضافا ، وقال الأصمعى : أجدك ، معناه : أبجد هذا منك ونصبها بطرح الباء ، وقال الليث : من قال : أجِدَّك بكسر الجيم فإنه يستحلفه بجِدّه وحقيقته ، وإذا فتح الجيم استحلفه بجَدّه ، وهو بخته تقول : أجِدَّك لاتفعل كذا ، وأجَدَّك لا تفعل كذا . وأرْصَد : أعَدَّ » وقال لَبيد :

إنَّ تَقْوَى رَبِّنا خَيرُ نَفَلْ ... وبإذن الله رَيْثِي وعَجَلْ

أَحْمَدُ اللهَ فلا نِدَّ له ... بيدَيْهِ الخيرُ ماشاءَ فَعَلْ

مَن هَداهُ سُبُلَ الخير اهتدى ... ناعِمَ البال ومَن شاء أَضَلْ

« النفل : الغنيمة والجمع أنفال ، ثم قال لبيد : وبإذن الله وتسهيله رَيْثِى ، أى بطئى ، وعجل : أى سرعتى ، فحذف ياء الإضافة للوزن : يقول ، إن الحركة والسكون بيد الله ، ولا ندّ له : لامِثل له ، وبيديه الخير : أى بقدرته التى هى كالآلة فى أفعاله تعالى ، كاليدين فى أفعالنا ، وتثنية اليد للمبالغة فى التشبيه ، وما شاء فعل : أى ماأراده فعله وبين ذلك بالبيت الثالث ، ... وقال أبو نُواس :

أَخِى مابالُ قلبِك ليس يَنْقَى ... كأنكَ لا تَظُنُّ الموتَ حَقًّا

أَلَا ياابْنَ الذين فَنُوا وبادُوا ... أَمَا واللهِ ماذَهبوا لتَبْقَى

وما أحدٌ بزادِكَ منك أحظَى ... وما أحدٌ بزادِكَ منك أشقَى

ولا لكَ غيرَ تَقْوى الله زادٌ ... إذا جعلَتْ إلى اللَّهَواتِ تَرْقَى

« جعلت : يريد النفس أو الروح وإن لم يتقدم لذلك ذكر، واللهوات جمع لهاة وهى : لحمة حمراء فى الحنك معلقة على عكدة اللسان ، وقال أبو العتاهية :

أطع الله بجهدك عامداً أو دون جهدك
أعط مولاك كما تطلب من طاعة عبدك

وقال بعض المتصوفة : من كان مع الله فقد هلك ، وإنما نجا من كان الله معه ، وقال رجل للشبلى : متى يقرب العبد من ربه ؟ فزعق ثم أنشد :

من لم يكن للوصال أهلا فكل إحسانه ذنوب

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى ابنه عبد الله فى غيبة غابها : أما بعد ، فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكره زاده ، ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى جلاء بصرك ، وعماد ظهرك ، فإنه لا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا جديد لمن لا خلق له ...

« قوله : ومن شكره زاده : فسيمر عليك قريبا معنى الشكر ، وقوله : ومن أقرضه جزاه ، فالقرض فى الأصل : ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه ، ولما كان الله سبحانه لا يستقرض من عوز فقد قالوا فى مثل قوله تعالى : وأقرضوا الله قرضا حسنا ، و : من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له : إن القرض معناه الفعل الحسن من اتباع أمر الله وطاعته ، والعرب تقول لكل من فعل إليه خيراً : قد أحسنت قرضى وقد أقرضتنى قرضاً حسنا ، وفى الحديث : أقرض من عرضك ليوم فقرك ··· يقول صلوات الله عليه : إذا نال عرضك رجل فلا تجازه ، ولكن استبق أجره موفرا لك قرضا فى ذمته لتأخذه منه يوم حاجتك إليه » ... وقال عمر بن عبد العزيز : ليست التقوى قيام الليل ولا صيام النهار والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن التقوى ترك

عما حرّم الله وأداءُ ماافترض الله، فمن رُزق خيراً بعد ذلك فهو خيرٌ ... وقال رجل لحكيم : أوْصِنى . فقال : إنِ استطعتَ أن لا تسىءَ إلى من تُحِبُّ فافعل ، فقال : وهل يُسىءُ المرءُ إلى من يُحبُّ ؟ قال : نعم : نفسُكَ إن عصيت الله .

التقوى مع الجهل

قال الحسن البَصرىّ : أدركتُ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : مَن عَمِل بغير علمٍ كان ما يُفسده أكثرَ مما يُصلحه ... وقال أيضاً : قصمَ ظهرى عالِمٌ لازُهدَ معه ، وزاهدٌ لاعلم معه ، هذا يدعو إلى جهله بزُهده ، وهذا يُنَفِّر عن عِلمِه بحِرْصِه : وقيل لأنو شروان : أىُّ الناس أوْلاهم بالسعادة ؟ فقال : أقلُّهم ذنوبا ، قيل : ومن أقلُّهم ذنوباً ؟ قال : أكملُهم عقلا ... وسيِّد الكلام فى هذا المعنى قوله تعالى : إنما يَخشى اللهَ من عباده العلماءُ ؛ وقد تقدم آنفاً . وفى الأثر : يكون فى آخر الزَّمانِ قُرّاءٌ فسَقَةٌ وعُبّادٌ جهلَة ، وركعةٌ من عالمٍ أفضلُ من سبعين ركعة من عابدٍ لاعِلْمَ معه .

التماوت والإفراط فى الخشوع

والأصل فى هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لرجلٍ جدَّ فى العبادة حتى غارَتْ عيناه : إن هذا الدينَ متين ، فأوْغِلْ فيه برِفق ، ولا تُبغِّض إلى نفسك عبادةَ ربّك ، فإن المُنْبَتَّ لاأرضاً قطعَ ولا ظهراً أبْقى ، ولَنْ يُشادَّ هذا الدينَ أحدٌ إلا غلبه... «متين» : أى شديد ، من متن متانة : اشتدّ وقوى ، قال تعالى : وأُمْلِى لهم إنَّ كَيدِى متين ، وقوله : فأوْغِل فيه برفق : أى ادخل ، وأصل الإيغال : الإمعانُ فى السَّير والإبعاد فيه يقول : سِرْ فى الدين برفق ولا تحمل

على نفسك فتكلفها مالا تطيق فتعجز وتترك العمل ، والمنبت : الذى أتعب دَابَّتَهُ حتى عَطِبَ ظهره فبَقِىَ مُنْقَطِعاً به ، من الانبتات وهو الانقطاع » ...

ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا مُطأطئاً رأسه ، فقال له : ارفَعْ رأسك ، فإن الإسلامَ ليس بمريض ... ونظر يوماً إلى رجل مُظْهِرِ النُّسُكِ مُتَماوِتٍ [١] فخفقه بالدرّة وقال : لا تُمِتْ علينا ديننا أماتك الله ... ونظرت السيدة عائشة رضى الله عنها إلى رجل كاد يموت تخافُتاً [٢] فقالت : ماهذا ؟ فقالوا : أحد القُرّاء ، فقالت : قد كان عمر بن الخطاب سيّدَ القرّاءِ ، فكان إذا قال أسمع ، وإذا مشى أسْرَع ، وإذا ضرب أوْجع ... وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله بعثنى بالحنيفيّة السمحة ولم يبعثنى بالرّهبانية ، فمن رغب عن سُنّتى فليس منّى ...

قلة اليقين فى الناس

قال الشعبى : لم يَقْسِم الله بين الناس أقلَّ من اليقين ... وقال ابن الرومى من همزيته البارعة التى يعاتب فيها أبا القاسم الشطرنجى ـ ونذكر من أبياتها المختارة ما يصح أن يذكر هنا ، كما يصح أن يذكر فى باب القناعة قال :

مرحباً بالكَفافِ يأتى هنيئاً ... وعلى المُتْعِباتِ ذَيلُ العَفاء [٣]
ضَلّةً لامْرِئٍ يُشَمِّرُ فى الجَمْـعِ لِعيشٍ مُشَمِّـرٍ للفَناءِ [٤]

(١) المتماوت : الذى يظهر من نفسه الضعف من العبادة والزهد والصوم
(٢) التخافت : تكلف الخفوت ، وهو : الضعف والسكون
(٣) الكفاف من الرزق : القوت وما كف عن الناس أى أغنى عنهم ، والمتعبات : الأمور التى تتعب صاحبها فى تحصيلها ، والعفاء : الدروس وامحاء الأثر
(٤) ضل من يكد فى جمع المال لعيش يسرع فى الزوال

دائبـاً يَـكْـنِزُ القَناطيرَ للْوا ... رِثِ والعُمْرُ دائبٌ في انقضاء (١)

حَبَّـذا كَثْرَةُ القناطيرِ لوكا ... نت لِرَبِّ الـكنوزِ كَنْزَ بَقاءِ

إلى أن قال :

حَسْبُ ذِى إِرْبَةٍ ورأيٍ جَلِيٍّ ... نَظَرَتْ عينُه بلا غُلَواءِ (٢)

صِحَّةُ الدينِ والجوارِحِ والعِرْ ... ضِ وإحرازُ مُسْكَةِ الحَوباءِ (٣)

تِلْكَ خيرٌ لعارفِ الخيرِ مِمَّا ... يَجْمَعُ الناسُ من فُضولِ الـثَّراءِ

ولهـا من ذَوِى الأَصالةِ عُشا ... قٌ ولَيْسُوا بتابِعِى الأَهْواءِ

ليسَ للمُكْثِرِ المُنَغَّصِ عَيْشٌ ... إنمـا عيْشُ عائشٍ بالهَناءِ

إلى أن قال :

ظُـلِمَتْ حاجَتِى فلاذَتْ بِحَقْوَ ... يْكَ فأَسْلَمْتَها لِـكَفِّ القَضاءِ (٤)

وقضاءُ الإلٰهِ أَحْوَطُ للنـا ... سِ من الأُمَّهاتِ والآباءِ (٥)

غيرَ أن اليقينَ أَضْحَى مَرِيضًا ... مَرَضًا باطِنًـا شديدَ الخَفاءِ

ما وَجَدْتُ امْرَءًا يُرَى أنَّه يُو ... قِنُ إلا وفيه شَوْبُ امْتِراءِ (٦)

لو يَصِحُّ اليقينُ ما رَغِبَ الرَّا ... غِبُ إلا إلى مَليكِ السماءِ

وعسيرٌ بُلوغُ هاتِيكَ جِدًّا ... تلكَ عُليـا مراتِبِ الأنبياءِ

---

(١) دائبا من دأب فى عمله : مضى فيه بجد وتعب ، ويكنز من باب ضرب ونصر : يحرز الأموال ، والقناطير : يعنى من الذهب والفضة وما إليهما

(٢) الإربة : الدهاء ، والغلواء : الغلو (٣) أى والحصول على ما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب ، والحوباء : النفس (٤) لاذت : لجأت واحتضنت ، والحقو بفتح الحاء وكسرها : الإزار أو معقده يقول : فتعلقت بأهدابك أى التجأت إليك فسلمتها وتركتها للقضاء (٥) أحوط : أعظم حفظاً وصيانة (٦) يقول : لم أجد أحداً يظن أن عنده يقينا بالله إلا وفى نفسه شوب من الشك

وقال حكيم : من الدلالة على قلة اليقين ، أنك تخيَّرُ يوما عن خير الدنيا بالنّسيئةِ : طمعًا فى الرِّبح ، طفيفَ ربْح مع مافيه من الخطر، وتأبَى أن تُقرِض اللّهَ دِرْهما بثمانمائة ، مع زَعْمِك وقولك إن مُسْتَقْرِضَه مَلِىءٌ وَفِى « هكذا ورَدَت هذه الكلمة فى محاضرات الأدباء ، ويظهر أنها إمّا مُحَرَّفةٌ وإما أنها مُعاظَلة[1] وهى على الرغم من ذلك تكاد تكون مفهومة ، فالظاهر أن قائلها يريد أن يقول: إنّ مما يدُلُّ على قلة اليقين أنك لو خُيِّرت بين ربح كثير آجل نسيئةً عند الله ، بأن تُقرِضَه مثلا درهما بثمانمائة ، وبين ربح طفيف عاجل فى الدنيا قد حُفّ بالخطر ، لاخترت الثانىَ على الأول ، مع زَعْمِك بأن من تقرضه ـ وهو الله عز وجل ـ مُضْطلع بمضاعفة القَرْض وتوفيتك حقك وإعطائك إياه وافيا ... »

إصلاح الضمير

دخل حُمَيْد الطويل على سليمانَ بن على وَالى البصرة فقال له : عِظْنى ، فقال حميد : لئن كنت حين عَصَيتَ ربك ظَنَنت أنه يراك فقد اجترأت على الله ، ولئن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت ... وقالوا : إذا فسدت النّيّة وقعت البليّة ، وقال رجل لسيدنا رسول الله : لقد سمعناك يارسول الله تقول : شيَّبَتْنى هود[2] ، فما الذى شيَّبك منها ؟ قال : قوله تعالى : فاستقِم كما أُمِرْت ... ورَوَوا أن السيد المسيح صلوات الله عليه قال : ياربِّ ، مَنْ أشرفُ الناسِ ؟ قال : من إذا خَلَا علِمَ أنى ثانيه فأجلَّ قدرى عن أن يُظهِرَنى على مَعاصيه ... ومَرَّ

(١) معاظلة : أى عاظلها قائلها : أى عقدها عجزا عن الإفصاح أو قصداً

(٢) هود : أى سورة هود وفيها يقول الله جل شأنه لسيدنا رسول الله: فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ، ولما كان العمل بمضمون هذه الآية الكريمة فى غاية العسر قال سيدنا رسول الله : شيبتنى هود

عمر رضى الله عنه بمملوك يَرْعَى غنما، فقال: أتبيعُنى منها شاةً؟ قال: ليست لى، قال: فأين العِلَلُ؟ قال: فأين الله: فاشتراه عمر وأعتقه، فقال المملوك: اللهم قد رزقتنى العِتْقَ الأصغر فارزقنى العِتق الأكبر، أعوذ بك من قلب غائب عنك ... وقال السرىّ السقطى [1]: بتصحيح الضمائر تُغتفر الكبائر؛ وفى الأثر: تعرَّفْ إلى الله فى الرخاء يَعرِفْك فى الشدّة «أى تعرّف إليه فى الرخاء بالشكر وذِكْر الآلاء يعرفك فى الشدة بالعصمة ...» وقال بعض المتصوفة: إن الله لا يَشْغَلُه عنك شىء فإن استطعت أن لا يشغلك عنه شىء فافعل ...

احتمال المكاره فى العاجل رجاء المسارّ فى الآجل

ومن جوامع الكلم فى ذلك قول سيدنا رسول الله: حُفَّتِ الجنة بالمكاره وحُفّت النارُ بالشهوات «حُفَّت: أحيطت، والمكاره جمع مَكْرُهة وهى: مايكرهه المرء ويشق عليه، والشهوات: كل مايوافق النفس وتصبو إليه. قال الإمام القرطبى: أصل الحَفّ: الدائر بالشىء المحيط به الذى لا يُتوصّل إليه إلا بعد أن يُتخطّى، فمثّل المصطفى المكارِهَ والشهواتِ بذلك، فالجنة لاتنال إلا بقطع مفاوز المكاره والصبر عليها، والنار لا يُنْجَى منها إلا بفطْم النفس عن مطلوباتها، وقال ابن حجر: هذا من جوامع كلم المصطفى وبديع بلاغته فى ذمّ الشهوات وإن مالت إليها النفوس، والحث على الطاعات وإن كرِهتها وشقت عليها» ولما تاب بعض الصوفية كان لا يَتَهَنّأ بطعام ولا شراب فقالت له أُمه: ارْفُقْ بنفسك، فقال: الرِّفْقَ أطْلُب لها ... وهذا كقول الربيع بن خُثَيم وقد صلى طول ليلته حتى أصبح وقال له رجل: أتعبت نفسك فقال: راحتها أطْلُب ...

[1] أحد رجال الطريقة وخال أبى القاسم الجنيد، ترجم له ابن خلكان

ومثل هذا ـ وإن كان من بابة أُخرى ـ قول العباس بن الأحنف :

سأطلُبُ بُعْدَ الدار عنكم لتقْرُبوا ... وتَسْكُبُ عيْناىَ الدُّموعِ لِتَجْمُدَا[١]

وقول الآخر :

تقولُ سُلَيْمَى لو أَقَمْتَ بأرْضِنا ... ولم تَدْرِ أنى للمُقامِ أُطَوِّفُ

مراعاة الدين والدنيا معاً

قال تعالى : ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا ... وقال سيدنا رسول الله : ليس بخيركم مَن ترك دُنياه لآخرته ، ولا آخرتَه لدنياه ، حتى يُصيب منهما جميعا ، فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة ، ولا تكونوا كَلاًّ على الناس ... « كلاًّ » : عيالا وثِقْلًا » وكان محمد بن على بن عبد الله بن عباس يقول : اللهم أعِنِّى على الدنيا بالغِنَى ، وعلى الآخرةِ بالتَّقوى . وقال مروان بن أبى حفصة لِعمارةَ بنِ حمزة[٢] : أنشدْتُ المأمون قولى :

أضحى إمامُ الهُدى المأمونُ مُشتغِلا ... بالدين والناسُ بالدنيا مَشاغيلُ

فلم يَهتَمّ لذلك ! فقال عمارة : مازِدْتَ على أن صيَّرْتَه عجُوزاً مُعتكفةً فى مِحرابِها ،

---

(١) كنى بالجمود عن السرور ... وللنقاد فى هذه الكناية كلام حسن انظره إذا شئت فى شرحنا على التلخيص

(٢) شخصية ضخمة ، كان أديبا وكان كاتبا وكان جوادا كريما وكان من سروات الناس وكان تياها معجباً معتداً بنفسه وكان فى زمن السفاح والمنصور وبقى الى زمن المأمون وتولى الولايات العظيمة فى أيامهم وكان من شدة اعتداده بنفسه اذا أخطأ يمضى على خطائه ويأنف من الرجوع ويقول : نقض وابرام فى ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك » انظر ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت وهى زاخرة بكل مايطرب ويعجب من سيرة هذا عمارة بن حمزة»

فمَنْ لأمور المسلمين ! هلّا قلت كما قال جرير :

فــلا هو فى الدنيا مُضِيــعٌ نصيبَهُ
ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شاغِـلُه !

والمشهور فى هذا المعنى قول الفاروق رضى الله عنه : اعْمَل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا ... وقال الشاعر :

ولله مِنِّى جانبٌ لاأُضيعهُ ولِلّهْوِ مِنى والخَلاعة جانب

وسيمر بك كثير من عبقرياتهم فى هـذا المعنى، فى مواضع أخرى من هذا الـكتاب .

الرجاء والجمع بينه وبين الخوف من الله

قال تعالى : فى صفة المؤمنين : يَرجُون رحمته ويخافون عذابه ، وقال حكيم : ارْجُ إذا خِفْتَ وخَفْ إذا رجوت ، وكن كالمرأة الحامل ليس رجاؤها أن تلِدَ ولداً ذكرا بأكثر من خوفها أن تلِدَ أُنثى . وقريب من هذا قول رجل لابنه : خَفِ الله خوفاً لا يمنعك من الرجاء ، وارْجُه رجاءً لا يمنعك من الخوف ، فالمؤمن له قلبان : يرجوه أحدهما ويخافُه الآخر وقال :

أنا بين الرجاء والخوف منه واقِفٌ بين وعده والوَعيد

وقال أبو نُوَاس :

لا تحظُر العفوَ إن كنت امْرَءًا حَرِجاً فإن حظْـرَكهُ بالدين إزْراء

وقال أيضا :

يا كثير الذنْبِ عفو الله من ذنبك أكثر

وقال :

تَبَسَّطْنـا على الآثامِ لمّـا ... رأينا العفوَ من ثَمَرِ الذنوب

وقال :

تَكَثَّرْ مااستطعت من الخطايا ... فإنك بالِـغٌ ربًّا غفورا
سَتُبْصِر إن وَرَدْتَ عليه عفْوًا ... وتَلْقَى سيـداً مَلِكاً كبيرا
تَعَضُّ نَدامةً كفَّيْـك مما ... تركتَ مخافة النار السُّرُورا

وفى الأثر : ماأُحِبُّ أنّ لِيَ الدنيا وما فيها بهذه الآية : قلْ ياعِبادى الذين أسرفوا على أنفُسهم لاتقْنَطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ... وقال ابن عباس لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أىُّ آية أرْجَى؟ قال : إن الله لايغفر أن يشْرَكَ به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء، فقال : إن هذه لمرْجُوَّة ، وأرْجَى منها قوله تعالى : إن الله لذُو مغفرة للناس على ظُلمِهِمْ ... وقال أعرابىٌّ لابن عباس : مَن يحاسب الخلقَ يومَ القيامة ؟ قال : يحاسبهم الله تعالى قال : نجَوْنا وربِّ الكعبة ، فقال : كيف ! قال : إن الكريم إذا قَدَرَ غفَر ... وسمع أعرابىٌّ عبدَ الله بن عباس يقرأ قول الله تعالى : وكنتم على شَفا حُفرَة من النار فأنقذَكم منها ، فقال : والله ماأنقذنا منها وهو يريد أن يُلقِيَنا فيها ! فقال ابن عباس : خذوه من غير فَقيه ...

* * *

العبادة لاطلبا للثواب ولا خوفا من العقاب

وقد تقدم لنا آنفا قول فى ذلك ونَزيد فنُورِدُ طَرَفا من عبقرياتهم فى هذا المعنى : قال الشِّبْلى : من عَبَدَه رجاءَ الجنة فهو عبدها ، أو خوفَ النار ، فهو عبدها ، لأن من خاف شيئا أو رَجاهُ فهو معبوده ، وقال بعضهم : من عبَد

الله بعوض فهو لئيم ، وقال آخر : اللهم إن كنت تعلم أنى أعبدك خوفا من نارك فأحرقنى ، أو طمعا فى جنتك فاحرمنيها ، وإن كنت تعلم أنى أعبدك حبًا لك وشوقا إلى لقائك فأبحنيه ... وقيل لرابعة العدوية : مالكِ لاتسألين الله الجنة فى دعائك ؟ فقالت : الجار ثم الدار ... « تعنى بالجار : ذا الجلال والإكرام » وقد أوردنا بيت المعرى :

ولتفعل النفسُ الجميلَ لأنه خيرٌ وأحسن لا لأجل ثوابها

غير مرة فيما أسلفنا ، وقال بعضهم فى قوله صلى الله عليه وسلم : أكثرُ أهلِ الجنة البُلهُ ، قال : لأنهم فى شُغُلٍ فاكِهون ، شغلهم النعيم عن المُنعِم ، ومَن رضِى بالجنة عن الله فهو أبله . أقول : حديث : أكثر أهل الجنة البُله : حديث ضعيف « انظر شرح الجامع الصغير للمناوى » وعلى أنه ضعيف فقد أوّلوه تأويلا حسنا : فقال الأزهرى : الأبله : الذى طُبِعَ على الخير ، فهو غافلٌ عن الشرّ لا يعرفه ـ أقول : أو يعرفه ولكن يتجنبه ـ وقال النَّضر بن شُمَيل : الأبله : الميّتُ الداء ، أى أن شرّه ميّت لا ينتبه له . والمرأة بلهاء ، قال الشاعر :

ولقد لهَوْتُ بطفلةٍ ميّالةٍ بلهاءَ تُطلِعُنى على أسرارها

أراد : أنها غِرّ لا دهاء لها فهى تخبرنى بأسرارها ولا تفطَنُ لما فى ذلك عليها . وقال الزِّبْرِقان بن بدر : خيرُ أولادِنا الأبلهُ العقول ، يعنى : أنه لشدةِ حيائه كالأبله وهو عقول « مُبالغة من العقل » وقال الزمخشرى فى صفة الصُّلحاء : هَيِّنون لَيِّنون ، غير أن لا هَوادة فى الحق ولا دَهانة ، بُلهٌ ، غَوْصهم على الحقائق يغمر الألباب والأذهان ، وذلك لأنهم أغفلوا أمرَ دنياهم فجهلوا حِذقَ التصرف فيها فأقبلوا على آخرتهم فشُغِلوا بها فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهلها ،

الرياء

الرياء : ترك الإخلاص فى العمل بملاحظة غير الله فيه : ومن عبقرياتهم فيه : قال سيدنا رسول الله : إن أَخْوَفَ ما أخاف على أُمَّتى الرِّياءُ الظاهر والشَّهْوةُ الخفية. وقالوا : أعظم الرياء حُب المَحْمَدَة . وقالوا إذا عمل الرجل العمل وكتَمَه وأحبَّ إعلامَ الناسِ أنه كتمه ، فذلك أقبح الرياء ، وقال أبو نواس :

وإذا نَزعتَ عن الغَوايةِ فليَكن ... لله ذاكَ النَّزْعُ لا للناسِ

وقال لقمانُ لابنه : اتق الله ولا تُرِى الناسَ أنك تخشاه ليُكرِموك... وقال بعضهم : كان الناسُ يراؤن بما يفعلون فصاروا يُراؤن بما لا يفعلون. وقالوا : ما الدخان بأدلَّ على النار من ظاهر أمر الرجل على باطنه ... وقالوا فى وصف المرائى : له سَمْتُ أبى ذَرّ على قلب أبى جهل [٢] وقال صلى الله عليه وسلم فيمن تنسك طمعا فى عرَض الدنيا : أكثرُ مُنافِقى هذه الأمَّة قرّاؤها ، قال ابن الأثير : أى أنهم يحفظون القرآن نفيا للتهمة عن أنفسهم وهم مُعتقدون تضييعه [٣] ، وكان المنافقون فى عصر النبى بهذه الصفة. وقال

(١) إذا أردت التوسع فى القول على الرياء وحقيقته وأنواعه وعلاجه فعليك بإحياء علوم الدين للغزالى

(٢) أبو ذر الغفارى هو الصحابى الجليل الزاهد الورع الصادق اللهجة الذى قال فيه سيدنا رسول الله : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبى ذر وقال فيه سيدنا على : أبو ذر وعاء ملئ علما ثم أوكى عليه ، أوكى عليه أى شد بالوكا. وهو الخيط يشد به فم القربة ، توفى سنة ٣١ هـ أما أبو جهل فهو عمرو بن هشام أعدى أعداء سيدنا رسول الله قتل فى غزوة بدر (٣) أى مضمرون عدم العمل به

الزمخشري : أراد بالنفاق الرياء ، لأن كلا منهما إرادة ما في الظاهر خلاف ما في الباطن . وقال الغزالي : آحذَر من خصال القرّاء الأربعة : الأمل والعَجَلة والكِبْر والحسَد ، قال : وهي عِللٌ تعترى سائرَ الناس عموما والقرَّاءَ خصوصا ، ترى القارئَ يُطوِّل الأمل فيُورِقعهُ في الكسل ، وتراه يَستعجل الخير فيُقْطع عنه ، وتراه يَحْسُد نُظراءَه على ما آتاهم الله من فضله فربما يبالغ به مَبالغا يَحمِله على فضائحَ وقبائحَ لا يُقْدِم عليها فاسقٌ ولا فاجرٌ . وقال الفضيل بن عِياض لابْنه : اشترُوا داراً بعيدةً عن القُرّاء ، مالي والقوم؟ إن ظهَرَت مِنِّي زَلَّةٌ قتلوني ، وإن ظهرت عليَّ حسنةٌ حسدوني ، ولذلك ترى الواحد منهم يتكبر على الناس ويَسْتَخِفُّ بهم مُعَبِّسا وجهه كأنما يمُنُّ على الناس بما يُصَلِّي زيادة ركعتين ، أو كأنما جاءه من الله منشورٌ بالجنة والبَراءة من النار ، أو كأنه استيْقَنَ السعادة لنفسه والشقاوةَ لسائر الناس ، ثم هو مع ذلك يَلبَس لباسَ المتواضعين ويتماوتُ ، وهذا لا يليق بالتكبُّر والترفُّع ولا يلائمه لكن الأعمى لا يُبْصِر ... أقول : كل ما قالوه في القراء مما يَصحُّ أن يقال في علماء الدين وفي المُتَنَسِّكين ، لأنه يقال تقرَّأ فلان أي تفقَّهَ ، ويقال : تقرَّأ : أي تنَسَّكَ ، قال زيد بن تُرْكيٍّ الزُّبَيْدِيُّ ، وقال الفراءُ : أنشدني أبو صَدَقة الدبَيْريُّ :

ولقد عَجِبْتُ لكاعِبٍ مَوْدُونةٍ ... أطـرافُها بالحَـلْيِ والحِنَّاءِ

بيضاءَ تَصطادُ القَوِيَّ وتَسْتَبِي ... بالحُسْن قلْبَ المُسْلِمِ القُـرَّاءِ

«مَوْدونة : مُليَّنة وأطرافها نائب فاعل «مودونة» ورَوَوا أن بلالَ بنَ أبي بُردة وَفَدَ على عمر بن عبد العزيز فجعل يُديمُ الصلاة فقال عمر : ذلك التَّصنُّع «فقال له العَلاءُ : أنا آتِيك بخبَره ، فجاءه وهو يُصلي فقال له : مالي عندك إن بعَثتُ أمير المؤمنين على توليتك العراقَ؟ قال عُمالتي سنةً أي وظيفتي ومُرَتَّبي ــ وكان مبلغُه عشرين

ألف درهم ، فقال : اكتُبْ بخطّك ، فكتب إليه ، فجاء الملاءُ إلى عمرَ فأخبرَه ، فقال : أراد أن يَغُرَّنا بالله ··· ودخل على أبي جعفر المنصور رجلٌ بين عينَيه كَرْكبَة البعير ـ وذلك يكون من أثر السجود ـ يريد القضاءَ ، فقال المنصور : إنْ كنتَ أردْتَ الله بهذا فما ينبغي أن نَشغَلك عنه ، وإن كنت أردت خداعنا فما ينبغي أن نَنخَدِعَ لك . وقال شاعر :

لا تصحَـبَنَّ صحابةً حلقوا الشواربَ للطمَع
يَبكي ويُجـلُّ بُكائه ما للفريسةِ لا تقَعْ

وقال آخر :

عَمَّروا مَوْضع التَّصنُّعِ منهُمْ ومكانُ الصلاح منهم خرابُ

ويُروى هذا البيت على وجه آخر ···

ورَوَوا أن بعض الناس كان يَدع زَكاتَه من الفقير ويَسترجعُها منه بدرهم أو درهمين . ويُروى أغربُ من ذلك وأقعدُ في باب الحِيَل الشرعية المحرَّمة ، وذلك أن أحد مشيختنا الذين تولَّوا مشيخة الإسلام والإفتاءَ في الجيل الغابر بمصر ـ وكان غنياً مثرياً ـ كان يحتال في زكاة المال بأن يَضعَ قيمة مايجب عليه أن يُزكّيه عن ماله في العِياب «الزكائب» المملوءة قمحا ثم يُفهِم الفقراء أن هذه هي زكاتهم ثم يشتريها منهم بثمن بَخْس ، وبذلك يظن أنه قد قام بفريضة الزكاة «يخادعون الله وهو خادعهم»

التوبة

التَّوبة : الرجوع عن الذنب ، يقال : تاب إلى الله يتوبُ توبةً وتَوْباً ومتاباً : أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة ، وتاب الله عليه : وفَّقه إلى التوبة أو

عاد عليه بالمغفرة ، وقال عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه : التوبة على أربعة دعائم : آستغفار باللسان ونيّة بالقلب وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعودَ . وفى الحديث : مَن تاب قبلَ موته بفُواقِ ناقة حرَّم الله وجهَه على النار « الفُوَاق : أن تُحْلَب الناقة ثم تُترك لحظة يَرضَعُها الفصيل لتَدِرّ ثم تحلب »

وقال عز وجل : ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحًا « التوبة النصوح : الخالصة التى لا يُعاوَدُ بعدها الذنب » وقال تعالى : إنما التوبة على الله للذين يعملون السُّوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إنى تُبْت الآن « يقول سبحانه : إنما قبول التوبة كالمحتوم على الله لمن أذنب بجهالة وسَفَه ـ فإن ارتكاب الذنب سَفَهٌ وتجاهل ، ومن ثَمّ قيل : من عصَى الله فهو جاهلٌ حتى يَنزِعَ عن جهالته ـ ثم يتوبون قبل الموت قال عليه السلام : إن الله يقبل توبَةَ عبْدِه مالم يُغَرْغِر ، قال المفسرون : وسماه قريبا لأن أمَدَ الحياة قريب ، أو قبل أن يُشْرَب فى قلوبهم حُبُّه فيتعذّر عليهم الرجوع »

المبادرة إلى التوبة

وقد حثُّوا مع ذلك على المبادرة بالتوبة والإقلاع عن المعاصى فروَوا أنه قيل لرجل : أوْصِ ، فقال : أُحَذِّرُكم « سَوف » ، وقال شاعر :

والمرءُ مُرْتَهَنٌ بسَوْف ولَيْتَنِى . وهلاكُه فى سَوْفِهِ وألَّيْتِ

وقال آخر :

أُسَوِّفُ توبتى خمسين عامًا وظَنِّى أنَّ مِثْلى لا يتوبُ

وقال بعضهم : نحن لانريد أن نموتَ حتى نتوبَ ولا نتوبُ حتى نموتَ ...

وقال بعضهم لرجل : عِظْني ، فقال : قد قطعْتَ عامّةَ سَفَرِك ، فإن استطعت ألا تَضِلَّ في آخره فافعل ... وقال مُصعَب بن الزبير : ادفع سَطْوَةَ الله بسرعة النُّزُوع ، وحسنِ الرجوع ، فيُوشِك أن المنايا تَسْبِقُ الوصايا ، وقالوا في قوله تعالى : بل يُريد الإنسانُ لِيَفْجُرَ أمامَه : يُكْثِرُ الذنوب ويؤخّر التوبة أو يُسوِّف بالتوبة ويقدم الأعمال السيئة ، وقال مُؤَرِّج السدوسي[1] : فَجَرَ : إذا ركب رأسه فمضى غير مُكْتَرِث ، وقوله : لِيَفْجُرَ أمامَه : لِيَمْضِ أمامه راكبا رأسه ... وقال سيدنا رسولُ الله لرجل وهو يَعِظه : اغتنِمْ خمسًا قبل خمس : حياتَك قبلَ موتك ، وصِحّتَك قبل سَقَمِك ، وفَراغَك قبل شُغلك ، وشبابك قبل هَرَمِك ، وغِناك قبل فَقْرِك . » اغتنم حياتك قبل موتك : اغتنم ماتأتي نفعه وثوابه بعد موتك . وصحتك قبل سقمك : اغتنم العمل حال الصحة فقد يمنع مانع كالمرض فتُقْدِم بغير زاد . وفراغك قبل شغلك : اغتنم فراغك في هذه الدار قبل شغلك بأهوال مابعد الموت ، أي اغتنم فرصة الإمكان لعلك تسلَم من الهوان . وشبابك قبل هرمك : اغتنم الطاعة وفعل الخير حال قدرتك قبل هجوم عجز الكبر عليك فتندم على مافرّطت في جنب الله . وغناك قبل فقرك : اغتنم الإحسان والتصدق بفضول مالك قبل أن تنزل جائحة تُفْقِرك . ولك أن تقول : إن هذه الوصية الكريمة مَغْزاها عامٌّ شامل يراد بها المبادرة إلى العمل وانتهاز الفُرص قبل فواتها ، وقال الشاعر .

إذا أنتَ لم تَزْرَع وأبصرتَ حاصِداً ندِمْتَ على التفريط في زَمَن البَذْر

وقال أبو العتاهية :

فواعجبًا كيف يُعْصَى المليكُ أم كيف يجحَدُه الجاحِد

(١) نحوى بصرى ، أخذ عن الخليل ؛ توفى هو وأبو نواس فى يوم واحد سنة ١٩٥

وللهِ في كلِّ تحريكةٍ وتسكينةٍ في الورى شاهدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدُ

وقال الآخر:

ترجو النَّجاةَ ولم تسلُكْ مسالكَها إنَّ السَّفينةَ لاتجرى على اليَبَسِ

وجاء حبيب بن الحارث إلى سيدنا رسول الله فقال: إنى مُقارِفٌ للذنوب، فقال: تُبْ، فقال: إنى أتوب ثم أعود، فقال: كلما أذنبت ذنبا فتُب، فعفوُ الله أكبر من ذنوبك. وفى الحديث: إن الرجل ليُذنِبُ الذنبَ فيدخُل به الجنة، فقيل: وكيف يارسول الله؟ قال: يكونُ نُصبَ عينِه خائفا منه حتى يدخُل الجنة ... واجتمع ثلاثة من الحكماء عند كِسْرى فتذاكروا فى شرِّ الأشياء فقال أحدهم: الهَمُّ يقترِنُ بالعُدْمِ ـ الفقر ـ وقال الثانى: سُقْمُ البدن ودوامُ الحزْنِ، وقال الثالث: دُنُوُّ أجل وسوء عمل ... نحكم لهذا ... ودعا بعض الصالحين فقال: أعوذُ بالله من وُقوع المَنِيَّة ولما أبلُغِ الأُمْنِيَّة ... وقال حكيم: الأيامُ صحائف آجالِكم فأوْدِعوها أجملَ أفعالِكم... وقال علىُّ بن الحسين رضى الله عنهما: عَجِبْتُ لمن يَحتَمِى عن الطعام لِمَضَرَّتِه ولا يحتمى عن الذنب لمعرَّتِه! وقال بعضهم حضرتُ مجلس الشِّبْلى [1] فقام إليه رجل من أصحابه وقال له: أوْصِنى، فقال له: لقد أوصاك الشاعر بقوله:

قالوا توَقَّ ديارَ الحىِّ إن لهم عيْنًا عليك إذا ما نِمْتَ لم تَنَمِ

---

(١) الشبلى ـ وقد تكرر ذكره فى هذا الكتاب ـ هو أبو بكر دلف بن جحدر، والشبلى: نسبة إلى شبلة، بلدة من بلاد ماوراء النهر ـ سمرقند وبخارى وما إليهما ـ كان فى مبدأ أمره واليا لإحدى الولايات ثم تاب وتصوف وبلغ المبالغ فى ذلك، كان جليل القدر مالكىّ المذهب وصحب الشيخ أبا القاسم الجنيد ومن فى عصره من الصالحين توفى سنة ٣٣٤ هـ ببغداد وعمره سبع وثمانون سنة

وقال يحيى بنُ معاذ : اجتناب السيئات أشدُّ من اكتساب الحسنات ... وسمع الحسنُ البَصْرى رجلا يقول : اللهم اجعلْنا منك على حذر ، فقال : إنه قد فعل ذلك ، أليس قد سترَ عنك أجلَك ، فلستَ من حياةٍ ساعةٍ على يقين !

الاستغفار

قال علي بن أبي طالب : العَجَبُ لمن يَقْنَطُ ومعه النجاة : الاستغفار ... وقالوا لاصغيرةَ مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . وقال حكيم : أيها السلاطين ، لابُدَّ لكم من المَعاصى الكبار فافعلوا بإزائها طاعاتٍ عظيمةً ، أيها الأوساط ، يُمكنُكم الطاعات العظيمة ، كالمصالح التى لا يَقدر عليها إلا السلطان ، فلا تركَبوا المعاصى الكبيرة ... وقال بعضهم : سمِعَنى راهبٌ أقول : أستغفر الله ، فقال : يافتَى ، سُرْعة اللسان بالاستغفار توْبةُ الكذَّابين ... ويدُل على ماقاله قوله صلى الله عليه وسلم : المستغفر باللسان المُصرُّ على الذنب كالمُستهزئ بربه . وقال الربيع بن خُثَيم : لا يقولَنَّ أحدكم : أستغفر الله وأتوبُ إليه فيكون ذنبًا جديداً إذا لم يفعل ، ولكن لِيَقُلْ : اللهمَّ ، تُبْ علىَّ واغفرلى ، فقيل : ولِمَ ؟ فقال : انْتهِ عمَّا ينهاك عنه فإنه يغفر لك ... وقال عمر رضى الله عنه : لم أرَ أشدَّ طلبا وأسرعَ دَرَكا من حسنةٍ حديثة لذنْبٍ قديم . « دركا بسكون الراء وفتحها: لحاقا وإدراكا » ... وسُئل بعض المُجَّان : كيف أنت فى دينك؟ قال: أُخرِّقه بالمعاصى وأرقِّعُه بالاستغفار ...

« وأما بعد » فلو يُؤاخذ اللهُ الناسَ بما كسبُوا ماترك على ظهرها من دابّة ولكن يؤخِّرُهم إلى أجلٍ مُسمَّى فإذا جاء أجلهُم فإن الله كان بعباده بصيرا [1] .

(١) آية كريمة والآية : ولو يؤاخذ الله الناس ... الآية

يامَنْ يَرَى مَدَّ البَعُوضِ جَناحَها ... فى ظُلْمَةِ الليـلِ البهيمِ الأَلْيَلِ
ويَرى عُروقَ نِياطِها فى نَحْرِها ... والمُخَّ فى تِلْكَ العِظامِ النُّحَّلِ
اغْفِرْ لِعبْـدٍ تابَ من فَرَطاتِه ... ماكان مِنْهُ فى الزَّمانِ الأَوَّلِ (١)

عبقريات شتى

فى الخوف والتقوى

وردفى الحديث الصحيح : لو تَعلَمونَ ماأعلمُ لَضحِكتم قليلا ولبَكَيْتم كثيرا ، ولمَا ساغَ لكم الطعامُ ولا الشَّرابُ » لضحكتم قليلا : أى لم تضحكوا ألبتَّة إذ القليل ههنا بمعنى العَدَم »... وجاء فى خطبة لسيدنا رسول الله : أيها الناس ، إن لكم معالِمَ فانْتهُوا إلى مَعالِمِكم ، وإن لكم نهايةً فانتَهُوا إلى نهايتكم ، فإن العبدَ بين مخافتَين : أجلٌ قد مضَى لايدْرى مالله فاعِلٌ فيه ، وأجلٌ باقٍ لايدرى مالله قاضٍ فيه ، فليأخُذِ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دُنياه لآخِرتِه ، ومن الشبيبةِ قبل الكِبَرِ ومن الحياة قبل الممات ، فوالذى نفْسُ محمدٍ بيده ، مابعدَ الموتِ من مُسْتَعْتَبٍ ، وما بعدَ الدنيا من دارٍ إلا الجنةُ والنار ... » معالم جمع مَعْلَم ، وهو ماجعل علامة للطرق والحدود ، ضربه مثلا لأحكام الله وحدوده

(١) هذه الأبيات لجار الله الزمخشرى أنشدها فى الكشاف عند تفسير قوله تعالى : إن الله لايستحيى أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها، ونسبها إلى بعضهم، وكان قد أوصى أن تكتب على لوح قبره ، يقول : باالله ، يامبصر الخفيات حتى مد البعوض جناحهافى ظلمة الليل ، اغفر لى الخ والبهيم : المظلم، لانبهام الأشياء فيه ، والأليل أفعل تفضيل من الليل وإن كان جامداً، للمبالغة فى الظلمة ، والنياط: عرق غليظ منوط بالقلب تتصل به عروق دقيقة . والنحر : أسفل العنق ، والمخ : مافى وسط العظام ، والنحل : جمع ناحل أى دقيق ، والفرطات : ذنوبه التى فرطت منه ، وماكان : مفعول اغفر ، والزمان الاول : زمن الشباب . وقد تمثل المؤلف بهذه الأبيات كما تمثل الزمخشرى

« ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلم نفسَه » ومستعتب : مصدر ميمي معناه طلب الرضا ، تقول : استعتبت فلانا : إذا طلبت منه العتبي ، وهي الرضا ، يريد : ليس بعد الموت من استرضاء ، لأن الأعمال بطلت وانقضى زمانُها ، وما بعد الموت دارٌ جزاء لا دار عمل »

وقال أبو العتاهية :

يا عجبا للناس لو فكَّروا وحاسَبُوا أنفُسَهم أبْصَروا
وعَبَرُوا الدُّنيا إلى غيرها فإنما الدُّنيا لهم مَعْبَرُ
الخيرُ مما ليس يَخْفَى هو المَعروفُ والشَّرُّ هو المُنْكَرُ
والمَوْعِدُ المَوتُ وما بعده الحشْرُ فذاكَ المَوْعدُ الأكبرُ
لا فخرَ إلا فخرُ أهْلِ التُّقَى غَدًا إذا ضَمَّهمُ المَحْشَرُ
لَيَعْلَمَنَّ الناسُ أنَّ التُّقَى والبِرَّ كانا خيْرَ ما يُذْخَرُ
عجِبْتُ للإنسانِ في فخرِه وهو غدا في قَبْرِه يُقْبَرُ
مابالُ من أوَّلُهُ نُطفةٌ وجيفةٌ آخِرُه يَفْخَرُ
أصْبَحَ لا يَمْلِكُ تقديمَ ما يَرْجو ولا تأخيرَ ما يَحْذَرُ
وأصبح الأمرُ إلى غيره في كلِّ ما يُقْضَى وما يُقْدَرُ

« أما قوله : يا عجبا للناس لو فكروا ... البيت ، فمأخوذٌ من قولهم : الفكرة مِرآةٌ تُريك حَسَنك من قبيحك ؛ ومن قول لُقمان لابنه : يا بُنَيَّ ، لا ينبغي لعاقل أن يُخلِيَ نفسه من أربعة أوقاتٍ ، فوقتٌ منها يناجي فيه ربَّهُ ، ووقتٌ يُحاسِبُ فيه نفسَه ، ووقت يَكْسِبُ فيه لمعاشِه ، ووقت يُخَلِّي فيه بين نفسِه وبين لَذَّتِها لِيَستعين بذلك على سائر الأوقات . وقوله : وعبروا الدنيا إلى غيرها ... البيت ، مأخوذ من قول الحسن البَصْرِيّ : اجعَل الدنيا كالقنطرة تجوزُ عليها ولا تعمُرُها .

وقوله : الخير مما ليس يخفى ... ألبيت ، مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعبد الله ، كيف بك إذا بقيت فى حُثالةٍ من الناس [١] مَرِجَت عُهودُهم وأماناتهم [٢] وصارَ الناسُ هكذا ، وشَبَّك بين أصابِعِه ؟ فقلتُ : مُرْنى ، يارسول الله ، فقال : خُذْ ماعَرَفْتَ ودَعْ ماأنكَرْتَ وعليك بخُوَيِّصة نفسك وإياك وعوامَّها [١] ... وقوله : ليعلمَنَّ الناس ... ألبيت ، مأخوذ من حديث أبى هُريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا حُشِرَ الناس فى صعيد واحد نادى مُنادٍ من قِبَلِ العَرش : ليَعلمَنَّ أهلُ الموقف مَنْ أهلُ الكرَم اليوم ؟ : لِيَقُم المُتَّقون ، ثم تلا رسول الله : إن أكرَمَكم عند الله أتقاكم ، وقد تقدم صدرَ باب البر أن الأخطل سَبَق أبا العتاهية فى هذا بقوله :

وإذا افْتَقَرْت إلى الذخائر لم تجد ذُخْراً يكونُ كصالحِ الأعمال

وقوله : مابال من أوله نطفة ... ألبيت ، مأخوذ من قول على رضى الله عنه : وما ابنُ آدمَ والفخر وإنما أوّلُه نطفة وآخره جيفة ، لايرزُقُ نفسَه ، ولا يدفَعُ حَتْفَه » وكان عمر بن عبد العزيز رحمةُ الله عليه يقول : أيها الناس إنما خُلِقتم للأبَد ، ولكنكم تُنقَلون من دار إلى دار ... وقال مالك بن دينار [٤] :

---

(١) أصل الحثالة : مايبقى فى الإناء من ردىء الطعام ، وحثالة التمر : أردؤه ومالاخير فيه ، ضربه رسول الله لرذال الناس وشرارهم

(٢) مرجت عهودهم : اختلطت وذهبت بهم كل مذهب ، ومرج : كطرب ، أمامرج الماء بمعنى سال فلم يكن له مانع ، فبابه نصر .

(٣) خويصة : تصغير خاصة ، يأمره صلى الله عليه وسلم بمجاهدة نفسه ويحذره مشاركة العامة فى أعمالها (٤) كان عالما زاهدا لايأكل إلا من عمل يده مات سنة إحدى وثلاثين بالبصرة .

جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم... وقال على رضى الله عنه : مَنْ سَرّه الغِنى بلا مالٍ، والعِزُّ بلا سلطان، والكثرةُ بلا عشيرةٍ، فليَخْرُج من ذُلّ مَعْصية الله إلى عِزّ طاعتِه، فإنه واجدٌ ذلك كلّه... وقال يزيد بن الصَّقيل العَقيليُّ - وكان يَسرِق الإبلَ فى عهدِ بنى أُمية ثم تاب وقُتِل فى سبيل الله - :

ألَا قُلْ لِأرْبابِ المخائِضِ أهمِلوا فقد تابَ مِمّا تعلمونَ يَزيدُ
وإنَّ امْرَءًا يَنْجُو من النارِ بعدَما تزوّدَ من أعمالِها لَسَعيدُ

« المخائض جمع مخاض - ومخاض واحدُه خَلِفَة - الناقة استبان حملها - فمخائض جمع الجمع، ومخاض: جمع على غير واحد، كما تقول: امرأة ونساء، وقوله: أهملوا: أى آسرِحُوا إبلكم - » وفى هذا الشعر :

إذا ما المَنايا أخطأتك وصادَفَتْ حَميمكَ فاعلَم أنها ستعود

وفى معنى هـذا البيت ما يُروَى عن محمد بن الحنفية - ابن الإمام على - أنه كان يقول - إذا مات له جارٌ أو حميم - : أوْلَى لِي ، كِدْتُ والله أكونُ السَّوادَ المُخْتَرَم... « أولى لى ، مثله : أَوْلَى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ، وهى كلمة تهديد ووعيد ، معناها : قاربك ما تكره ، أو الشرُّ أقرب إليك ، والسوادُ : شخص الإنسان وكلُّ شىء من متاع وغيره ، وفى الحديث : إذا رأى أحدُكم سواداً بليل فلا يكنْ أجبنَ السَّوادَين ، فإنه يخافُك كما تخافُه ، والمخترم - من اخترمته المنيّةُ : أخذته من بين أصحابه... »

وقال أبو نواس :

ولقد نَهَزْتُ مع الغُواةِ بدَلْوِهِمْ وأسَمْتُ سَرْحَ اللّهوِ حيث أساموا
وبلغتُ ما بلَغَ امْرُؤٌ بشبابه فإذا عُصارَةُ كلِّ ذاكَ أثَامُ

« أثام كسلام : عقاب الإثم وجزاؤه ، ونهزت بدلوهم يقال : نهزت بالدلو فى البئر : إذا حركتها لتمتلئ ... وهو هنا على المثل ... يقول أبو نواس : لقد غَوَيْتُ زماناً مع الغُوَاةِ ولَهَوْتُ كما لَهَوْا وخلعتُ عِذارِى كما خلَعوا عِذارَهم وبلَّغتُ شبابى المبالِغَ، من اللهو والبَغْى والفساد، وأنَلْتُه أقصَى ما يَشتهى من شهوات الحياة الدنيا ، فوجدْتُ كلَّ ذلك ضلالا فى ضلال وعَبثاً فى عبث وظُلمات بعضها فوق بعض ، وما جَنَيْتُ من ورائه إلا المُرَّ والحنظَل، من الأدواءِ والأسقام والبُعد عن ملكوت الله وقُدْسيته، وكلَّ ما تُورثُه المعاصى من الدنَس والطبَع والرَّيْن، وإنَّ فى ذلك لعِبْرَةً لمن اعتبر »

وقال هِشامُ بنُ عبد الملك ـ وهو من الأبيات المنفردة القائمة بنفسها ـ :

إذا أنتَ لم تَعصِ الهوَى قادَكَ الهوى
إلى بعضِ ما فيـــهِ عليـكَ مَقال

وهذا بكلام الملوك أشبه ، ومن كلمة للسيدة عائشة رضى الله عنها : مَنْ أرْضَى الله بإسخاط الناس ، كفاهُ اللهُ ما بينه وبين الناس ، ومَن أرضى الناس بإسخاط الله ، وكَلَهُ الله إلى الناس ، ومَن أصلَح سريرَته ، أصلح اللهُ علانيته . وفى حديث الدعاء : لا تَكِلْنى إلى نفسى طَرْفةَ عين فأهْلِك ... تولّانا الله برعايته الصَّمَدانيّة إنه سميع الدعاء ...

البـــــاب الثـانى

فى الشكر والحمد والثناء

وهذا بابُ الشُّكر بابٌ له مَكانته فيما خلَّفوه لنـا من آدابٍ وذخائرَ، وإنَّ بينه وبين البر على جميع ألوانه لَرَحِمًا ماسَّةً وقرابةً قريبةً، ومن ثَم جعلناه رِدْفاً له، وأفردنا له هذا الباب.

معنى الشكر

والشكر: مُقابلةُ النعمة بالقول والفعل والنِّيَّة، فيُثْنِي المُنْعَمُ عليه على المنعِم بلِسانِه، ويُذِيبُ نفسَه فى طاعتِه، ويَعتقِد أنه مُولِيها؛ وهو من شَكَرَت الإبل تَشكُر: إذا أصابت مَرْعًى فسَمِنَت عليه. وإذن يكونُ معنى شكْرِ العبدِ لربِّه: أن يَجهَدَ العبدُ جُهْدَه فى طاعةِ الله، ويؤدِّيَ ماوَظَّفَ اللهُ عليه من عِبادته، ويعتقد أنه هو وحدَه وَلِيُّ نِعْمتِه، وأن يُكثِرَ من الثَّناء عليه عزّ وتقدّس... وقد جاء الشكورُ وَصْفاً لله عز وجل، ومعناه أنه يَزْكو عندَه القليلُ من أعمالِ العباد فيضاعِفُ لهم الجزاءَ، وقد يكون معناه: المغفرة... هذا؛ وإنّ فرْقاً بين الشكر والحمد، فالشكر لا يكون إلا عن يَدٍ، والحمدُ عن يدٍ وعن غيرِ يدٍ وأنشدوا لأبى نُخَيْلةَ (١):

---

(١) شاعر إسلامى، وكان أسود، والرجز أغلب عليه من الشعر، وسمى أبا نخيلة لأن أمه ولدته تحت نخلة فهو اسمه، ويمدح بهذا الشعر مسلمة بن عبد الملك يقول فى أولها:

أَمَسْلَمَ إنى يا ابْنَ كلِّ خليفَـة ويافارِسَ الهيجا ويا قَمَرَ الأرْض

وقوله: فنبهت من ذكرى وما كان خاملا: أخذه أبو تمام فكشف معناه وحسنه بالصناعة

شَكَرْتُكَ إنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ من التُّقَى ... وما كلُّ مَنْ أوْلَيْتَه نِعمةً يَقْضِى
فنبَّهْتَ من ذِكرى وما كان خامِلًا ... ولكنَّ بعضَ الذِّكْرِ أنْبَهُ من بعضِ

قال ابنُ سِيدَه : وهـذا يدلُّ على أن الشُّكرَ لا يكونُ إلا عن يَدٍ ، ألَا تَراه يقول : وما كلُّ مَنْ أوْلَيْتَه نِعمةً يَقضى ؟ أى ليس كلُّ من أوليته نعمة يَشكُرُكَ عليها ... ويقال : شَكره وشَكَر له ، وباللام أفصح ، وتقول : شكَرْتُ نعمةَ الله ، ولِنِعْمتِه ، وتشكَّرَ له بلاءَه ، كشَكَره ، وتشكَّر له مِثل شكر له ، هذا خلاصة ماقاله علماءُ اللغة . وقال أبو البقاءِ فيما قال ، إذ أطال : الشكر : عِرفانُ الإحسان ، ومن الله المجازاة ، وأصلُ الشكرِ : تَصَوُّرُ النعمة وإظهارُها وحقيقتُه : العجز عن الشكر ، إلى أن قال : والشكر العُرْفِىُّ : صرفُ العبد جميعَ ماأنعمَ الله به عليه من السَّمْع والبصر والكلام وغيرها ، إلى ما خُلِقَ له وأعطاهُ لِأجْله ، كصَرْف النظر إلى مصنوعاته ، والسمع إلى تلقِّى إنذاراته ، والذِّهنِ إلى فَهْم معانيها ، وعلى هـذا القياس ، وقليلٌ ماهُم ، إلى أن قال : وتَوفِيَةُ شكرِ الله صعبٌ ، ولذلك لم يُثْنِ بالشكر من أوليائه إلا عَلَى إبراهيم صلوات الله عليه ، إذ قال سبحانه : إن إبراهيم كان أُمَّةً قانِتًا لله حنيفًا ولم يَكُ من المشركين ، شاكراً لِأنْعُمِه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ؛ وعلى

«قال من أبيات يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات :

لقـد زِدْتَ أوْضاحى امتدادًا ولم أكن ... بَهيما ولا أرْضى من الأرْضِ مَجْهَلا
ولـكن أيادٍ صادَفَتْنى جِسامُها ... أغَرَّ فأوْفَتْ بى أغَـرَّ مُحَجَّلا

«الأوضاح جمع وضح وهو البياض ، والبهيم : الأسود ، والمجهل : أرض بلا أعلام وهذا على المثل»

نُوح عليه السلام إذ قال: إنه كان عبداً شكوراً ... ونَزيد هذا توكيداً وتبييناً بإيراد كلمة الراغب فى الذريعة، قال الراغب ـ مع شىء من التصرف ـ: الشكر تصوُّرُ المُنْعَم عليه النعمة، وإظهارُها، ويضادّه الكفْرُ، وهو ـ أى الكفر ـ من كَفَر الشىء: غطّاه، ودابّةٌ شكور: أى مُظْهِرَةٌ بسِمَنِها إسداءَ صاحبها إليها؛ وقيل: أصله من عينٌ شكرَى: أى مُمتَلِئة، فالشكر هو: الامتلاء من ذكر المنعَم عليه المُنْعِمَ، ومن هذا الوجه قيل: هو أبلغُ من الحمد، لأن الحمد ذِكْرُ الشىء بصفاته، والشكر: ذكر الشىء بصفاته وبنعمه، فالشكر على ثلاثة أضرب: شكرٌ بالقلب، وهو تصوُّر النعمة، وشكر باللسان، وهو الثناء على المنعِم، وشكر بسائر الجوارح، وهو مكافأته بقدر استحقاقه؛ وهو أيضا باعتبار الشاكر والمشكور: ثلاثة أضرب: شكر الإنسان لِمن هو فوقَه، وذلك يكونُ بالخدمة والثناء والدُّعاء، وشكرٌ لنظيره، وهو بالمكافأة، وشكر لمن هو دُونَه، وهو بالثواب والإفضال. وشكرُ العبدلله سبحانه هو: معرفةُ نعمته وحِفْظُ جوارحه بمنعِها من استعمال مالا ينبغى. ثم قال: وشكرُ المنعِم فى الجملة واجبٌ بالعقل، كما هو بالشرع، ـ وهذه مسألة كلامية انظرها فى كليات أبى البقاء، ـ وأوجَبُها شكرُ البارى تعالى، ثم شكرُ مَن جعله سببًا لوصول خير إليكَ على يده، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: لا يَشكرُ اللهَ مَن لم يَشكرِ الناس؛ قال: وقال بعضهم: كلُّ نعمةٍ يُمكِن شكرُها إلا نعمةَ الله، فإنّ شُكرَ نعمتِه نعمةٌ منه، فيحتاج العبد أن يَشكرَ نعمةَ الشكر، كما شَكر أصلَ النعمة، وهكذا حتى يُؤدِّيَ ذلك إلى مالا يتناهى، ومن هذا أخذ الشاعر الذى يقول:

إذا كان شُكرى نعمةَ الله نِعمةً ... علىَّ له فى مِثْلِها يجب الشُكرُ

فكيف بُلوغُ الشكر إلا بفضلِه ... وإن طالتِ الأيامُ واتّصلَ العمر

ولهذا قيل : غايةُ شكر الله تعالى الاعترافُ بالعَجْز عنه ، بل قد قال الله تعالى : وإن تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تحصوها ، وأيضا فكلُّ ما يَفعَلُ الله بعبيدِه فهو نعمة منه، وإن كان بعض ذلك يُعَدُّ بليَّةً ، ولهذا قال بعض الصالحين : يا مَنْ مَنْعُه عطاءٌ وبَلاؤه نَعماء [1] ... ولأجل صعُوبةِ شكر الله قال عز وجلّ : وقليل من عبادِيَ الشكور ...

عبقرياتهم فى الشكر

حثُّهم على الشكر

قال حكيم : إذا قصُرَت يدُك عن المكافأة فليَطُلْ لِسانُك بالشكر ؛ وقالوا : النِعَم إذا شُكِرَت قَرَّت وإذا كُفِرت فَرَّتْ . والأصل فى هذا قوله تعالى : وإذ تأذَّن ربُّكم لئن شكرتُم لأزيدنكم ولئن كفرتُمْ إنّ عذابى لشديد ... وقالوا : النِّعَمُ وحشيّةٌ فاشكُلوها بالشكر « يقال : شكل الدابّة يشكُلها : شدّ قوائمها بحبل ، واسم ذلك الحبل : الشِكال» وقال ابن المقفع : استوثِقوا عُرَى النعم بالشكر . « العُرى جمع عُروة ، والعروة فى الأصل تقال لعروة الدَّلو والكوز ونحوه ، أى مقبضه . ولعُروة المزادة أى أذنها . ولعروة القميص : مَدْخَل زرّه، ولعروة النَّبات : ما بقى له خضرة فى الشتاء ترعاها الإبل إذا أجدب الناس ، ومن

(١) هذا كلام بعيد الغور غاية فى النفاسة ، وقديما قرأت كلاما لا أذكر لفظه بيدان معناه لا يزال عالقا بذهنى ، وهو أن الإنسان قد يظن أن حرمانه الجاه أو المال أو ما إليهما ، شر ونقمة ، ولكنه فى الحقيقة نعمة ، إذ لو أعطى ما يشتهيه من المال أو الجاه لساءت حاله وكان هذا المال أو الجاه مما يفسده لا مما يصلحه ومن ثم حثوا على أن يرضى الإنسان بما أعطى ويعد ذلك مدرجة إلى صلاحه وحسن حاله وأن ما أعطاه الله إياه مهما كان قليلا هو الخير كل الخير فى الواقع ولا خير فى غيره ولا صلاح ...

هذا استعاروا العُروة لكل ما يُلجأ إليه ويُعَوَّل عليه ويوثَق به ويُتَمسَّك؛ فيقال لقادة الجيش : العُرَى ، والصحابة رضوان الله عليهم : عُرى الإسلام ، وقوله تعالى : فقد آستمسك بالعروة الوُثقى لاانفصامَ لهـا؛ شُبِّه ما يُعتصم به من الدين بالعُروَة التى يُتَمسَّك بهـا ويُلجأ إليها ، والوُثقى : المُحكمَة ، فقول ابن المقفع : استوثقوا : أى أحكموها، وقال البحترى :

يَزيد تفضُّلًا وأزيد شُكراً   وذلك دأبُهُ أبـدًا ودابى

وقال عمرو بن مَسْعَدَة : لا تَصْحَب من يـكون استمتاعُه بمـالِكَ وجاهك أكثرَ من إمتاعِه لك بشكر لسانه وفوائد عمـلِه . وقال يحيى بن أكثم : كنت عند المـأمون فأُتى برجل تُرعَد فرائصُه ، فلما مَثَلَ بين يديه قال المـأمون : كفَرتَ نعمتى ولم تشكر معروفى ! فقال : ياأمير المؤمنين ، وأين يقعُ شُكرى فى جنْب ماأنعم الله بك علىَّ ! قال يحيى : فنظر إلىَّ المـأمون وقال مُتَمثِّلا :

ولو كان يَستغنى عن الشُّكر ماجدٌ   لرفعةِ قَدْرٍ أو عُـلوِّ مـكانِ
لَمَـا أمرَ اللهُ العبادَ بشُكرِه   فقال : اشكروا لى أيهـا الثَّقلانِ

ثم التفتَ إلى الرجل وقال : هلَّا قلت كما قال أصرَمُ بنُ حُمَيد :

مُلِّكتَ حَمـدِى حتى إنّنى رَجلٌ   كُلِّى بـكلِّ ثناءٍ فيـكَ مُشتَغِلُ
خُوِّلْتَ شُكرى لِمَـا خَوَّلْتَ من نِعمٍ   فحُرُّ شُكرى لمَـا خَوَّلتَنى خدَم

وقريب من هذا قول أبى الفتح البُستى :

لئن عجزتْ عن شكر برِّك قُوَّتى   وأقوى الوَرَى عن شكر برِّك عاجزُ
فإنَّ ثنائى واعتِقادى وطاقتى   لأفلاكِ ماأوليتَنيها مراكزُ

ومن أبرع ماقيل فى الشكر قول البُحتُرىّ :

فلو كان للشُّكرِ شخْصٌ يَبِينُ   إذا ماتأمَّـلهُ النـاظِرُ

لَبَيَّنْتُهُ لك حتى تَراهُ فتَعْلَمَ أنّى امْرُؤٌ شاكر
ولكنه ساكنٌ فى الضمير يُحَرِّكُهُ الكَلِمُ السّائرُ

وقال عبدُ الله بْن الزَّبيرِ الأسَدِى فى عمرو بن عثمان بن عفّان ـ لمّا زارَهُ فنظر عمرو فرأى تحت ثيابه ثوبا رَثّا ، فدعا وكيله وقال: اقترض لنا مالاً ، فقال : هيهات ما يُعطينا التُّجّار شيئا ، قال : فأربحهم ماشاؤا . فاقترض له عشرة آلاف فوجّه بها إليه مع تختِ ثياب « التخت : وعاء تصان فيه الثياب » ـ :

سأشكرُ عَمْراً ما تراخَتْ مَنِيَّتى أيادِىَ لم تُمْنَنْ وإنْ هى جَلَّتِ
فتًى غيرُ مَحْجوبِ الغِنى عن صديقِه ولا مُظْهِر الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ
رأى خَلَّتى من حيثُ يَخْفَى مَكانُها فكانت قَذى عَيْنيه حتى تجلَّتِ

« قوله : سأشكر : فالعرب تستعمل السين إذا أرادت تكرار الفعل وتأكيده ولا تريد التنفس فيه . ولم تمنن : لم يتبعها منّ ، وإذا النعل زلت : يريد : إذا زلت قدمه فى مزالق الدهر فلا يجد مركبا يقيه مصرع السوء ولا متكأ يعتمد عليه فى نهضته ، والخلة : الحاجة ، وقوله من حيث يخفى مكانها : أى من حيث لا يدركها لحاظ غيره ، وفكانت قذى عينيه : أبرع كلمة فى معنى الاهتمام بالحاجة » . . .

وقال ابن عَنْقاء الفَزارىُّ فى عُميلة الفزارىُّ ـ وكان قد وصله بنصف ما لمّا رأى من رَثاثةِ حالِه ، وكان عميلة غلاما جميلا ـ :

رآنى على ما بى عُمَيلةُ فاشتكى إلى مالِه حالِى أسَرَّ كما جَهَرْ
دعانى فآسانى ولو ضَنَّ لم أُلُمْ على حينَ لا بَدْوٌ يُرجّى ولا حضَرْ
غُلامٌ رَماهُ اللهُ بالخيْرِ يافِعا له سِيمَياءُ لا تَشُقُّ على البَصَرْ
كأنّ الثُّريّا عُلِّقَتْ فى جبينِه وفى خَدِّه الشِّعْرَى وفى وجْهِه القَمر

إذا قيلَت العوراءُ أغضى كأنّه ذليلٌ بِلا ذُلٍّ ولو شاءَ لانتصرْ
ولمّا رأى المَجْدَ استُعيرَت ثيابُه تَرَدّى رِداءً واسعَ الذّيلِ واتّزرْ
فقلت له خيراً وأثنيْتُ فِعلَه وأوفاكَ ما أسديتَ مَن ذَمَّ أو شكر

« السيما والسيميا والسيماء والسيمياء : العلامة يُعرف بها الخير والشر ، وقوله : لا تشُقُّ على البصر يريد : لا تؤذيه بل يُسَرُّ بها ، والثُّرَيّا : من الكواكب كثيرة الأنجم مع صغر مرآتها ، والشِّعرى يريد بها الشعرى العَبُور ، وهو كوكب نيّر خلف الجوزاء يطلع فى صميم الحرّ . والعوراء : الكلمة القبيحة ، وأغضى : أطبق أجفانه حياءً ونبلا ؛ واستعيرت ثيابه : كنى بذلك عن قلة الأمجاد »

العجز عن الشكر

قال بعضهم :

أيادِيَ لا أستطيعُ كُنْهَ صِفاتِها ولوْ أنّ أعضائى جميعا تَكلَّم

وقال آخر :

ولوْ أنّ لى فى كلِّ مَنْبِتِ شَعْرةٍ لِسانًا يَبُثُّ الشكرَ فيكَ لقَصَّرا

وقال بعضهم : شكرى لا يقعُ من نِعَمه الظاهرة : موقعَ النُّقْطةِ من الدائرة .

وقال أبو نُواس :

قد قلتُ للعبّاسِ مُعتذِرًا عن ضَعْفِ شُكريهِ ومُعْتَرِفا
أنتَ امرُؤٌ جلّلتَنى نِعَمًا أوْهتْ قُوَى شُكرى فقد ضَعُفا
فإليكَ مِنّى اليومَ تَقْدِمَةً تَلقاكَ بالتّصريحِ مُنْكَشِفا
لا تُسْدِيَنّ إلىّ عارِفةً حتى أقومَ بشكرِ ما سَلَفا

« شكريه : شكرى إياه » وقال المتنبى :

وَلَمْ تَمْلَلْ تَفَقُّدَكَ المَوَالِى ... وَلَمْ تَذْمُمْ أَيَادِيَكَ الجِسَاما

وَلٰكِنَّ الغُيُوثَ إِذَا تَوَالَتْ ... بِأَرْضِ مُسَافِرٍ كَرِهَ المُقَاما

«الموالى جمع مولى : العبد ، وتروى المُوالى : أى الذى يلى بعضه بعضاً ، والأيادى النعم ، والجسام : العظام ، وقوله ولكن الغيوث ... البيت ، فالغيوث جمع غيث : المطر ، وتوالت : تتابعت ، والمقام : الإقامة؛ يقول : إن المسافر إذا كثر عليه المطر مَلّ إقامته واحتباسه ، لأجل المطر ، كذلك نحن ، عطاياك تتوالى علينا وأنت قيدتنا بإحسانك وأنا مسافر أريد الارتحال ولولا هذا لم أمَلّ نعمتك ، والمطر يسأله كل أحد إلا المسافر» ... وقال البُحتُرىّ وأبدع :

أَخْجَلْتَنِى بِنَدَى يَدَيكَ فَسَوَّدَتْ ... مَابَيْنَنَا تِلْكَ اليَدُ البَيْضَاءُ

وَقَطَعْتَنِى بِالجُودِ حَتَّى إِنَّنِى ... مُتَخَوِّفٌ أَنْ لَا يَكُونَ لِقَاءُ

صِلَةٌ غَدَتْ فى النَّاسِ وَهْىَ قَطِيعَةٌ ... عَجَبٌ ، وَبِرٌّ رَاحَ وَهْوَ جَفَاءُ

وقال أيضاً :

إِيهاً أَبَا الفَضْلِ شُكْرِى مِنكَ فِى تَعَبٍ ... أَقْصِرْ فَمَالِى فِى جَدْوَاكَ مِنْ أَرَبِ

لا أَقْبَلُ الدَّهْرَ نَيْلًا لا يَقُومُ بِهِ ... شُكْرِى وَلَوْ كَانَ مُسْدِيهِ إِلَىَّ أَبِى

ومن ألفاظهم فى ذلك : شُكْرُه شأوٌ بعيد لا تبلُغه أشواطى ، ولا أتلافى التفريط فيه بإفراطى « الأشواط جمع شوط : الجرى مَرّة إلى غاية تقول : عدا جَرَى شوطاً ، أى طَلَقا » وعندى له مَبارٌّ أعجزنى شكرُها ، كما أعوزنى حَصْرُها « مبارّ جمع مبرّة » وقال بعض الشعراء فى الصاحب بن عبّاد :

وَفَدْنَا لِنَشْكُرَ كَافِى الكُفَاةِ ... وَنَسْأَلَهُ الكَفَّ عَنْ بِرِّنَا

فقال بعض الحاضرين : قد كُفيت ، فإن الصاحب صار لا يُعطى شيئا ...

من لا تخفى أياديه

قال نُصَيبٌ (١) :

فعاجُوا فأثنَوْا بالذى أنت أهلُه ولو سكتُوا أثنتْ عليك الحقائبُ

وقال بعضهم :

وكيف بكفرانى صنائعَهُ التى إذا جُحِدتْ يومًا أقرَّ بها جِلْدِى

ومثله :

وإذا سكتُّ فإنَّ أنطقَ مِن فمى عنّى يدُ المعروفِ والإحسانِ

وقالوا فى أمثالهم : لسانُ الحال أفصح من لسان الشكر ... ومن كلمة للجاحظ : نحن نُزَخرِفُ باللسان ، والناسُ يَقْضُون بالعِيان ، وفى أمرِنا أثرٌ ينطِقُ عنا ، ويتكلم إذا سكتنا ...

الشكر بقدر الاستحقاق

وعَتبُهم مَن شكروه ولمّا يَستوجِبْ

قال على بن أبى طالب : الثناء من غير الاستحقاق مَلَقٌ ، والتقصير عن

(١) هو نصيب بن رباح من أهل ودان وكان عبداً لرجل من كنانة هو وأهل بيته ، وكان أهل البادية يدعونه « النصيب » تفخيما له وكانت أمه أمة سوداء وكان شاعراً فحلا فصيحاً مقدماً فى النسيب والمديح وكان أثيراً عند الملوك ، وهذا البيت من أبيات له فى سليمان بن عبد الملك وأول الأبيات :

أقولُ لركْبٍ صادِرِينَ لَقِيتُهم قَفَا ذاتِ أوْشالٍ ومولاكَ قارِبُ

قِفُوا خبّرُونى عن سليمانَ إنّنى لِمعروفِهِ من أهلِ وَدّانَ طالبُ

فعاجُوا ... ... البيت

وقفا : أى خلف والعرب تقول : لقيت فلانا قفا العقبة أو الثنية : أى خلفها ، ومولاك يخاطب سليمان ويريد بالمولى نفسه ولعله يريد بذات أوشال : موضعا بعينه ، والقارب فى الأصل : طالب الماء ليلا ،

الاستحقاق عِيٌّ وحَسَدٌ، وقال رجل لابن الأعرابى: إنَّ نُصَيْباً — الشاعر الذى تقدم ذكره — يقول: إنما تُمدح الرجال على قدر ثوابها، فقال: إنَّ العربَ تقول: على قدر رِيحِكم تُمطَرون ... وقال الصاحب بن عبّاد:

وإذا الصّديقُ أدامَ شُكْرِىَ لِلَّتى ... لَمْ آتِها إلا على التقدير
أيْقَنْتُ أنَّ العَتْبَ باطِنُ أمْرِه ... فسَكَتُّ مُحْتَشِماً على التَّقصير

من لم يَرْدَعْهُ خوفه عن الشكر

بعَثَ أبو جعفر المنصور إلى شَيْخٍ من بِطانةِ هشام بن عبد الملك، فاستحضَرَه وسأله عن تدبير هشام وأحواله، فأقبل الشيخ يقول: فعَل رحمه الله، وقال يومَ كذا رحمه الله، فقال المنصور: قُمْ لعنك الله، أتطأُ بِساطى وتترحّمُ على عدوى! فقال الشيخ: إن نعمةَ عدوّكَ لَقِلادةٌ فى عُنُق لا ينزِعُها إلا غاسِلى، فقال المنصورُ: ارْجِعْ إلى حديثِك، فإنى أشهدُ أنك غَرْسُ شريف وابنُ حُرّة ... ولما قَتل مَسلمةُ بن عبد الملك يزيدَ بن المهلب أمر بأن يحضر الشعراء ليقولوا فى ذلك، فلم يَألُوا أن ذكروه بأقبح ما قدروا عليه، ماخلا رجلا من بنى دارم فإنه قال: لا أذُمّ رَجُلا لا أمْلِكُ رَيْعاً ولا مالا ولا أثاثاً إلا منه ولو قُطِّعتُ إرْبًا إرْبًا[1]، ولقد رثيْتُه بأحسن ما يُرْثَى به رجلٌ — وأنشد أبياتاً رائعةً — فجزاه مسلمة خيراً وقال: إذا اصْطُنِع فلْيُصْطَنَعْ مِثلُ هذا ... أقول: لا أدرى: أبموقف هؤلاء البَرَرة الأوفياء الشجعان الصرحاء يُعْجَبُ المرء، أم بأولئك الملوك الذى يقدرون هذا الوفاء ويطرَبون له ولو كان فى جانب أعدائهم! فلله دَرُّ أولئك الناس الذين شرّفوا الإنسانية بهذه الخلائق الكريمة النبيلة، بينما غيرهم من أهل النفاق والجبن والنذالة قد كَلَمُوا[2] الإنسانية

(١) إربا إربا: عضوا عضوا (٢) كلموا: جرحوا

وهَوَوْا بها إلى الحضيض الأوهد...

شكر من هَمَّ بإحسان ولم يفعل

وقالوا : من لم يَشْكُرْ على حُسن النية ، لم يَشكُرْ على إسداء العطيَّة.

وقال شاعر :

لأشكرَنَّكَ معروفاً هَمَمتَ به … إنَّ اهْتِمامَكَ بالمعروفِ مَعروفُ

ولا أذُمُّكَ إن لم يُمْضِهِ قدرٌ … فالشيءُ بالقدَر المحتومِ مصروفُ

ثِقَلُ الشكر والحمد

وقال أبو تمام فى ثقل الشكر والحمد من أبيات له فى الحسن بن وهب :

والحمْدُ شَهْدٌ لا تَرَى مُشْتارَه … يَجْنِيهِ إلَّا مِن نقيعِ الحَنظَلِ [1]

غُلٌّ لِحاملِه ويَحْسَبُه الذى … لم يُوهِ عاتقَهُ خفيفَ المَحْمِلِ [2]

وقيل لبعض الصالحين : مالَكَ لاتطلبُ الدنيا ؟ فقال : من خاف السُّؤالَ عن الشكر طابت نفسُه عن المال...

وقال أبو العتاهية :

ما فاتنى خيْرُ امْرِئٍ وَضَعتْ … عنِّى يَداهُ مَؤُونةَ الشُّكرِ

ترغيبهم فى الثناء ووصفهم إياه بالبقاء

وتفضيلهم إياه على المال والعطاء

قال عمر بن الخطاب لابنةِ هَرِمِ بن سنانٍ ممدوح زُهيرِ بن أبى سلمى :

---

(١) المشتار : مستخرج العسل ، والشهد : بفتح الشين وضمها : العسل فى شمعها

(٢) الغل: القيد ، والمحمل : الحمل

ماوَهَبَ أبوك لزُهَيْر ؟ فقالت : أموالا فنِيَتْ وأثوابا بَلِيَتْ وأشياءَ انتُسِيَتْ ، فقال الفاروق : لكن ما أعطاكُموه زُهَيْرٌ لا يَفْنَى ولا يُنْسَى ... وكتب أرِسْطُو إلى الإسكَنْدَرِ المقدُونى : إنَّ كلَّ عَقيلة[1] يأتى عليها الدهْرُ ، فيُخْلِقُ أثرَها ويُميتُ ذِكْرَها ، إلا ما رَسَخ فى القلوب ، من الذِّكْرِ الحسَن يتوارثُهُ الأعقاب . وقالوا : فى الثناء الباقى على الدهر ، خلَفٌ من نفاد العمر . قال الشاعر :

وإنى أُحِبُّ الخُلْدَ لوْ أَسْتطيعُه ... وكالخُلْدِ عندى أن أَبِيتَ ولم أُلَمْ

وقيل لِبُزُرْجُمْهِرَ حين كان يُقتَلُ : تكلَّمْ بكلامٍ نذكره ، فقال : الكلام كثير ، ولكِنْ إنْ أمكنك أن تكون حديثا حسنا فافعل .

ولمَّا وُضِع الوزيرُ محمدُ بنُ عبد الملك الزيات فى التَّنُّور قال له خادمُه : ياسيدى ، قد صِرْتَ إلى ماصرتَ وليس لك حامدٌ ! قال : وما نَفْعُ البرَامكة من صنيعهم ، قال : ذِكْرُكَ لهم الساعةَ ، فقال : صدقت ... وقال شاعر :

لئن طِبْتَ نفْسًا عن ثنائى فإنّنى ... لأطيَبُ نفْسًا عن نَداك على عُسْرى

فلستُ إلى جَدْوَاكَ أعظمَ حاجةً ... على شدّةِ الإعسارِ مِنكَ إلى شُكْرِى

وقال أبو تمام :

ومُحجَّبٍ حاولتُه فوجدتُه ... نجمًا عنِ الرَّكْبِ العُفاةِ شَسوعا

أعدمتُه ـ لمَّا عَدِمتُ نوالَه ـ ... شُكْرِى فرُحنا مُعدِمَيْنِ جميعا

وقال عَوْفُ بن محلم الشيبانى :

فتًى يَتَّقِى أن يَخدِشَ الذَّمُّ عِرضَه ... ولا يتقِى حدَّ السُّيوفِ البواتِرِ

---

(١) العقيلة فى الأصل : المرأة الكريمة النفيسة ثم استعمل فى الكريم من كل شىء فى الذوات والمعانى . وعقائل الإنسان : كرائم أمواله ، وهو المراد هنا

وقال حكيم : من أحبَّ الثناء ، فليصبر على بَذْل العطاء ، وليُوَطِّنْ نفسَه على الحقوق المُرَّة ، وعلى احتمال المؤْنة ... وقال الشاعر فى هذا المعنى :

ما أعلمَ الناسَ أنَّ الجودَ مَكْسَبةٌ للحَمْدِ لكنَّه يأتى على النَّشَبِ

تسهيل القول على الشاكرين

بتوافر ما يُشكر عليه وعكس ذلك

قيل للفرزدق : أحسنَ الكُمَيْتُ فى الهاشميات ، فقال : وَجَدَ آجُرًّا وجِصًّا فبَنَى ... وقال شاعر :

ما لَقِينا من جُودِ فضلِ بنِ يَحْيَى تَرَكَ الناسَ كلَّهُمْ شُعراءَ

وقال ابنُ الرومى :

كَرُمْتُمْ فَجَاشَ المُفْحَمون لمدْحِكم إذا رَجَزُوا فيكم أيِفْتُمْ فقَصَّدوا

كما أزهرتْ جناتُ عدْنٍ وأثمرتْ فأضحتْ وعُجْمُ الطيرِ فيها تُغَرِّدُ

ومما كتبه بعضهم : فتَحتْ شِيَمُه على المُدَّاحِ مُسْتَغْلَقاتِ الكلام ...

وقال أبو تمام :

ملِكٌ إذا ما الشِّعْرُ حارَ بِبَلْدةٍ كان الطريقَ لِطَرْفِهِ المُتحيِّرِ

وقال المتنبي :

يا أيُّها المُحسِنُ المشكورُ مِنْ جِهَتِى والشكرُ من قِبَلِ الإحسان لا قِبَلِى

وقال ابن طَباطَبا [1] فيمن يُستفاد منه ما يُمدح به :

(١) ابن طباطبا : هو أبو القاسم أحمد الشريف الحسينى المصرى نقيب الطالبيين بمصر، ترجم له ابن خلكان، وطباطبا : لقب جده إبراهيم، وذكره الثعالبى فى اليتيمة توفى سنة ٣٤٥ هـ

لا تُنْكِرَنْ إهداءَنا لكَ منطقًا منك استفدنا حُسْنَهُ ونظامَه

فالله عزَّ وجلَّ يشكُرُ فعلَ مَنْ يَتلو عليه وحيَه وكلامَه

وقال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى [1] فيمن يليق به مدحه :

وأرَى المديح إذا عداك نقيصةً فأعافُه ولَوَ انَّهُ فى حاتمِ

فإذا امتدحتُ سواك قال الشعر لى لم ترْعَ حقِّىَ إذ أبحْتَ محارمى

ووصف أعرابىٌّ رجلا مُجمعاً على مدحه : كأنَّ الألسنَ والقلوبَ ريضتْ له ، فما تُعقَد إلا على وُدِّه ، ولا تنطق إلا بحمده . وقال البحترى :

وأرَى الخَلْقَ مُجْمِعين على فضْ ـلِكَ من بيْنِ سيِّدٍ ومَسودِ

عرَف الجاهلون فضلَك بالعِ ـلم وقال الجُهَّالُ بالتقليد

وقال ابن الرومى :

يامَن إذا قالتْ فيه صالحةً عند عدوٍّ أقرَّ واعترفا

وقال البحترىُّ فى المُسْتغْنِى عن المدح لكثرة فضله :

جَلَّ عن مذهب المديح فقد كادَ يكون المديحُ فيه هجاءَ

وقال المتنبى :

تجاوَزَ قدْرَ المدح حتى كأنَّه بأكْثَرِ ما يُثْنَى عليه يُعابُ

حب المنعِم أن يُرَى أثر إنعامه

قال سيدنا رسول الله صلوات الله عليه : إن الله يُحِبُّ أنْ يُرَى أثَرُ

---

(١) هو القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى الفقيه الأديب الشاعر صاحب كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه وصاحب الأبيات المشهورة التى أولها :

يقولون لى فيك انقباض وإنما رأَوْا رجلا عن موقف الذلِّ أحجما

توفى سنة ٣٦٦هـ

بِنِعْمَتِهِ على عبده ... » قال الإمام المناوى فى شرحه على الجامع الصغير : قيل معنى يُرَى : مزيد الشكر لله تعالى ، بالعمل الصالح والثناء والذكر له بما هو أهله ، والعطفُ والترحُّمُ ، والإنفاقُ من فضل ماعنده «وأحسِنْ كما أحسن الله إليك ، والخلقُ كُلُّهم عيالُ الله ، وأحَبُّهم إليه أنفعُهم لعياله » فيُرَى أثرُ الْجِدَةِ عليه زِيًّا وإنفاقا وشكرا ، إلى آخر ما قال ، وهكذا يُحِبُّ الناس أن يُرَى أثر إنعامهم على مَن يُنْعِمُون عليهم ، رَوَى أبو هلال العسكرى عن العُتْبِيِّ ما يَلِى : أراد جعفرُ بنُ يَحيى حاجةً كان طَرِيقُهُ إليها على باب الأصمعى فدفع إلى خادمٍ له كِيساً فيه ألفُ دينار وقال : إنى سأُعَرِّج فى رَجْعَتِي على الأصمعى ، ثم سَيُحَدِّثُنى ويُضحِكُنِي ، فإذا ضحِكْتُ فضَعِ الكِيس بين يديه ، فلما رَجع ودَخل إليه رأى حُبًّا مكسورَ[1] الرأس وجَرَّةً مكسورةَ العُنقُ ، وقَصْعَةً مُشَعَّبَةً ، وجفنَةً أعشاراً ، ورآه على مُصلًّى بالٍ وعليه بَرْنَكَانٌ[2] أجرد ، فغَمَزَ غُلامَهُ أن لا يَضع الكيس بين يديه ، فلم يدَع الأصمعىُّ شيئا مما يُضحِكُ الثكلان والغضبان إلا أورده عليه ، فلم يتبسم ، ثم خرج فقال لرجل يُسايِرُه : مَنِ استَرْعَى الذئبَ ظَلَم ، ومن زرع السَّبِخَة[3] حصد الفقْر ، إنى والله لَمَّا علمت أنّ هذا يكْتُمُ المعروف بالفِعْل ما حَفِلتُ بنشره له باللسان ، وأين يقع مديحُ اللسانِ من آثار البيان ! إن اللسان قد يكذِب ، والحالُ لاتكذِب ، ولله درُّ نُصَيبٍ حيث يقول :

فعاجُوا فأثْنَوْا بالذى أنتَ أهلُهُ ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائب

ثم قال : أعلمت أنّ ناووسَ أبَرْوِيزَ أمْدَحُ لأبرويزَ من زهير لآل سِنانٍ !

---

(١) الحب : الخابية ، فارسى معرب (٢) برنكان على وزن زعفران : ضرب من الأكسية . (٣) أرض سبخة : ذات ملح ونز

وقالت الحكماء : لسان الحال أصدق من لسان الشكر : وقد أجاد ابن الرومى فى هذا المعنى فقال :

حالى تبُوحُ بمَا أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنٍ فكُلُّ ما تَدَّعِيه غَيْرُ مَرْدُود
كلِّى هِجَاءٌ وَقتْلى لايحِل لكم فما يُداوِيكمُ منِّى سِوَى الجودِ

وقالوا : شهاداتُ الأحوال أعدل من شهادات الرجال

لا يمدَحون إلا إذا أُعطوا

واعتذارهم عن ذلك

قالت بنو تميم لسلامَةَ بنِ جَنْدَل : مَجِّدْنا بشعرك ، فقال : افعلوا حتى أُثْنِيَ ، ونحوه قول عمْرِ بن مَعْدِيكَرِب :

فلو أن قومى أنطَقَتْنِى رِماحُهم نطقْتُ ولكن الرِّماحَ أجَرَّتِ

«أجَرَّت: قطعت ، يقول : لو قاتل قومى أو أبلَوْا لذَكَرْتُ ذلك وفخرْتُ به ، ولكنَّ رماحَهُم أجَرَّتْنِى : أى قطعت لسانى عن الكلام بفِرارهم ، أراد أنهم لم يقاتلوا»

وقال بعضُ الأكابر لأبى هفَّان [(١)] : مالَكَ لاتمدحنى ؟ فقال :

لِسَانُ الشُّكْرِ تُنْطِقُهُ العَطَايا ويخْرَسُ عند مُنْقَطَعِ النَّوالِ

وعاتب يوماً محمد بن عبد الملك الزيات الوزير أبا تمام على مدْحِه سواه فاعتذر إليه بأبيات يقول فيها :

أمَّا القوافى فقدْ حَصَّنتَ عُذْرَتَها فما يُصابُ دمٌ منها ولا سَلَبُ

---

(١) أبو هفان : هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمى العبدى، راوية عالم بالشعر والغريب ، وشعره جيد إلا أنه مقل وهو من شعراء الدولة الهاشمية .

مَنَعْتَ إلا مِنَ الأكْفَاءِ نا كِحَها ... وكان منْكَ عليْهَا العَطْفُ والحدَبُ

ولو عَضَلْتَ عن الأكْفَاءِ أيِّمَهَا ... ولم يكُنْ لك فى أطْهارها أرَبُ

كانَتْ بناتِ نُصَيْبٍ حين ضَنَّ بها ... على الموالى ولم تحفِل بها العرب

« العذرة : البكارة ، والحدَب : الإشفاق ، وعضَل الأيِّمَ : فالأيم : التى لازوج لها بِكرا كانت أو ثيبا والجمع : أيامَى وأيايم ، وعضَل الرجلُ أيِّمَه يعضُلُها ويَعضِلُها عضلًا : مَنَعها الزواج ظُلْما قال تعالى : فلا تعضُلوهُنَّ أن يَنكِحْنَ أزواجَهُنَّ ، نزلت فى مَعْقِل بن يسار المُزَنِىِّ - وكان زوَّجَ أُخْتَه رجلا فطلَّقها ، فلما انقضَتْ عِدَّتُها خطبَها ، فآلَى أن لا يُزوِّجه إياها ورَغِبَت فيه أُخته فنزلت الآية ... وكان نُصيب الشاعر الأسودُ له بناتٌ وكان يَرغَب عن أن يُزَوِّجهنَّ من الموالى ، والعرب لاترغَبُ فيهنَّ ، فبَقِينَ بلا زواج ، قيل له يومًا : ماحالُ بناتِك ؟ فقال : صببت عليهن من جِلْدى فكسدن علىَّ ... »

وكتَب هذا الوزير الزيات إلى أبى تمام يوما يحتَجُّ عليه بأنه يمدَح غيره وأنه لو اقتَصر عليه لأغناه وأنَّ كثرة مَدْحِه الناس زهَّدَته فيه :

رَأيتُكَ سَمح البَيْعِ سَهلا وإنما ... يُغالِى إذا ماضَنَّ بالشىء بائعُه

هو الماءُ إنْ أجْمَمْتَه طابَ وِرْدُه ... ويَفْسُدُ منه ما تُباحُ شرائعُهْ

فكتب إليه أبو تمام :

أباجعفرٍ إنْ كنتُ أصبحتُ شاعراً ... أُساهِلُ فى بيْعى له مَنْ أُبايِعُه

فقد كنتَ قبلى شاعراً ذارَوِيَّةٍ ... تُساهِلُ مَن هانَتْ عليه بضائعُهْ

وصِرْتَ وزيراً والوِزارة مَشْرَبٌ ... يَغَصُّ به بعد اللَّذاذةِ كارِعُهْ

وكم من وزيرٍ قد رأينا مُسلَّطًا ... رأيناه قد سُدَّتْ عليه مَطالِعُهْ

ولله قوسٌ لا تَطِيشُ سِهامُها ... ولله سَيفٌ لا تُفَلُّ مَقاطِعُهْ

« يقول : إنّ سِهام الله مصيبةٌ لا تُخطئ وسيفَه لا يثلم ألبتّة ، فهو الذى جعلك وزيرا ولو شاء لأنزلك عن دستك »

حثهم على الشكر ولو لمن ليس على دينهم

قال رجلٌ لسعيد بن جُبَير : المجُوسِى يُولِينى خيرا فأشكرُه ، ويُسَلِّمُ علىّ فأرُدُّ عليه ؟ فقال سعيد : سألتُ ابنَ عباسٍ عن نحوِ هذا ، فقال لى : لو قال لى فِرعَونُ خيرا لرَدَدْت عليه ... وسلّم نصرانىٌّ على الشَّعْبىِّ ، فقال الشعبىُّ : وعليك السلام ورحمةُ الله ، فقال له رجلٌ : سبحان الله ، تقول لهذا النّصرانى ورحمة الله ! فقال الشَّعْبىُّ : أليس فى رحمة الله يعيشُ ؟ قال : بلَى ، قال : فما وجْهُ الإنكار علىَّ عافاك الله ورحمنا وإياك برحمته ؟

استحياؤهم من المديح

ولا سيما إذا كان مُتكلَّفا أو مُبالغا فيه

سمع سيدنا رسول الله رجلا يُثْنِى على آخر ، فقال : قَطَعْت مَطَاه ، لو سمع ما أفْلح « المطا : الظهر » وقالوا : استحياءُ الكريم من المدح أكثرُ من استحياء اللئيم من الذمِّ ... وأثنى رجلٌ على هِشَام بن عبد الملك ، فقال : إنا نَكرَه المدح ، فقال : لستُ أمدُحك ولكنى أحمَدُ الله فيك ... وكان أبو بكر الصِّدِّيق رضوان الله عليه يقول إذا مُدِح : اللهم ، أنت أعلم مِنِّى بنفسى منهم ، اللهم ، اجعلنى خيرا مما يَحسَبون ، واغفِرلى مالا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ... وكان رجل يُكثِر الثناء على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعَلِمَ من قلبِه خِلافَ قوله ، فقال له : أنا دونَ ماتقول ، وفوق مافى نفسك ؛ وقال الجاحظ : شرُّ الشكر ، ثناءُ المُواجِهِ لك المُسْرِف فى مدحك ،

وخيْرُه، ثناء الغائب عنك ، المقتصِد فى وَصْفِك . وقالوا : كنْ ممن أفرط فى تزكيتك أحْذَرَ ممن أفرط فى الزرايةِ بك . وقالوا : مَن مَدَحَ الرجل بما ليس فيه فقد بالغ فى ذمّه . وقال أبو فراس الحمدانىّ :

ولا تَقبَلَنَّ القولَ من كلِّ قائلٍ سأُرْضِيكَ مَرْأًى لستُ أُرضيكَ مَسْمَعا

وقال الفضيل بن عياض : لوشَمَمْتُم رائحة الذنوب منى ما قَرِبْتمونى ...

وأُثنِيَ على زاهدٍ ، فقال : لوعَرَفْتَ منّى ماعرَفْتُ من نفسى لَأبغَضْتَنى .

وقال المتنبّى :

يُحَدَّثُ عن فضلِه مُكرَهاً كأنَّ له منه قلباً حسُودا

من يمدح نفسه

خطب معاوية بن أبى سُفيان رضى الله عنه خُطبةً حسنةً ، فقال : هل من خللٍ ؟ فقال رجل من عُرْض الناس : خللٌ كخللِ المُنْخُلِ ، فاستدعاه وقال : ماذاكَ الخلل ؟ قال : إعجابُك به ومدحُك له ... وقيل لحكيم : ماالذى لا يَحسُنُ وإن كان حقّاً ؟ قال : مدحُ الرجل نفسَه ... وقال معاوية لرجلٍ : مَن سيّدُ قومك ؟ فقال : أنا ، فقال له : لوكنتَ كذلك لم تَقُلْهُ ... ومن طُرفِهم فى ذلك ما رُوِى عن بعض الشعراء أنه سُئلَ : كيف أصبحتَ ؟ فقال : أصبَحْتُ والله أظرَفَ الناس وأشعرَ الناس وآدبَ الناس ، فقال السائل : اسكت حتى يقول الناس ذلك ، فقال : أنا مُنذ ثلاثين سنة أنتظر أن يقولَ الناس ولَيسُوا يقولون ... ومَدَحَ أعرابىٌّ نفسَه فعُوتِب فى ذلك ، فقال : أأكِلُهُ إليكم ! إذَن والله لاتقولوا أبدا ...

عذر من يُضطرّ إلى مدح نفسه

قال ابن الرومى فى ذلك :

وعزيزٌ علىَّ مَدْحى لنفسى غيرَ أنّى جُشِّمْتُه لِلدَّلالَهْ
وهْوَ عيْبٌ يكادُ يسقُطُ فيه كلُّ حُرٍّ يُريدُ يُظهِرُ حالَهْ

ووُصفَ لأبى جعفر المنصور بعضُ الأفاضل ، فأمر بإشخاصه إليه ؛ فلما دخل قال له : أعالمٌ أنت ؟ فقال : أكرَهُ أن أقول : نعَمْ ، وفيه مافيه ، أوأقول : لا ، فأكون جاهلا . فأُعجِبَ المنصور بجوابه وألْزَمَه المهدىَّ

نهيهم عن المدح قبل الاختبار

قالوا : لاتَهرِف قبلأن تعرِف «أى لاتمدح قبل التجربة» وأصل الهَرْف : الهذيان قال الأزهرى : الهَرْف : شِبْه الهذيان من الإعجاب بالشىء يقال : هو يهرف بفلانٍ نهارَه كلَّه هَرْفا ، وقالوا : لاتَحمَدَنَّ أمَةً عامَ شِرائِها ، ولا حُرَّةً قبل بنائها « قبل الدخول بها » ... وقال رجل لعمر رضى الله عنه : إنّ فلانًا رجلُ صِدْقٍ ، فقال : هـل سافرْتَ معه ، أو ائتمَنْتَه ؟ قال : لا ، فقال : إذَن لاتمدَحْهُ ، فلا عِلْمَ لك به ، لعلَّكَ رأيتَه يرفَعُ رأسَه ويخفِضُه فى المسجد !

ختام الباب

عبقريات شتى فى الشكر

قال أبو ذَرّ : قلتُ للنبىِّ صلى الله عليه وسلم : الرجل يَعْمَل العملَ ويُحِبُّه الناس ؟ قال : تِلك عاجِلُ بُشْرَى المؤمن ... وقال صلوات الله عليـه : إذا أردْتُم أن تعْلَموا ماللعبد عند الله فانظروا ماذا يتْبعُه من الثناء ...

وقال شاعر :

عُثمانُ يَعْلمُ أنّ الحمدَ ذُو ثمنٍ ... لكنه يَشْتَهى حَمْداً بمَجّانِ

والناسُ أكْيَسُ من أنْ يحْمَدوا رَجُلًا ... حتى يَرَوا قَبْلَه آثارَ إحْسانِ

وقال معاوية بن أبى سفيان يُعاتِب قُريشا :

إذا أنا أعْطيْتُ القليلَ شَكوْتُمُ ... وإن أنا أعطيتُ الكثيرَ فلا شُكْرُ

وما لُمْتُ نفسى فى قضاءِ حُقوقِكم ... وقد كان لى فيها اعْتَذَرْتُ به عُذْرُ

وأمْنَحُكمْ مالى وتُكْفَرُ نِعْمَتى ... وتَشْتِمُ عِرْضى فى مَجالِسِها فِهْرُ (١)

إذا العُذْرُ لم يُقْبَلْ ولم يَنْفَعِ الأَسَى ... وضاقَتْ قلوبٌ منهمُ حَشْوُها الغِمْرُ (٢)

فكيف أُداوى داءَكم ودَواؤُكم ... يزيدُكم غَيًّا ! فقد عَظُمَ الأمْرُ (٣)

سأحْرِمُكمْ حتى يَذِلَّ صِعابُكم ... وأبْلَغُ شيءٍ فى صلاحِكمُ الفقرُ (٤)

وقال ابنُ الرومى :

كَمْ مِنْ يَدٍ بَيْضاءَ قدْ أسْدَيْتَها ... تَثْنِى إليكَ عِنانَ كُلِّ وِدادِ

شَكَرَ الإلهُ صَنائِعاً أوْلَيْتَها ... سَلَكَتْ مع الأرواحِ فى الأجسادِ

وقال الشريف الرضى :

ألْبَسْتَنِى نِعَمًا على نِعَمٍ ... وَرَفَعْتَ لى عَلَماً على عَلَمِ

وعَلَوْتَ بى حتّى مَشَيْتُ على ... بُسُطٍ مِنَ الأعْناقِ والقِمَمِ

فلأَشْكُرَنّ يَدَيْكَ ما شَكَرَتْ ... خُضْرُ الرِّياضِ مَصانِعَ الدِّيَمِ

---

(١) فهر : هو فهر بن غالب بن النضر بن كنانة ثم سمى به القبيلة وقريش كلهم ينسبون إليه (٢) الأسى: العلاج والدواء والإصلاح والعدل ، والغمر : الحقد (٣) الغى : الضلال (٤) يذل : ينقاد

فالحمدُ يُبقِي ذِكْرَ كُلِّ فتًى ... ويُبِينُ قَدْرَ مَوَاقِعِ الكَرَمِ
والشُّكْرُ مَهْرٌ للصَّنِيعَةِ إنْ ... طُلِبَتْ مُهورُ عَقائلِ النِّعَمِ

« القمم جمع قِمَّة : أعلى الرأس وأعلى كل شيء ، والديم جمع ديمة : المطر الذى ليس فيه رعد ولا برق يدوم ثلث نهار أو ثلث ليل فأكثر ، والصنيعة : ما أسديت من معروف ، والعقائل : كرائم الأموال » وقال رجل لبعض ذوى السلطان : المواجهةُ بالشكر ضَرْبٌ من الملق ، منسوبٌ من عُرف به إلى التَّخلُّقِ ، وأنت تمنعني من ذلك ، وترفع الحال بيننا عنه ، ولذلك تَرَكْتُ لِقَاءَكَ به ، غيرَ أنى مِنَ الاعترافِ بمعروفك، ونَشْرِ ماتطوى منه ، والإشادة بذكره عند إخوانك ، والانتساب إلى التقصير مع الإطناب فى وصفه ، على ما أرجو أن أكون قد بلغتُ به حالَ المُحْتمل للصَّنيعة الناهض بحق النِّعْمَةِ . وقال أبو يعقوب الخُرَيْمى :

زاد معروفُك عِندِي عِظَمًا ... أنَّهُ عِنْدَكَ مَحْقُورٌ صَغِيرُ
تتناساهُ كأنْ لمْ تأتِهِ ... وهو عند الناس مَشهورٌ كبيرُ

وقال بعضهم : لاتثق بِشُكْرِ من تُعطِيه حتى تَمْنَعَهُ ، فإن الصابر هو الشاكرُ ، والجازع هو الكافر ... وقال الشاعر :

إذا أنا لم أشْكُرْ على الْخَيْرِ أهْلَهُ ... ولمْ أذْمُمِ الْجِبْسَ اللَّئِيمَ الْمُذَمَّمَا[1]
فَفِيمَ عرَفْتُ الْخَيْرَ والشَّرَّ باسْمِهِ ... وشَقَّ لِىَ اللهُ الْمَسَامِعَ والْفَمَا

وقال ابنُ التَّوْءَمِ[2] : كلُّ من كان ، جودُه يرجعُ إليه ، ولولا رُجوعُه إليه لما جاد عليك ، ولو تهيّأ له ذلك المغنَى فى سواك لما قصد إليك ، فليس يجبُ له عليك شُكْرٌ ، وإنما يوصف بالجود فى الحقيقة ويُشكر على

(١) الجبس : النذل الدنىء (٢) هو عقبة بن التوءم من رجال الحديث

النَّفع فى حُجَّة العَقْل ، الذى إن جاد عليك فلكَ جاد ، ونفعَك أراد ، من غير أن يرجعَ إليه جودُهُ بشيء من النفْع على جهة من الجهات ، وهو الله وحده لاشريك له ، فإن شكرْنا الناسَ على بعض ماجرى لنا على أيديهم ، فلأمْرَين : أحدُهما التَّعَبُّدُ ، وقد أمر اللهُ تعالى بتعْظِيم الوالدين وإن كانا شيْطانَيْنِ ، وتعْظِيم من هو أسَنُّ منَّا وإن كُنَّا أفْضَلَ منه . والآخرُ : لأنَّ النفس مما لا تُحصِّلُ الأُمورَ وتُميِّزُ المعانى ، فالسابق إليها حُبُّ مَن جرى لها على يديْه الْخَيْرُ وإن كان لم يُرِدْها ولم يقصد إليها . ألا ترى أن عطيَّةَ الرجل صاحبَهُ لاتخلو أن تكون لله أو لغَيْرِ الله ، فإن كانت لله فثوابه على الله ، وكيفَ يجبُ فى حُجَّةِ العقْلِ شكرُه وهو لوصادفَ ابنَ سَبيل غيرى لما أعْطانى ، وإما أن يكون إعطاؤه إيایَ للذِّكْر ، فإن كان كذلك فإنما جعلني سُلَّما إلى حاجته وسبباً إلى بُغْيَتِه ، أو يكون إعطاؤه إياى طلباً للمُكافأة فإنما ذلك تجارةٌ ، أو يكون إعطاؤه لخوفِ يدى أولسانى أو اجترار معونتى ونصرتى ، وسبيل هذا معروف ، أو يكون إعطاؤه للرَّحْمَةِ والرِّقَّةِ ولما يجدُ فى فؤاده من العَصْرِ والألم ، فإنما دَاوَى بتِلْك العطية من دائه ، ورفَّهَ من خِناقه ... وقال بشَّارُ بنُ بُرد :

أُثني عليك ولى حالٌ تُكَذِّبُنِى فيما أقول فأسْتَحْيِي من الناسِ
قدقلتُ إنَّ أباحفْصٍ لأكرمُ مَنْ يَمْشِي فخاصمنى فى ذاك إفلاسى

وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها كثيرا ما تتمثَّلُ بقول الشاعر :

يَجْزِيك أو يُثْنى عليك وإنَّ من أثْنى عليك بما فعلت كَمَنْ جزى

وقالوا : خمسةُ أشياءَ ضائعةٌ : سِرَاجٌ يُوقَدُ فى شَمْسٍ ، ومَطَرٌ جَودٌ فى سَبِخَة ، وحسْناءُ تُزَفُّ إلى عِنِّينٍ ، وطعامٌ اسْتُجِيدَ وقُدِّم إلى سكرانَ ، ومعروفٌ صُنِعَ إلى من لا شُكْر له ...

الباب الثالث

فى الصبر وعبقرياتهم فيه، وفى الدنيا وأكدارها، وفى هادم اللذات

ماذا يُراد بالصبر فى هذا الباب؟

قال علماءُ اللغة: الصبرُ: نقيض الجزَع، أو حبْسُ النفس عند الجزع، يقال: صبرَ فلانٌ عند المصيبة يَصْبِرُ صَبْراً، وصبرْتهُ أنا: حبسْتُه، والتَّصَبُّرُ: تكلُّفُ الصبْر، قال عمر رضى الله عنه: أفْضلُ الصبرِ: التَّصَبُّرُ... وقال الراغب الأصفهانى فى الذريعة: الصبرُ ضرْبانِ: جِسْمِىٌّ ونفْسِىٌّ، فالجِسْمِىُّ: هو تحمُّل المشاقّ بقدر القوة البدنية، وأكثرُها لذوى الجسوم الخَشِنَة، وليس ذلك لفضيلة تامّة، وذلك فى الفعل كالمشى ورَفْع الحجر، وفى الانفعال كالصبر على المرض، والنفسىُّ ــ وبه تَتَعلَّقُ الفضيلة ــ ضربان: صبرٌ عن تناول مُشْتَهَى، ويقال له: العِفّة؛ وصبر على تحمل مكروه أو مَحْبُوب، وهذا تختلف أسماؤه بحسب اختلاف مواقعه، فإذا كان فى نزول مُصيبَةٍ فإنه مما استَبَدَّ به اسم الصبر، وضده الجزع والهلع والحزن، وإن كان فى احتمال غِنًى فقد سُمِّى ضبط النفس ويُضادُّه الدَّقَع والبَطَر،[1] وإن كان فى محاربة سُمِّى شجاعة ويضادُّه: الجبن، وإن كان فى إمساك النفس عن قضاء وطر الغضب سمى حِلْماً، ويضادُّه: التذمُّر[2]، وإن كان فى نائبة مُضْجِرَة سُمِّى سَعة الصدر؛ ويضادُّه ضيق الصدر والضجر والتبرُّم، وإن كان فى إمساك كلامٍ

(١) الدقع: الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر، والبطر: الطغيان فى النعمة

(٢) التذمر: التغضب ومنه: فلان حامى الذمار وهو كل ما يلزمك حفظه وحياطته، وحمايته وما يجب على أهله التذمر له والغضب من أن ينال منه

فى الضمير سُمّى كتمان سرّ ، ويضادُّه : الإفشاء ، وإن كان فى الإمساك عن فضولات العيش سمى قناعة وزهداً ، وهذا يضادُّه : الحِرص والشَّرَه ...

« وبعد » فها أنت ذا ترى مما أوردنا عليك من كلام الراغب : أن الصبر ألوانٌ ، ومن أخص ألوانه : الصبر على المصائب ، ذلك الذى يضادُّه الجزع وهذا اللون هو الذى سوف نتصدّى له فى هذا الباب ، أمّا سائر الألوان فإن لكل منها باباً لقد عقدناه فيما يلى هذا الباب من الأبواب .

عبقرياتهم فى الصبر

قال الراغب فى فصل عنوانه « مداواة الغم وإزالة الخوف » مع شىء من التصرُّف : خليقٌ بالإنسان أن يعلم أن الدنيا جَمَّةُ المصائب رَنِقَةُ المشارب تُثمِرُ لِلبَرِيَّةِ أضعَافَ البَلِيَّةِ[1] ، فيها مع كلِّ لُقْمَةٍ غُصَّة[2] ، ومع كلِّ جُرْعَةٍ شَرْقَة[3] ، فهى عَدُوَّةٌ ومَحْبُوبَةٌ كما قال أبو نواس :

إذا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لبِيبٌ تَكَشَّفَتْ ... لَهُ عن عَدُوٍّ فى ثِيَابِ صَدِيقِ

وكما رُوِىَ عن الحسن البَصْرِىُّ أنه قال : ماَمثَلُنا مع الدنيا إلا كما قال كُثَيِّرٌ :

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَمَلُومَةٌ ... لَدَيْنا وَلاَمَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ[4]

(١) البرية : الخلق ، وأضعاف البلية يريد البلية مضاعفة والبلية : المحنة

(٢) الغصة : الشجى ـ ماينشب فى الحلق من عظم وغيره

(٣) الجرعة من الماء : حسوة منه ، والشرقة : الغصة ولكنه بالماء والريق ونحوهما قال عدىُّ بنُ زيد :

لَوْ بِغَيْرِ المَاءِ حَلْقِى شَرِقٌ ... كُنْتُ كالغَصَّانِ بالمَاءِ اعْتِصارِى

(٤) مقلية : مكروهة ، وتقلت بحذف احدى التاءين وتقلى الشىء : تبغض . خاطب كثير ثم غايب

فما أحدٌ فيها إلا وهو فى كلِّ حالاته غَرض لِسِهامها :

تُناضِلهُ الآفاتُ مِنْ كلِّ جانب   فتُخطِئهُ يوماً ويوما تصيبُهُ [١]

وقال بعض الحكماء : أسباب الحزن فقــدُ محبُوبٍ أو فوتُ مطلوب ، ولا يَسلَمُ منهما إنسان ، لأنَّ الثبات والدوامَ معدومان فى عالم الكوْن والفسادِ. فمَن أحبَّ أن يعيش هو وأهلهُ وأحبابُه سالِمِين فهُوَ غيرُ عاقل ، لأنه يريدُ أن يَملِكَ ما لا يُملَكُ، ويُوجِدَ له ما لا يُوجَد ، فحَقِيقٌ بالمرء أن لا يُخلِيَ قلبه من الاعتبار بما يَرَى ، من ارتجاع لودائعها من أربابها ، وحلول لنوائبها بأصحابها .

ثم مِن حقِّه أن يقلِّل من اقتناءِ ما يُورِثُه الحزن ، فقد قيل لحكيم : لِمَ لا تغتمُّ ؟ فقال : لأنى لم أقتنِ ما يَغُمُّني فقدُه، أخذه الشاعر فقال :

فمَنْ سَرَّهُ أن لا يَرى مايسوؤُه   فلا يَتَّخِذْ شيئا يَخاف له فَقْدا

وقيل لحكيم : هل للإنسان أن يعيش آمنا ؟ قال : نعم ، إذا احترس من الخطيئة ، وقنِع بحلالِه ، ولم يحزن لما هو واقع به لامحالة . واعلم أنَّ الجزع على مافات لايلُمُّ ماتشعَّثَ ولا يُبرِمُ ما انتكث ؛ فأما غمُّه على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجهٍ : إمَّا فى شيء ممتنِعٍ كونُه ، أو واجبٍ كونُه ، أو ممكن ، فإن كان على ماهو ممتنع كونُه فليس ذلك من شأن العقلاء ، وكذلك إذا كان من قبيل الواجب كونه ، كالموت الذى هو حتمٌ فى رقاب العباد ، وإن كان ممكنا كونه فإن كان من الممكن الذى لاسبيل إلى دفعِه كإمكان الموت قبل الهرَمِ فالحزن له جهل ، واستجلابُ غمٍّ ، وإن كان من الممكن الذى يصحُّ دفْعُه فالوجه أن يحتال إلى دفعِه بفعلٍ غير مشوبٍ بحزن ، فإنْ دفعَه وإلا

---

(١) ناضله مناضلة فنضله : باراه فى الرمى فغلبه

تلقّاه بصبرٍ ، وليتحقق قوله عز وجل : ما أصاب مِن مُصيبةٍ فى الأرض ولا فى أنفسِكم ، فمن عَلِمَ أنَّ ما جرَى فى حكمِهِ وسبَق فى عِلمِهِ لاسبيل إلى أن لايكون ، هانت عليه النُّوَبُ ، واعلم أن الذى يَغُرُّ الناسَ هو حسنُ ظنِّهم باغترارِ الآفات ، واغترارُهم حالة بعد حالة بصَفاء الأوقات ، ولو تأمّلوها لتحقّقوا أنها كما قال علىٌّ رضى الله تعالى عنه : ماقال الناس لقومٍ طوبَى لكم إلا وقد خبأ الدهرُ لهم يومَ سوءٍ :

إنَّ الليالِىَ لم تُحسِنْ إلى أحدٍ ... إلا أساءتْ إليه بعدَ إحسانِ

انتهى كلام الراغب ، ومن أبدع ماقيل فى الصبر والجزع قول ابن الرومى :

أرَى الصبرَ محمودًا وعنه مذاهِبٌ ... فكيف إذا لم يَكُنْ عنه مذهَبُ (١)

هُناكَ يَحِقُّ الصبرُ والصبرُ وَاجبٌ ... وما كان منه كالضَّرورةِ أوْجَبُ (٢)

فَشَدَّ امْرُؤٌ بالصبرِ كَفًّا فإنه ... له عِصْمةٌ أسبابُها لا تَقضَّبُ (٣)

هو المَهْرَبُ المُنْجِى لمنْ أحدقتْ به ... مَكارِهُ دهْرٍ ليس منهنّ مَهرَبُ (٤)

أعُدُّ خِلالًا فيه ليس لِعاقِلٍ ... من الناسِ ـ إنْ أنصفْنَ ـ عنهنّ مَرْغَبُ (٥)

لَبُوسُ جَمالٍ ، جُنَّةٌ من شَماتةٍ ... شِفاءُ أسًى يُثْنَى به ويُثوِّبُ (٦)

(١ و٢) يقول : إن صبر الإنسان على مايناله من مكروه أو عما يريد نيله من محبوب : محمود ، ولو أنه يجد طرقا كثيرة يتخلص بها من المكاره أو يحصل بها على الرغائب ، فكيف إذا لم يجد وسيلة إلى إزالة المكروه أو إدراك المرغوب؟ لا شك أن الصبر إذن واجب وما كان منه أشبه بالضرورة أعظم وجوبا

(٣ و٤) فشدّ امرؤ بالصبر كفا يقول : خليق بالمرء أن يستظهر بالصبر على تحمل المكاره ، اذ أن الصبر عصمة وثيقة لاتنقطع حبالها فنعم الملجأ هو لمن أحاطت به نوائب الدهر التى لامحيص عنها

(٥ و٦) يقول : إن فى الصبر خلالا لايليق بعاقل أن يتركها إذا كان هناك إنصاف

فياعَجبًا للشيء هــذى خِلالُه ... وتاركُ مافيه من الحظ أعْجبُ
وقد يَتظنّى الناسُ أنّ أساهُمُ ... وصبرَهُمُ فيهم طِباعٌ مُركّبُ (١)
وأنهما ليسا كشيءٍ مُصرَّف ... يُصرِّفُه ذو نكبةٍ حين يُنكَبُ
فإن شاء أن يأسَى أطاع له الأَسَى ... وإنْ شاء صبرا جاءه الصبرُ يُجْلَبُ
ولكنْ ضروريان كالشيء يُبتَلى ... به المرء مغلوبا وكالشيءِ يذهبُ
وليْسا كما ظنُّوهما ، بل كِلاهُما ... لكلّ لبيبٍ مُستطاعٌ مُسبّبُ (٢)
يُصرِّفُه المُختارُ مِنّا ، فتارةً ... يُرادُ فيــأتى أوْ يُذادُ فيَذهَبُ (٣)

ومعدلة، وهـذه الخلال هي : أن الصبر لبوس جمال ، أى أنه زينة وحلية جميلة ، وأنه جنة من شماتة، أى وقاية من فرح الأعداء بما يصاب به المرء :

وتجلُّدِي للشــامتين أُرِيهِمُ ... أنى لرَيب الدهر لاأتضَعْضَعُ

وأنه شفاء أسى ، أى مذهب للحزن ، وأنه يثنى به ، أى أنه مدرجـة للحصول على الثناء ، وأنه يثوب ، أى يجازى عليه

(١) يتظنى أصلها : يتظنن ، أى يُعملون الظن ، أى يذهبون مع ظنهم ، والأسى : الحزن ، وطباع : أى طبع ، يقول : وقد يظن الناس أن الحزن والصـبر طبع، لا حيلة لمن طبعه الحزن فى أن يصبر ، ولا لمن طبعه الصبر أن يحزن ، ثم قال فى البيت التالى : وأن كلا الحزن والصبر ليسا من الأشياء التى يمكن تحويلها من حال إلى حال حتى يحولها المنكوب المصاب فإذا أراد الحزن أطاعه الحزن وإن أراد الصبر والتجلد جلبا اليه ـ وهـذا معنى قوله فإن شاء ... البيت ، ثم قال : ولكن يظن الناس أن كلا من الأسى والصبر ضروريان كأنّ الحزن شىء يملك على الإنسان أمره لا حيلة له فى التخلى عنه وكذلك الصـبر ترى الإنسان يصبر كما لو ضاع منه شىء لا بد أن يتحمل فقـده أى يصبر على ضياعه ثم فند هذا بقوله : وليسا كما ظنوهما ... الأبيات

(٢) يقول : وليس الحزن والصبر كما يظنهما الناس وإنما هما مما يقدر عليه ومن المستطاع التصرف فيهما والتسبب لتحويل كلّ منهما وتركه إلى الآخر

(٣) المختار : ذو الإرادة ، ويذاد : يدفع ويبعد

إذا احتجّ مُحْتَجٌ على النَّفْسِ لم تَكَدْ على قدَرٍ يُمْنَى لها تتعتّبُ (١)

وساعدَها الصَّبْرُ الجميلُ فأقبلَتْ إليها له طوْعاً جنائبُ تُجْنَبُ (٢)

وإنْ هو منَّاها الأباطيلَ لم تزَلْ تقاتِلُ بالعتبِ القضاءَ وتُغلَبُ (٣)

فتُضحِي جزوعاً إنْ أصابتْ مُصيبةٌ وتُمْسِي هلوعاً إنْ تعذَّرَ مطلَبُ (٤)

فلا يَعذِرَنَّ التاركُ الصَّبْرَ نفسَه بأنْ قيلَ: إنَّ الصَّبْرَ لا يُتكَسَّبُ (٥)

وقال الأصمعيُّ: أحسنُ ما قيل فى الصبر مع الشرح قول أبى ذُؤَيب الهذلى:

وتجلُّدِى للشامتينَ أُرِيهِمُ أنّى لرَيْبِ الدَّهر لا أتضعْضَعُ

حتى كأنى للحوادثِ مَرْوَةٌ بِصَفَا المُشقَّرِ كلَّ يومٍ تُقْرَعُ

«لا أتضعضع: لا أذلُّ ولا أخضع، وريب الدهر: صَرفُه، والمروَة واحدة المَرْو وهى: حجارة بيض براقة يقدح منها النار: ومروَة المَسْعَى التى تذكر مع الصفا فى الحج - وهى أحد رأسيه اللّذين ينتهى السعى إليهما - سميت بذلك، و بصفا

(١) يمنى: يقدر يقول: إذا أقمت للنفس الدليل على أن الصبر اختيارى مكتسب ثم ألمت بها المصائب فإنها تقتنع ولا تعتب على القضاء والقدر

(٢) الجنائب جمع جنيب وهو الفرس يجنب إلى الفرس حتى إذا فتر المركوب ركب المجنوب، وله متعلق بجنائب أى جنائب للصبر، يقول: متى اطمأنت النفس إلى الدليل على أن الصبر مكتسب وتركت عتاب القدر ساعدها على تحمل مصائبها صبر جميل يواتيها مسعفا

(٣) يقول: أما إذا تركت النفس تذهب مع الأوهام والأباطيل فإنها لا تزال فى عتب على القضاء والقدر مما أصابها ولا تزال تعتب عبثا وبلا فائدة حتى تقهر وتغلب

(٤) الهلوع: الجزوع جزعا شديدا يقول: فيشتد جزعها إذا أصابتها مصيبة ويشتد أكثر إذا فاتها مطلب من مطالبها

(٥) يقول: لا عذر لمن يترك الصبر اغترارا بقول القائل: إن الصبر طبع غير مكتسب إذ ظهر أن هذا القول باطل وأن الحق أن الصبر اكتسابى

المَشَقَّر يروى : بصَفا المشَرَّق ، أما المشقَّر فهو : موضع أو حصن بالبحرين قديم بناه كسرى ، والمشرَّق فهو : جبل بسُوق الطائف ، والصفا : جمع صفاة : صخرة مَلْساء وبه سمى أحد جبلى المسعى ؛ وهذان البيتان من قصيدة أبى ذؤيب [1] التى يَرْثى بها بَنيه الخمسةَ وقد ماتوا فى عام واحد ، وأولها :

أمِنَ المَنُونِ ورَيبِه تتوجَّعُ والدَّهرُ ليسَ بمُعتِبٍ مَن يَجزَعِ [2]
قالت أُمامَةُ : ما لِجِسْمِك شاحِبًا مُنْذ ابْتُليتَ ومِثلُ مالِكَ ينفَعُ [3]
أمْ ما لِجِسْمِكَ لا يُلائمُ مَضجَعًا إلا أقَضَّ عليكَ ذاك المَضْجَعُ [4]

يروى أن عبد الله بن عباس رضى الله عنه استأذن على معاويةَ فى مرض موته لِيَعودَه ، فادَّهن واكتحل ـ أى معاوية ـ وأمرَ أن يُقعدَ ويُسنَد وقال : إئذَنوا له ، ولْيُسلِّم قائما ولينصرف ، فلما سلَّم عليه وولَّى ، أنشد معاوية قول أبى ذؤيب : وتجلّدى للشامتين ... البيت : فأجابه ابن عباس على الفور :

وإذا المنيَّةُ أنشبتْ أظفارَها ألفيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفَعُ

ثم ما خرج من داره حتى سَمِع نعيَّه ... وقال ضابئُ بن الحارث البُرْجُمِىُّ من أبيات قالها فى سجن عُثمانَ بنِ عفّان رضى الله عنه :

ورُبَّ أمورٍ لا تَضِيرُكَ ضَيْرةً وللقلبِ من مَخشاتِهِنَّ وجيبُ
ولا خيرَ فى مَن لا يُوطِّنُ نفسَه على نائبات الدّهرِ حينَ تنوبُ

---

(١) أبو ذؤيب الهذلى : شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم

(٢) المنون هنا : الدهر فلذلك ذكره ، ومن أراد به المنية أنثه ، معتب : مزيل عتبة ، أى مُرضٍ

(٣) ومثل مالك ينفع ، يقول : ما لجسمك شاحبا ومثل مالك لا يكون معه هزال ولا شحوب لأنه واسع مبذول

(٤) إلا أقض عليك ذاك المضجع : أى تجده كأن فيه قضة وهى : الحصا الصغار

« قوله : لا نضيرك ضيرةً ، فالعرب تقول : ضارَهُ يضيرُه ضيراً وضَيْرَةً ـ المرّة من الضير ـ ولا ضيْرَ عليك ، وضرَّه يضُرُّه ولا ضرَرَ عليه ، والمخشاة : مصدر خشيَه يخشاه خشية ومخشاة ومخشِية : خافه ، وفى معنى هذا البيت يقول أبو العتاهية :

وقد يَهْلِكُ الإنسانُ من بابِ أَمْنِه ... ويَنْجو بإذْنِ الله من حيثُ يَحْذَرُ

والأصل فى هذا قوله عز وجل : وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعلَ اللهُ فيه خيراً كثيرا ، وقوله : ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... البيت : نظيره قول كُثَيِّر عزّة :

أقول لها : ياعَزُّ ، كلُّ مُصيبة ... إذا وُطِّنَت يوماً لها النفسُ ذَلَّت

قال عبد الملك : لو قال كثير هذا البيت فى صفة الحرب لكان أشعرَ الناس ، وفى الأثر : للمِحَنِ أوقاتٌ ولها غايات ، واجتهاد العبد فى محْنَتِه قبل إزالة الله لها ، زيادة فيها قال تعالى : إن أرادَنِيَ الله بِضُرٍّ هل هُنَّ كاشفات ضُرِّه أو أرادنى برحمةٍ هل هُنَّ مُمْسِكاتُ رحمته ، قلْ حسبيَ الله عليه يتوكَّلُ المُتوكِّلون ... وقالوا : المُمْتَحَنُ كالمُخْتَنِق كلما ازدادَ اضطراباً ازداد اختناقاً ... وحُكى عن بعض الصالحين : أن ابناً له مات فلم يُرَ به جَزَعٌ ، فقيل له فى ذلك فقال : هذا أمرٌ كنا نتوقّعُه ، فلما وقع لم نُنْكِرْه ... وقالوا : مَن أراد طولَ البقاء فليُوَطِّن نفسه على المصائب ؛ وقالوا : المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان ، وقال أكثمُ بن صَيْفِيٍّ : حيلةُ مَن لا حيلةَ له : الصبر . وسيّد الكلام فى الصبر قول المصطفى صلوات الله عليه : لو كان الصبرُ رجلا لكان رجلا كريما ، والكريم ضد اللئيم »

عود إلى أسباب الحزن

وقال الفيلسوف أبو يعقوب الكِنْدِيّ: أسباب الحزنِ: فَقْدُ محبوب، أو فَوتُ مطلوب، ولا يَسلمُ منهما إنسانٌ، لأن الثَباتَ والدوامَ معدومان فى عالَم الكَوْنِ والفساد؛ وقال الحسن البَصرى: الدنيا دارُ غُمومٍ، فمن عُوجِلَ فُجِع بنفسه، ومن أُجِّلَ فُجِع بأحبابه؛ وقال بعض الفلاسفة: مَن أراد أنْ لا يُصابَ بمُصيبةٍ، فقد أرادَ مالا يكون، لأن المصائب فى عالم الكون والفساد طبع بالطبع؛ فينبغى أن يكون منّا على بال: أن جميع الأشياء التى تَصِل إلينا كانت قَبلَنا لغيرنا، فانتقلت إلينا على شريطةِ ما كان لمن قَبلنا... وقيل لسُقراطَ: مالكَ لاتجزعُ؟ قال: لأنى لاأقتنى مايُحزِنُنى فَقْدُه... وقال ابن الرومى فى هذا المعنى:

وَمَن سَرَّه أنْ لا يَرى ما يَسُوؤُه   فلا يَتَّخِـذْ شيئا يَخاف له فَقدَا

أقول: يريدون بذلك: أنه لابُدَّ فى هذه الدنيا من المصائب مادام، هناك قُنْيةٌ من مال وولد وما إليهما من كل ماهو مُسْتهدَف لِسهام الأيام، ومن أراد أن لا يصابَ فلا يَقتنى مايسوؤه فقدُه ـ والقِنْيَةُ لابُدَّ منها فى هذه الحياة الدنيا، وإذَن لابد من توطين النفس وإعدادِها لتَلَقّى المصائب... وإذا كان هناك مَن يترامى بمثل هذا الكلام إلى الحثّ على الزهد، فهذا مَرْمًى آخرُ، منهم مَن يفزعُ إليه لمِثل هذا الغرضِ ـ تَوَقّى المصائب ماأمكن ـ ولأغراض أخرى تراها بعدُ... وقالوا: الجزَعُ مَنْقَصةٌ للحياة، ومن أعان على نُقصانِ حياته، فقد عظُمت خطيئتُه... وقالوا: التأسف على الفائت تضييع وقتٍ ثانٍ، إن كنتَ جازِعًا لِما أفلَتَ منك فاجزَعْ على مالم يصِلْ إليك؛ وقال

عليٌّ كرّم الله وجهه: الصبر مَطِيَّةٌ لاتكبو، والقَناعةُ سيفٌ لا ينبُو. وقال عمر رضى الله عنه: لوكان الصبرُ والشكرُ بَعيرَيْنِ ماباليْتُ أيَّهُما رَكِبت؛ وقيل: الصبر يُناضِلُ الحدَثان، والجزع من أعوانِ الزمان، وما فى الشكوى إلا أن تُحْزِنَ صديقَك وتُشمِتَ عدُوّك؛ وقيل: اجْعَلْ صبرَك على النوائب كِفاءَ شُكرِك على المواهب، الصبرُ عند النِقَم، والشكر عند النِعَم، وقال حكيم: جميعُ مَكارِه الدنيا تنقسم قسمين، ضربٌ فيه حيلةٌ، فالاضطرابُ[1] دواؤه، وضرب لاحيلةَ فيه، فالصبر شِفاؤه، وقالت الفُرْس: كلمتان يقولهما العاقِلُ عند نائبته: إحداهما: هذه الحال خيرٌ مما هو شرٌّ منها، والأخرى: لعلّ الله أن يجعل فى هذا المكروه خيرا! وكلمتان يقولهما الجاهل: لعلّ ما أصابنى يدعو إلى شرٍ منه! والأخرى: لوكان بَدَلَ كذا كذا من المصيبة! وقالوا: الصبر على مرارة العاجل، يُفضِى إلى حلاوةِ الآجل، إنك لا تَنالُ قليل ماتُحِب إلا بالصبر على كثير ماتَكره، وقالوا: لكل شىء ثمرَة، وثمرة الصبر الظَفَر، والصبر كاسْمِه، وعاقبتُه العسل،. والصبرُ على المصيبة مُصيبةٌ على الشامت. وقال علىّ: إن صبرْتَ فأنت مأجور، وإن جزِعتَ جرَى عليك المقدور.

حثهم على تصوّر المصائب
والاستعداد لها كَىْ تَخِفَّ وطأتها

وقالوا فى ذلك: من كان مُتَوَقِّعا، لم يُلْفَ مُتَوَجِّعا، وقال بعضهم

(١) الاضطراب: يريد: الحركة والاحتيال فى دفعه

ـ قيل لابن الرومى، ولم أرها فى ديوانه، وإن كانت أشبهَ بمذهب ابن الرومى ـ :

أَلَمْ تَرَ رُزْءَ الدَّهْرِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ كِفاحًا إذا فكَّرْتَ فى الخلَواتِ
فما لَكَ كالمَرمِيِّ فى مأمَنٍ لهُ بِنَبْلٍ أَتَتْهُ غيرَ مُرْتَقَباتِ
فإنْ قُلْتَ مكْرُوهٌ أتانى فُجاءَةً فما فُوجِئَتْ نَفْسٌ مع الخَطَراتِ
ولا عُورِضَتْ نَفْسٌ ببَلْوَى وقد رأتْ عِظاتٍ من الأيام بَعدَ عِظاتِ
إذا بُعِثَتْ أشياءُ قد كان مِثْلُها قديمًا فلا تَعْتَدَّها بَغَتاتِ

وهذه الأبيات من الوضوح والإنارةِ بحيث لايعوزها شرح ، وقالوا : ما أَمْتَعَ الدَّهْرُ إلا ليمنع ، ولا أَعْطَى إلا ليسْتَرِدَّ ، ولولا اغترارُ الجاهل بعوائده ، لخَلَتِ النفوسُ من الحسرةِ على نوائبه ، وقالوا : لا تُخْلِ فِكْرَكَ مِن عوارضِ الفِكر وخواطِرِ الذِّكر فيما تعروكَ به الأيامُ ، من ارتجاع ودائعها ، وحلول وقائعها ، ـ وهذا ماقاله ابن الرومى آنفا ،

الغمّ يورث السقَم والهرَم

قال المتنبى :

والهَمُّ يَخْتَرِمُ الجسيمَ نحافةً ويُشيبُ ناصِيَةَ الصَّبِي ويُهرِمِ

« يخترم : يستأصل ويقتطع ، والجسيم : العظيم الجسم ، والنحافة : الهزال ، والناصية : شعر مقدّم الرأس ، يقول : إن الحزن إذا استولى على المرء أذهب جسمَ العَظيم الجسَد وهَزَلهُ حتى يأتى عليه من الهزال ، ويشيب الصبيَّ قبل الأوان حتى يصير كالهَرِم من الضعف والعجز » ... وسئل عبد الله ابنُ عبّاس عن الحُزْن والغضب فقال : أصلاهما واحدٌ ، وذلك وقوعُ الأمر

على خلاف المحبّة ، فأما فرعاهما فمختلفان ، فالمكروهُ ممّنْ فوقك يَنتج حزنا ومِمّنْ دونك يُنْتِجُ غضبا

* فَحُزْنُ كلّ أخِى حُزْنٍ أخو الغَضَبِ (١) *

الحزن يَبلَى بتقادم العهد

وقالوا فى الحزن يَبْلَى بعد انقضاء مُدّة : الْحُزْنُ يَنْصُو عن ابن آدم كما يَنْصُو الصِّبْغُ عن الثوب (٢) ولو بَقِىَ لقتَلَه .

وقال المتنبي :

إذا اسْتَقْبَلَتْ نَفْسُ الكَرِيمِ مُصابَها بِخُبْثٍ ثَنَتْ فاسْتَدْبَرَتْهُ بِطِيبِ
وللواجِدِ المكروبِ من زَفَراتِهِ سُكونُ عَزاءٍ أو سُكونُ لُغُوبِ

« قوله : إذا استقبلت ... ألبيت ، فالمصاب مصدر بمعنى الإصابة ، والخبث هنا : الجزع ، والطيب هنا : الصبر وترك الجزع ، وثنت : صرفته ـ أى الجزعَ ـ النفسُ ، يقول : إذا جزع الكريم ـ ضد اللئيم ـ فى أول نزول المصيبة ، وراجع أمره ، عاد إلى الصبر والتسليم ، ومَن لم يُوطِّنْ نفسه على المصيبة فى أول الأمر صَعُبَ عليه عند وقوعها . وقوله : وللواجد المكروب ... ألبيت

---

(١) للمتنبي فى مرثيته التى يرثى بها أخت سيف الدولة وأوله :

جَزَاكَ رَبُّكَ بالأحْزانِ مَغْفِرَةً فحُزْنُ كلّ أخِى حُزْنٍ أخُو الغَضَبِ

يقول : غفر الله لك أحزانك إذ الحزن مما يستغفر منه ، لأن الحزن كالغضب ممن هو دونك اذا أصابك بما تكره والحزن ممن هو فوقك ، والإنسان إذا حزن على مصيبة تصيبه فكأنه يغضب على القدر حيث لم يجر بمراده ، والغضب على المقدور مما يستغفر منه

(٢) يقال : نضا الخضاب ونضوًا : ذهب لونه ونصل

يقول : لابُدَّ للمحزونِ من سكون ، إما أنْ يَسكُنَ عَزاءً ، أو يَسْكُنَ إعياء ، وإذن فحقيق بالعاقل أن يَسكُن تَعزِّيا ، كما قال محمود الوراق :

إذا أنتَ لمْ تَسلُ اصْطِباراً وحِسْبَةً سلوتَ على الأيامِ مِثْلَ ٱلْبَهائِمِ

وكما قال أبو تمام :

أتصْبِرُ لِلبَلْوَى عَزاءً وحِسْبَةً فتُؤجَرَ أمْ تَسلوا سُلُوَّ البهائِمِ

« الحسبة : طلب الأجر والثواب »

ومن أحسن ما قيل من الشعر القديم ، فى أن الحزن يبلى إذا تقادم عهده قول أبى خراش الهُذلى ـ شاعر مخضرم أسلم وهو شيخ كبير ، يوم حنين ـ :

على أنها تَعْفُو الكُلومُ ، وإنما نُوَكَّلُ بالأدْنى وإنْ جَلَّ ما يَمْضِي

وقبل هذا البيت :

حَمِدْتُ إلهى بَعد عُرْوَةَ إذْ نجا خِرَاشٌ ، وبعضُ الشَّرِّ أهْوَنُ من بَعضِ

فوالله : ما أنْسَى قَتِيلا رُزِئْتُهُ بجانِبِ قُوسَى ما مَشَيْتُ على الأرْضِ

على أنها تعفو الكلام ... ألبيت

ولمْ أدرِ مَنْ ألْقَى عليه رداءَهُ على أنه قد سُلَّ عن ماجد مَحْضِ

وكان من حديث هذا الشعر ، أنَّ عُرْوَةَ بنَ مُرَّة أخا أبى خِراش ، وخراش ابنَ أبى خراش ، اصطحبا فى مُتَصرَّف لهما ؛ فأسرهما بطنان من ثُمالة : بنو رازم وبنو بلال ـ وكانا موتورَيْن ـ فاختلفوا فى الإبقاء عليهما وقتلهما ، فمال بنو بلال إلى قتلهما ، وتفاقم الأمْرُ بينهما فى ذلك ، إلى أن صار يُؤَدِّى إلى المقاتلة ، فتفرد أولئك بعُرْوَةَ فقتلوه ، وتفرَّد هؤلاء بخراش فخلا به راحدٌ منهُمْ ؛ مُنْتَهِزاً للفرصة فى الإسداء ، فقال له : كيف دليلاك؟ فقال : قطاةٌ ، فألقى عليه رِداءه وقال : انْجُهْ ، فمرَّ لِطِيَّتِه ، فلما انحرفوا للنظر

فى أمْرِه قال لهم مُمْسِكُهُ ! إنه أفلت ، فطردوه - أى تبعوا خراشا - فأعياهم ، فلما وصل خراش إلى أبيه وخبَّره بما جرى على عُرْوَة وبما اتفق من صاحبه فى بابه ، اقتصّ قِصَّتَهُ فى هذه الأبيات ... وقوسى اسم مكان ، وقوله : على أنها تعفو الكلام ... البيت فإنّ هذا يجرى مَجْرَى الاعتذار منه والاستدراك على نفسه فيما أطلقه من قوله : « لا أنسى قتيلا رُزِئته ما مشيت على الأرض » أى مدة حياتى ؛ والضمير فى أنها : للقصة ، وخبر أنّ : الجملة بعدها ؛ والعفاء : الدروس والذهاب ؛ والكلوم جمع كلم ؛ ويعنى به : الحزّ عند ابتداء الفجيعة ، وجلّ : عَظُمَ ؛ يقول : لا أنساه ولو طال عهده وعفت آثاره ؛ وإنما قال هذا لأن الإنسان يُوَكَّلُ بالجزَع للمصيبة القريبة العهد ؛ فأما المتقادم من الأرزاء فإنّ مُضِىَّ الزَمَن يُعْفيه . وقوله : ولم أدر ... البيت ؛ قال الأصمعى وأبو عبيدة لا نعرفُ مَن مَدَح من لا يعرفه غير أبى خراش »

التأسى بمن مصابه كمصاب المصاب أو يربى عليه

وقولهم فى عكس ذلك

أما قولهم فى عكس ذلك فأحسنُ ما قيل فيه قول ابن الرومى :

ليس تأسو كُلُومُ غيرى كُلُومى مابه مابه وما بِىَ مابى

« تأسو : تُداوى ، والكلوم : الجروح » وقبل هذا البيت - وهى أبيات يندُبُ بها الشباب - :

ياشبابى ! وأينَ مِنِّى شبابى ؟ آذنَتْنِى حِبالُه بانقضابِ

لهْفَ نفسى على نعيمى ولهْوى تحتَ أفنانِه اللِّدانِ الرِّطابِ

ومُعَزٍّ عن الشبابِ مُؤَسٍّ بمَشيبِ اللِّدَاتِ والأتْرابِ

قلت - لمّا انتحى يعدُّ أساهُ … من مُصابٍ شبابُه مُصاب :

ليس تأسو كلوم غيرى كلومى … ... ... البيت

وأما قولهم فى التأسى بمن مصيبته كمصاب المصاب أو تُربى عليه فمن ذلك قول أفلاطون لرجل رآه مغموماً : لو أحضرتَ قلبَك مافيه الناسُ من المصائب ، لقلَّ همُّك ... « انظر مقالة الكاتب أديسون آخرَ هذا الباب »...

وقالت الخنساء :

ولولا كثرةُ الباكين حولى … على إخوانِهم لقتلْتُ نفسى

وما يَبْكُون مثلَ أخى ولكنْ … أُسلِّى النفسَ عنهُ بالتأسِّى

وقال حُريث بن سَلمةَ بنِ مُرارة بن مُحَفِّص ، أحد بنى خزاعىّ بن مازن - شاعر جاهلى - :

ولولا الأُسى ماعِشتُ فى الناس بعدَه … ولكن إذا ماشئتُ جاوَبَنى مِثْلِى

« عروة بن الزبير »

« مثل أعلى للصبر والتأسى »

كان عُروةُ بن الزُّبير ، أحدُ الفقهاء السبعة بالمدينة ، وابنُ الزبير بن العوّام - أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وابنِ صفيَّةَ عمّةِ سيدنا رسول الله - وشقيقُ عبد الله بن الزبير - الذى وَلِى الخلافة فى الحجاز حينا من الدهر أزمانَ بنى أُميَّة والذى تولّى قتلَه الحجّاج - وأُمُّ عروةَ أسماءُ بنت أبى بكر الصديق - وهى ذاتُ النِّطاقَين [1] ، وخالتُه عائشةُ أُمّ المؤمنين رضى الله عنها ، وكان عالمًا صالحا ،

(١) النطاق : شقة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على الأسفل إلى الركبة عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها ، وكان لأسماء نطاقان تلبس

أقول : كان عروةُ هذا من قوة الإيمان والتسليم والرضا بالقَدَر خيره وشره ورجحانِ العقل ، بحيث يُعَدُّ مثلا أعلى للصبر والتسلّي ، وذلك أنه وفَدَ من المدينةِ على الوليد بن عبد الملك بِدِمَشْقَ ـ عاصمة الأمويين ـ وكان معه ابنه محمد ـ وكان من أجمل الناس ، فيقال : إن الوليد عانَه ـ أصابه بعينه ـ فدخل محمد دارَ الدوابّ ، فضربته دابّةٌ فخرَّ مَيّتًا ، ووقعت في رِجلِ عروة الأَكَلَة ـ داء في العضو يأتكل منه ـ ولم يَدَع وِرْدَه تلك الليلة ، فقال له الوليد : اقطَعْها وإلا أفسدَت عليك جسدَك ، فلما دُعِي الجزار ليَقْطَعَها قال له : نَسقِيك الخمرَ حتى لاتجد لذلك ألمًا ، فقال : لاأستعين بحرام الله على ماأرجو من عافية ، قالوا : نَسقيك المُرْقِدَ « دواء يُرْقِد شاربَه كالأفيون » قال : ماأُحِبُّ أن أُسلَبَ عضوا من أعضائى وأنا لاأجد ألمَ ذلك فأحتسِبُه « أحتسبه : أطلب به الأجر » . ودخل عليه قومٌ أنكرَهم فقال : ماهؤلاء ؟ قالوا : يُمْسِكونك فإن الألم رُبّما يعزُب معه الصبر « يعزب : يَبعُد » قال : أرجو أن أَكْفِيَكم ذلك من نفسى ، فقُطِعت كَعْبُه بالسكين ، حتى إذا بلغ العَظْمَ وُضِع عليها المِنشار ، فقُطِعَتْ وهو يُهلِّل ويُكبِّر « يهلل : يقول : لاإله إلا الله ، ويكبر : يقول : الله أكبر » ثم إنه أُغلِيَ له الزيت فى مَغارف الحديد ، فحُسِمَ به ، فغُشِي عليه ، فأفاق وهو يَمسَحُ العرَق عن وجهه ، ولمّا رأى القَدمَ بأيديهم دعا بها فقلّبها

أحدهما وتحمل فى الآخر الزاد الى سيدنا رسول الله وأبى بكر وهما فى الغار ، فلذلك سميت ذات النطاقين ، وروت عائشة : أن النبي صلوات الله عليه لما خرج مع أبى بكر مهاجرين صنعنا لهما سفرة « طعام المسافر » فى جراب « وعاء من جلد » فقطعت أسماء بنت أبى بكر من نطاقها وأوكت به الجراب « شدته بالوكاء : الحبل الذى يشد الوعاء » فلذلك كانت تسمى ذات النطاقين

فى يده ، ثم قال : أمَا والذى حَملنى عليك ، إنه ليَعْـلَمُ أنى مامشَيْتُ بكِ إلى حرامٍ ، ولمـا دخل ابنُه إصطَبْلَ الوليد بن عبد الملك وقتلتْه الدابّة كما تقدَّم لم يُسْمع فى ذلك منه شيء إلا قولَه « لقد لَقِينا من سفرنا هذا نَصَبا » ولمـا قُطِعَت رِجله قال : اللهم ، إنه كان لى أطرافٌ أربعة فأخذت واحدا وأبقيت لى ثلاثة ، فلك الحمد ، وأيمُ اللهِ ، لئن أخذت لقد أبقيت ، ولئن ابتَلَيْتَ لقد عافيت ... ولمـا مات ابنه وقُطعت رِجله ، وفَدَ فى هذه الأيام على الوليد قومٌ من بنى عبْس فيهم رجل ضرير ، فسأله الوليد عن عينيه ، فقال : ياأمير المؤمنين ، بتُّ ليلةً فى بطنِ وادٍ ولا أعـلم عَبْسِيًّا يزيد ماله على مالى ، فطَرَقَنا سَيلٌ فذهب بمـا كان لى من أهْـل وولد ومال ، غيرَ بعير وصبىٍّ مولود ، وكان البعير صعباً ، فندَّ ، فوضعْتُ الصبىّ واتَّبَعْتُ البعير فلم أجاوز إلا قليلا حتى سمعت صيْحَةَ ابنى ورأسُـه فى فم الذئب وهو يأكله ، فلحقت البعير لأحبِسَه فنَفَحَنى برجله « ضربه بحدّ خُفّيه » على وجْهى ، فحطمه وذهب بعينَىّ ؛ فأصْبَحْت لا مال لى ولا أهـل ولا ولدَ ولا بصر ؛ فقـال الوليـد : انطلقوا به إلى عروة ليعلم أنّ فى الناس من هو أعظم منه بلاء ...

وممن عَزّى عُروةَ : ابراهيم بن محمد بن طلحة قال له : والله ما بك حاجةٌ إلى المَشْى ولا أرَبٌ فى السّعْى ؛ وقد تقـدمك عِضْـوٌ من أعضائك وابنٌ من أبنائك ؛ إلى الجنة ؛ والـكُلُّ تبعٌ للبَعْضِ ؛ إن شاء الله تعالى ؛ وقد أبقى الله لنامنك ما كنا إليه فقراءَ ؛ وعنه غيرُ أغنياء ، مِن علمك ورأيك ؛ نفعك الله وإيانا به والله ولىُّ ثوابك ؛ والضمينُ بحسابك ...

مطرح الهموم

وهذه كلمة طريفة فى معنى ما نحن بصدده، كتبها الكاتب «أديسون» ونقلها المرحوم محمد السباعى إلى مجلة البيان التى كان يقوم بإخراجها مؤلف هذا الكتاب، قال أديسون :

مما يُؤثَرُ عن الحكيم سُقرَاط أنه قال : إذا جُمِعَتْ مَصائب البشر كُلُّها فى وِعاءٍ، ثم قُسمَتْ على جميع الناس بالسواء لأصبح من كان يحسَبُ نفسه أشقى الناس وأخسَرَهم يُفَضِّل أولى الحالتين على الثانية، وجاء بعد سُقْراط الشاعرُ الرومانىُّ «هوراس» فعدّل هذا المعنى فقال : إنّ ما يُكابِدُ أحدنا من المصائب أخفُّ عليه من مصائب أىّ إنسانٍ آخر إذا وقع بين الرجُلَين تبادلٌ... فبينا أنا ذات يوم مُتَّكِئٌ فى خَلْوَتى أُفكِّرُ فى هاتَيْنِ الحِكْمَتَيْنِ وقد أخذتنى سِنَة من النوم إذْ خُيِّل إلىّ أنّهُ بأمْرِ إلٰهِ الآلهةِ قد نودِىَ فى الناس : أن يحمِلَ كلُّ امْرِئٍ مصائِبَه فيأتوا بها جميعاً فيَطْرَحوها بعضَها فوق بعضٍ، فى سَهْلٍ فسيح، فوقفت وَسْط ذلك السهل، وسرّنى أنْ أرى الناس طُرّاً يأتون واحداً بعد واحد يُلقون أثقالهم العَديدة، حتى ارتفع من مجموعها جبل طالَتْ [1] ذُؤابتُه السحاب .

وكان هنالك امرأةٌ نحيلة خفيفةٌ قد شَمَّرَتْ عن ساعدِ الجِدِّ وَسْط هذه

(١) سمت فوق السحاب قال :

إنّ الفرزدقَ صَخرةٌ عاديّة طالت ـ فليس تنالها ـ الأجبالا

فليس تنالها جملة معترضة والأجبالا مفعول طالت والتقدير : طالت الأجبالا فليس تنالها الأجبال .

الخلائق ، تحمل فى إحدى يديها مجْهَراً ، وعليها ثوبٌ فضفاضٌ هفهافٌ سابغُ الذَّيل مُوَشًّى بعدد عديد من تصاوير الجان والعفاريت ، كلما ضربت الريح الجلباب تلوَّنَتْ وتشكَّلت تلك التهاويلُ أشكالا وألوانا ؛ وكان فى عينها وَلَهٌ وتلهُّفٌ وحيرَةٌ ، وكان اسْمُها « الوهم » وهى التى كانت تسوقُ كلَّ فردٍ من البشر إلى المكان المعين بعد إعانتها إياه على ربط حُزْمَتِه وتحْبيكِها وإلقائها على عاتقه ، فأذاب قلبى رُؤْيَةُ إخوَتى وأبناءِ أُمِّى وأبى ينوؤنَ بأحمالهم . ويئِنُّون تحت أثقالهم ؛ وفتَّتَ كَبِدِى أن أُبصِرَ ذلك الجبَلَ الباذِخَ الذى من أحزانهم تكوَّن ، ومن آلامهم تألَّف ، على أنَّهُ ألهانى عند ذلك ، وسلَّانى هنالك : عِدَّةٌ من القوم ، لغريب أحوالهم وعَجيب هيئاتِهم ؛ فمِنْ بين هؤلاء رَجُلٌ فى حُلَّةٍ مُطَرَّزَةٍ أقبل يسعى حتى جاء المكان ، فأخرج من تحت حُلَّتِهِ الموَشَّاةِ المزركشَةِ حِمْلا ، فألقاهُ فَحدَجت ببصرى أتبيَّنُهُ ، فإذا هو : الفقْرُ ؛ وأقبل آخرُ يَرْزَحُ تحت ثِقْلِه ، وبعد كثيرٍ من التنفُّس والزفير ألقى حِمْلَه ؛ فنظرتُ ؛ فإذا هو ؛ زَوْجَتُه ؛ ورأيت عددا عديدا من العُشَّاق على كواهلهم أثقالٌ عجيبة من سهام وشُعَلٍ ؛ ولكن أعْجَبُ من ذلك أنه برغمِ ما رأيتُهُ يكاد يُمَزِّق قلوبَهم من غُلَوَاءِ الوجْدِ وبُرَحاء الكمد ؛ وبرغمِ زَفْرَةٍ لهم تَرْقَى ؛ وعَبْرَةٍ لا ترقا (١) كانوا لا يستطيعون مطاوَعَةَ عقولهم على إلقاء تلك الأثقالِ عند ما بلغوا الكثيب ؛ ولكنهم بعد قليل من المحاولة — محاولةِ المتثاقِلِ المُتَكرِّه — هزُّوا رُؤسهم ورَجَعُوا بأثقالهم أشَدَّ ثِقْلا وأفْدَحَ حِمْلا ، وأبْصَرتُ كثيرا من العجائز يُلقِين تغاضِينَ وُجُوهِهِنَّ

(١) أى : لا تغيض ولا تجف وأصل ترقا : ترقأ فخفف ، وترقى الاولى : ترتفع

وكثيرا من الفَتَيات يُلقين سُمْرَ جُلودهن . ورأيت كُومًا [1] من أنوفٍ حمراء وأسنانٍ قَلْحاء [2] وشِفاهٍ فَلْحاء [3] . والعَجَب العُجاب أنى رأيت معظم الجبل مؤلَّفاً من عاهاتٍ بدنية . وآفاتٍ جسَديَّة ، ثم لمحتُ من بعيد رجلا على ظهره حِمْلٌ لم أرَ فى سائر الأحمالِ ما يُدانيه عِظَما ، فأنعمْتُ النظرَ فإذا هى حَدَبَةٌ ، فألقاها ـ فرِحا بذلك ـ بين سائر البلايا الآدميـة . ورأيت كذلك عِلَلا وأمراضا من كلِّ ضَربٍ وصِنفٍ ، غـير أنى رأيت الوَهْمىَّ من ذلك أكثرَ من الحقيـقىّ وشاهدتُ بين هذه نَوْعا قد أُلِّف من جميع الأمراض والعِلل يحمِـله فى الأكُفِّ عددٌ عظيمٌ من ذوِى النعمةِ والرَّفاهِيةِ ، واسمُ هـذا الداءِ : المَلَلُ ، وأعظمُ عَجبي وحَيْرَتى أنى لم أر أحـداً قطُّ ألقى بين هذه الآفاتِ والمصائبِ شـيئا مما ابتُلِيتْ به نفوسُ البَشَرِ من الرذائل والحماقات والأضاليل والنقائص والسخافاتِ والأباطيل ، فأدهشنى ذلك أيَّما دَهَش ، إذ كنتُ قد ظننتُ أنها فرصةٌ لا يدَعُها أحد حتى يطهِّرَ نفسَـه من أدران الأهواءِ والشهوات . ويُخلِّص طبْعه من أكدار العيوب والعورات . ورأيت فى الجماعة رجلا فاسقا لم أشُكَّ فى أنه جاء مُثْقَلا بأوْزارِه وآثامِه : فلما أقبلتُ على مارماه أفتِّشه ألفيْتُ أنه لم يَرْمِ شـيئا من تلك الذنوبِ والآثام وإنما رَمَى ذاكرتَه ، وتبعه رجلٌ ساقطٌ جاهلٌ ، فنظرْتُه فإذا هو قد نبذَ حياءَه لا جَهْله ... ولـما فرَغ الناس من طَرْحِ أثقالهم وفرغتِ الجِنّيَّةُ النحيلة الخفيفة [4] من عَمَلِها ، وكانت قد رأت منِّى رجلا ينظرُ

---

(١) جمع كومة ، يقال : كوم كومة بالضم : إذا جمع قطعة من تراب ورفع رأسها ونظيره : الصبرة من الطعام

(٢) القلح : صفرة فى الأسنان

(٣) فلحاء : مشقوقة

(٤) الوهم كما يذكر القارئ

ولا يَعمَلُ، دنَتْ منّى، فلم يَرُعْنى إلا رفعُها المِجْهَرَ إزاءَ عينى، وكنت أعرِف فى وجهى القِصَر، فإذا هو قد تناهى قِصَراً حتى عاد أبشعَ شىء، فساءنى مَنْظَره، فألقيتُه كما يُلقَى القِناع. وكنت قبل ذلك ببُرْهةٍ أبصرْتُ رجلا رَمَى بوجهه لفرْطِ طوله، وكان أطولَ وجهٍ حتى لَذَقْنُه وحدَها تطولُ [1] وجهى بأكمله؛ فاستراح من مصيبته واسترحْتُ، واستراح الخلق طُرّا؛ وأطلِق لكلِّ امرئٍ أن يستبدِلَ ببَلْواه مِحْنةَ غيره.

على أنه لم يبق فى الجمع إلا متعجِّبٌ من هذه المِحَن كيف عدَّها أهلُها مِحَناً وكيف كان قد غُرَّ بها وخُدِع فيها، فحسِبَها نِعَما وفوائدَ! وبينا نحن نتأمّل خليطَ المصائب، ومزيج النوائب، صدر أمر الإلهِ الأكبر أن يستبدل كلُّ امرئ بمُصابِه ويَرْجِعَ إلى مثواه بحظِّه الجديد، عند ذلك تحركت «الوهمُ»، وقسَمَتْ الكَثيبَ فى أخفِّ نشاطٍ وأكمل سرعة، فأعطَتْ كُلاً نصيبَه، وكأنى باليَرَاعِ يَعجِز أن يَنعَتَ ما حدَثَ إذ ذاك من هَرْجٍ ومَرْجٍ [2]، ثم كانت أمورٌ كثيرةٌ أذكرُ الآن بعضَها:

رمَى شيخٌ كبير على كثيبِ المصائب علَّةً كانت فى بطنِه، وكان عاقرا، يتمنَّى ولداً يكون عمادَ شيخوختِه ووارثَ ثروَتِه، فمدَّ يدَه ليَعتاضَ من دائه الذى طرَحه فاختطف ولدا فاجرا عاقّا، كان آفةَ أبٍ له، وكان ذلك الأبُ قد نبَذَه فى النَّبائذ [3] يريد به بديلا، وقد أخذ بدلَه مرَضَ البطْنِ الذى رَمَى به الرجُلُ الأوّلُ. فلم تمضِ إلا برْهةٌ حتى رأيت ذلك الغلامَ قد ثارَ بالشيخ الكبير فأخذ بلِحيتِه وناصيتِه، وهَمَّ أن يَفْلِقَ رأسه. فما هو إلا أن أبْصَرَ الأبَ

(١) تزيد عليه طولا (٢) اختلاط (٣) المنبوذات، أى: الأشياء المنبوذة يعنى بها الآفات التى كان الناس يرمونها تخلصاً منها وليتقاضوا بدلها

الأصليّ ، وكان يسعَى نحوَه ممسكا بحشاه من وَجع المَعِدة حتى صاح به : يرحمُك الله وإيانا ، خُذْ ولدَك بارك الله فيه وأعطِنى عِلّتى ، ولكن قُضىَ الأمر ، وكان مالا يكونُ تبديله ، ولا يُستطاع تحويله ...

يا ابْنَ بُورَانَ لامَفرَّ مِنَ الله ه ولا مِنْ قضائه المحتومِ

ورأيت أسيرا مُقَيَّدًا خُلِع قَيْده ، وقُلِع صفَدُه ، فاعتاض منه النِقرِسَ (١) ولكن أبْدَى من التّأَوه والتأَفّفِ والتلوِّى والتّنزِّى ما دَلّ على أنه لم يكن فى تجارتِه تلك بالرابح الصَّفْقة .

ولقد كان من المُمْتِع اللّاذّ أن تُبصِرَ ما وقع إذ ذاك من المبادلاتِ والمقايضاتِ ، من عِلّة بخَلّة (٢) وجوعٍ بفِقدانِ شهوة ، وهَمٍّ وتسهيد ، بأسْرٍ وتقييد . أما النساءُ فكُنّ من تبادُلِ الأعضاء ـ أعضاء الوجه والجسم ـ فى شُغُلٍ شاغِلٍ ، فواحدةٌ تستعيضُ لِمّةً شَمْطاء ، من جلدةٍ سمراء ، وثانيةٌ تأخذ عنقا قصيرا ، وتُعطى أنفا كبيرا ، وثالثةٌ ترْمِى عِرْضاً مفضوحا . وتلتقِطُ وجها مقبوحا ، وما منهُنّ إلا من تُدرِكُ فى الحال أنها اعتاضت من سيِّئٍ أسوأ ، ومن ردىءٍ أرْدَأ ، وكذلك حال سائر الجمع فى كل بليَّة وآفة ، لعلَّه لأنّ ما أصابنا به الله مناسِبٌ لمقدار صبرِنا واحتمالنا ، أو لأنّ كل مصيبةٍ تذلِّلها العادة ...

فقلت لها : ياعَزُّ ، كلُّ مصيبةٍ إذا وُطِّنتْ يوما لها النفْسُ ذلَّتِ

ولقد رَحِمتُ من صميم مُهْجتى ذلكَ الأحدبَ الآنِفَ الذِّكْرِ ، إذ راح معتدلَ القامةِ وَافِىَ الشَّطاطِ ، لكن بِداء فى كُلاه ؛ وعِلّة فى حَشاه ، كما رَحِمْتُ مُعاقدَهُ ومُبايعهُ الذى راح مُحْدَوْدِبَ الظهرِ يظْلَعُ وَسْطَ سِربٍ من الفتياتِ كُنّ قبل به مُولَعات

(١) من مرض بفقر (٢) داء فى الرجلين يمنعهما من الحركة .

وفيه هاتمات . ولست ناسياً ذِكرَ شأنى وشأنِ ذِى الوجهِ الطويل ، فإن ذلك الرفيقَ ما كادَ يأخُذُ وجهى القصيرَ حتى أضحى فيه أُعجوبةَ الأعاجيب ، فاستَلْقيتُ ضاحِكاً من وجهى حتى أخجلتُ وجهى ، وأدرك الرجل المِسكينُ خطيئته وعرَف غَلْطَته ، فخجل واستَحْيَ ، غير أنى ما لَبِثْتُ أنْ فِئتُ [1] إلى نفسى فعلمتُ أنه ليس لى أن أزْهَى وأختالَ وأسخرَ من الغير وأنا سُخْرَةٌ ، وأضحك منهم وأنا ضُحْكة [2] ، وإن لى فى غرابة هيئتى لشُغُلًا عن اللهو بهيئاتِ الناس ومَندُوحَةً ، وذلك ، أيها القارئ ، أنى رفعتُ يدى أُريدُ جَبْهَتى فلم تقع لِطولِ وجهى إلا على الشَّفَةِ العُليا ، وكذلك بيْنا أنا أُجيل يدى فى وجهى أُريد إحدى عينىَّ صَكَّت يدى أنفى ، لِبُروزِهِ وضخامتِه ، مِراراً .

ثم نظرْتُ ناحيةً منِّى فأبصرْتُ رَجُلين فى مثلِ حالِنا من السُّخْرِيَةِ قد أحدثا تبادُلًا فى زوجين من الأرْجُل ، زوج غليظ أعْوج قصير ، وزوج طويل نحيل ، فكان صاحبُ الرِّجلَينِ النحيلتين كأنما قد رُفِع فى الهواء على عمودَىْ بيتٍ ، فهامَتُه تَدورُ مع الرِّيح حيثما دارَت ، وأما صاحب الرِّجْلين العَوْجاوَيْنِ القَصيرتين فكلما حاولَ السَيرَ دارَ فى مكانِه لا يَبْرَحُه . ولما رأيت على مُحَيَّاه سِيما الحِلمِ والظَّرْفِ والفكاهةِ أقبلْتُ عليه أُمازِحُه فقلت له : سأجْعَلُ لك كذا وكذا إنِ استطعتَ أن تبلُغَ هـذا ، ورَسَمتُ له خَطًّا على مسافة ذِراعيْنِ من مُرْسَى قدَميه ، فى مُدَّة نصف ساعة .

* * *

وأخيراً تمَّ توزيعُ كثيبِ المِحَنِ والآفاتِ على أهلِها ، من ذَكرٍ وأنثى .

(١) رجعت (٢) يقال : فلان سخرة كسفرة : يسخر منه ، وسخرة كهمزة : يسخر من الناس ، وضحكة بسكون الحاء : يضحك منه وبفتحها : كثير الضحك

وأقبلوا جميعاً تحت أثقالها الجديدةِ رُزَّحاً حَسْرَى . وُلَّهاً حَيْرَى . وقد مَأَوُا السَّهلَ والحَزْنَ ضَجَّةً وأنينا . ورَنَّةً وحنينا . ثم أدركتهم رحمةُ الله ، فأمرهم بطَرحِ أثقالِهم كَرَّةً أخرى ، فألقَوها فَرِحين بإلقائها مسرورين . وأمَر « الوهمَ » تلك الشيطانة التي غَرَّرَتْ بهم وضلَّلتْهم ، أن تنصرف ، فانصرفَتْ ، وأرسَل الإلهُ بدَلَها ملَكا كريماً ، جِدَّ مُخالِفٍ لهـا هيئة وشكلا . مُبايناً لها خَلقاً وخُلقا ، رزينَ الحركةِ ثابتَ الجَنانِ ، قد جَمع في هيئته بين الطلاقةِ والجِدِّ والوَقارِ والبِشر ، لاينفَكُّ من حينٍ إلى آخر يَرْفعُ نحو السماء طَرْفَه ، ويَسمو إلى عرشِ الله بأمَـلِه ؛ واسمُ هذا الملك . « الصَّبرُ » وأعجبُ مارأيتُ أن هذا الملك ماقامَ بجانِب جبلِ الآلامِ إلا وأخذ الجبلُ يَهبِط ويضؤُلُ حتى لم يَبقَ منه أكثرُ من رُبعه ، ثم أعادَ ملَكُ الصبرِ إلى كلٍّ حَظَّهُ الأول ، وألهمَه الصبرَ الجميلَ ، وأشعَرَ قلبَه قوّةَ الجلَدِ ونورَ اليقين ، فراحَ مُغتبِطاً سعيداً يحمَد الله على كل ماأعطاه ، تائباً مما اقترفه من الجهل وجَناه .

فمما أفدْتُ من هذه العظات والعِبَرِ أني لستُ حقيقاً أن أتبرَّمَ بشيءٍ مما يُصيبُني به الله أو أنفِسَ على امرئٍ هِبةً أو نِعمةً ، إذ كان مُستحيلًا على امرئٍ أن يعلمَ حقيقة جارِه ويَعرِفَ سِرَّ صاحبِه ويقِفَ على مبالِغِ أحزانِه وأشجانِه وكُرَبه ، ونُوبه ، وبلاياه ، ورزاياه ، فلكلٍّ لكلٍّ سِرٌّ غامِضٌ وخِزانةٌ مُقفلة وسِفرٌ مُطبَقٌ . ولكنِّي آليت على نفسي أن آخُذَ نفسي بثلاث : كِتمان العـلّة ، وكتمان الفاقة ، وكتمان المصيبة ، مع الصبر عليها جميعاً ، وأنْ لاأحسُدَ امرأً على شيءٍ ، وأن أكونَ أبداً حاضِرَ الصَّفحِ للناس ، واسِعَ العفوِ ، إذ كان أعقلُ الناس أعذَرَهم للناس ...

عبقرياتهم فى الدنيا
وأنها دار مِحَن وأكدار

ولأن الدنيا التى أسماها سيدنا رسول الله : أمَّ دَفْر ـ والدَّفْرُ ، النَّتْنُ ، دَفْرًا دافِراً لهـذه الدنيا ـ أقول : لما كانت هذه الدنيا دارَ مَصائبَ ومِحَن وأكدار ، وحسْبُك بهادِم اللذاتِ ـ الموت ـ الذى فضح هـذه الدنيا وبَنِيها أيّما فضيحة والذى هو نهاية كل حىّ ، من مصيبة أى مصيبة ـ لأجل هذا قال الأوائل والأواخر فى هذه الدنيا وأبدعوا وافتنُّوا كلّ الافتنان ؛ ونحن فسوف نورد عليك أطيب ماقالوا فى ذلك ، لِما بينه وبين الصـبر من واشِجة الرحم ، ولأنه كلامٌ خالد ، لأنه حق وصِدق ، لايليق بعاقلٍ أن لايكترث له ، وإنما الواجب أن يجعله دائما نُصب عينيه ، وأن ينظر إليه نظرة رجل ثاقب الرأى بعيد أفق الفكر . لانظرة رجل أحمق مُمْتَلَخ العقل أعمته أباطيل هذه الحياة وأَلْهاهُ التكاثر وبَهْرَجُها عن كُنْهها فارتطم فى أوحالها وصار يَملَخ فى لذاذاتها مَلْخاً ، لاهيا عن المَنهاة المؤسفة التى تنتظرنا جميعا ، جالباً بنفسه على نفسه مايضاعف آلامَها ، لامايُخفِّف أحزانها ويهوّن ماأمكن شدائدها وأكدارها . ونحن إذ نورد فى هذا الكتاب ماقالوا فى الدنيا فإنا لاندعو إلى الزهد فيها وفى تعميرها ـ كما سيمر عليك فى هذا الفصل ـ ولكن مادام كِتابُنا فى عبقريات الأوائل والأواخر ، فى كل شىء ، كان واجبا علينا أن نورد عبقرياتهم فى الدنيا ، وفى الموت ، كما نورد عبقرياتهم فى سائر المعانى التى يعالجها الناس ويتداولونها فيما بينهم ، على أنهم إذ ذمّوا الدنيا إنما يترامَوْن بذلك «أوّلا» إلى أن يَصدَعوا بالحقيقة وهى أن الدنيا فى الواقع دار أحزان وأكدار ، و«ثانيا» إلى حثّ الناس على الإجمال فى الإقبال عليها ، والتعقل فى

التهافت على شهواتها، والاعتبار بعِبَرها، والتزوّد فيها لما بعدها، ومَن يُنكِر أنّ ذلك جميل ونافعٌ! ذَمّ رجلٌ الدنيا بحضرة علىّ بن أبي طالب رضى الله عنه فقال علىّ: اسكُت، إن الدنيا دارُ صِدْق لمن صدَقَها، ودار غِنًى لمن تزوّد منها، ودار عافيةٍ لمن فَهِم عنها، ودار موعظةٍ لمن اتّعظ بها، مَهْبِط وحْى الله، ومَتجَر أوليائه ... إلى آخر ماقال. ومن كلامه أيضا رضوان الله عليه: الناسُ أبناء الدنيا ولا يُلامُ المرءُ على حُبّ أُمّه ... وسيمر عليك كثير من أمثال هذا ...

أسماء الدنيا

الدنيا: اسم لهذه الحياة، وتُكنَى الدنيا: أمّ دَفْرٍ، أسماها بذلك - كما أسلفنا - سيدنا رسول الله، والدَّفْرُ: النَّتْنُ، وتُكنى كذلك: أمّ شَمْلَةَ، أنشد ابن الأعرابي:

مِنْ أُمّ شَمْلَةَ تَرمِينا بذائفِها ... غَرّارةٍ زيّنَتْ منها التَهاويلُ

وكذلك تُكنَى [illegible]: أمّ شملة، قال أبو عمرو بن العلاء: إنما سُمّيت الدنيا والخمر بذلك - [illegible] بذلك - لأنهما يشتملان على عقلِ الإنسان فيغيّبانه ...

أقول: ومَن يُنكر أن أبناء الدنيا، من شدّة تعلُّقهم بها وتكالُبهم عليها، وضراوَتهم بشهواتها، وافتتانهم بزينتها وخوضهم غمراتِها، بحيث يعُدّون كأنهم مُنْزَفون مُستلَبو العقول حتى إذا رماهم هاذم اللذات بسهامه صَحَوْا وأفاقوا ... وصدق سيدنا رسول الله إذ يقول صلوات الله عليه: الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا ...

أما الدهر - وهو اسم لزمان متصل، والزمان اسم لدهر منفصل - فقد سَمّوْهُ أبا العجب قال: ✿ وما الدّهر فى فِعْله إلا أبو العَجَبِ ✿

والنسبة إلى الدنيا: دنياوى، ويقال: دُنيَوِىّ ودُنْيِىّ - وجمعها دُنًى، وإنما

سميت دنيا : لِدُنُوها ، لأنها دَنَتْ وقَرُبت ، وتأخرت الآخرة ، أما الدهر فالنسبةُ إليه دُهْرِىٌّ بضم الدال تقول : رجل دُهرى : أى قديم مُسِنٌّ ، أما رجل دَهرى بفتح الدال فمعناه : ملحد لا يؤمن بالآخرة يقول ببقاء الدهر ، وقوله صلى الله عليه وسلم : لا تَسُبُّوا الدهر فإن الله هو الدهر ، فمعناه : أن العرب كان من شأنها أن تَذُمَّ الدهرَ وتُسَبَّه عند الحوادث والنوازلِ تنزل بهم من موتٍ أو هرَم فيقولون : أصابتهم قوارعُ الدهر وحوادثه وأبادهم الدهر ، فيجعلون الدهر الذى يفعلُ ذلك فيذُمُّونه ، وقد أخبر الله بذلك فى كتابه العزيز ثم كذَّبهم فقال : وقالوا ماهى إلا حَياتنا الدنيا نموتُ ونحيا وما يُهلِكنا إلا الدهر ، ثم قال الله : وما لهم بذلك من علم إنْ هُمْ إلا يظنون ، وجمع الدهر أدْهر ودهور ، أما الدهارير فهى تصاريف الدهر ، وقيل جمع للدهر على غير قياس ، قال الشاعر القديم [1] :

فاسْتَقدِرِ الله خيراً وارْضَيَنَّ به ... فبينما العُسْرُ إذْ دارَتْ مَياسيرُ
وبينما المَرءُ فى الأحياءِ مُغْتَبِطٌ ... إذا هو الرَّمْسُ تعفوهُ الأعاصيرُ
يبكى عليه غريبٌ ليس يَعرِفهُ ... وذو قرابتِهِ فى الحىِّ مسْرورُ
حتى كأنْ لم يكن إلا تذَكُّرُهُ ... والدهر أيَّتَما حِينٍ دهاريرُ

« قوله : فاستقدِر الله خيراً : أى اطلب منه أن يقدر لك خيراً ، وقوله : فبينما العسر ؛ فالعسر مبتدأ خبره محذوف تقديره فبينما العسر كائن أو حاضر ، إذ دارت مياسير : أى حدثت وحلَّتْ ، والمياسير جمع ميسور ، ومغتبط أى فى غبطة : أى مَسَرَّة وحُسن حال ، والرمس : القبر ، وتعفوه : تدرسه وتمحو أثره ،

(١) قال أبو عمرو بن العلاء : لرجل من أهل نجد . وقال ابن برّى : لعثير بن لبيد العذرىّ ، قال : وقيل لحريث بن جبلة العذرى

والأعاصير جمع إعصار وهى : الريحُ تهُب بشدّة ، وقوله : كأن لم يكن إلا تذكره فيكن تامة وإلا تذكُّره فاعل بها واسم كأن مضمر تقديره كأنه لم يكن إلا تذكره والهاء فى تذكره عائدة على الهاء المقدّرة ، والدهر مبتدأ ودهارير خبره وأيتما حال ظرف زمان والعامل فيه مافى دهارير من معنى الشدة ، والدهارير قال الزمخشرى : تصاريف الدهر ونوائبه ، مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كعباديد

قلة لبث الإنسان فى الدنيا

قال المصطفى صلوات الله عليه : فِيمَ أنا من الدنيا ؟ ومالى ولها ! وإنما مَثَلى ومثَلُها كراكبٍ سار فى يوم صائفٍ ، فرُفِعَت له شجرةٌ فقال تحتها ساعة من نهارٍ ، ثم راح وتركها « قال : من القيلولة وهى الاستراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم ، يقال : قال يقيل قيلولة فهو قائل »

وقال علىّ بن أبى طالب : الدُّنيا دارُ مرّ لا دارُ مَقَرّ والناسُ فيها رَجُلانِ رجُلٌ باعَ نفْسَه فأوبَقَها ورَجُلٌ ابتاعَ نفسه فأعتقها « أوبقها : أهلكها بسبب تهافته على الدنيا وإعراضه عن الآخرة ، وابتاع : اشترى ، وأعتقها أى من النار ، بتجنبه المعاصى وشهواتِ الدنيا » وقيل لنوح عليه السلام ـ وهو الذى عاش ألف سنة إلا خمسين عاما ـ : كيف وجدت الدنيا ؟ قال : كدار لها بابان دخلْتُ من أحدهما وخرَجت من الآخر

قِلة متاع الدنيا

قال الله تعالى : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قليل والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى » قليل : سريع النقضى » وقال سبحانه : إِنَّمَا مَثَـلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ

السماءِ فاختلطَ به نباتُ الأرضِ مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ حتى إذا أخذتِ الأرضُ زُخرُفها وازّيّنتْ وظنَّ أهلُها أنهمْ قادرونَ عليها أتاها أمرُنا ليلًا أو نهارًا فجعلناها حصيدا كأنْ لمْ تغنَ بالأمسِ»

« قوله سبحانه : إنما مثل الحياة الدنيا ، أى فى سرعةِ تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها ، وزخرفها : حسنها وبهجتها ، وقادرون عليها : أى متمكنون من حصدها ، وأتاها أمرنا ، أى نزل بزرعها ما يجتاحه فجعلها الله كأنها حُصِدت من أصلها فصار زرعها كأنه لم يكن » وقال أبو جعفر المنصور حين حضرتْهُ الوفاة : بعنَا الآخرةَ بنَوْمَة ... وقال شاعر :

أراها وإنْ كانت تُحَبُّ فإنّها سَحابَةُ صَيْفٍ عن قليلٍ تَقَشَّعُ

وقال أعرابيٌّ : ما كانت الدنيا على بنى فُلان إلا طَيْفاً لما انْتَبَهُوا ولّى عنهم ، وقال آخر :

مَرَرْتُ بِدُورِ بَنِى مُصْعَبٍ بدُورِ السرور ودُور الفَرَحْ
فَشَبّهْتُ سُرعةَ أيامِهِمْ بسُرْعَةِ قَوسٍ يُسَمَّى قُزَحْ
تَلَوَّنَ مُعْتَرِضًا فى السماء فلمّا تَمَكَّنَ مِنْهَا نَزَحْ

الماضى والحاضر والمستقبل

قال الحسنُ البَصرىُّ : أمْس أَجل ، واليوم عمل ، وغدا أمل ... ، وقال حكيم : بَيْنِى وبين الملوك يومٌ واحد ؛ أما أمس فلا يجدون لذّتَه ولا أجدُ شِدّتَه وأما غد فإنى وإياهم مِنه على خطر ، وماهو إلا اليوم ، فما عسى أن يكون !

تحذيرهم من تضييع الأيام

قال حكيم : الليل والنهارُ يعملانِ فيك فاعْمَل فيهما

وقال الحَسنُ البَصْرِيُّ: ما وَعَظَنى شىءٌ مِثْلُ ماوَعَظَنِي كلامُ الْحَجّاج فى خُطْبَته: إنّ امْرَأً أتت عليه ساعَةٌ مِنْ عُمُره لم يَذْكُرْ فيها رَبّهُ أو يَسْتَغْفِرْ مِنْ ذَنْبِه أوْ يُفَكّرْ فى مَعادِهِ، لجَدِيرٌ أنْ تَطُولَ حَسْرَتُهُ يوم القيامة ... وكان الحجاج بليغاً ومن مصاقع الخطباء، ومن كلماته التى تشبه كلمات الحسن البصرى، وهى مما قاله على ذؤابة المنبر: أيها الناس: اقْدَعوا هذه الأنفُسَ، فإنها أسألُ شىءٍ إذا أُعْطِيَتْ، وأمْنَعُ شىء إذا سُئِلت، فَرَحِمَ الله امْرأً جعل لنفسه خِطاما وزِماما، فقادها بخِطامِها فى الله، وعَطَفَها بزِمامِها عَنْ مَعْصِية الله، فإنى رأيتُ الصّبْرَ عن محارِمِ الله أيْسَرَ من الصّبْرِ على عذابه ... «اقدعوا: أى امْنَعوا، والخطام: حَبْلٌ من ليف أو شَعْر أو كَتّانٍ يُثْنى طَرَفُه على مِخْطَمِ البعير ليقادَ بِهِ، والزمامُ: حَبْلٌ دقيقٌ يُجْعَل فى أنفِهِ»

الأيام تهدم الحياة

قال حكيم: مَنْ كان الليلُ والنهارُ مَطيتَه، سارَا بِهِ وإنْ لم يَسِرْ، أخذه الشاعر فقال:

رأيتُ أخا الدُّنيا وإنْ كان خافِضا ... أخا سَفَرٍ يُسرَى به وهو لايَدْرِى

«خافضاً: يريد مقيما فى خفض وَدَعة»

وقالوا: أنفاسُ المرءِ خُطاه إلى أجَلِه، وأمَلُه خادِعُه عن عمله؛ وقال الشاعر:

ما ارْتَدَّ طرفُ امرئٍ بلَحْظتِه ... إلا وشىءٌ يموتُ من جَسَدِه

وقال أبو العتاهية:

تظَلُّ تفْرَحُ بالأيام تقطعُها ... وكُلُّ يوم مضى يُدْنِى من الأجلِ

وقال عمرو بن قميئة ـ شاعر قديم فى الجاهلية ـ :

كأنى وقد جاوزتُ تسعين حِجَّةً   خَلَعْتُ بها عنى عِذارَ لِجامِى

على الراحتين مرَّةً وعلى العصا   أنوءُ ثلاثاً بعدهُنَّ قِيامى

رَمَتْنى بناتُ الدَّهرِ من حيثُ لا أرَى   فكيف بمَنْ يُرْمَى وليس برَامِ

فلو أنها نَبْلٌ إذنْ لاتَّقيْتُها   ولكنّنى أُرْمَى بغيْرِ سِهامِ

« قوله : خلعت بها عنى عذار لجامى : فالعرب تقول : خلع فلان العذار يريد : خلع الحياء ، مثلٌ للشاب المنهمك فى غَيِّه كما يَخلَعُ الفرسُ العذارَ فيجمح ويطمح لأن اللجام يمسكه ، والعذار : الذى يضُمُّ حبل الخطام إلى رأس البعير والناقة وعلى ذلك يكون معنى قوله : أنه أسام سرح اللهو حيث أسام الغواة فى هذا العمر المديد ، ولعله يريد بذلك عدم التماسك كما بينه فى البيت الثانى ، وقوله : « أنوءُ ثلاثا يعنى : أنه ينهض ثلاثَ مرات بانحناء ثم يستقيم ، وبنات الدهر : نُوَبُهُ »

البقاء فى الدنيا سبب الفناء

قال سيدنا رسول الله : لو لمْ يَكْسِبِ ابنُ آدمَ إلا الصحّة والسلامة لكَفَى بهما داءً « لأن السلامة تُسْلِمُه إلى الهَرَم وما يستتبعه من الهَمِّ والسَّقَم »

وقيل لأعرابى : كيف حالُك ؟ فقال : ماحالُ مَن يَفْنَى ببقائه ، ويَسْقَمُ بسلامته ، ويُؤْتَى من مأمَنِه » ! وقال حُمَيْدُ بنُ ثَوْرٍ الهلالى ـ وهو شاعر إسلامى ترجم له أبو الفرج فى الجزء الرابع من أغانيه ـ :

أرَى بَصَرى قد رابَنى بَعدَ صِحَّة   وحَسْبُكَ داءً أنْ تَصِحَّ وتَسْلَما

ولا يَلبَثُ العصران : يومٌ وليلةٌ   إذا طلَبا أنْ يُدْرِكا ما تيَمَّما

وقال أبو حَيَّةَ النُّمَيْرِىُّ — من شعراء الدولتين — :

أَلَا حَىِّ مِن أجل الحبيبِ المَغانيا لَبِسْنَ البِلَى مِما لَبِسْن اللياليا
إذا ما تقاضَى المرءَ يومٌ وليلةٌ تقاضاهُ شىءٌ لا يَمَلُّ التقاضيا

وقال بعضُ شعراء الجاهلية — وقيل: القائل عبدالرحمن بنُ سُوَيْدٍ المُرِّىّ —

كانت قَنَاتِى لا تلينُ لِغامزٍ فألانها الإصباحُ والإمْساءُ
ودَعَوْتُ رَبِّى فى السلامةِ جاهِداً لِيُصِحَّنِى فإذا السلامةُ داء

«كانت قناتى لا تلين لِغامزٍ: من الغمز، وهو العصْرُ باليد وهو مَثَلٌ يريد: أنه كان صُلبَ العُود شديد القوة على من يشتد ويجترئ عليه» وقال النَّمِرُ بن تَوْلَب — شاعر جاهلى إسلامى، وفَد على سيدنا رسول الله وحَسُنَ إسلامُه، ومن قوله: صومُ شهر الصبر، وصومُ ثلاثةِ أيام يُذْهِبْنَ كثيراً من وَحَرِ الصدْر — قال:

تَدارَك ما قَبْلَ الشبابِ وبَعْدَه حوادثُ أيامٍ تَمُرّ وأَغْفُلُ
يَسُرُّ الفتى طُولُ السلامةِ والبَقَا فكيف يَرى طولَ السلامةِ يَفْعَلُ
يَرُدُّ الفتى بَعدَ اعتدالٍ وصِحَّةٍ يَنُوءُ إذا رام القيامَ ويُحْمَلُ

«والبقاء مقصورٌ لضرورة الشعر وتُروى: والغِنَى»... وقال الصَّلَتانُ العَبْدِىُّ — شاعر إسلامى كان فى زمن جرير والفرزدق — :

إذا ليلةٌ هَرَّمَتْ يومَها أَتَى بعد ذلك يومٌ فَتِى

وهذا البيت من أبيات جيلة للصلتان اختارها أبو تمام فى حماسته يقول فيها:

أشابَ الصغيرَ وأفنَى الكبيـ ـرَ كَرُّ الغَداةِ ومَرُّ العَشِى
إذا ليلة ... البيت

نَرُوحُ ونَغْـدو لحاجاتِنـا   وحاجةُ مَن عاش لا تَنقضِى
تموتُ مع المـرءِ حاجاتُهُ   وتَبقَى له حاجـةٌ مابَقِى

فرح الدنيا مشوب بالترح
مُعقَّب بالهموم

نَظَر كِسْرَى أنو شروان إلى مُلكه يوما فأعجبَه فقال : هـذا مُلك إلا أنه هُلك ، ونعيم إلا أنه عَدِيم ، وغَناء لولا أنه عَناء ، وسُرور لولا أنه غُرور ، ويوم لوكان يُوثق له بِغَد... وقال المُغيرة بنُ حَبْناء ـ هو وأخواه صخر ويزيد كانوا شعراء ، وكان المغيرة من رجال المهلب بن أبى صفرة توفى سنة ٩١ هـ :

وكـذاكَ الدهرُ مأْتَمُهُ   أقربُ الأشياءِ من عُرُسِه

الدنيا هموم وغموم

سَمِعَ حَكيمٌ رجلا يقولُ لآخَرَ : لاأراكَ اللهُ مَكروها ، فقال : دَعَوْتَ عليه بالموتِ ، مَن عاش لابُدّ له من مكروه ، وقيل للنّظام ـ إبراهيم بن سَيَّار المعتزلى ـ وفى يَدِه قَدَحُ دواء ـ : كيف حالك ؟ فقال :

أصبَحتُ فى دارِ بَلِيّاتِ   أَدفَعُ آفاتٍ بآفاتِ

وقال أبو الحسن على بن محمد التّهامى المتوفَّى سنة ٤١٦ هـ يصف الدنيا ـ :

طُبِعَت على كَدَرٍ وأنتَ تُريدها   صَفْوًا من الأقذاءِ والأكدار
ومُكَلِّفُ الأيامِ ضِـدَّ طِباعِها   مُتطَلِّبٌ فى المـاء جُذوة نارِ
وإذا رَجَوْتَ المُسْتحيـلَ فإنما   تَبْنِى الرجاءَ على شَفِـيرٍ هارِ

« الجذوة : الجمرة ، والشفير : ناحية الوادى من أعلاه ، وهار : يقال : هار الجرف والبناء : انهار وانهدم »

وقال شاعر :

أَمَرَّ الزمانُ لنا طعمَهُ ... فما إنْ ترى ساعةً عذْبَه

وقال آخر :

أُفٍّ من الدنيا وأسبابِها ... فإنها للحُزْنِ مخلوقهْ

هُمومُها ما تنقضى ساعةً ... عن مَلِكٍ فيها ولا سُوقَه

وقال آخر :

تأتى المكارِهُ حين تأتى جُملةً ... وترى السُّرورَ يجىءُ فى الفَلَتاتِ

وقال ابن نُباتة السَّعدى :

وما خيرُ عيْشٍ نصفُهُ سِنَةُ الكَرَى ... ونِصْفٌ به نَعْتَلُّ أو نَتَوَجَّع

مع الوقتِ يمضِى بُؤْسُه ونعيمُه ... كأنْ لم يكن والوقتُ عُمرُك أجْمَعُ

وقال الشريف الرضى :

يا آمِنَ الأقدارِ بادِرْ صَرْفَها ... واعْلمْ بأنَّ الطَّالِبينَ حِثَاثُ

خُذْ مِن تُراثكَ ما استطعْتَ فإنما ... شُركاؤُكَ الأيَّامُ والوُرَّاثُ

لمْ يَقْضِ حقَّ المالِ إلا معْشَرٌ ... وَجَدوا الزَّمانَ يَعيثُ فيه فعاثوا

تَحْثُو على عيْبِ الغنىِّ يدُ الغِنى ... والفقر عن عيْبِ الفتى بحَّاثُ

المالُ مالُ المرءِ ما بلَغت به الشَّـ ... ـهواتُ أو دَفعتْ به الأحداثُ

ما كان منه فاضِلاً عن قُوتِهِ ... فلْيعلَمَنَّ بأنَّه ميراثُ

مالى إلى الدنيا الغرورةِ حاجةٌ ... فلْيَخزَ ساحِرُ كيْدِها النفَّاثُ

سَكَناتُها محذورةٌ وعُهودُها ... منقوضةٌ وحِبالُها أنكاثُ

أمُّ المصائبِ لا يزالُ يَرُوعُنا منها ذُكورُ نوائبٍ وإناثُ
إنّى لأعجَبُ مِن رجالٍ أمسكوا بحبائلِ الدنيا وهُنَّ رِثاثُ
كنَزُوا الكُنوزَ وأغفَلوا شهواتِهم فالأرضُ تشبَعُ والبُطونُ غِراثُ

«صَرفها : حَدَثانها ونوائبها ، وحِثاث : سِراعٌ ، وحَثا التراب : صبَّه ، يقول فى هذا البيت : إنّ الغِنَى يغطى عيوبَ الأغنياء أما الفقر فإنه يحمل الناس على أن يفتشوا عن عيوب الفقراء ويلصقوا بهم العيوب إلصاقاً . ونكث الحبل : نقضه ، ورثاث جمع رث : بالٍ ، وغراث : جائعات » ...

النقصان بعد التمام

قالوا : مَن بلَغ غايةَ ما يُحِبُّ فليَتَوقَّعْ غايةَ ما يَكرَه ... وقال الأصمعىُّ : وجدتُ لبعضِ العرب بيتين كأنهما أُخِذا من قوله تعالى : حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا أخَذْناهُمْ بغتة ، وهما :

أحسنتَ ظنَّكَ بالأيامِ إذ حَسُنتْ ولم تَخفْ غِبَّ ما يأتى به القَدَرُ
وسالمَتْكَ الليالى فاغْتَرَرْتَ بها وعندَ صَفْوِ الليالى يَحْدُثُ الكَدَرُ

ومِن دُعاء بعضهم : صَرَفَ الله عنك آفاتِ التَّمام ...
والبيت المشهور فى هذا المعنى :

إذا تمَّ أمرٌ بَدَا نقْصُه توقَّعْ زوالا إذا قِيلَ تم

وقال عبد الله بن مسعود : عَرَضُ الدنيا عاريَّة ، ومَن فيها ضَيفٌ ، والعاريةُ مُؤَدّاة ، والضيف مُرتحِل «العارية : ما تستعيرُه من قريبك أو صديقك أو جارِك لتنتفعَ به حِيناً ثم تردُّه إلى صاحبه ، وعرَض الدنيا . ما نِيلَ منها من متاعها وحُطامها »

وقال حكيم : الدنيا تُطعِمُ أولادها ، وتأكلُ أولادها . وقال الشاعر :

وما المالُ والأهلونَ إلا وَدائعٌ ولا بُدَّ يوماً أنْ تُرَدَّ الودائعُ

وقال المتنبي :

أبداً تَستردُّ ماتهَبُ الدنـيا فياليتَ جُودَها كانَ بُخْلا
فكَفَتْ كَوْنَ فَرْحةٍ تُورِثُ الغَمّ وخِلٍّ يُغـادِرِ الوَجْدَ خِلاّ

« يقول المتنبي : شيمة الدنيا أن تستردَّ ماتهَبُ وتعطى ، فليتَها بخلت وما جادَت إذ لو بخلتْ ولم تُعطِ لكفتنا الفرح بوجود شيء يُعقِب لفَقْدِه الغمَّ ، والفرَحَ بوجود خليل يُؤْنِس بقُرْبِه ثم تخترمه المنية فيغادرُ الهمَّ خليلا للحازن عليه » وفى هذه القصيدة يقول المتنبي :

ولذيذُ الحياةِ أنفسُ فى النَّفْـ ـس وأشهَى من أنْ يُمَلَّ وأحلَى
وإذا الشيخُ قال أُفٍ فما مَلَّ حياة وإنما الضعفَ مَلاّ
آلةُ العَيْشِ صِحّةٌ وشبابٌ فإذا وَلَّيا عن المَرْءِ وَلى

الدنيا لا يدوم فيها فرح ولا ترح

قال شاعر :

هل الدهر إلا ساعةٌ ثم تنقضى بمـا كان فيها مِن بلاء ومِن خَفْضِ
فهوّنكَ لاتحفِلْ إساءةَ عارِضٍ ولا فرحةً تأتى فكِلْتاهُما تمضى

« الخفض : الدَّعة ولينُ العيش وسَعَته ، والهوْنُ مَصْدر الهَيِّنُ فى معنى السكينة والتثبُّت والوقار والرفق قال :

فَهَوْنَكُما لايَرُد الدَّهْرُ مافاتا لاتَهْلِكا أسَفا فى إثْرِ مَن ماتا

وقال آخر :

وما اكتأبتْ نفسٌ فدامَ اكتئابُها ولا ابتهجتْ نفسٌ فدام ابتهاجُها

ودخل أعرابيٌّ عُمِّر مائةً وعشرين سنةً على معاوية رضى الله عنه ، فقال له : صِفْ لنا الدُّنيا ؛ فقال : سُنَيّاتُ بلَاء وسُنيّاتُ رَخاء ، يولدُ مولودٌ ويَهلِكُ هالك ولولا المولود بادَ الخلْق ، ولولا الهالك ضاقت الأرض .

الدنيا غرّارة

قال بعضهم : هذه الدُّنيا قَحْبَةٌ يوما عند عطار ، ويوما عند بيطار . . .
وقال المتنبي :

فَذِى الدارُ أخونُ مِن مُومس وأخدَعُ من كفَّة الحابِلِ
تَفَانى الرجالُ على حُبِّها وما يَحْصُلون على طائل

« الحابِل : الصائدُ ذو الحِبالة ، وهى الشَّرَك ، والطائل : ما كان له قدر . يقول المتنبي : إن هذه الدنيا فاجرة خوّانة لبنيها كالمومس تُخلِفُ مَن وثِق بها ، وهى كذلك أخدعُ من حِبالة الصائد تَصرَعُ من اطمأن اليها ، ثم قال فى البيت الثانى : تفانى الناس على حُبِّها ومع ذلك لم يحصُلوا من أمرها على طائل لأنها تستردُّ ماتعطيه وتهدِم ما تَبنيه ، وتَمَرُّ بعد حلاوتها وتعوج بعد استقامتها » .

وقالوا : مَثلُ الدنيا مَثلُ الحيَّة ليِّنٌ مَسُّها وفى جَوفِها السُّمُّ الناقع ، يَهْوِى اليها الصبىُّ الجاهل ، ويحْذَرها الحازمُ العاقل . « يهوى إليها : يُسْرِع وذلك كما تقول رأيت فلانا يَهْوِى نحوك ، معناه : يريدك ، قال تعالى : فاجعل أفئدةً من الناس تَهْوِى اليهم : أى تريدهم وتسرع » وقال أبو عَمْرو بنُ العلاء : كنْتُ أدورُ فى ضَيْعَتِى فى شِدَّةَ الحر فسمعتُ هاتِفا يقول :

وإنَّ امرَأً دُنْياهُ أكبَرُ همهِ لَمُسْتَمْسِكٌ منها بحبْلِ غُرورِ

فنَقَشتُ ذلك على خاتَمي . وقال الشاعر :

ومَنْ عَرَفَ الأيامَ لم يرَ خَفْضَها نعيما ولمْ يَعْدُدْ تصرُّفَها بَلْوَى

حب الدنيا على الرغم من عيوبها

قال عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه ــ وقد ذُكِرَ له قومٌ يُحِبُّون الدنيا ــ : هُمْ أبناؤها ، أفَيُلامُ الرجل على حُبِّ والدَيه ! وقال الشَّعبيُّ : ماأعلم لنا وللدنيا كقول كُثَيرِ عَزَّة :

أَسِيئِي بنا أو أحسِني لا مَلومةٌ لَدَيْنا ولا مَقْليَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ

« وقد تقدم » وقال شاعر :

يَذُمُّون دُنيا لا يُريحون دَرَّها ولم أرَ كالدنيـــا يُذَم ويُحْلبُ

« لايريحون درَّها فالدَّرُّ : اللبن يقول : إنهم مع ذمّهم إياها يُلِحُّون فى الإقبال عليها ويكلبون ويَشْرَهون حتى ما يتركون دَرّها يستريح ، وهذا على المثــل . » ...

وقال أبو العتاهية :

كُلنا يُكْثِرُ المَذَمَّةَ للدُّنْيا وكلٌّ بحُبِّها مفتونُ

الدنيا تضر محبيها

قالوا فى ذلك : الدنيا تَضُرُّ مُحِبِّيها ، وما كرُمَتْ على أحد نفْسُه إلا هانت عليه الدنيا ، وقالوا : أوْحَى اللهُ إلى الدنيا : أنِ آخْدُمِي مَنْ جَفاكِ واستَخْدِمِي مَنْ يَهواكِ « وهـذا تمثيلٌ جميلٌ وَحَقٌّ » ، وقال عُمَرُ بنُ عبـد العزيز : الدنيا لاتضُرُّ إلّا مَنْ أمِنَها ولا تَنفعُ إلا مَنْ حَذِرَها . وقال الفاروقُ رضى الله عنه : ماكانت الدنيا هَمَّ امرئٍ إلا لَزِمَ قلبَـهُ خِصالٌ أربَع : فقرٌ لا يُدْرَكُ

غِناه، وهَمٌّ لا يَنقضِى مَداه، وشُغْلٌ لا يَنفَدُ أُولَاه، وأَمَلٌ لا يُدْرَك مُنتهاه.

وقال الشاعر:

أرَى الدنيا لِمَنْ هى فى يدَيْه عَذاباً كلما كَثُرتْ لَدَيْه
تُهِينُ المُكْرِمين لها بِصُغْرٍ وتُكْرِمُ كلَّ مَنْ هانت عليه

« الصُّغر: الصَّغار، أى الذل والضيم »

وقال المتنبى:

ومَنْ لم يَعْشَقِ الدنيا قديماً؟ ولكن لا سبيل إلى الوِصالِ

« مَن: استفهامية، يقول المتنبى: مَن ذا الذى لم يعشق الدنيا من قديم الدهر؟ كلُّ أحدٍ يَهوَى الدنيا ولكن لاسبيل إلى دوام وصالها، أى أنّ كثيراً من عُشّاقِها واصلها ووَاصلته ولكن لاسبيل إلى دوام الوصال فإنّ وِصالها يعقبه الهجر وسرورها يعقبه الحزن وأيامها تنتهى بالموت »

بنو الدنيا أغراض لضروب المحن

قيل للحسن البصرىّ: كيف أصبحتَ؟ فقال: كيف يُصْبِح مَن هو غَرَضٌ لثلاثةِ أسْهُم: سَهْمُ رَزِيّة، وسهمُ بَلِيّة، وسهمُ مَنيّة. وقالوا: مَن أخطأهُ سَهمُ المنية لم يُخطِئْه سَهمُ الرزية، وقال ابن المعتز:

الدَّهْرُ يَطرِفُ بالعَنا والناسُ بين جُفونه

« يقال: طَرَفَ بصَرَه يَطْرِفه طَرْفا: إذا أَطْبَق أحدَ جَفنيه على الآخر؛ والعنا هو العناء أى النَصَب » وقال أبو العتاهية:

أُفٍّ لدُنْيا تَلاعَبَتْ بى تَلاعُبَ المَوج بالغَريقِ

الأيام تمضى فى تراذلها

سَمِع زيادُ بن أبيه امرأةً تقول : اللهم اعْزِلْ عنا زيادا ، فقال : زيدى فى دعائك : وأَبْدِلْنا خيرا منه ، فإن الآخِرَ أبدا شَرٌّ ... وقال أبو الدَّرداء[1] : مَعروفُ زمانِنا مُنكَرُ زمانٍ قد فات ، ومُنكَرُهُ معروفُ زمان لم يأتِ ،

حمدهم ماضىَ الزمان وذمّهم حاضره

كانت السيدة عائشة رضى الله عنها كثيرا ما تُنْشِدُ قولَ لَبيد :

ذَهبَ الذين يُعاشُ فى أكْنافِهم ... وبَقِيتُ فى خَلْفٍ كجِلْدِ الأجْرَبِ

وتقول : رَحِم اللهُ لَبيدا ، كيف لو عاش إلى زمانِنا ! وكان عبد الله بنُ الزبير يُنْشِد هـذا البيت ويقول : رحِم الله عائشة ، كيف لو عاشت إلى زماننا ! ومن كلام الحسن البَصرىّ : كان الناسُ وَرَقًا بلا شَوكٍ فصاروا شَوكا بلا ورَق ... وقالوا :

رُبَّ يومٍ بكَيتُ فيه فلمَّا ... صِرْتُ فى غيره بكَيتُ عليه

وهناك مَن يذهب إلى أن ماضِىَ الزمان كحاضره ، لا يفْضُل قديمُ الزمان حديثَه ، وإنما الأيامُ كلها ، أو الناسُ جميعا ، قُداماهم ومُحدَثُوهم وأوَّلُهم وآخرهم سواسِيَةٌ فى أنَّهم خَلْفٌ كجِلدِ الأجرَب ، ومن أحسن ماقيل فى ذلك تلك الكلمة التى كتبها بديعُ الزمانِ الهَمَذانىُّ فى رسالة له إلى أستاذه أبى الحسين ابن فارس صاحب المجمل فى اللغة ، جوابا على رسالة كتبها ابن فارس إلى البديع

(١) هو عويمر بن قيس بن زيد الأنصارى ، الصحابى المشهور ، شهد مع سيدنا رسول الله وقعة أحد وما بعدها وتوفى فى آخر خلافة عثمان بن عفان

فى ذَمّ الزمان (١) ، قال البديع : نَعم أطالَ اللهُ بقاءَ الشيخ الإمام ، إنه الحَمَأُ المَسنُون (٢) ، وإنْ ظُنَّت الظُنون ، والناسُ لآدم ، وإنْ كان العَهدُ قد تقادَم ، وارتبكت الأضداد ، واختلط الميلاد ؛ والشيخ يقول : فَسَدَ الزّمان ، أفَلا يقول : مَتَى كان صالحا ؟ أفى الدَّولةِ العباسيّة وقد رأينا آخِرَها وسَمِعنا أوَّلَها ؛ أم المُدّةِ المَرْوانيّة وفى أخبارها « لا تَكْسَعِ الشَوْلَ بأَغْبارها » (٣) ... أم السِّنين الحَرْبيّة (٤) :

والسَّيفُ يُعْمَلُ فى الطُّلَى ... والرُّمْحُ يُرْكَزُ فى الكُلَى (٥)

---

(١) قيل : ذكر الهمذانىّ فى مجلس ابن فارس فقال مامعناه : إن البديع قد نسى حق تعليمنا إياه ، وعقنا وشمخ بأنفه عنا ، فالحمد لله على فساد الزمان ، وتغير نوع الإنسان ، فبلغ ذلك البديع ، فكتب إلى ابن فارس هذه الرسالة .

(٢) الحمأ : الطين الأسود . والمسنون : المتغير المنتن

(٣) هذا من قول الحارث بن حلزة :

لا تَكْسَعِ الشَوْلَ بأَغْبارِها ... إنّكَ لاتَدْرى مَنِ النّاتِجُ

واحْلُبْ لِأضيافِكَ ألْبانَها ... فإنَّ شَرَّ اللَّبَنِ الوالِجُ

والكسع : ترك بقية من اللبن فى خِلف الناقة يراد بذلك تغزيرها ، وهو أشد لها والشول من النوق : مامضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فقلّ لبنها وخف ضرعها والأغبار . جمع الغبر وهو بقية اللبن فى الضرع ، والوالج : الذى يلج فى ظهورها من اللبن المكسوع يقول الحارث : لاتغزر إبلك تطلب بذلك قوة نسلها واحلبها لأضيافك فلعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك . ولعل البديع يشير بهذا إلى بخل بنى مروان وقلة الخير فى أيامهم

(٤) الحربية : نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس ، يريد بذلك خلافة معاوية ويزيد ابنه

(٥) الطلى : الأعناق واحده طلية بضم الطاء ، وركز الرمح . دفنه وأثبته والكلى : جمع كلية وكلوة ، والكليتان أو الكلوتان معروفتان

ومَبيتُ حُجْرٍ في الفَــلَا والحَرَّتانِ وكَرْبَلَا [١]

أمِ البَيعة الهاشمية وعلىٌّ يقول: ليتَ العشرةَ منكم برَاس، من بنى فِراس؛ أمِ الأيام الأُموية [٢] والنفيرُ إلى الحجاز، والعيونُ إلى الأعجاز؛ أم الإمارةُ العَدَوِيّةِ [٣] وصاحبُها يقول: وهل بعد البُزول إلا النزول؛ [٤] أم الخلافةُ التيميّة [٥] وهو يقول: طُوبَى لِمن مات فى نأنأةِ الإسلام [٦] أم على عَهدِ الرِّسالة ويومَ الفَتْح قِيل: اسْكُتى يا فُلانة، فقد ذهَبتِ الأَمانةُ؛ أم فى الجاهلية ولَبيدٌ يقول:

ذهَبَ الذين يُعاشُ فى أَكْنافِهم وبَقيتُ فى خَلْفٍ كجِلْدِ الأَجْرَبِ

(١) حجر: هو حجر بن عدى الكندى من أهل العراق وقد قتله معاوية بن أبى سفيان سنة إحدى وخمسين لإظهاره التشيع إلى على ولعنه معاوية وأصحابه والبراءة منهم، وكان يجتمع عليه كل من وافقه فى هذا الرأى من أهل المصرين حتى ولى زياد على العراق فكتب إلى معاوية فى أمر حجر وأكثر فأمر معاوية زياداً أن يبعث به إليه مشدوداً بالحديد، ففعل، فلما قدم عليه أمر به معاوية فضربت عنقه، وكان حجر من أشراف العراق وخياره، انظر تاريخ الطبرى فى حوادث سنة إحدى وخمسين، ويشير بقوله والحرتان إلى وقعة الحرة التى كانت بين جنود يزيد بن معاوية وأهل المدينة سنة ثلاث وستين وكانت هذه الوقعة فى حرة واقم وهى شرقى المدينة وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير، وكربلاء موضع فى طرف البرية عند الكوفة وهو الذى قتل فيه الحسين بن على رضى الله عنه فى خلافة يزيد بن معاوية

(٢) يريد خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه لأن أمية رهطه

(٣) يريد خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، والعدوية نسبة إلى عدىّ بن كعب ابن لؤىّ، وهم رهط عمر

(٤) البزول: تشقق ناب البعير، وذلك فى السنة التاسعة، يريد بهذا: وهل بعد الوصول إلى الغاية إلا الأخذ فى النقصان؟ (٥) يريد خلافة أبى بكر رضى الله عنه. والتيمية: نسبة إلى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى، وهم رهط أبى بكر

(٦) النأناة: أول الإسلام قال الزمخشرى: ومعناها: الضعف قبل أن يقوى ويعز

أمْ قبلَ ذلك وأخو عادٍ يقول:

بلادٌ بها كُنّا وكنا نحبُّهــا إذِ النّاسُ ناسٌ والزّمانُ زمانُ

أم قَبلَ ذلك ويُرْوَى لآدمَ عليه السلام:

تغيَّرَتِ البلادُ ومَنْ عليها فوَجْهُ الأرْضِ مُغْبَرٌّ قَبيحُ

أم قبل ذلك والملائكةُ تقول لبارِئِها «أتجْعَل فيها مَنْ يُفسِدُ فيهاويَسْفِكُ الدِّماءَ»؛ (١) ما فَسَد الناس، ولكن اطّرَدَ القِياس؛ ولا أظلمَتِ الأيام، وإنما امتدَّ الإظلام؛ وهل يَفسُدُ الشيءُ إلا عن صلاح، ويُمسِى المرءُ إلا عن صباح!

إنكار ذمّ الدهر

رَوَوا لنا عن سيدنا رسول الله «لا تَسُبُّوا الدهر فإن الدهرَ هو الله»، وفى رواية: فإن الله هو الدهرُ» يقول صلوات الله عليه: إنّ ما أصابك من الدهر فالله فاعله ليس الدّهرَ، فإذا شتمت الدهر فكأنك أرَدْت به الله: وكان من شأنِ العرب أن تَذُمَّ الدهرَ وتَسُبَّه عندَ الحوادث والنوازِل تَنْزل بهم من مَوت أو هَرَمَ ويقولون: أبادهم الدّهرُ وأصابَتْهم قوارِعُ الدهر وحوادثُهُ، فيجعلون الدهرَ الذى يفعَل ذلك فيذُمُّونه، وقد ذكروا ذلك فى أشعارهم وأخبرَ الله تعالى عنهم بذلك فى كتابه العزيز ثم كَذَّبَهم فقال «وقالوا ماهى إلا حياتُنا الدنيا نَموت ونَحْيا وما يُهْلِكُنا إلا الدهر»، قال الله عز وجل: وما لهم

(١) قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى شرحه على لامية العجم للطغرائى: استدل بعضهم بهذه الآية الكريمة على أنه كان قبل خلق آدم خلق آخر فى الأرض وأنهم أفسدوا فيها وأهلكهم الله تعالى، لأن الملائكة قالت: أتجعل فيها من يفسد فيها!

بذلك من عِلْم إنْ هم إلا يَظُنُّون ، والدهرُ : الزمانُ الطويل ومُدَّةُ الحياة الدنيا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تَسُبُّوا الدهر ، على تأويل : لا تَسُبُّوا الذى يفعل بكم هذه الأشياء فإنكم إذا سَبَبْتُم فاعِلَها فإنما يَقعُ السَّبُّ على الله تعالى لأنه الفاعلُ لها لا الدهر ... » وقد تقدم ذلك »

وقال أبو بكر الخوارزمى قريبا من هذا المعنى الذى نعالجه :

وكم نَكْنِي وكم نَهْجُو اللَّيالى وليس بِخَصْمِنا إلا القضاءُ (١)

وقال رجلٌ للأصمعى : فَسَدَ الزَّمان ، فقال :

إنَّ الجديدَيْنِ فى طُولِ اخْتِلافِهما لا يَفْسُدَانِ ولكن يَفْسُد الناس (٢)

والبيت المشهور فى هذا هو قول بعضهم :

نَعيبُ زَمانَنا والعيبُ فينا ولو نَطق الزمان بنا هَجانا

وقال المتنبى :

ألَا لاأرِى الأحداثَ حَمْدًا ولا ذَمّا فما بَطْشُها جهلًا ولا كَفُّها حِلما (٣)

وقال بعض الصالحين لأبى العتاهية : أىُّ خَلْقِ الله أصْغَرُ عنده ؟ قال : الدنيا ، لا تُساوى عند الله جَناحَ بعوضة ، قال : أصْغرُ منها مُحِبُّها ...

المسرة من حيث تُخشى المضرة

قال أبو عمرو بن العلاء : طَلبَ الحجاجُ بنُ يوسف الثَّقَفِيّ أبِي ، فخرج

(١) يقال . كنى عن الامر بغيره يكنى كناية وهو : أن تتكلم بشىء وتريد غيره
(٢) الجديدان : الليل والنهار وذلك لانهما لا يبليان أبدا
(٣) يقول المتنبى ، لاأحمد الحوادث السارة ولا أذم الضارة فإنها إذا بطشت بنا أو آذتنا لم يكن ذلك جهلا منها وإذا كفت عن البطش والضرر لم يكن ذلك حلما ، يعنى : أن الفعل فى جميع ذلك ليس لها

منه هاربا إلى اليمن ، فإنّا لنَسير بصحراء اليمن إذ لحِقنا لاحِقٌ يُنشِدُ :

رُبَّما تَكرَهُ النفوسُ من الأمـرِ له فَرْجةٌ كحَلِّ العِقالِ

فقال أبى : ماالخبر ؟ قال : مات الحجاج ، قال أبو عَمْرو . فانا بقوله : له فَرْجة أشدُّ سرورا مِنِّى بموتِ الحجاج ، قال : فقال أبى : أصرِف ركابَنا إلى البصرة ، قال : وكنت يومئذ قد تخطَّيتُ بِضعا وعشرين سنة ... « ربما تكره النفوس ... . ألبيت هو لأمَيّة بنِ أبى الصلت وقبله :

لا تَضيقَنَّ فى الأمور فقد تُكـشَفُ غَمّاؤها بغـيرِ احْتيالِ

ومن بديع هـذه اللغة العربية الكريمة أنها تَفرِق بين فَرجة « بفتح الفاء » وبينها بالضم ، فالأولى : التَفَصّى من الهمِّ ، والأخرى ، أى الفُرجة بالضم : كلّ منفرج بين جَبلَيْن ونحوهما . والغماء : الكَرْب ، وقالوا : خَفِ المضارَّ من خَلَلِ المَسارّ (١) ، وارجُ النَفعَ من مَوضِع المنع ، فأكثرُ مايأتى الأمْنُ من محلِّ الفزَع ؛ وقالوا : أعناقُ الأمور تتشابَه ، فرُبَّ محبوب فى مكروه ومكروه فى محبوب ومَغبوط بنعمة هى داؤه ومَرحوم من داء فيه شِفاؤه ... وقالوا : رُبَّ سلامة تكونُ للتلَفِ سببا ، ومكروهٍ يكونُ للنجاةِ مِفتاحا :

وقد يأسَفُ المرءُ مِن فَوتِ ما لعـلَّ السلامةَ فى فَوْته

وقال حكيم : للهِ مَصالحُ فى مَكارهِ عِباده ، وقالوا : العاقِـلُ لايَجزَع لأولِ نَكبَة ولا يَفرَح بأوّل نعمة فرُبّما أقلَعَ المحبوب عما يَضُرّ وأسفَرَ المكروه عما يَسُرّ ... وقال سيدنا رسولُ الله « اشتَدّى أزمَةُ تنفرِجى » « الأزمَة : الشدة والقحط » ويقال فى ذلك : إنّ الشدّة إذا تتابعت انفرجت وإذا تَوالَت تولّت ... والأصل فى هذا المعنى قول الله جلّ شأنه « فعَسى أن تكرَهوا شيئا ويجعلَ الله فيه خيرا كثيرا »

(١) من خلل المسار : أى من خلالها .

الفرج بعد الشدّة

أُتِىَ يَزيدُ بخارجيٍّ، فهَمَّ بقتْـلِه فقال الخارجى:

عسَى فَرَجٌ يأتى به الله إنّهُ   له كلَّ يوم فى خليقتِهِ أمْرُ

فقال يزيد: والله، لأضرِبَنَّ عُنُقَك، اقتلوه، فدخل الهيثمُ بن الأسود النَخَعِى، فقال: أمسِكوهُ قليـلا، فدَنا منه فقال: ياأميرَ المؤمنين، هَبْ مُجرِمَ قومٍ لوافِدِهم، فقال: هو لكَ، فخرج الخارجىُّ وهو يقول: تأبَّى على الله فأبَى إلا أن يُـكذِبَه وغالَبه فأبَى إلا أنْ يَغْلِبَه... وأُحضِرَ رجلٌ أمامَ بعض الملوك، فدعا بطعام فأَخذ يأكلُ ويضحَك، فقيل له: تضحكُ وأنت مَقتول؟ فقال: مِنَ الساعةِ إلى الساعة فَرَج، فسُمِعَت صيْحَة فقيل: مات الملك، فخلَّوا الرجل... وشَدَّ بعض العُمَّال ـ الوُلاة ـ رجُلا إلى أُسْطوانة ـ عَمود ـ يُريدُ ضربه، فقال حُلَّنِى من هذه إلى هذه، فحَـلّه، فما حَـلّه إلا وقد عُزِلَ وشُدَّ إلى الأسْطُوانةِ بعينِها...

من زال كربه فنسِىَ صُنع الله

قالوا: ماصاحب البلاء الذى طال بلاؤه بأحقَّ بالدعاء من المُعافَى. وقيل: مَنْ سبَح فى النَّهرِ الذى فيه التِّمساح عَرّض نفسَه للهَلَكة. وشكا يوسف عليه السلامُ طُولَ الحبْس، فأوْحى الله تعالى إليه: أنت حبَسْتَ نفسك حيث قلت: السجن أحبُّ إلىَّ. وقال الله عزّ وتقدّس «وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لِجَنبه قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضُرّه مرّ كأنْ لم يدْعُنا إلى ضُرّ مَسّه كذلك زُيِّنَ للمُسْرِفين ماكانوا يعملون»... وقال سبحانه: قُلْ من يُنَجّيكم من ظُلُمات البرّ والبحر تَدْعُونَه تضَرُّعا وخُفْيَة لئِن أنجانا

من هذه لنكونَنَّ من الشاكرين ، قُلِ الله يُنجّيكم منها ومن كلّ كَرْب ثم أنتُم تُشرِكونَ .

لاتُعرَفُ النعمةُ إلا عند فقدها

قالوا : كم من نعمةٍ عُرِفَتْ بِبَلِيَّة نزلت ، ونقمةٍ جُهلَتْ بسلامةٍ لَبِثَتْ .

وقالوا : شيئان لايَعرف فضلَهما إلا من فَقَدَهما : الغِنى والعافية ... وقال الشاعر :

فالوَجْهُ مِثْلُ الصُّبحِ مُبْيَضٌّ والشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسْوَدُّ
ضِدّانِ لمّا استجمعا حَسُنا والضدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

وقال المتنبي :

* وبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشياءُ *

وقال أبو تمام :

وليس يَعْرِفُ طيبَ الوَصْلِ صاحبُهُ حتّى يُصابَ بِنَأْيٍ أو بهجْرانِ

وقال المتنبي :

ولولا أيادِي الدهرِ فى الجمْع بيننا غَفَلْنَا فلم نَشْعُر لهُ بِذُنوب

« يقول المتنبي : إنّ الدهر تارةً يُحْسِنُ وتارةً يسيء فلو لم يحْسِنْ إلينا بالجمع بيننا لما شعرنا بذنوبه فى تفريقنا ، فبإحسانه عرفنا إساءته»

فضل العافية وسلامة الدين

قال سيدنا رسول الله « مَنْ أصبح آمنا فى سِرْبه مُعَافًى فى بَدَنه عندهُ قُوتُ يومِه فكأنما حيزَتْ له الدُّنيا »

« قال ابنُ برى : قال جماعةٌ من أهل اللغة : السِّرْب : النفس قال : وأنكر

ابنُ دَرَسْتَوَيْه قولَ من قال فى نفسِه قال : وإنما المعنى : آمِنٌ فى أهله وماله وولده، ولو أمن على نفسه وحدها دون أهله وماله وولده لم يُقَلْ هو آمِنٌ فى سِرْبه ، وإنما السِّرْب هُهُنا : ماللرجل من أهْل ومالٍ، ولذلك سمى قطيع البقَر والظباء والقَطا والنساءِ سِرْبا ، وكان الأصلُ فى ذلك أنْ يكون الراعى آمناً فى سِرْبه والفَحْلُ آمناً فى سربه ، ثم اسْتُعْمِل فى غير الرعاة استعارَة فيماشُبِّه به . وحيزت : جُمِعَتْ وضُمَّتْ ، وبحذافيرها : بأسْرِها »

وقال ابن الرومى :

إذا ما كساكَ اللهُ سِرْبالَ صِحَّةٍ ولم تَخْلُ من قُوتٍ يَحِلُّ ويَعْذُبُ
فلا تَغْبِطَنَّ المُتْرَفِينَ فإنهم على حَسْبِ ما يُعْطِيهِمُ الدهْرُ يَسْلُبُ

«السربال : القميص ، وحَلّ : من الحلال مقابل الحرام ، والغبطة : أن تتمنى مثل حال المغبوط ـ الحسن الحال ـ من غير أن تريد زوالها ، وعلى حسب : على قدر وعدد » وقالوا : مَن أُوتِيَ العافيةَ فظَنَّ أنَّ أحداً أُوتِيَ أكثرَ منه فقد قلَّلَ كثيراً وكَثَّرَ قليلا « كثَّر قليلا ، لأن ماعدا العافية فهو قليل بالإضافة إليها » ...

عبقريات شتى فى الدنيا

قال أبو حازم : وما الدُّنيا ؛ أمَّا ماضى فَحُلْمٌ وأما ما بَقِى فأمانِيُّ . وقال بكر بن عبد الله : المُسْتَغْنى عن الدنيا بالدنيا كالمُطْفِئِ النارَ بالتِّبْنِ . وقال ابنُ مسعود : الدنيا كُلُّها غموم ، فما كان فيها من سرور فهو رِبْح .

وقال بعضُ الحكماء : مَثَلُ الدنيا والآخرة مثلُ رجُلٍ له ضَرَّتان إن أرْضَى إحداهما أسْخَطَ الأُخرى ... وقال سُفيان الثَّورى : تركَ الملوكُ لكم الحِكمة فاتْرُكوا لهم الدنيا . وقال يحيى بنُ خالد البرمكى : دَخَلنا فى الدنيا دُخولا

أخرجَنا منها . وكان الحسن البَصرى كثيرا ما يَتمثّل كلما جَرَى ذِكْر الدنيا ـ :

اليومَ عِندَكَ دَلُّها وحَديثُها وغداً لغيرك كَفُّها والمِعْصَم

وهذا البيت كذلك يقال فى غدر المرأة وقلة وفائها . وكان إبراهيمُ بن أدْهم العِجْلىُّ يقول :

نُرَقِّعُ دُنْيانا بتمزيقِ دِيننا فلا دِينُنا يَبْقَى ولا ما نُرَقِّعُ

وقال السيد المسيح : أنا الذى كَفَأْتُ الدنيا على وَجْهها ، فليست لِى زوجةٌ تموتُ ولا بيتٌ يَخْرَبُ . وقيل لمحمد بن واسع : إنك لترضَى بالدون فقال : إنما رَضِىَ بالدون مَنْ رَضِىَ بالدنيا ... وقالت امرأةٌ لزوجِها ورأتْهُ مَهْمُوما : مِمَّ هَمُّك ؟ أبالدنيا فقد فَرَغ اللهُ منها أمْ بالآخرةِ فزادك الله هَمًّا ؟ وقال السيد المسيح : حُبُّ الدنيا أصْلُ كلِّ خطيئة والمالُ فيها داءٌ كثير ، قيل : ما داؤه ؟ قال : لا يَسْلَمُ صاحبه من الفخر والكِبر ، قيل : وإنْ سَلم ؟ قال : يَشْغَلُه إصلاحُه عن ذِكْرِ الله . وقال سيدنا رسول الله : مَن أصبحتِ الدُّنيا هَمَّهُ وسَدَمَه [1] نزعَ الله الغِنى من قلبه ، وصَيّرَ الفقْر بين عيْنيْه ولم يأتِه من الدُّنيا إلا ما كُتِبَ له ؛ ومَن أصْبحتِ الآخرةُ همَّه وسَدَمَه نزعَ الله الفقرَ من قلبه وصَيَّرَ الغِنى بين عيْنيْه وأتتْهُ الدنيا وهى رَاغِمَة ... وقال سيدنا رسول الله للضَّحَّاك بن سُفيان : ماطعامُكَ ؟ قال : اللحمُ واللبنُ قال : ثم يَصيرُ إلى ماذا ؟ قال : ثم يَصيرُ إلى ماقد علمْتَ ، قال : فإنَّ اللهَ ضَرَبَ مايخرُجُ من ابن آدمَ مثلا للدنيا ... وكان بشرُ بنُ كعبٍ يقول لأصحابه إذا فَرَغ من حديثه : انطلِقوا حتى أُرِيَكُمُ الدنيا ، فيجىءُ فيقِفُ بهم على السُّوقِ ، وهى يومئذ مَزْبَلةٌ ، فيقول : انظروا إلى عَسَلِهم وسَمْنِهم وإلى دَجاجِهم وبَطّهم

(١) السدم : الولوع بالشىء .

صارَ إلى ما تَرَوْن ...

وقال محمد بنُ وُهَيْب :[١]

نُراعُ لِذِكْرِ الموتِ ساعةَ ذِكْرِه ... وتَعْتَرِضُ الدنيا فنَلْهو ونَلْعَبُ

ونحنُ بنُو الدنيا خُلِقْنا لِغيْرِها ... وما كُنْتَ منه فهو شىءٌ مُحَبَّبُ[٢]

يَقينٌ كأنَّ الشَّكَّ غالِبُ أَمْرِه ... عليه وعِرفانٌ إلى الجهل يُنْسَبُ

أقول : لعله ينظر إلى قول جرير :

تُرَوِّعُنا الجنائزُ مُقْبِلاتٍ ... فنَلْهُو حين تَذْهَبُ مُدْبِراتِ

كرَوْعةِ ثَلَّةٍ لمُغارِ ذِئْبٍ ... فلما غابَ عادتْ راتعاتِ[٣]

قال أبو عمرو بن العلاء : جلستُ إلى جرير وهو يُمْلِى :

* وَدِّعْ أُمامةَ حانَ منك رَحيلُ *

ثم طَلعت جِنازة فأَمْسك وقال : شَيَّبَتْنى هذه الجنائز ، قلتُ : فلِمَ تُسابُّ الناسَ ! قال : يبدأونى ثم لا أعْفُو وأعْتدى ولا أبتَدى ، ثم قال هذين البيتين . . . وقول محمد بن وهيب : يقين كأنّ الشك أغلب أمره . . . ألبيت فمأخوذ من قول الحسن البصرى : ما رأيتُ يقيناً لاشَكَّ فيه أشْبهَ بشكٍّ لايقين فيه ، إلا الموت . . .

---

(١) شاعر بصرى من أهل بغداد مدح المأمون والمعتصم ويعدّ وسطاً فى طبقة دعبل وأبى سعيد المخزومى ، وكان يتشيع ويستميح الناس بشعره ، انظر ترجمته فى معاهد التنصيص

(٢) يقول : إننا أبناء الدنيا وما دمنا كذلك كانت الدنيا محبوبة لنا .

(٣) الثلة : بفتح الثاء . جماعة الغنم ، أما الثلة بضم الثاء فالجماعة من الناس ، وهذا من غرائب هذه اللغة الكريمة .

وقال أحد الظُّرَفاء : إن الدنيا قد استودَقتْ وأنعَظ الناس : « استودقت يقال : ودَقت الفرس تَدِق وَدْقاً واستودَقت : إذا طلبت الفحل » وقال حكيم : من أراد الدنيا فليَتَهيأ للذل . ومن كلمة لعلىّ بن أبى طالب : أهلُ الدنيا كَرَكْبٍ يُسارُ بهم وهم نيام . . ومن كلامه رضى الله عنه ـ وقد قال له رجلٌ وهو فى خُطبة : يا أمير المؤمنين ، صِفْ لنا الدنيا فقال : ما أصفُ من دارٍ أوَّلُها عَناء وآخِرُها فَناء ، فى حَلالها حساب وفى حَرامِها عقاب ، مَن صَحَّ فيها ماأمِنَ ، ومن مَرِضَ نَدِمَ ومَن استغنى فُتِنَ ، ومن افتقر فيها حَزِن ! وقال أيضاً : إنما المرءُ فى الدنيا غَرَضٌ تَنْتضِلُ فيه المَنايا ، ونَهْبٌ للمصائب ، ومع كلِّ جَرْعةٍ شَرَقٌ ، وفى كلِّ أُكْلةٍ غَصَصٌ ، ولا يَنالُ العبدُ فيها نِعْمةً إلا بفراقِ أخرى ، ولا يَستقْبِلُ يوماً من عمره إلا بهَدْمِ آخَرَ من أجَله ، فنحنُ أعوانُ الحُتوف ، وأنفُسنا تسوقُنا إلى الفَناء ، فمن أين نرجو البقاء ! وهذا الليلُ والنهار لم يَرْفعا من شىء شرَفاً إلّا أسرَعا الكرّة فى هَدْم ما بَنَيا ، وتفريق ماجَمَعا ، فاطلبوا الخيرَ وأهْلَه ، واعلموا أن خيراً من الخير مُعْطِيه ، وشرًّا من الشرِّ فاعِلُه ... « الغرض : الهدَف ، والنهب : المال المنهوب غنيمةً والجمع نِهاب وقد تقدم شرح الجرعة والشرق والغصص ، وقوله : فنحن أعوان الحتوف فالحتف : الموت ، ومعنى أننا أعوان الموت : أنا نأكل ونشرب ونجامع ونركب الخيل والسفن والطائرات ونحوها ونتصرف فى أسبابنا وحاجنا ومآربنا ، والموت إنما يكون بأحد هذه الأمور إما من أخلاط تُحدِثُها المآكل والمشارب ، أو من سقطة يسقط الإنسان من دابةٍ هو راكبها أو من ضَعف يلحقه من الجماع المفرط أو مصادمات واصطكاكات تصيبُه عند تصرفه فى مآربه وحركته وسعيه ونحو ذلك ،

فكأنا نحن أعنّا الموت على أنفسنا »

وقال على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم : مالَكَ من عيشك إلا لذةٌ تزدلِفُ بك إلى حِمامك وتقرّبُك من يومك ، فأيةُ أُكلة ليس معها غَصص أو شَربة ليس معها شرق ! فتأمل أمرك فكأنك قد صِرْتَ الحبيبَ المفقودَ والخيالَ المخترمَ ، أهْلُ الدنيا أهلُ سفَر لايحُلُّون عَقْدَ رحالهم إلا فى غيرها » قوله : تزدلِفُ بك إلى حمامك : أى تُقرِّبك إلى موتك ، والمخترم المستأصل والمُقتطع » .

وقال حكيم : مَن ذا الذى يَبْنى على مَوج البحر داراً ! تلكم الدنيا ، فلا تتخذوها قرارا ... وقيل لبعض الرُّهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخْلق الأبدان ، ويُجدِّد الآمال ، ويُقرِّبُ المنيَّة ، ويُباعِد الأمْنِيّة ، قيل : فما حال أهله ؟ قال : مَنْ ظَفِرَ به تعب ، ومن فاته اكتأب ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

ومن يحمَدِ الدُّنيا لِعَيْشٍ يسُرُّهُ فسوف لعَمْرى عن قليلٍ يَلومُها
إذا أدْبَرت كانت على المرءِ حَسْرَةً وإن أقبلت كانت كثيرا همومها

قال حكيم : مِن عَيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق ، إما أن تَزيد له وإما أن تَنقص ... وقال أبو العتاهية :

تعالى الله يا سَلْمُ بنَ عمْرو أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرجال
هَبِ الدُّنْيا تُساقُ إليْكَ عَفْوًا أليس مَصيرُ ذاكَ إلى الزَّوالِ
وما دُنْيَاكَ إلا مِثْلُ فَىْءٍ أظَلَّكَ ثمَّ آذَنَ بانتِقالِ

ولنجتزئ بهذا المقدار فعبقرياتهم فى الدنيا لايكاد يبلغها الإحصاء.

عبقرياتهم فى الموت

أسماء الموت وَوصْفُه

الموت : ضدُّ الحياة ، ويقال : مات يَمُوتُ ويَمَاتُ — لغةٌ طائية — وقالوا : مِتَّ تَموت ؛ قال ابن سيده ؛ ولا نظير لها مِنَ المعتلّ ، ورَجُلٌ ميِّت ومَيْت ، وقيل : الميْت : الذى مات ، والميِّت والمائت : الذى لم يمُتْ بعدُ ، يقال : هو ميّتٌ غدا ومائت ولا يقال : مَيْتٌ ، قالوا : وهذا خطأ ، وإنما مَيِّت يصلح لما قد مات ولما سيموت ، وقد جمع بين اللغتين عَدِىّ بن الرَّعْلاء الغسّانى ـ والرعلاء أمّه ـ فقال :

لَيسَ من مات فاسْتَرَاحَ بميْتٍ إنّما الميْتُ مَيِّتُ الأحْياءِ
إنّما الميْتُ من يعيش كئيبًا كاسفاً بالُه قليلَ الرجاء
فأُناسٌ يُمَصَّصُونَ ثِمَادًا (١) وأُناسٌ حُلوقُهُمْ فى الماء

فجَعَل الميْتَ كالميِّت ... ويقال للموت : الهِمْيَعُ ، وقيل : الهِمْيَعُ : الموتُ المعجّل : أقول : ولعله سُمى كذلك لأن الرُّوح تهْمَع : أى تسيل ، من هَمَع الدمْعُ والماء : سال . ومن أسماء الموت أيضا : النَّيْط ، رُوى عن على رضى الله عنه أنه قال : لَوَدَّ مُعاوِيَةُ أنه مابقى من بنى هاشم نافخ ضَرَمَةٍ إلا طُعِنَ فى نَيْطه (٢) ، معناه : إلّا ماتَ ، قال ابن الأثير : والقياس : النَّوْط ، لأنه من ناطَ ينوطُ : إذا عُلِّق ، وقيل : النيط : نياط القلب ، وهو : العرْق الذى يتعلق به القلب ... ومن أسماء الموت : الرَّمْدُ قال أبو وَجْزة السعدىّ :

صَبَبْتُ عليكم حاصِبِى فتركتُكم كأصْرامِ عادٍ حين جَلّلها الرَّمْدُ

«الحاصب . العذاب يكون بالريح الشديدة تحمل الحصباء ، والأصرام : الجماعات

---

(١) الثماد : الماء القليل الذى لامادة له (٢) الضرمة بتحريك الميم : الجمرة أو النار نفسها ، ويقال مابالدار نافخ ضرمة : أى مابها أحد .

من الناس » والرّمادة : الهلاك؛ ومنه قيل: عام الرمادة؛ لأن الناس والأموال هلكت فيه كثيرا[1] ومن أسمائه: أمّ قَشعَم، قال أبو عُبيد: أم قشعم: المَنيّة، ويقال للشيخ الكبير والمُسنّ من النُسور والرّخَم: قشعم، لِطول عمره. وأُمُّ قَشْعَم فى قول زُهير فى معلقته:

فَشَدَّ ولَمْ يُفْزِعْ بُيوتا كثيرةً لَدَى حَيثُ ألقتْ رَحْلَها أُمُّ قَشْعَمِ

قيل: الحرب، وقيل: المنية، وقيل: الضَّبُع، وقيل: العنكبوت، وقيل: الذِلة... ومن أسمائه: أُمُّ اللهَيْم. قال الخليل بن أحمد: أُمُّ اللهَيم: المنية، لأنها تلتهم كل شىء. ومن أسمائه: شَعُوبُ، قال ابن السكّيت: شَعوبُ: اسم المنية، مؤنثة مَعْرفة لا تنصرف وأنشد:

☆ ومَن تَدْعُ يوماً شَعُوبُ يُجِبْها ☆

قال: وإنما سميت المنية شَعوبَ لأنها تَشعَبُ — أى تُفرّق — يقال: شَعَبَ وأشْعَبَ وانْشعَبَ: هَلَك.. ومن أسمائه: الفَوْدُ، فادَ يَفودُ فَوداً: مات، قال لبيدُ بنُ رَبيعةَ يَذكر الحارثَ بن أبى شمر الغَسّانىّ، وكانَ كلُّ مَلك منهم كلما مضت عليه سَنةٌ زادَ فى تاجِهِ خَرَزَةً، يُرادُ بذلك أنْ يُعلمَ عَددُ السنينَ التى ملكها، فأراد أنه عُمِّرَ حتى صارَ فى تاجه خَرزاتٌ كثيرةٌ:

رَعَى خَرَزاتِ المُلْكِ سِتِّينَ حِجَّةً وعِشْرينَ حَتَّى فادَ والشيبُ شَامِلُ

ومن أسمائه: الحِمامُ. يقال نَزَل به حِمامُه: أى مَوتُه وقَدَرُه، منْ حُمَّ كذا أى قُدِّر أنشدَ ابنُ بَرّى لخبّاب بنِ غُزَىّ:

---

(١) عام الرمادة كان سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة من الهجرة أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وأرْمِي بنفسي في فروجٍ كثيرةٍ   وليس لأمرٍ حَمَّهُ اللهُ صارِف

ومن أسمائه : المَنُون ، قيل : المنونُ تكون واحدا وجمعا ، قال أبو ذُؤيب الهذليُّ ...

☆ أمِن المَنُونِ ورَيْبه تتوجَّع ☆

وَمِن جَمْعِه قول عَدى بنِ زيد العبادى :

مَنْ رأيتَ المنونَ خَلَّدْنَ أمْ مَن   ذا عليه مِن أنْ يُضامَ خَفِيرُ

وقال الأصمعيُّ : المنونُ واحدٌ لاجَمعَ له ، فأما قول عدىٍّ بن زيد فعلى معنى العموم والكثرة في الموت ، إذ كان أدهى الدواهي ؛ وقال ابن جني : من أنث المنون ذهب إلى معنى المنيّة ومَن ذَكَّر أراد الدهر ، وسُمّى الدّهر مَنُونا لأنه يذهب بمُنَّةِ الإنسان : أي قُوّته ... ومن أسمائه : المُوتان والمَوْتانُ ، قال صاحب اللسان : المُوتان والمَوتان والمُوات كله : الموت ؛ وفي الحديث : يكونُ في الناس مُوتانٌ كقُعاصِ الغَنم ، فالمُوتان : الموت الكثير الوقوع .

☆ ☆ ☆

ومن صفات المَوت : مَوْتٌ زؤام : أي كريه ، وقيل : عاجلٌ ، وقيل : سَريعٌ مُجْهِزٌ ، والمعنى الأوّل هو الأصحّ ؛ ومن أوصافه أيضاً : مَوْتٌ زُعاف وذُعاف وزُؤاف وجُحَاف ، جُحاف : شديد يذهب بكل شيء يقال : سيل جُحاف وجُراف : يذهب بكل شيء ، وزُعاف وذؤاف وذعاف : سريع وحِيّ ، وقيل : شديد ، ومنها : ماتَ قَعْصًا : أي مَوْتاً وحِيًّا ، ويقال لمن مات نُجاءةً : فَقَسَ يفقِسُ فقُوسا ، وفَطَس يَفطِسُ فُطوساً ، ويقال لَعِقَ إصْبَعَهُ وطَنَّ وتَنَبَّلَ : أي مات ، ويقال أطْلَى الرجُلُ : أي مالت عنقه عند الموت ، ويقال : جَرِضَ بريقه ، وأصلُ الجَرَض : الغُصّة ، والمراد : عانى غَصَص الموت

ومن ذا المثلُ : حالَ الجريضُ دون القَرِيض ، قاله عَبيد بن الأبرص للمنذر حين أراد قتله وقال له : أنشدنى من قولك ، فقال عند ذلك : حال الجريض دون القريض ، «الجريض : الغَصصُ واختلاف الفكّين عند الموت ، والقريض : الجِرّة[1] ـ لأنه إذا غُصّ لم يقدر على قرضِ جِرّته ، والقريض أيضاً : الشِّعْر ، ويقال اسْتأثر الله به ، وانحلّ تركيبُه ، ومَضَى لِمَا خُلِقَ له ، وأتاه ما كان يحْذَر ، وأكل الدهرُ عليهم وشَرِبَ ، وهذا مقلوب ، وإنما هو : أكلوا على الدهر وشربوا ؛ وصَفِر وِطَابه ، ومعناه : أن جِسْمَه خلا من روحه ؛ وأجود وصف للموت قول سيدنا رسول الله : أكثِروا من ذكر هاذِم اللذّات[2] ... ولنجتَزِئ بهذا المقدار[3]

تعظيم أمر الموت

قال الحسن البَصرىّ : إنّ الموتَ قد فضَحَ الدنيا ...

وكان كثيراً مّا يقول : عند الموت يأتيك الخبَر ... وقال له رجُلٌ يوماً إنْ عِشتَ تر مالمْ ترَه ، فقال : إنْ مِتّ تر مالمْ تره ... وفى الأثر : ما رأيتُ منظَراً فظيعاً إلّا والموتُ أعظم منه ...

---

(١) الجرة : مايخرجه البعير وكل ذى كرش ليمضغه ثم يبلعه

(٢) تقرأ هادم بالدال المهملة وبالذال المعجمة ومعناها مزيل الشيء من أصله والرواية بالمعجمة .

(٣) إذا أردت التوسع فى أوصاف الموت وأسمائه فإلى الجزء السادس من المخصص لابن سيده

حثهم على تصور الموت

كان الحسنُ البَصْرىُّ إذا خَوَّف من الموت يقول للشيوخ : الزرْعُ إذا بلغ ما يُصنَع به؟ قالوا : يُحْصَد ، ويقول : للشُّبَّان : يامعشرَ الشُّبّان كمْ من زرع لم يبْلُغْ أدركته الآفة !

وقال بعضُ الْخُلفاء لابن السماك[1] : عِظْنى وأوْجِز ، فقال : اعْلَمْ أنك أوّلُ خليفة تموت ؛ وهذا كما سأل أرْدَشِيرُ بعض الحكماء عن دار بناها وقال : هل ترى فيها عيبا؟ قال الحكيم : نعَم ، عيبا لايمكنك إصلاحه ، فقال وماهو؟ قال : لك منها خَرْجة لاعود بعدها أودَخْلَةٌ لاخروج بعدها ... وقالوا : من ضاق به أمرٌ فليتذكر الموت فإنه يتّسعُ عليه ··· ونحوه : مَن أحسّ بأنه يموتُ فليس ينبغى أن يغْتَمَّ لأمرٍ صَعْبٍ ينزل به .

وشكا رجلٌ إلى سيدنا رسول الله قساوة قلبه فقال صلوات الله عليه : أكثِرْ من ذكر هاذم اللذّات، فإنه ماذكرهُ أحدٌ فى ضيقٍ إلا وسَّعَهُ عليه ولا فى سَعَةٍ إلا ضيّقها عليه ... وقال بعض الصالحين : نِعْمَ نصيحةُ القلب ذِكْرُ الموت، يطرُدُ فضول الأمل، ويُكَفْكِفُ غَرْبَ المُنَى ويهوّنُ المصائب، ويحول بين القلب وبين الطُّغيان ... وقال الحسنُ البَصرى — وقد قعد عند رأس مَيِّتٍ : إن أمرا هذا آخره لأهْلٌ أن يُزْهَدَ فيما قَبْله، وإن أمرا هذا أوله لأَهْلٌ أن يُحذرَ ما بعده ، ونظر الحسن إلى صبيَّة بين جِنازة أبيها تقول : يا أبتِ مِثلَ يومك لم أرَه ، فضمَّها الحسن وقال : أىْ بُنَيَّة ، وأبوكِ مثلَ هذا اليوم لم يره ؛ فبكى الناس ··· ومر علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه بمقابر

(١) هو أبو العباس محمد بن صبيح العابد المحدث المتوفى سنة ١٨٣

الكوفة فقال : السلامُ عليكم أهلَ الديار الموحشة ، والمحالّ المقفرة ، أنتم لنا سَلف ونحن لكم تَبَعٌ ، أما الأزواجُ فقد نُكِحَتْ ، وأما الديارُ فقد سُكِنَتْ ، وأما الأموالُ فقد قُسِمَتْ ؛ هذا خبَرُ ما عندنا ، فما خبَرُ ما عندكم ؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال : أمَا إنهم لو تكلموا لقالوا : إنّا وجدنا خيرَ الزاد التقوى .

استدلال الإنسان

على موته بمن مات من أهله

قال أبو نواس من أبيات قد أوردناها عليك فى باب التقوى :

ألا يا ابنَ الذين فَنُوا وماتوا أمَا والله ما ماتوا لتبقَى

وقال بعض الصالحين : إنّ امْرأً ما بينه وبين آدمَ أبٌ إلا ميّتٌ لمُعْرِقٌ فى الموت ... وقال لبيد :

فإنْ أنتَ لم تَصْدُقْك نفْسُك فانتَسِبْ لعلّكَ تَهديك القُرونُ الأوائلُ

فإنْ لم تجِدْ مِن دونِ عدنانَ باقيا ودُون مَعَدٍّ فلْتَزَعْك العواذل

، وهذان البيتان من قصيدة يرثى بها النعمان بن المنذر ملك الحيرة وأولها :

ألا تسألانِ المرءَ ماذا يُحاوِلُ أنَحْبٌ فيُقْضَى أمْ ضلالٌ وباطل

وفيها يقول :

ألا كلُّ شىءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائل

وكُل أناسٍ سوف تَدْخُلُ بينهم دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ منها الأنامل

وقوله : فإن أنتَ لم تَصْدُقك ... البيت يقول : إنْ لم تَصْدُقْكَ نفسُك عن هذه الأخبار ، بل كذَبَتْكَ ، فانتسِبْ : أى قل : أين فلان بن فلان ، فإنك لا ترى أحدا بقِى ، ولعلك تهديك القرونُ وتُرشِدُك ، وقوله : فإن لم تجد... البيت

فنزعك : تكفك ، والعواذل هنا : حوادثُ الدهر وزواجره ، وقال بعض الشراح : العواذِل : النساء ، يقول : لم يبق لك أبٌ حيٌّ إلى عدنان فكُفَّ عن الطمع فى الحياة ، ومعنى البيتين : إن غايةَ كلِّ حيّ الموتُ ، فينبغى للإنسان أن يتعظ : بأن يَنسُبَ نفسه إلى عدنان ، فإن لم يجدْ مَن بينه وبينه من الآباء باقياً فليعلم أنه يَصير إلى مصيرهم ، فينبغى له أن يَنزِعَ عما هو عليه »

ومثله قولُ امرئ القيس :

فبَعضَ اللَّوْمِ عاذِلتى فإنِّى سيَكفينى التجاربُ وانتِسابى

إلى عِرْقِ الثَّرَى وشَجَتْ عُروقى وهذا الموت يَسلُبُنى شَبابى

«وشَجَتْ : اشتبكت » وقال أبو تمام فى قصيدة له يمدح مالكَ بنَ طوقٍ ويعزيه عن أخيه القاسم :

تأمَّلْ رُوَيْدًا هَلْ تَعُدَّن سالما إلى آدمٍ أم هل تَعُدُّ ابنَ سالمِ

متى تُرْعِ هذا الموتَ عيْنًا بَصيرةً تجِدْ عادِلاً منه شبيهًا بظالمِ

« قوله : متى تُرْعِ البيت يقول : متى أنعمت النظر وأفكرت فى أمر الموت وجدت منه عادلا أشبه بظالم ، وذلك أنه قد يَخترمُ من يكون اخترامُه أصلح له لدى العزيز الحكيم الذى يعلم مصالح خَلْقه وقد يَخفَى عليك وَجْهُ الحكمة فتظُنُّ العدلَ جورا »

وقال البُحترى

وما أهْلُ المنازل غيرُ رَكْبٍ مَنـاياهم رَوَاحٌ وابتِكارُ

لنـا فى الدَّهرِ آمالٌ طِوالٌ نُرَجِّيها وأعمارٌ قِصارُ

والبيت الثانى مثله قول ابن هانئ الأندلسىّ من أبيات يَرْثِى بها والدة يحيى وجعفر ابنىْ علىّ صاحب المَسِيلة بالمغرب ، وهذه هى الأبيات :

صَدَق الفَناءُ وكُذِّبَ العُمُرُ وجَلاَ العِظاتِ وبالَغَ النُّذُرُ
إنَّا ، وَفى آمالِ أنفُسِنا طُولٌ وفى أعمارِنا قِصَرُ
لنَرَى بأعْيُنِنا مَصارِعَنا لو كانتِ الألبابُ تَعتبِرُ
مِمَّا دَهانا أنَّ حاضِرَنا أجْفانُنا ، والغائبُ الفِكَرُ
وإذا تَدَبَّرْنا جوارِحَنا فَأَكَلُّهُنَّ العَيْنُ والنَّظَرُ
لو كانَ للألبابِ مُمْتَحَنٌ ماعُدَّ منها السمْعُ والبَصَرُ (١)
أىُّ الحياةِ ألَذُّ عِيشَتَها مِن بَعدِ عِلْمى أنَّنى بَشَرُ
خَرِسَت لَعمرُ اللهِ ألْسُنُنا لمّا تكلَّمَ فوقَنا القَدَرُ

الاعتبار بمن مات من الكبار

قال عدِىُّ بنُ زيد العِبادىّ :

أيُّها الشَّامِتُ المُعيِّرُ بالدَّهْـ ـرِ أأنت المُبرَّأُ الموْفورُ (٢)
أمْ لَدَيْكَ العهدُ الوَثِيقُ من الأيَّا مِ بلْ أنتَ جاهلٌ مغْرُورُ
مَنْ رَأيتَ المَنُونَ خَلَّدْنَ أمْ مَنْ ذا عليه مِن أن يُضامَ خَفِيرُ (٣)
أينَ كِسْرَى كِسْرَى الملوك أنُوشَرْ وانَ أمْ أين قَبْلَهُ سابورُ (٤)
وبنُو الأصفرِ الكِرامُ ملوكُ الرُّو مِ لم يَبْقَ منهمُ مذكورُ

---

(١) أى ما عد من الممتحنات : السمع والبصر ، لأن السمع يسمع المواعظ فلا يتعظ والبصر يبصر العبر فلا ينزجر

(٢) الموفور : يريد الذى لم تصبه نوائب الدهر

(٣) المنون : المنية أو الدهر كما تقدم

(٤) هناك سابور الجنود وهو ابن أردشير، وسابور ذو الأكتاف وهو سابور ابن هرمز وكلاهما من ملوك العجم قبل كسرى أنو شروان

وأخو الحَضْرِ إذْ بَناهُ وإذْ دِجْـ ـلةُ تُجْبَى إليـه والخابورُ (١)
شـادَهُ مَرْمَرًا وجَلّله كِلْـ ـسًا فللطَّيرِ فى ذُرَاهُ وُكورُ (٢)
لمْ يَهبْهُ رَيبُ المَنونِ فبادَ الـ ـمُلكُ عنه فبابُه مَهْجورُ
وتذكَّرْ رَبَّ الخَوَرْنَقِ إذ أصـ ـبحَ يوما وللهُدَى تفكيرُ (٣)
سَرّهُ حَالُه وكثرةُ ما يمْـ ـلكُ والبحْرُ مُعْرِضًا والسَّديرُ (٤)
فارْعَوَى قلبُه فقـال : وما غِبْـ ـطةُ حَيٍّ إلى المماتِ يَصيرُ
ثمَّ بعدَ الفَلاَحِ والمُلكِ وَالنّعْـ ـمةِ وَارَتْهُمُ هناكَ القبور
ثُمَّ صاروا كأنهم وَرَقٌ جَـ ـفَّ فألوَتْ به الصَّبَا والدَّبور (٥)

ومما كان يصح أن يذكر فى هذا الباب مرثية الوزير الشاعر الأندلسى عبد المجيد ابن عبدون التى يرثى بها بنى الأفطس ـ من ملوك الطوائف بالأندلس ـ وذكر فيها عدّة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فما وَجدوا جُنَّةً تقيهم من وثباته ، ودبت عليهم الأيام بصروفها ، وسقتهم

(١) الحضر : قصر كان بجبال تكريت بين دجلة والفرات ، وأخو الحضر كان صاحب تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة : وله حديث طريف انظره فى الأغانى ج ٢ فى ترجمة عدى بن زيد طبع دار الكتب ، والخابور . اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة

(٢) الكلس : الصاروج أى النورة وأخلاطها تطلى بها المنازل وغيرها، وذراه : أعاليه ، والوكور : جمع وكر: العش

(٣) صاحب الخورنق ـ وهو القصر الذى بناه سنمار ـ هو النعمان بن امرئ القيس عامل يزدجرد بن سابور على أرض العرب وله قصة انظرها فى الأغانى وهو الذى ساح على وجهه فلم يعرف له خبر

(٤) معرض بمعنى متسع ومنه أعرض الثوب أى اتسع وعرض ، والسدير : نهر

(٥) ألوت به : ذهبت به

المَنِيّة بكأس حُتوفها ، ومطلعها :

الدَّهْرُ يَفْجَع بَعْدَ العَينِ بالأثَر فما البُكاءُ على الأشباح والصُّوَر

بيد أنا لِطولها رأينا أن نضرب عن إيرادها هنا صفحا ، وتراها فى المجلد الخامس من نهاية الأرب للنويرى الذى قامت بطبعه دار الكتب المصرية ... وقد شرحها ابن بدرون ، ومن أبياتها :

فلا تَغُرَّنْكَ مِنْ دُنياك نَوْمَتُها فما صِناعةُ عينَيْها سِوَى السَّهَرِ

ماللَّيالى — أقالَ اللهُ عَثْرَتَنا مِن اللَّيالى وخانَتْها يدُ الغِيَرِ

فى كلِّ حِينٍ لها فى كل جارِحَةٍ منا جِراحٌ وإن زاغتْ عنِ البَصَرِ

تَسُرُّ بالشيءِ لكِنْ كىْ تَغُرَّ به كالأيْمِ[1] ثارَ إلى الجانِي من الثَّمَرِ

وقال المتنبي :

أبَنِي أبِينا نحنُ أهْلُ مَنازِلٍ أبَدًا غُرابُ البَيْنِ فيها يَنْعِقُ

نَبْكِى على الدُّنيا وما مِنْ مَعْشرٍ جَمَعَتْهُم الدنيا فلمْ يَتفرّقُوا

أيْنَ الأكاسِرَةُ الجبابرةُ الأُلَى كَنَزُوا الكُنوزَ فما بَقِينَ ولا بَقُوا

مِنْ كلِّ مَنْ ضاقَ الفضاءُ بجَيْشِه حتى ثَوَى فحَوَاهُ لَحدٌ ضَيِّقُ

خُرْسٌ إذا نُودُوا كأنْ لمْ يَعْلَموا أنَّ الكلامَ لهمْ حَلالٌ مُطْلَقُ

والموْتُ آتٍ وَالنُّفوس نَفائِسٌ والمُسْتغِرُّ بما لَدَيْهِ الأحْمَقُ

والمرْءُ يأْمُلُ ، والحياة شَهِيّةٌ والشَّيْبُ أوْقَرُ ، والشَّبيبةُ أنْزَقُ

« أبَنِى أبينا : يا إخوتنا ، يابنى آدم ، وأراد بغراب البين : داعى الموت يقول : نحن نازلون فى منازل يَتفرّق عنها أهلُها بالموت ، فقوله : نبكى على

(١) الأيم : الأفعى .

الدنيا ... ألبيت مثله قول جرير يرثى امرأته :

لا يَلْبَثُ القُرَناء أَنْ يَتفرّقوا ليلٌ يَكُر عليهم ونَهارُ

وثوى ـ بالمثلثة : أقام فى القبر ؛ وبالمثناة : هلك ، وهذا البيت من قول أشجع :

وأصبحَ فى لَحدٍ مِن الأرض ضَيِّقٍ وكانت به حَيًّا تَضِيقُ الصحاصح

« الصحاصح جمع صحصح : وأصله ما استوى من الأرض وكان أجرد »

والمستغر : المغرور ، يقول فى هذا البيت : النفوس يأتى عليها الموت وإن كانت عزيزة نفيسة لا يمنعه ذلك من أخذها ، والأحمق هو المغرور بالدنيا وبما يجمعه فيها ، أما العاقل فإنه لا يغتر بما جمعه لعلمه أنه لا يبقى هو ولا ماجمعه ، وقوله : والمرء يأمل ... ألبيت يقول : المرءُ يَرجو الحياةَ لِطيبها لَدَيْه ، والشيبُ أكثرُ له وقاراً من الشّباب ، يعنى : أن المرء يكرهُ الشيبَ ويُحِبُّ الشباب والشيبُ خيرٌ له ، لأنه يُكسِبُه الحلم والأناة والوقار ، والشبابُ شر له ، لأنه يَحمِلُه على الطيش والنزَق والحُمق ، وقال الشاعر :

رُبَّ قومٍ عَبَرُوا من عيشِهم فى نعيمٍ وسرورٍ وغَدَقْ
سكَت الدهرُ زمانا عنهُمُ ثم أبكاهم دمًا حين نَطَقْ

« الغدق المراد به الخصب والسعة » وقال مالك بن دينار :

أتيتُ القُبورَ فناديتُهنَّ أينَ المعظَّم والمحتقَرْ
وأين المُدِلُّ بِسلطانِه وأينَ المُزَكَّى إذا ماآفتخَرْ

قال : فنوديتُ من بينها ولا أرى أحدا :

تفانَوْا جميعاً فما مُخبِرٌ وماتوا جميعا ومات الخبَرْ
تَرُوحُ وتغدُو بَناتُ الثَّرَى وتَمْحُو محاسِنَ تلك الصُّوَرْ
فياسائلى عن أناسٍ مَضَوْا أمالَكَ فيما ترى مُعتَبَرْ!

« بنات الثرى : الدود » ...

ونزل النُعمانُ بنُ المنذر ومعه عديُّ بنُ زيد العِبَادىُّ فى ظِلِّ شجرة عظيمة ليَلْهُوَا ، فقال له عدىّ : أتَدْرى ماتقولُ هـذه الشجرة ؟ قال : لا ، قال : تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخُوا حَوْلَنا يَمْزُجُونَ الخمرَ بالماء الزُلالِ
ثمَّ أضحَوْا عَصَفَ الدهرُ بهم وكذاكَ الدهرُ حالًا بعد حالِ

ونظَرَتِ امرأةٌ إلى جعفر بن يحيى البَرْمكى وزير الرشيد ، وهو مصلوب فقالت : لئن كنتَ فى الحياة غايةً فلقد صِرتَ فى المماتِ آية ... ولما ماتَ الإسْكَنْدَرُ المقدونىُّ وقَفَ عليه أرِسْطو الفيلسوف فقال : طالَمَا كان هذا الشخْصُ واعظا بَليغًا ، وما وَعَظ بمَوعِظَةٍ فى حياتِه أبلغَ من عِظَتِه فى مَماتِه ، أخَذَ هذا المعنى أبو العتاهية فقال :

وكانت فى حياتِكَ لى عِظَاتٌ وأنْتَ اليومَ أوعَظُ منكَ حيًّا

من مات فَقَدْ تناهَى فى البُعدِ

قال النابغةُ الذُبيانىُّ :

حَسْبُ الخَليلَيْنِ نأىُ الأرضِ بينَهما هذا عليها وهـذا تحتَها بالِى

وقال أبو حيَّةَ النميرىّ :

فلا غائبٌ من كان يُرجَى إيابُه ولكنَّه مَن ضُمِّنَ اللَّحدَ غائبُ

غفلة الناس عن الموت

قال أبو العتاهية :

النـاسُ فى غفلاتِهم ورَحى المَنيّةِ تَطْحَنُ

وقال الحسن البصرىُّ : مارأيتُ يَقِينا لاشَكَّ فيه أشبَه بشَكٍّ لايقين فيه مِثلَ الموت « وقد تقدم » وقال عمرُ بنُ عبد العزيز فى خطبةٍ له : ماهذا التغافُلُ عمّا أُمِرتُم به ، والتسرُّعُ إلى ما نُهيتُم عنه ! إن كنتُم على يقينٍ فأنتم حَمْقَى ، وإن كنتم على شَكٍّ فأنتم هَلْكى ...

وقال شاعر :

ونأمُلُ من وعْدِ المُنَى غيرَ صادِقٍ ونأمَنُ من وعْدِ المَنَى غيرَ كاذِبِ

نُراعُ إذا ماشِيكَ إخمَصُ بعضِنا وأقدامُنا مابين شَـوكِ العَقارِبِ

« المُنَى : جَمع المُنْية وهو مايتمنّاه المرء ، والمَنَى : الموت ، وأصله القدَر تقول : مَنَى اللهُ لكَ مايسرُّك : أى قدر الله لك مايسُرُّك . ويسمى الموت بالمَنَى لأنه قُدِّر علينا » وقيل : مَن لم يَرتدِعْ بالموتِ وبالقرآن ثم تناطَحتِ الجِبالُ بين يدَيْهِ لم يرْتدِع .

لا ينجو من الموت أحد

قيل : من لم يَمُتْ عاجلا ماتَ آجِلا ؛ وقال أُميَّةُ بن أبى الصّلتِ :

مَنْ لمْ يَمُتْ عَبْطةً يمُتْ هَرَمًا للموْتِ كأْسٌ والمرءُ ذائقُها

مالَذّةُ النفسِ فى الحياةِ وإنْ عاشتْ قليلا فالموت لاحِقُها

يَقودُها قائدٌ إليــه ويَحْــدُوها حَثِيثاً إليــه سائقُها

« يقال : مات فلانٌ عَبطةً : أى شاباً، وقيل : شابًّا صحيحا، وأصل العبيط من اللحم : ماكان سليما من الآفات ويقال : عَبَط الشاة والناقةَ وكلَّ دابّةٍ : نَحَرها أو ذبحها من غير داء وهى فتيّةٌ »

وقيل لابن المقفّع : قد كنتَ نُعيتَ لنا ! فقال : مابعُدَ كائن ولا قرُبَ بائن ... وقال ابن المعتز :

أَلَا إنما جِسْمِي لِرُوحي مَطِيَّةٌ ولا بُدَّ يوماً أن يُعَرَّى مِنَ الرَّحْلِ

« الرحل : المنزل، و السرج يوضع على ظهر الدابة، وعُرِّى منه نُزِع عنه وهذا على المثل » وقال محمود الورّاق :

وماصاحِبُ السّبعينَ والعشْرِ بعدها بأقْرَبَ مِمَّن حَنَّكَتْهُ القوابلُ
ولكِنَّ آمالا يُؤَمِّلُها الفتَى وفيهنّ للراجِينَ حَقٌّ وباطِلُ

« القوابل جمع قابلة : المرأة تتلقى الولد لدَى الولادة « المولّدة » وحنّكته فالتحنيك : أن تمضَغَ التّمرَ ثمّ تَدْلُكَه بحَنَكِ الصبي داخِلَ فمِه » ...

وقال المتنبي :

وأوْفَى حَياةِ الغابِرِينَ لصَاحِبٍ حَياةُ امرئٍ خانَتْهُ بعد مَشِيبِ

« يريد المتنبي : أن الحياةَ وإن طالت فهى إلى انقضاء، يقول : أوْفى عُمر أن يَبقى حتى المشيب ثم يخونُه عُمْرُهُ بعد ذلك، وقصاراهُ الموت، أو تقول : إذا عاش المرءُ إلى بلوغ المشيب ثم خانته حياته يومئذ فقد تناهت فى الوفاء »

ومرّ شيخ من العرب بِغلام فقال له الغلام : أحْصَدْتَ ياعمّاه، فقال : يا بُنَيّ، وتُخْتَضَرون « أحصدت : آن لك أن تُحصَدَ، وتختضرون : تموتون خُضْراً فى شبابكم »

الموت لا يتحرز منه بشيء
ولو كان الطِّبّ

قال المتنبي :

يموتُ راعى الضأنِ فى جَهْلِهِ مَوْتَةَ جالينُوسَ فى طِبِّهِ
ورُبَّمَا زَادَ على عُمْرِه وزاد فى الأَمْنِ على سِرْبِهِ (١)

وقبل هذين البيتين :

لا بُدَّ لِلإِنسانِ مِن ضَجْعةٍ لا تَقْلِبُ المُضْجَعَ عن جَنْبِهِ (٢)
يَنْسَى بها ما كان مِنْ عُجْبِهِ وما أذاقَ الموتُ مِن كَرْبِهِ (٣)
نحْنُ بنو الموْتَى فما بالُنا نَعافُ ما لا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ (٤)
تَبْخَلُ أيدينا بأرْواحِنا على زمانٍ هىَ من كَسْبِهِ (٥)
فهذه الأرْوَاحُ مِنْ جَوِّه وهذه الأجسامُ من تُرْبِهِ (٦)

(١) السرب : النفس (٢) لابد للإنسان من اضطجاع فى القبر يبقى بتلك الضجعة لا يقلبه ذلك الاضطجاع إلى يوم البعث .

(٣) إذا نزل القبر نسى الإعجاب وما ذاق من شدة الموت ، وهكذا الميت .

(٤) نحن بنو الأموات والموت كأس مدارة علينا ولابد لنا من شربها فما بالنا نكرهها ! فكما مات آباؤنا فنحن على آثارهم . كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أصحابه يعزيه فى أبيه : أما بعد ، فإنا أناس من أهل الآخرة سكنا فى الدنيا ، أموات ، آباء أموات ، أبناء أموات ، فالعجب لميت يكتب إلى ميت يعزيه عن ميت ...

(٥) تبخل أيدينا بأرواحنا وتمسك بها بخلا بها على الزمان والأرواح مما أكسبه الزمان ! قال حكيم : إذا كان تناشؤ الأرواح من كرور الأيام فما لنا نعاف رجوعها إلى أماكنها !

(٦) الإنسان مركب : من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، فالأرواح من الجو والهواء ، والأجسام من التراب ، وكل عنصر عائد إلى عنصره

لَوْ فَكَّرَ العاشقُ فى مُنْتَهى حُسْنِ الذى يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ [١]

لَمْ يُرَ قَرْنُ الشمْسِ فى شَرْقِهِ فَشَكَّتِ الأنفس فى غَرْبِهِ [٢]

إلى أن قال بعد البيتين المذكورين آنفا :

وغايةُ المُفرِط فى سِلْمِه كغايةُ المُفرِطِ فى حَرْبِهِ [٣]

فلا قَضَى حاجتَه طالبٌ فؤادُه يَخْفِقُ مِن رُعْبِهِ [٤]

وقيل للربيع بن خُثَيم فى مَرَضِه : ألا ندعو لكَ طبيبا ؟ قال : أَنْظِرُونى ، ثم فكَّر فقال : وعادًا وثَمُودَ وأصحابَ الرَّسِّ وقُرونًا بين ذلك كثيرًا ، لقد كان فيهم أطِبّاءُ ، فما أرَى المُداوِى بَقِىَ ولا المُداوَى صَلُح ....

ودخل الفَرَزدَقُ على مريض يعودُه فسَمِعَه يطلب طبيبا فقال :

ياطالِبَ الطِّبِّ مِن داءٍ تَخَوَّنَهُ إن الطبيبَ الذى أَبْلاكَ بالداءِ

هو الطبيبُ الذى يُرْجَى لِعافيَةٍ لامَن يَدُوفُ لك التِّرْياقَ بالماءِ

« الذى أبلى المريض بالداء والذى يرجى لعافية : هو الله عز وجل . ويدوف : يخلط . وتخوّنه : غيّر حاله إلى أسوأ منها ، ويروى : تخونه والترياق : الدواء هنا ، وأبلاه : صنع به مايمتحن به ويختبر

---

(١) العاشق للشىء المستهام به لو أفكر فى منتهى حسن المعشوق وأنه يصير إلى زوال لم يعشقه ولم يملك عشقه إياه عليه أمره . وهذا يطرد فى كل شىء

(٢) لابد من الفناء فالشمس من رآها طالعة علم أنها غاربة لامحالة، كذلك كل شىء مصيره إلى الزوال .

(٣) إن الذى أفرط وجاوز الحد فى السلم كالذى أفرط وجاوز الحد فى الحرب ، الكل إلى فناء وإذن لا عذر لمن يجزع قال حكيم : آخر إفراط التوقى أول موارد الحتوف

(٤) من خاف الموت لاأدرك حاجته ، يدعو المتنبى على الجبان ـ لأنه إذا كان الهلاك متيقناً فلم يخاف الإنسان من الموت ويجزع فزعاً منه !

وقال ابن الرومى :

غَلِطَ الطبيبُ علىَّ غلْطَةَ مُورِدٍ ... عجزَتْ مَوارِدُه عن الإصدارِ
وَالناسُ يَلْحَوْنَ الطبيبَ وَإنما ... غَلَطُ الطبيبِ إصابةُ المِقدارِ (١)

وقال أبو ذُؤَيْب الهُذَلى :

وإذا المَنِيَّةُ أنشبَتْ أظفارَها ... ألْفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنفَعُ

وقال علىُّ بن الجَهم :

كَمْ مِنْ عَليلٍ قد تخطَّاهُ الرَّدَى ... فنَجا وَماتَ طبيبُه والعُوَّدُ

وقد أخذ هذا من قول عدىّ بن زيد :

أينَ أهْلُ الدِّيارِ من قومِ نُوحٍ ... ثُمَّ عادٌ مِن بَعدهم وثَمُودُ
بَيْنَمَا هُمْ على الأسِرَّةِ وَالأنْـ ... ـماطِ أفضتْ إلى التُّرابِ الخدودُ
ثمَّ لمْ يَنقَضِ الحديثُ وَلكِنْ ... بَعْدَ ذَا الوعْدُ كُلُّهُ وَالوَعِيدُ
وَأطِبَّاءُ بَعدَهُم لحِقُوهُم ... ضَلَّ عَنهُم سَعُوطُهُمْ واللَّدُودُ
وَصَحِيحٌ أضحَى يَعودُ مَرِيضًا ... وهو أدْنَى لِلمَوتِ مِمَّن يَعودُ

« السَّعوط : الدواء الذى يُؤخذُ من الأنف ، واللدود : مايؤخذ من الدواءِ بالمِسْعَط ويُصبُّ فى أحد شِقَّى الفم » ويُرْوَى : أنَّ عبدَالملك بنَ مَرْوانَ هَرَبَ من الطاعون ، فرَكبَ ليلا وأخْرَج غلاماً معهُ ؛ وكان ينامُ على دابَّتِه ، فقال للغُلام : حدِّثنى ، فاقل وَمَن أنا حتَّى أُحدِّثك ! فقال : على كلِّ حال حدِّث حَديثاً سَمِعْتَه ، فقال : بلغنى : أنَّ ثعلباً يخدُمُ أسَدًا ليَحْمِيَهُ ويمنَعَهُ مِمَّن يُريدُه فكان يحميه ، فرأى الثعلب عُقَاباً ، فلَجأ إلى الأسد ، فأقعدَهُ على ظَهْره ، فانقضَّ العُقابُ واختلسهُ ، فصاح الثعْلبُ : يا أبا الحارث ، أغِثْنى واذكرْ عهدَكَ لِى

(١) يلحون : يلومون ، والمقدار : القدر

فقال الأسدُ : إنما أقدر على منْعك من أهل الأرض ، وأمَّا أهلُ السماء فلا سبيل لى إليهم ، فقال عبدُ الملك : وَعَظْتَنى وأحسنت ، انصرفْ ورَضِى بالقضاء...

ولمناسبة الهرب من الطاعون نورد هنا ماأوردنانظيرَه فى قوْلِناعلى التَّوكل ، وهو أن عُمَرَ بنَ الخطاب رضوانُ الله عليه لمَّا بلغَهُ أن الطاعونَ وقع بالشام فانصرَف بالناس : قال له أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاح : أفِرارًا مِن قدر الله يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال عمر : لَوْ غيرُك قالها يا أبا عبيدة ! نعم نَفِرُّ من قَدَر الله إلى قدر الله ؛ أرأيت لو أنَّ لك إبلا هَبَطْتَ بها واديًا له جِهتان إحداهما خصيبة والأخرى جَديبَة ، أليسَ لو رَعَيْتَ فى الخصيبة رعَيْتَها بقدرِ الله ، ولو رعيْتَ الجديبة رعيتها بقَدَر الله ؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائبا فأقبل ، فقال : عندى فى هذا عِلمٌ سَمِعتُهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إذا سمعتمُ به ـ بالطاعون ـ فى أرض فلا تَقدَموا عليها ، وإذا وقع فى أرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فِراراً منه ، فحمِد اللهَ عُمرُ ثم انصرف بالناس . . .

وقال المتنبي :

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ والعَوالِي ... وتَقْتُلُنا المنونُ بِلا قِتالِ
ونَرْتَبِطُ السوابِقَ مُقْرَباتٍ ... وَمَا يُنجِينَ من خَبَبِ الليالى
وَمَن لم يَعْشَقِ الدنيا قديما ؟ ... ولكن لاسبيلَ إلى الوصالِ

«المشرفية : السيوف ـ ، والعوالى : الرماح ، والمنون : الموت ، والسوابق جمع سابق وسابقة ، والمُقْرَبات من الخيل هى الكرامُ التى تُرتبط لكرامتها على أصحابها أو لِفَرطِ الحاجةِ إليها والخبب : عَدْوٌ لا يَسْتَفْرِغُ الجهد ؛ يقول المتنبي : نحن نُعِدُّ السيوف والرماح لمنازلةِ الأعداء ومُدافعة الأقران : والموتُ يخترمُ نُفوسنا

دُون قِتال أو نزال، لا يُمكِننا حِذارُه ولا يتهيأ لنا دفاعُه، ثم قال فى البيت الثانى: ونرتبطُ الخيولَ الكريمةَ ومَعَ هـذا لا تُنْجينا مِن طَلب الدهر إيانا وخَبَب لياليه فى آثارنا:

كأننا فى حُروبٍ مِن حَوادثه فَنَحْنُ مِن بين مَجْروحٍ ومطعونِ

وقد تقدم معنى البيت الثالث.

موت الفجاءة والصحيح يموت

قيل لأعرابىّ: ماتَ فلانٌ أصحَّ ما كان! فقال: أو صحيحٌ مَن الموتُ فى عُنُقه! وكان الحسنُ البصرىُّ يقول فى دُعائه: اللّهُمَّ أجِرْنى مِنْ أن أكُون مُخْتلساً «أى يختلسهُ الموت على غفلة» وفى الحديث: بادروا بالأعمال مَرَضا حابسًا أو مَوتا خالسًا، وقيل لأعرابى: كيف ماتَ أبوك؟ قال: مات سِرًّا «أى فَجْأةً» وقال الشاعر:

ورُبَّما عُوفِصَ ذو غِرَّة أصَحَّ ماكانَ وَلمْ يَسْلَمِ

«يقال: غافص الرجلَ مُغافصة وغِفاصا. أخذه على غِرَّة فركِبَهُ بِمَساءَة»

وقيل لرجُلٍ: ماكانَ سببُ موتِ فُلانٍ؟ قال: كَوْنه «أى وُجُوده» والبيت المشهور فى هذا:

مَن لمْ يمُتْ بالسيفِ مات بغَيْرِه تَنَوَّعَتِ الأسبابُ والموتُ واحِدُ

كل إنسان مُعَرَّض لموته أو موتِ أحبته

قال حكيم: من طال عُمُرُه رأى المصائبَ فى إخوانِه وجيرانِه، ومن قَصُرَ عُمُرُه كانت مصيبتُه فى نفسِه؛ وقال الشاعر:

فمُؤَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى فى أَهْلِه ومُعَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى فى نَفْسِه

وقال يزيدُ بن الحكَمِ الثَّقَفِىُّ :

كلُّ امرئٍ سَتَئِيمُ مِنْـه العِرْسُ أو منها يَئِيم

« العرس : الزوجة ، وآمَت المرأة من زوجها تَئِيمُ وتأيَّمَتْ مات عنها زوجها أو قُتِل وأقامت لا تتزوّج ، وكذلك الرجل » ......

جهل الإنسان بوقت موته

قال الله جل شأنه : وما تَدْرِى نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غداً وما تَدْرِى نفسٌ بأىِّ أرضٍ تموت ... وقيل لجعفر بن محمد بن على رضى الله عنهم : كيف يأتى الموتُ مِن وُجوهٍ شَتَّى ، على أحوالٍ شتى ؟ فقال : إنّ الله أراد أنْ لا يُؤْمَنَ فى حالٍ ... وقالوا : أمْرٌ لا تَدْرِى مَتَى يغشاك ألَا تَسْتَعِدُّ له قبل أنْ يَفْجَأَك ! وقال دِيكُ الجِنّ [(١)]

والناسُ قد عَلِموا أن لا بَقاءَ لهم لو أنهم عَمِلوا مِقْـدارَ ماعَلِمُوا

الموت يسوّى بين الأفاضل والأراذل

قال المتنبى فى رثائه أبا شجاع فاتكا :

(١) هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن من شعراء الدولة العباسية ولد سنة ١٦١ هـ وتوفى سنة ٢٣٦ ومن قوله فى الخمر وقد أعجب به أبو نواس :

ظَلِلْنا بأيدينا نُتَعْتِعُ رُوحَها فتأخُذُ مِن أقدامِنا الراحُ ثارَها

مُوَرَّدة مِن كَفِّ ظَبْىٍ كأنما تناوَلَها مِن خَدِّه فأدارَها

وَصلتْ إليْك يدٌ سَواءٌ عِندَها   ألبازُ الأشهَبُ والغُراب الأبْقَعُ

« البازُ الأشهب : الذى غَلَب عليه البياض ، والأبقع : الذى فى صدره بياض يقول المتنبي : وصلت إليك يَدٌ - يريد المنية - الشريف والوضيع لديها سـواء ، فِعلُها مع الباز الأشهب مع كرمه كفعلها بالغراب الأبقع مع قُبحه ودَمامته ، وهذا على المَثَل » ... ويُرْوَى أنّ الإسكَنْدَرَ المقدونىّ مَرّ بمدينة قد مَلَكَها غيرُه من الملوك ؛ فقال : انظروا هل بَقِىَ بها أحدٌ مِن نَسْلِ ملوكِها ؟ فقالوا : رَجلٌ يَسْكُنُ المقابر ، فأَحْضرَه وسأله عن إقامتِه هذه ؛ فقال : أردتُ أن أُميّزَ عِظامَ الملوك من عِظامِ عَبيدهم فوجدْتُها سـواءً ، فقال : هلْ تَتْبعُنى فأُحْيي لك شرَفك إن كان لك همّةٌ ؟ فقال : هِمّتى عظيمةٌ إن أنالتَنيها ، فقال : ماهى ؟ قال : حياةٌ لا مَوتَ معها ، وشبابٌ لاهَرَم معه ، وَغِنًى لا فَقْرَ معه ، وسُرورٌ لامكْروهَ فيه ، فقال : ليس عندى هذا ، فقال : دَعْنى ألتمسه ممّنْ هو عنده ، فقال : مارأيتُ مثلَه حكيما ؛ ... وقال مالِكُ بن دينار : قَدِم علينا بِشْرُ بنُ مروانَ أخو الخليفة — عبد الملك بن مروان — فطُعن - أصابه الطاعون - فمات فأخرجناه إلى القبرِ ، فلما صِرْنا إلى الجَبّانِ - الجَبَّانةِ - إذا نحنُ بسُودانٍ يَحْمِلون صاحبًا لهم إلى القبر ، فدفنّاه ودَفنوا صاحبَهم ، فعُدْتُ قبل الأسبوع فلم أعرِفْ قبْرَ الأسْوَدِ من قبرِه ؛ وفى هذا يقول الشاعر :

ولقد مررْتُ على القبور فما   ميزْتُ بين العَبْدِ والمَولى

وقال صالح بن عبدِ القدوس :

فيامنزِلاً سَوّى البِلَى بين أهْلِه   فلم يَسْتَبِنْ فيه الملوك من السُّوَق

انقضاء ناس بعد ناس

ورُجوعهم إلى الموت

قال عليّ كرّم الله وجهه : إنّ لله في كلّ يومٍ ثلاثَ عساكرَ : عسكرٌ ينزِلُ من الأصلاب إلى الأرحام، وعسكرٌ ينزل من الأرحامِ إلى الأرضِ، وعسكرٌ ينتقِلون من الدنيا إلى الآخرة ؛ [1] وقال الشاعرُ :

وما نحنُ إلا رُفقةٌ غيرَ أننا أقمْنا قليــلا بعدَهم ونَرُوحُ

وقال آخر :

إذا زُرْتُ أرضاً بعدطُولِ اجْتِنابِها فقَـدْتُ صديقا والبلادُ كما هِيَا

وقال : ✿ أرَى الأرضَ تَبْقَى والأخِلّاءُ تَذْهَبُ ✿

وقيلَ للبُهْلُول [2] ـ وقد أقبل من الجَبَّانِ ـ : مِن أيْنَ ؟ فقال : مِن عسكر المَوتى ، فقيل ماقلت وما قالوا ؟ فقال: سألتُهم : متى يَرحَلون ؟ فقالوا : نَنْتَظِر قدومَكم ثم نرتحِل ... ورَوَوْا : أن راهِبَيْنِ دخلَا البَصرةَ من ناحيةِ الشام فنَظرا إلى الحسنِ البصريّ ، فقال أحدهما : مِلْ بِنا إلى هذا الذى كأنّ سَمْتَه سَمْتُ المَسيح ، فعَدَلا إليه ، فألفَياهُ مُفْـترشا بِذَقَنِه ظاهِرَ كَفِّه وهو يقول : ياعجبا [3] لقوم قد أُمِرُوا بالزّاد وأُذِنوا بالرَّحيل ، وأقام

---

(١) العسكر : الجماعة من كل شيء يقال : عسكر من رجال ومن خيل

(٢) كان البهلول هذا مجنونا ممرورا وكان ظريفا وكان يتشيع ، قال له قائل : اشتم فاطمة وأعطيك درهما فقال . بل أشتم عائشة وأعطنى نصف درهم ا ومرّ به بعضهم وهو يأكل خبيصا ، فقال له : أطعمنى ، فقال : ليس هو لى ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة بعثته إلىّ لآكله لها ...

(٣) ياعجبا : لك أن تقرأه بالتنوين وبدونه أما بدونه فإنه يريد : ياعجبي فقلب ياء المتكلم

أوَّلُهم على آخرهم ، فليْتَ شِعرى ماذا ينتظرون ! وفى رواية أخرى هذه الزيادة بعد قوله : وأقام أوّلهم على آخرهم : وآخِرُهم قُعود يلعبون » قوله : أُمِروا بالزاد يعنى زاد الآخرة ، وهو العمل الصالح ، وقوله : وأُذنوا بالرحيل : أذنوا : أُعلِموا ، والرحيل يريد به الموت ، وقوله : وأقام أولهم على آخرهم : لعله يريد : أن أولهم يرضى فعل آخرهم فلم يُنْكِرْ عليه ، ولعله يريد أن موت أولهم كان يجب أن يكون عبرة لآخرهم ، ومن المشهور فى هذا أبيات قُسّ بن ساعدة الايادى :

فى الذّاهبِـينَ الأوّلِـينَ من القُرونِ لنا بَصائرْ
لمَّا رأيْتُ مَـوارِدًا للموتِ ليس لها مَصادِرْ
ورأيتُ قـومى نحوها يَمْضى الأصاغِرُ والأكابِرْ
لا يَرْجِعُ الماضى إلىَّ ولا من الباقِينَ غابِرْ
أيْقَنْتُ أنى لامحـا لةَ حيثُ صار القومُ صائرْ

« فى الذاهبين : متعلق ببصائر فى آخر البيت ، وبصائر : عِبَر ، والقرون جمع قرن والقرن من الناس : أهل كل زمان ، قال :

إذا ذهبَ القَرْنُ الذى أنت فيهمُ وخُلِّفْتَ فى قرنٍ فأنت غريبُ

ولعله مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمانِ فى أعمارهم وأحوالهم ، ومن هنا اختلفوا فى تحديد القرن من الزمان فقيل : أربعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل مائة سنة ، والموارد جمع مورد وهو :

ألفا وأما بالتنوين فلك أن تجعل عجبا منادى منكراً ، ولك أن تجعل «يا» حرف تنبيه وعجبا مصدر منصوب بفعل محذوف أى تعجبوا عجبا وأن تجعل «يا» حرف نداء والمنادى محذوف أى ياقوم ، وعجبا كذلك ...

محلُّ الورود ، أى الاتيان ، والمصادر جمع مصدر ، وهو : موضع الصدور ، أى الانصراف والرجوع ، وغابر اسم فاعل من غَبَر بمعنى : مَكَثَ وبَقِى ، وبمعنى : مضى أيضا ، فهو من الأضداد »

من يخاف الموت ولا يَستعدّ له

وحثّهم على تَعاطى مايهوِّن أمرَ الموت

جاءَ رجلٌ إلى سيدنا رسول الله فقال : يانبىَّ الله ، مالى لاأُحِبُّ الموت؟ فقال له : هل لك مالٌ ؟ قال : نعم ؛ قال : قَدِّمه بين يديك ؛ قال : لاأُطِيقُ ذلك ، فقال سيدنا رسول الله : إنَّ المَرءَ مع ماله إنْ قدَّمَه أحبَّ أن يلحَقَ به وإن أخَّرَه أحبَّ أن يتخلَّف معه ... وقال الحسن البصرى لشيخ فى جنازة:[1] أتُرى هـذا الميِّت لورجع إلى الدنيا أكان يعمل صالحا ؟ قال : نعم ، قال : إن لم يكن ذاك فكن أنت ذاك ... وقال القاضى أبو الحسن علىّ بن عبد العزيز الجرجانى :

إذا قلت لم يبلغْ بِىَ السِّنُّ مَبلغا ... وُعِظْتُ بطِفْلٍ صار قَبلى إلى التُّربِ

وقال على رضى الله عنه لرجل : كيف أنتم ؟ قال : نرجو ونخاف ، قال : من رَجَا شيئا طلبَه ومَن خاف شيئا هرَبَ منه ... وقال أبو الدَّرداء : العجبُ

(١) قال علماء اللغة : الجنازة بكسر الجيم : السرير محمولا عليه الميت : أما بفتح الجيم فالميت قال أبو على الفارسى : لايسمى جنازة ـ بالكسر ـ حتى يكون عليه ميت وإلا فهو نعش أو سرير قال الليث : وقد جرى فى أفواه الناس جنازة بالفتح والنحارير ينكرونه ، وقال بعضهم إن اللفظ نبطى وقال آخرون : إنه مشتق من جنز الشىء يجنزه جنزا ستره وذكروا أن النوار امرأة الفرزدق لما احتضرت أوصت أن يصلى عليها الحسن البصرى فقيل له فى ذلك فقال : إذا جنزتموها فآذنونى

لمن يَكْرَهُ الموت لإساءته ولا يَكرهُ الاساءةَ في حياته ! ... وقال رجل لأبي الدرداء : مابالنا نَكرَه الموت ! قال : لأنكم أخرَبتم آخِرتَكم وعمَّرتم دُنياكم فكرِهتم أن تُنقَلوا من العُمران إلى الخراب ... وقال أبو حازم : كلُّ عَمَلٍ تكرَهُ الموت لأجله فدَعْه كيلا تخاف منه متى أتاك ...

من أمر ذويه بالبكاء عليه

رُوى عن سيدنا رسول الله : إنّ الميّتَ لَيُعَذَّبُ ببكاء أهله عليه ... « قال العلماء : أراد صلوات الله عليه إذا وصَّى الميتُ بذلك وأمَرَ به على نحوما كان يفعل أهلُ الجاهلية ، كقول طرَفة بن العبْد :

إذا مِت فانْعَيْنى بما أنا أهْلُه وشُقّى علىَّ الجيبَ ياابنةَ مَعْبَدِ[1]

وقول الفرزدق :

إذا مِت فانعَيْنى بمَا أنا أهله فكلُّ جميلٍ قُلْتِ فِىَّ مصدَّق

وقول ابن المعتزّ :

إذا مِتّ فانْعَيْنى بمـا أنا أهـلُه ولا تَدْخَرِى دَمْعًا إذا قام نائحُ
وقولِى : توَى طودُ المكارمِ والعُلَى وعُطِّلَ ميزانٌ من الحِلْم راجحُ

« توَى : هلك ، وتقرأ : ثوَى والطود : الجبل العظيم ، والحلم : الأناةُ والعقل » وقال بعض العلماء : الأولى : أن يقال فى تأويل الحديث : بسَماعُ صوتِ البكاء هو نفس العذاب ، كما أنّا نعذَّبُ ببكاءِ الأطفال ، فالحديث على ظاهره »

(١) من معلقة طرفة، ومعبد أخوه يوصى ابنة أخيه بأن تشيع خبر هلاكه إذا هو مات ـ بالثناء الذى يستحقه وشق جيبها عليه وبعد البيت :

ولا تجعَليني كامْرِئٍ ليس همُّهُ كهمّى ولا يُغنِى غَنائى ومَشْهَدى

« الهم : الهمة والطموح إلى العلا ، والغناء : الكفاية . والمشهد : الشهود أى ملابسة

من أظهر الندم عند الموت على مافرط منه

لمّا احتُضِر عمرو بنُ العاص جَعَلَ يدَه في موضع الغُلّ «القيد» من عنقه ثم قال : اللهم إنّكَ أمَرْتَنا ففرَّطنا ، ونهيتَنا فركِبْنا ، اللهمّ إنه لا يَسَعُنا إلا رَحْمتُك ، فلم يَزلْ ذلك هِجِّيراه حتى قُبِض ... وقيل لبعض الملوك حين احْتُضِرَ : ما حالك ؟ فقال : ما حالُ مَنْ يُريد سَفَرا بعيدا بلا زاد ، وينزلُ حُفرةً من الأرض مُوحِشةً بلا مُؤْنِس ، ويَقْدَمُ على مَلِكٍ جبّارٍ قد قَدَّمَ إليه العُذْرَ بلا حجّة ! وقال عبدُ الملِك بنُ مَرْوان عند موتِه : وَدِدْتُ أنّي كنت غسّالا آكُلُ كلَّ يومٍ كَسْبَ يَومى لا يَفْضُلُ عنى ... فقيل ذلك لأبى حازم فقال : الحمد لله الذى جعلنا بحيث يتمنّى الملوكُ حالنا عند الموت ولا نتمنّى حالهم ... ولمّا أدْنَف[1] المأمون بن الرشيد أمر أن يُفْرَش له جلٌّ — بساط — فجعل يتمرّغ فيه ويقول :

كلُّ عيْشٍ وَإن تَطاوَلَ دهْرا صائِرٌ مرّةً إلى أنْ يَزولَا
ليْتَني كُنتُ قبْلَ ما قدْ بَدَالِي في رُؤسِ الجبالِ أرْعَى الوُعولَا[2]

وأُغمِيَ عليه ثم أفاق وهو يقول :

لبّيْكُما لبّيْكما ها أنا ذا لَدَيْكُما

اللهم لا بَرِيءٌ فأعتذِر ولا قوىٌّ فأنتصِر

ثم أُغمِي عليه فلما أفاق قال :

إنْ تغفِرِ اللهمّ تغفِرْ جَمّا وأىُّ عبدٍ لكَ لا ألمّا[3]

الحروب والوقائع

(١) أدنف المريض : ثقل مرضه ودنا من الموت.

(٢) الشعر لأمية بن أبى الصلت . والوعول : جمع وعل : تيس الجبل

(٣) لأمية بن أبى الصلت كذلك وألم الرجل من اللمم وهو مادون الكبائر من الذنوب قال سبحانه : الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم وقيل : اللمم : أن يلم المرء بالمعصية ولم يصرّ عليها

وقال أبو جعفر المنصور عند موته : اللهم إنْ كنتَ تعلمُ أنّى قد ارتكبتُ الأمورَ العِظامَ جُرْأةً منّى عليك ؛ فإنك تعلمُ أنى قد أطعتُك فى أحبِّ الأشياءِ إليك : شهادةِ أنْ لا إله إلا أنت ، مَنًّا منكَ لا مَنًّا عليك ... وكان سببُ إحرامِه من الخضراء أنّه كان يوماً نائمًا فأتاه آتٍ فى منامه فقال :

كأنّى بهذا القصرِ قد بادَ أهلهُ وعُرّىَ منْهُ أهلُهُ ومَنازِلُهْ
وصارَ عميدُ القومِ من بعدِ نعمةٍ إلى جدَثٍ تُثْنَى عليه جنادِله
فلم يَبْقَ إلا رَسْمُه وحديثُهُ تُبَكّى عليه مُعْوِلاتٍ حلائلُه [1]

فاستيقظ مَرعوبا ثمّ نام فأتاه الآتى فقال :

أبا جعفرٍ حانتْ وفاتُكَ وانقضتْ سِنُوكَ وأمْرُ الله لابدَّ واقعُ
فهلْ كاهنٌ أعددْتَه أو مُنَجِّمٌ أبا جعفرٍ عنك المنيّةَ دافعُ

فقال : ياربيعُ ائتنى بِطَهُورى ، فقامَ واغتسل وصلّى ولبّى وتجهز للحجّ ، فلما صارَ فى الثُّلُث الأوّلِ اشتدّت علتهُ ، فجعل يقول : ياربيع ألقِنى فى حرَم الله ، فمات ببِئْر ميمون [2] ... وقالوا : لَقِّنْ ميّتَكَ - أى لا إله إلا الله - فإذا قالها فدعْه يتكلم بغيرها من أمرْ الدنيا ولا تُضجِرْه .

من امتنع من التوبة عند موته

اعْتلّ أعرابيٌّ ، فقيل له : لو تُبْتَ ، فقال : لستُ ممن يُعطِى على الذلّ ،

(١) تبكى - بالتشديد - مثل تبكى بالتخفيف ، وحلائله : زوجاته ، ومعولات : رافعات أصواتهن بالبكاء .

(٢) بئر ميمون : بمكة منسوب إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمى .

إن عافانى الله تُبْتُ وإلا مِت هكذا ... وقيل للحجاج : ألا تتوب ؟ فقال : إن كنتُ مسيئا فليستْ هذه ساعةَ التَّوبة ، وإن كنتُ مُحسنا فليست ساعةَ الفزَع

« الفزع : الاستغاثة والاستصراخ ، ولعله يريد : أن وقت الموت ليس وقت الحساب والمجازاة وإنما ذلك يوم الفزع الأكبر - يوم البعث - ولعل المعنى : مادمت محسنا فليس ثمت داع للخوف »

من يحبون الموت

قال عبد الله بن مسعود : « ما من نفسٍ حيَّةٍ إلَّا والموتُ خيرٌ لها ، إن كان برا فإن الله تعالى يقول : وما عِنْد اللهِ خيرٌ للأبرار ، وإن كان فاجرا فإن الله تعالى يقول : وَلا يحْسَبنَّ الذين كفروا أنمـا نُملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذابٌ مُهين (١) وحضرَ أحدَ الصالحين الموتُ ، ففرحَ فقيل له : تستبشرُ بالموت ؟ فقال : أتجعلون قدومى على خالق أرجوه كمقامى على مخلوقٍ أخافه ! وسُئل حكيم عن الموتِ ، فقال : هو فزَعُ الأغنياء وشهوةُ الفُقراء . . وقال بعضهم : لا يكون الحكيم حكيما حتى يعلم أن الحياة تسترقُّهُ والموتَ يُعْتِقُهُ .. وقال المتنبي :

تَغُرُّ حَلاواتُ النُّفُوسِ قلوبَنَا   فتَخْتَارُ بعَضَ العَيْش وَهْوَ حِمامُ

« يقول المتنبي : حُبُّ الحياة يغرُّ القلب حتى يختار عيشًا فيه ذل :

---

(١) قرئ : ولا تحسبن على أنه خطاب للرسول عليه السلام وقرئ ولا يحسبن فالذين فاعل وما فى إنما نملى لهم مصدرية وكان حقها أن تفصل فى الخط ولكنها وقعت متصلة فى الإمام - المصحف العثمانى - فاتبع ، والإملاء : الإمهال وإطالة العمر ؛ وقيل . تخليتهم وشأنهم من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء ، واللام فى قوله سبحانه ليزدادوا إثما لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة

وشَرُّ الحامين الزَّوَامِينِ عِيشَةً ... يَذِلُّ الذى يختارها ويُضامُ »

وقال أيضا :

وما الدَّهرُ أهلٌ أن تُؤَمَّلَ عنده ... حياةٌ وأنْ يُشتاقَ فيه إلى النَّسْلِ

«وقد تقدم»وفى هذه القصيدة يقول المتنبى :

نُبَكِّى لِموتانا على غيرِ رَغْبَةٍ ... تفُوتُ من الدنيا ولا مَوْهِبٍ جَزْلِ

إذا ماتأمَّلْتَ الزمانَ وصَرْفَهُ ... تيَقَّنْتَ أن الموتَ ضَرْبٌ من القَتْلِ

« يقول : نحن نَبْكى على موتانا ونحزَن لهم ونأسَف لفراقِهم ونحن على يقين من أنهم لايفوتهم من الدنيا مايُرغَبُ فى مِثلِه ولا يمتعون منها بمايصحُّ أن يتنافس فى نيله ؛ ثم قال فى البيت التالى : وأنت إذا ماتأمّلت وأنعمت النظر فى تصاريف الدهر وخطوبه تيقَّنْت أن الموت المحتوم على المرء كالذى يتوقَّعُه من القتــل وإذن لاداعىَ للجُبن والذعر ولا مُوجِبَ لحب الحياة والتهافت عليها قال عنترة :

فأجبتُها : إنَّ المنيَّة مَنْهَلٌ ... لابُدَّ أنْ أُسـقَى بذاكَ المَنْهَلِ

فاقْنَىْ حياءكَ لاأبالك واعلمِى ... أنى امرؤٌ سأموتُ إنْ لم أُقتَلِ

« فاقْنَى خباءك : فالزَميه واحفظيه واتخذيه قُنيَة ، وقال الإمام الجنيد : مَن كان حياتُه بنفسه يكون مَماته بذهاب رُوحه ، فتَصْعُبُ عليه ، ومن كان حياته بربِّه فإنه يَنْتَقِلُ من حياة الطبع إلى حياة الأصل ، وهى الحياة الحقيقيَّةُ .

تمنى الموت

قال أعرابىٌّ : خيْرٌ من الحياة ماإذا فقَدْتَه أبغَضْتَ لفقْدِه الحياة ، وشَرٌ

من الموتِ ماإذا نزلَ بكَ أحبَبْتَ لنزولِه الموتَ ... وقال المتنبي :

كَفَى بكَ داءً أن ترى الموتَ شافِيا وحسْبُ المَنايا أنْ يكُنَّ أمانيا

تمنَّيتَها لمّا تمنيت أنْ ترى صَديقا فأعيا أو عدُوًّا مُداجِيا

وقال المُهلَّبي الوزير [1] :

أَلا موتٌ يُباعُ فأشتريه فهذا العيش مالا خيرَ فيه

أَلا موتٌ لذيذُ الطَعمِ يأتى يُخلِّصُنى من العيش الكريهِ

إذا أبصَرْتُ قبراً من بعيدٍ وددْت لوَ انَّنى مما يليهِ

أَلا رَحِمَ المُهَيْمِنُ نفسَ حُرٍّ تَصَدَّقَ بالوَفاةِ على أخيهِ

واعْتَلَّ الشبْلِيُّ ثم برَأَ ، فقال له بعضُ أصحابه كيف أنت :فقال :

كلما قُلتُ : قد دنا حَلُّ قَيدِى قَدَّمُونى وأوْثَقُوا المِسمارَا

الحياة لا تمل

قال حكيم : الحياةُ وإنْ طالت لا تُمَلُّ ، وإنما يَمَلُّ المرءُ تكاليف الحياة ،

(١) كان وزير معز الدولة البويهى ، وكان أديباً فاضلا محبا لأهله وكان قبل اتصاله بمعز الدولة فى ضيق شديد وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره مشقة عظيمة واشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال هذه الأبيات ارتجالا ، وكان معه رفيق يسمى عبدالله الصوفى فلما سمع الأبيات اشترى له بدرهم لحما وطبخه وأطعمه وضرب الدهر من ضرباته وافترقا حتى تولى المهلبي الوزارة وضاقت الأحوال برفيقه هذا فقصده وكتب إليه :

أَلا قلْ للوَزيرِ فدَتْهُ نفسِى مَقالة مُذْكِرٍ ماقد نسيهِ

أتَذْكرإذتقولُ لضنك عيش أَلا موتٌ يباع فأشتريه

فلما وقف على ذلك هزته أريحية الكرم وأمر له فى الحال بسبعمائة درهم ووقع فى رقعته : مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملا يرتفق به

ولهذا فُضِّلَ قولُ زُهَير بن أبي سُلْمَى :

سَئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ثمانينَ حولًا لا أبالكَ يَسْأَمِ

على قول لبيد :

ولقد سئِمتُ من الحياةِ وطولِها وسُؤالِ هذا الناس : كيف لَبِيدُ

« تكاليف الحياة : مشاقُها وشدائدها ، أما لبيد فإنه يكادُ يكون معذورا إذا هو مَلَّ الحياة نفسَها ولِمَ لا وقد عُمِّر حتى بلغ ثلاثين ومائة سنة؟ » وقال المتنبي :

ولذيذُ الحياة أنفَسُ فى النَّـ ـفْسِ وَأشهَى مِن أن يُمَلّ وأحلَى

وإذا الشيخُ قال أفٍ فما مَـ ـلَّ حياةً وإنما الضَّعْفَ مَلاَّ

آلةُ العيشِ صحةٌ وشبابٌ فإذا وَلَّيَا عنِ المرءِ وَلَّى

« وقد تقدمت » ودخل سليمانُ بنُ عبد الملك مسجدَ دِمَشْقَ ، فرأى شيخا ، فقال : ياشيْخُ ، أيسُرُّك أن تموتَ ؟ فقال : لا والله ، قال : ولِمَ وقد بلَغْتَ مِنَ السِّنِّ ما أرَى ! قال : مَضى الشبابُ وشرُّه ، وبقِيَ الشيبُ وخيرُه ، فأنا إذا قعَدْتُ ذكَرت الله ، وإذا قمتُ حمِدت الله ، فأُحِبُّ أن تدومَ لى هاتان الحالتان ...

تسلى الناس عمن مات

قالوا : إذا أردتَ أن تنظرَ الناسَ مِن بَعْدك فانظُرْ إليهم بعدَ مَنْ مات قبْلَك ... وقال أبو العتاهية :

سيُعْرَضُ عن ذِكْرِى وتُنْسَى مودَّتى ويَحْدُثُ بعدِى للخليلِ خليلُ

وقال منصور الفقيه : (١)

(١) هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمى الفقيه المصرى الشافعى

كلٌّ مذكورٍ من النّا سِ إذا ما فقَــدوهُ
صارَ فى حُكمِ حديثٍ حَفِظوه فنَسُــوه

وقال آخر :

هالُوا عليه التُّربَ ثمّ انْثَنَوْا عنـه وخَـلَّوْهُ وأعمــالَه
لمْ يَنقَضِ النَّوْحُ مِن دارِه عليه حتى اقْتَسَمــوا مالَه

سهم المنايا بالذخائر مولع

قال أبو تمام (١)

عليــكَ سـلامُ اللهِ وَقفًا فإنّنى رأيتُ الكريمَ الحُرَّ ليس له عُمْرُ

وقال من أبيات يرثى بنى حميد أيضا :

إنْ يَنْتَحِلْ حدثانُ الموْتِ أنفسَكم ويَسْلم الناس بين الحوض والعَطَنِ
فالمـاءُ ليس عجيبًا أنَّ أعْذَبَه يَفـنَى ويَمتَـدُّ عُمر الآجِنِ الأسِنِ

وقال ابن النبيه المِصْرى من أبيات مختارة نوردها عليك :

النَّاسُ لِلموْتِ كخَيْلِ الطِّرَادْ فالسابقُ السابقِ منها الجوادْ

الضرير، كان فقيها شافعيا وكان أديبا شاعرا متقنا توفى بمصر سنة ٣٠٦ هـ ومن شعره السائر :

لى حِيـلةٌ فيمن ينُمّ وليس فى الكذَّابِ حِيلَه
مَنْ كانَ يَخلُقُ ما يقو ل فحيلتى فيه قليــله

ومنه : إذا تخلَّفْتَ عنْ صَديقٍ ولمْ يُعاتِبْكَ فى التَّخلُّفْ
فلا تَعُدْ بعْدَها إليـه فإنمـا وُدُّه تـكلُّفْ

(١) من مرثيته التى يرثى بها محمد بن حميد الطوسى وأولها :

كذا فلْيَجِلَّ الخَطْب وليَفْدَحِ الأمرُ فليس لعين لم يَفِضْ ماؤُها عُذْر

والله لا يدعو إلى داره . إلا من استصلح من ذي العباد
والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد
والمرء كالظل ، ولا بد أن يزول ذاك الظل بعد امتداد
لا تصلح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجساد هذا الفساد
أرغمت يا موت أنوف القنا ودست أعناق السيوف الحداد

وقال شاعر :

فلا تجزعن من موته وهو ناشئ ولا ينكرن هذا من جرب الدهرا
فكل طويل الجد يقصر عمره كذاك سباع الطير أقصرها عمرا

إنكارهم الشماتة فى الموت

قال عدى بن زيد العبادى :

أيها الشامت المعير بالدهـ ـر أ أنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيا م بل أنت جاهل مغرور

« وقد تقدمت هذه الأبيات » ... وقال شاعر :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

ولما مات الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما دخل عبد الله ابن عباس على معاوية ، فقال له معاوية : يا ابن عباس ، مات الحسن بن على ؟ قال : نعم ، وقد بلغنى سجودك ، أما والله : ما سد جثمانه حفرتك ، ولا زاد

ـــ وقول أبى تمام : إن ينتحل البيتين. فينتحل : يأخذ النفوس نحلة أى عطية ، ولك أن تقرأها ينتخل ، والعطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والآجن : الماء المتغير الطعم واللون ومثله الآسن

انقضاءُ أجَلِه فى عُمرك ، قال : أحسَبُه ترَكَ صِبْيةً صِغارا ولم يَترُكْ عليهم كثيرَ معاش ؟ فقال : إن الذى وكَلَهُم إليه غيرُك ، ... وقال الفرزدق :

فقُلْ لِلشّامِتِين بنا أفيقُوا سيَلْقَى الشّامِتُون كما لقينا

وحَكى المبرّدُ عن بعضهم : أنه شَهِد رجُلا على قبرٍ وهو يُكثِرُ البكاءَ ، فقلت : أعَلَى قريبٍ أو على صديق ؟ فقال : أخَصَّ منهما ، قد كان لى عدوًّا ، فخرج إلى الصيْدِ ، فرأى ظَبْياً فتبِعَه ، فعـثَرَ بالسّهم ، فخرّ هُو والظّبيُ ميّتيْن ، فدُفِنَ ، فانتهيتُ إلى قبْره شامتاً به ، فإذا عليه مكتوبٌ :

وما نحنُ إلا مثلُهُم غيرَ أننا أقمْنا قليلا بعدَهُم وترَحّلوا

فها أنا ذا واقفٌ أبكى على نفسى... ولـمّا مات القَرَزْدَق بكى عليه جَريرٌ ورثاه ، فقيل له : أبَعْدَ تلك العداوة ! فقال : لم أرَ اثنيْن بلغا الغاية ومات أحدُهما إلا ولحِقه الآخر عن كثب، فكان كذلك... وقال سيدنا رسول الله : لا تُظهِرِ الشماتَةَ لأخيك فيعافيه الله ويبتليك ــ أقول : يبدو أن الشماتة ــ وهى أن تفرَح بالبَليّة تنزلُ بمَنْ يُعاديك ــ من الغرائز الإنسانية اللئيمة ، ومن ثَمَّ لم يَنْهَ سيدنا رسول الله عن كوْنِها ــ وجودها ــ وإنما نَهى عن إظهارها ، لأن ذلك هو الذى فى استطاعة المرء، مَثلُها مَثلُ الحسد والظن والطّيَرَة ، ولذلك ورد فى الأثر أيضاً : إذا ظَنَنْتم فلا تحقّقوا ، وإذا حَسَدْتم فلا تَبْغُوا ، وإذا تطيّرْتم فامْضُوا ، وعلى الله فتوكلوا . . يقول صلوات الله عليه : إذا حَسَـدْتم : أى تمنّيْتم زوالَ نعمةِ الله على من أنعمَ عليه فلا تَتعَدَّوْا وتفعلوا مايقتضيه هذا الخلق الذميم ، وإذا ظننتم سُوءا بمَنْ ليس محَلا لسوء الظن به فلا تتحققوا ذلك باتباع مواردِه والعمل على مقتضاه « يا أيها الذين آمَنوا اجْتَنِبُوا كثيرًا من الظنّ إنّ بعْضَ الظنّ إثمٌ » ، والظن أكذَب الحديث ؛ ومن أساء الظن فى غير موضِعه دلّ على عدم

استقامته فى نفسه كما قال المتنبى :

إذا ساء فِعْلُ المرْءِ ساءتْ ظنونُه وصدَّق ما يعتاده مِن تَوَهُّم

أما من كان مَظِنَّةً للظن، بأن كان رجلا شريرا فالحزم سوء الظن والاحتراس والحذر، ثم قال صلوات الله عليه : وإذا تشاءمتم بشىء فامْضُوا طِيَتِكم ولا يلتفت خاطركم لذلك .... وسيمر عليك كل هؤلاء فى «كتاب طبائع المذمومة» ... ومما يتصل بما نحن فيه من الشماتة بالميت ما يُروَى : أنه لما أتى عبدَالله بن الزبير خبرُ قتلِ مُصعَبٍ أخيه احتجَبَ أياماً، فخُبِّرَ بمَجىء قوْمٍ للتعزيةِ، فقال : أكْرَهُ وُجوهاً تُعزِّى ألسِنَتُها وتَشْمَتُ قلوبُها .

لا عار بالموت

قالت ليلى الأخيلية :

لعَمْرُكَ مابالموت عارٌ على امْرِئٍ إذا لم تُصِبْه فى الحياة المَعاير

« المعاير : المعايب والمسابّ يقال : عارَه : إذا عابه ، وتعاير القوم : عَيّر بعضهم بعضا »

الموت نهاية كل حىّ

قال أبو بكر العَنْبرىُّ : كنتُ قاعدا فى الجامعِ فمرّ بى مَعْتوهٌ فأقبل علىّ وقال :

فهَبْكَ ملكْتَ هذا الناسَ طُرا ودانَ لكَ العبادُ فكان ماذا

ألستَ تصيرُ فى لَحْدٍ ويَحْوِى تُراثَكَ عنكَ هذا ثمَّ هذا

وقال الشاعر :

هَبْكَ قد نلْتَ كُلَّ ما تَحمِلُ الأرْ ضُ فهَلْ بعْدَ ذاكَ إلا المَنِيّهْ

وقال القائلُ :

لِدُوا للمَوْتِ وابْنُوا لِلخَرابِ فكُلُّكُمُ يَصيرُ إلى ذَهابِ [1]

وصية الميت

قالوا : كُنْ وَصِيَّ نفسك ولا تجعلِ الرجالَ أوصياءك ، واعلم صدق

(١) جاء في الخزانة للإمام البغدادي ماخلاصته: هذا المصراع ـ لدوا للموت وابنو للخراب ـ هو من أبيات في الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب وهي :

عَجِبْتُ لجازِعٍ باكٍ مُصابٍ بأهْلٍ أوْ حبيبٍ ذِي اكتئابِ
شَقيقِ الجيبِ داعي الويلِ جَهْلا كأن الموت كالشَّيء العُجاب
وسَوَّى اللهُ فيه الخلق حتى نبيَّ اللهِ عنه لمْ يُحابِ
له مَلِكٌ يُنادِي كلَّ يومٍ لِدُوا للموت وابْنُوا لِلخَراب

، نبي الله : مفعول مقدم ليحاب بمعنى يخص ، قال : ورأيت في جمهرة أشعار العرب أنه قد روى أن بعض الملائكة قال ـ وأورد البيت الذي أوردناه ، ثم قال : ولسابق البربري في هذا المعنى :

فللموتِ تَغْذُو الوالِداتُ سِخالَها كما لخراب الدار تُبْنَى المَساكِنُ

هذا : وأما اللام في قولهم للموت فقد سماها الكوفيون لام العاقبة ، مثلها مثل قوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، وأنكر البصريون لام العاقبة قال الزمخشري : والتحقيق أنها لام العلة وأن التعليل فيها وارد على طريق المجاز وذلك أنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا بل المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفعل لأجله واللام مستعارة لما يشبه التعليل كما استعير الأسد لمن يشبه الأسد . انتهى ... وسابق البربري : هو أبو سعيد سابق بن عبد الله من موالي بني أمية ، سكن الرقة ووفد على عمر بن عبدالعزيز ، وله أشعار حسنة في الزهد وليس منسوبا إلى البربر وإنما البربري لقب له ، والسخال في بيته المذكور : جمع سخلة وهي ولد الشاة من الضأن والمعز ، وقد أقام الظاهر مقام الضمير في المصراع الثاني إلا أنه باللفظ المرادف إذ الأصل : كما تبنى المساكن لخرابها .

الذى يقول :

ولا يغرُرْكَ من تُوصِى إليه فقَصْرُ وصِيَّةِ المَرْءِ الضَّياعُ

« قَصْرهُ وقُصاراه أن يَفْعل كذا : أى آخر أمره وغاية جهده هو أن يفعل كذا » ... وقال مالك بن ضيغم : لمّـا احْتُضر أبى قلنا له : ألا تُوصِى ؟ قال : بَلى ، أُوصيكم بمـا أوْصى به إبراهيمُ بَنيه ويعقُوب : « يا بَنِيَّ إن الله اصـطفى لكم الدِّين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مُسلمون » ، وأُوصيكم بصـلةِ الرّحم وحُسْن الجوار وفِعْلِ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنَ المعروف ، وادْفِنونى مع المساكين ...

وقيل لِهَرِم بنِ حِبَّانَ : أوْصِ ، فقال : قدْ صدَقتْنى نفسى فى الحياة ، ما لى شيء أُوصى فيه ، ولـكن أُوصيكم بخواتيم سورة النحل [1] ...

إنكارهم وصية الميت بمـا ليس له

عن سعد بن أبى وقَّاص رضى الله عنه قال : جاء النبيُّ صلى الله عليـه وسـلم يعُودُنِى وأنا بمكة ، وهو يكرهُ أن يموت بالأرْض التى هاجرَ مِنها ، قال : يرْحَمُ الله ابنَ عَفْرَاء [2] ، قلتُ : يارسول الله : أُوصى بمالى كُلّه ؟ قال : لا ، قلتُ : فالشَّـطْرُ ؟ قال : لا ، قلت : الثُّلُثُ ؟ قال : فالثلث ، والثلث كثير ، إنك أن تَدَعَ وَرَثَتَكَ أغنياءَ خَيْرٌ مِن أن تدَعَهُم عالةً يتـكفَّفون فى أيديهم ، وإنك مهما أنفقتَ من نفقة فإنها صدقةٌ ، حتى اللقمـةَ ترفعُها إلى فِى امْرأتك ، وعَسى اللهُ أن يرفعـك فيَنْتفِـعَ بك ناسٌ ويُضَرَّ بك آخرون ،

(١) راجع سورة النحل ، ومن آياتها الكريمة ، الآية الأخيرة : إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

(٢) هو سعـد بن خولة وعفراء أمه ، ويلاحظ أن قول سـعد : وهو يكره الخ التفات من التكلم إلى الغيبة كما سيمرّ عليك

ولم يكن له يومئذ إلا ابنَـةٌ . . . رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم

« وإليك شرح هذا الحديث الشريف : لما كان سيدنا رسول الله بمكة فى حجة الوداع ذهب إلى سـعد بن أبى وقاص ـ وهو الصحابى الجليـل الذى هاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وقد شهِد بدرا والمشاهدَ كُلَّها ، وبشره الرسول بالجنة ، وهو أحد رجال الشُّورى الستة الذين رشّحهم الفاروق للخلافة : وهو قائد جيوش عمر فى فتح العراق ، ثم مات بقصره فى العقيق على مقربة من المدينة سنة ٥٥ هـ بعد أن كُفَّ بصره رضى الله عنه ـ أقول : لما كان الرسول بمكة ذهب إلى سعد يعوده لمرض اشْتَدَّ به حتى أشْفَى على المَوت ، وكان سعد يكره أن يموت بالأرض التى هاجر مِنْها ـ مكة ـ كما مات سعد بن خولة [١] فلما سمع الرسول اسم سعد ابن خولة من ابن أبى وقاص ترحَّم عليه ، وكان لسعد بن أبى وقاص إذ ذاك آبنةٌ واحدة [٤] ثم قال سعد لسيدنا رسول الله ـ كما جاء فى بعض الروايات ـ إنه قد بلغ بى من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ، ولى آبنةٌ واحدةٌ ، أفأُوصِى بمالى كُلِّه ؟ قال الرسـول : لا ، قال : أفأوصى بالنصف ؟ قال : لا ، قال : أفأُوصى بالثلُث ؟ قال : فالثلثُ توصى به ، والثلث كثير ، ثم قال الرسول : ـ مُبينا عن الحكمة فى ترك الوصية بالكثير إلى الوصية بالقليـل : إنَّ تركَ ورَثَتِك أغنياءَ خيرٌ من تركهم فقراء يمدُّون أكفَّهم إلى الناس مُسْتَجْدِين . .

(١) من المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرا وقد توفى بمكة فى حجة الوداع وأمه عفراء كما تقدم

(٢) أما بعد أن برئ من هذا المرض بفضل دعوة الرسول فقد عاش كثيرا كما قلنا ورزقه الله من الذرية بضعة عشر ابنا واثنتا عشرة بنتا .

ثم بين الرسول أن كل ما يُنفقه على زوجه أو ولده أو أقاربه أو خَدَمه صدقةٌ ولو كان قليلا، حتى اللقمة يرفَعُها إلى فم امرأته، يريد صلوات الله عليه: أن المرء إن استقلَّ أمر الوصية بالثلث أو مادونه فليَسْتكْثره بالإنفاق، والأقربون أولى بالمعروف، فإن امتدّت به الحياة فليَسْلك هذا الطريق، ثم رَجا لهُ الرسول أن يَبْرَأ وتطول حياته ويرتفِعَ شأنه حتى ينتفع به أناس ويستضرّ به آخرون، وقد تحقق هذا كُله حتى عَزّ به الإسلام. هذا الوصية بالثلث فأقل قد استقر عليه الإجماع إذا كان هناك ورثة واختلفوا فيمن ليس له وارث «راجع كتب الفقه»... وعن أبي هُريرة: قال رجل للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: يارسول الله، أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: أن تَصدَّقَ وأنت صحيحٌ حَرِيصٌ تأمُلُ الغِنَى وتخشى الفقرَ ولا تُمْهِل حتى إذا بَلغَتِ الْحُلقُومَ قلتَ: لِفلان كذا ولفلان كذا... وفي الأثر أيضاً: مَثلُ الذى يُعتق ويتصدق عندموته، مثل الذى يُهدِى إذا شَبِع... وقال بعض الصالحين عن بعض المُترفين: يَعْصُون الله فى أموالهم مَرَّتين، يَبْخَلون بها وهى فى أيديهم ـ يعنى فى الحياة ـ ويسرفون فيها إذا خَرَجتْ من أيديهم ـ يعنى بعدالموت.

من أوصى بِشَرّ وكان قاسيا

لمَّا حضرت الحُطيْئةَ الوَفاةُ اجتمع إليه قومُه فقالوا: ياأبا مُليكة: أوصِ؛ فقال: وَيْلٌ للشِّعْر من راوية السُّوء؛ قالوا: أوْصِ رحمك الله ياحُطيُّ؛ قال: مَن الذى يقول:

إذا أنْبَضَ[1] الرامون عنها تَرَنّمَتْ ترنُّمَ ثَكلَى أوجعتْها الجنائزُ؟

(١) أنبض القوس وأنضبها: جذب وترها لتصوت

قالوا : الشَّمّاخ ؛ قال : أبلغوا غَطَفان أنه أشعرُ العرب ؛ قالوا : وَيْحَكَ ! أهذه وصيَّة ! أوْصِ بما ينفعُك ! قال : أبلغوا أهلَ ضابئٍ [1] أنه شاعرٌ حيث يقول :

لِكلِّ جديدٍ لَذَّةٌ غيرَ أنني رأيتُ جديدَ الموتِ غيرَ لذيذ

قالوا : أوصِ ويحك بما ينفعك ! قال : أبلغوا أهلَ آمرئِ القيس أنه أشعرُ العرب حيث يقول :

فيالَكَ من ليْلٍ كأنَّ نجومَهُ بكلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّت بيَذْبُلِ [2]

قالوا : اتَّقِ الله ودَعْ عنك هذا ؛ قال : أبلغوا الأنصارَ أنَّ صاحبهم [3] أشعرُ العرب حيث يقول :

يُغْشَوْن حتى ماتَهِرُّ كِلابُهم لا يَسْألون عن السَّواد المُقْبِلِ

قالوا : هذا لا يُغْنِي عنك شيئا ، فقلْ غيرَ ماأنتَ فيه ؛ فقال :

الشِّعْرُ صعبٌ وطويلٌ سُلَّمُهُ إذا آرتقَى فيه الذى لا يَعْلَمُهُ
زَلَّتْ به إلى الحَضِيض قَدَمُه يريدُ أن يُعرِبَه فيُعْجِمُه [4]

قالوا : هذا مِثل الذى كنتَ فيه ؛ فقال :

قد كنتُ أحياناً شديدَ المعتَمَدْ وكنتُ ذا غَرْبٍ [5] على الخَصْمِ أَلَدّ

(١) هو ضابئ بن الحارث البرجمى الشاعر من بنى تميم

(٢) من معلقته ، ومغار الفتل : محكمه ، وهو اسم مفعول من أغار الحبل إغارة : شد فتله ، ويذبل : جبل

(٣) هو حسان بن ثابت الأنصارى شاعر سيدنا رسول الله وقد تقدم شرح هذا البيت

(٤) الفاء هنا للاستئناف ، والمعنى : فإذا هو يعجمه ولا يصح نصبه عطفا على قوله « يعربه »

(٥) الغرب : الحد ومنه غرب السيف : حده

* فوَرَدَتْ نفسي وما كادت تَرِدْ [1] *

قالوا : ياأبا مُلَيكة ، ألك حاجة ؟ قال : لاوالله ، ولكن أجزَع على المديح الجيِّد يُمدَح به من ليس له أهلا . قالوا : فمَنْ أشعر الناس ؟ فأَوْمأ بيده إلى فيه وقال : هذا الجُحَيْر إذا طمِعَ فى خير (يعنى فمه) وآستعبَرَ باكيا ؛ فقالوا له : قل لاإله إلا الله ؛ فقال :

قالت وفيها حَيْـدَةٌ وذُعْـرُ   عَوْذٌ بربِّى منكمُ وحُجْرُ [2]

فقالوا له : ماتقول فى عبيدك وإمائك ؟ فقال : هم عبيدٌ قِنٌّ ماعاقبَ الليلُ النهارَ ؛ قالوا : فأَوْصِ للفقراء بشىء ، قال : أوصيهم بالإلحاح فى المسئلة فإنها تجـارةٌ لاتبُورُ ، وآستُ المسئول أضيق [3] . قالوا : فما تقول فى مالك ؟ قال : للأنثى من ولدى مثل حظ الذكر . قالو ليس هكذا قضى الله جلّ وعز لهنَّ ، قال : لكنِّى هكذا قَضَيتُ . قالوا فما توصِى لليتامى ؟ قال : كُلوا أموالهم وانكحوا أمَّهاتِهم ؛ قالوا : فهل شىء تَعْهَدُ فيه غيرُ هذا ؟ قال : نعم ، تحمِلُونى على أتانٍ وتتركونى راكبَها حتى أموتَ ، فإن الكريمَ لايموتُ على فراشه ، والأتانُ مَرْكَبٌ لم يمُتْ عليه كريمٌ قطُّ ؛ فحملوه على أتانٍ وجعلوا يذهبون به ويجيئون عليها حتى مات وهو يقول :

---

(١) وردت : أشرفت ، يقال : ورد فلان بلد كذا إذا أشرف عليه وإن لم يدخله ولعله يريد من الورود : الإشراف على الموت

(٢) حيدة : من حاد عن الشىء إذا صد عنه أو تغير خوفا منه ، وحجر : أى دفع ومنع ، والعرب تقول عند الأمر تنكره : حجراً له ، (بالضم) : أى دفعا

(٣) هذا كناية عن العجز ، يقال للرجل يستضعف : استك أضيق من أن تفعل كذا ، ويقال للجماعة أنتم أضيق أستاها من أن تفعلوا كذا .

لاأحدٌ ألأَمُ من حُطيَّهْ هجا بنيـهِ وهجا المُرَيَّهْ
* من لُؤمهِ ماتَ على فُرَيَّهْ *

« المريه : تصغير مَرَة - امرأة - يريد : زوجته ، والفرية يريد الفرا أي الحمار »

نهيهم عن الإفراط فى البكاء وإظهار الجزع

دخلت أعرابيةٌ الحَضَرَ فسمعت بُكاءً من دار فقالت : ماهذا ؟ أراهم من ربهم يَستغيثون ، ومن استرجاعه يتَضَجّرون ، ومن جزيل ثوابه يتبرّمون ...
وقال أبو سعيد البَلْخي . مَن أصابَتْه مصيبة فأكثَرَ الغمَّ جعل الله عُقوبتَه غمًّا مِثْلَه ، قال الله تعـالى : فأثابَكم غمًّا بغَمٍّ لـكيلا تحزَنوا ... الآية ..

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليـه وسلم : ليس مِنّا مَن لَطم الخدود ، وشَقَّ الجيوب ، ودعا بدَعوى الجاهلية ... « ودعا بدعوى الجاهلية : أي من نحو قولهم : واأبتاه ، واأمّاه ، واولداه ، وامصيبتاه ، ونحو ذلك من ضروب النياحة والنُّدْبة ... » أما البكاء والجزع دون إفراط فمُرَخَّص فيه ، حدّث أنس بن مالك قال : دخَلْنا على أبي سَيْف القين [1] - وكان ظِئْراً لإبراهيم عليه السلام [2] ، فأخذ رسولُ الله صلى الله عليـه وسلم إبراهيمَ ، فقبّله وشمّه ، ثم دَخَلْنا عليه بعـد ذلك وإبراهيم يجودُ بنفسه ، فجعلَت عينا رسول الله تذرِفانِ فقال له عبدُ الرحمن بن عوف

---

(١) هو البراء بن أوس زوج أم بردة خولة بنت المنذر مرضع إبراهيم بن سيدنا رسول الله . والقين : الحدّاد

(٢) الظئر : المرضع وأطلق عليه ذلك لأنه كان زوج المرضعة

رضى الله عنه: وأنتَ يا رسولَ الله ! فقال: يا ابن عَوْف، إنها رَحْمةٌ، ثم أَتْبَعَها بأخرى — أى أَتْبَع الدمعةَ الأولى بأُخرى — وقال صلوات الله عليه: إن العَيْنَ تَدْمَع، والقلبَ يَحْزَن، ولا نقول إلا ما يُرضِى الله، وإنّا بفراقك يا إبراهيمُ لمحزونون... « قوله صلوات الله عليه: ولا نقول إلا ما يرضِى الله وفى رواية: ولا نقول ما يُسْخِطُ الرب: أى من النياحة والصراخ وما إلى ذلك مما يوجب سُخْطَ الله عز وجل » وقيل لأعرابى: اصْبِرْ فالصَّبْرُ أجرٌ، فقال: أعَلَى الله أتجلَّد! والله: لَلجَزَعُ أحبُّ إليه، لأن الجزَعَ استكانة والصَّبْرَ قَساوَة ... وقيل لفيلسوف: أخرِجِ الحُزْنَ من قلبك فقال: لم يَدْخُلْهُ بإذْنِى فأُخرِجُه بإذنى ... وأفرَطت امرأةٌ فى الجزَع على ابنِها، فعُوتِبَتْ فى ذلك، فقالت: إذا وَقَعَ حُكمُ الضَّروريات لم يقع عليها حُكمُ المكتَسَبات، فأما جزَعِى فليس فى الطاقة صَرْفُه، ولا فى القُدرةِ مَنْعُه، ولِى عُذرٌ للضرورة، فإن الله تعالى يقول: فَمَنِ اضْطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عاد فلا إثمَ عليه ...

فى البكاء تخفيف من الحزن

قال ابن عباس رضى الله عنه: كنت إذا أصابتنى مُصيبةٌ وأنا شابٌّ لا أبكى، وكان يُؤذِينى ذلك، حتى سمعت أعرابيا يُنْشِدُ:

لعَلَّ انحِدارَ الدَّمعِ يُعقِبُ راحةً من الوَجْدِ أوْ يَشْفِى شَجىَّ البلابِلِ

فسألتُه لِمَن الشعر؟ فقال: لِذى الرُّمّة، فكنتُ إذا أُصبتُ بكيتُ، فاستَرَحتُ....

ضعف بِنية الإنسان

سُئل جالينوسُ عن الانسان فقال: سِراجٌ ضعيف، وكيف يدومُ ضَوْؤه

بين أرْبَع رياح ! « يعنى بالسراج : رُوحَه ، وبالرياح الأرْبَع : طبائعَهُ[1] ،
وقال الشاعرُ لَبيد :

وما المرءُ إلا كالشِهابِ وضَوئِهِ يحورُ رَماداً بعد إذْ هو ساطِعُ

« كل شيء تغيّر من حال إلى حال فقد حارَ يحور حورا » وقال أفلاطون :
إذا كانت الطينة فاسِدةً والبِنْيةُ ضعيفةً ، والطبائع مُتَنافيةً ، والعُمُرُ يسيراً ،
والمَنِيّةُ صادِقةً ، فالثِقةُ باطلة ...

استنكافهم من أن يموت المرء حتف أنفه

قال خالد بن الوليد : لقد لقِيت كذا وكذا زَحْفاً ، وما فى جَسَدى
مَوضِعُ شِبْرٍ إلا وفيه طَعْنَةٌ أو ضَرْبَةٌ أو رَمْيَةٌ ثم ها أنا ذا أموتُ على فِراشى
حَتْفَ أنفى ، فلا نامت أعْيُنُ الجُبَناء . وقال الشَنْفَرَى :

---

(١) قال وهب بن منبه : قرأت فى التوراة : أن الله عز وجل حين خلق آدم ركب جسده من أربعة أشياء ، ثم جعلها وراثة فى ولده ، تنمى فى أجسادهم وينمون عليها إلى يوم القيامة : رطب ، ويابس ، وسخن ، وبارد ، قال : وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلقه من تراب وماء ، وجعل فيه نفسا وروحا ، فيبوسة كل جسد من قبل التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع أخر وهى ملاك الجسد لا يقوم الجسد إلا بهن ، ولا تقوم واحدة منهن إلا بالأخرى : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم الرطب الحار ، والبلغم البارد ، ثم أسكن بعض هذا الخلق فى بعض ، فجعل مسكن اليبوسة فى المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة فى الدم ، ومسكن البرودة فى البلغم ، ومسكن الحرارة فى المرة الصفراء ، فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع وكانت كل واحدة فيه وفقا لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت بنيته . فإن زادت واحدة منهن غلبتهن وقهرتهن ومالت بهن ، دخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر ما زادت وإن كانت ناقصة عنهن ، ملن بها وعلونها ودخلن عليها السقم من نواحيهن : لقلتها عنهن حتى تضعف عن طاقتهن وتعجز عن مقاومتهن .

ولا تَقْبِرُونى إنّ قبرى مُحَرّمٌ عليكم ولكنْ أبشِرى أمَّ عامِرِ (١)

وقال السموأل أو غيره :

وما مات منا سيِّد حَتفَ أنفه ولا طُلَّ مِنا ـ حيث كان ـ قتيل

تسيل على حد السيوف نفوسُنا وليس على غير السيوف تسيل

«طُلَّ : أُهدر دمُه، وقيل : أن لا يُثْأَرَ به وتقبل ديته» وقال أبو تمام :

لولم يَمُتْ تحتَ أسيافِ العِدَا كرَماً لَمَاتَ ـ إذ لم يَمُتْ ـ من شدّة الحَزَنِ

وقال آخر :

إنّ موتَ الفِراشِ ذُلٌّ وعارٌ وهْوَ تحتَ السيوفِ فضلٌ شريف

وقال : ✿ وأَتعَبُ ميْتٍ من يمُوت بداء ✿

وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم فى هذا المعنى، فى « باب الشجاعة »

تمّ الجزء الأول

من الذخائر والعبقريات

---

(٢) أم عامر وأم عمرو : كنية الضبع ، قال الراجز :

ياأمّ عمرٍو أبشِرى بالبُشْرى موتٌ ذرِيعٌ وجَرادٌ عَظْلَى

وهم يزعمون أن الضبع من أحمق الدواب : لأنهم إذا أرادوا صيدها يجيء الرجل إلى وجارها فيسد فمه بعد ماتدخله لئلا ترى الضوء فتحمل الضبع عليه فيقول لها : أبشرى ياأم عامر بجراد عظلى وكمر رجال قتلى . فتذل له حتى يلقمها ثم يجرها ويستخرجها ، جراد عظلى : ركب بعضها بعضا كثرة ؛ وأصل العظال : الملازمة فى السفاد من الكلاب والسباع والجراد ، وقولهم وكمر رجال قتلى ، فإنهم يزعمون أن الضبع إذا وجدت قتيلا قد انتفخ غرموله ألقته على قفاه ثم ركبته قال عباس بن مرداس :

ولو مات منهم من جرحنا لأصبحت ضباع بأعلى الرقمتين عرائسا

فهرس

الجزء الأول من الذخائر والعبقريات

المقـــدمة

الكتاب الأول

فى الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا

الباب الأول فى البر والتقوى

البر وألوانه

بر الوالدين وصلة الرحم وعبقرياتهم فى الآباء والأبناء والأقارب ـ من بابات شتى

الإحسان

وعبقرياتهم فى الجود واصطناع المعروف وقرى الأضياف وذم البخل والسؤال

السؤال وعبقرياتهم فيه من جميع نواحيه

حسن الخلق

التقوى

الباب الثانى

فى الشكر والحمد والثناء

الباب الثالث

فى الصبر وعبقرياتهم فيه وفى الدنيا وفى المرض وفى هاذم اللذات

تصحيحات واستدراكات

نرجو القارئ الكريم أن يبادر إلى تصحيح هذه الأخطاء

المطبعية التي ننبه إليها هنا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢٠	٤	فاهاً	فَاهَا
٢٣	٣		إلا قول خالد لأبي ذؤيب « أنظر الأغانى فقد جاء فيها « ج ٦ ص ٢٧٥ » أن البيت لأبي ذؤيب وهناك بقية الأبيات وهي قصيدة جميلة
١	٣٣	مع الوضم	على الوضم
٥	٤٢	فزَعت	فزِعت
٣ و٤	٤٣	وقوله ولم تك منهم الخ	وقوله لست منهم يروى * إذا كنت في قوم عِدّى ولم تك منهم *
٥	٤٣	فأما قوم عِدى	فأما قوم عدى بمعنى أعداء
٦	٦٠	في الغُبار	من الغبار
١١	٧٠	وقال آخر	وقال بشار بن بُرد
١٢	٧٠	وتهلع	وتفرق
٢	٧١	يَئُس	يَئِس
١٢	٧٤	مع غيرَ	مع غيرِ
١٤	٧٨	بعض الشعراء	عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
١٥	٧٨	وأنفق إذا أنفقت	وأنفق إذا أيسرت غير مُقَتّر

سطر	صفحة	خطأ	صواب
«	٧٨	سقط فى هذه الصفحة شرح لقول الشاعر سطر ١٦ : على ماخيّلت ، وهذا هو الشرح : على ماخيّلتْ : أى شَبَّهت ولونت ، يريد : على أى حال »	
٦	٨٤	والجودَ	والجودِ
١٥	١١٩	تدهده	تُهْدهد « أى تصوت كما يهدهد البعير ويهدر »
٢١	١٤٧	عذرتها	عذرت
٧	١٥٩	صقيل	صَيْقَلُ
٥	١٩٥	بخُوَيِّصَة	بخُوَيْصَّةٍ « ويوضع بعد كلمة تصغير خاصة فى الشرح هذه الزيادة : قال الزمخشرى : الخويصة تصغير خاصة بسكون الياء لأن ياء التصغير لاتكون إلا ساكنة وجوز التقاء الساكنين فيها أن الأول حرف لين والثانى مدغم »
١٥	١٩٦	وكلُ شىء	وكلِّ شىء
١٩	٢٠٢	ماأوليتنيها	ما أوليتنيه
٢٠	٢٠٠	قول البحترى	قول إبراهيم بن العباس الصُّولى
١٩	٢٠٤	مُنْكَشِفًا	مُنْكَشِفَا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢	٢٢١	وفى هادم اللذات	وفى هادم اللذات وفى المرض
٢٠	٢٢٢	ونضوًا	نَضْوا ونُضُوًّا
١٣	٢٢٩	مُسْتَهْدَف	مُسْتَهْدِف
١٨	٢٥٥	والضيف مُرْتَحَل	والضيف مُرْتَحِل
١٩	٢٥٥	ثم تَرُدُّه	ثم تَرُدُّه
٦	٢٧٠	أقول لعله	قوله نزاع ... ألبيت لعله
٢	٢٨٣	لا يَلْبَثُ القُرناء	لا يُلْبِثُ القرناءَ
١٣	٢٨٨	ويروى تخونه	ويُروَى : تَخَوَّفَهُ
١٥	٣٠١	خباءك	حياءك